تيسير التفسير

لقطب الأئمة

الشيخ الحاج امحمد بن يوسف اطفيش

(ت: 1332هـ / 1914م)

تحقيق وإخراج

الشيخ إبراهيم بن محمد طلاي

بمساعدة لجنة من الأساتذة

الجزء الثامن

من الآية 51 من سورة النحل إلى آخر سورة الكهف

الطبعة الثانية

1439 هـ - 2018 م.



تيسير التفسير
الجزء الثامن



الطَّبعة الثَّانية

مزيدة ومنقَّحة

1439هـ / 2018م

سلطنة عُمان ـ ص.ب.: 668 مسقط، الرمز البريدي: 100
هاتف: 24641300 / 24641325، فاكس: 24641331
البريد الإلكتروني: info@mhc.gov.om
موقع الوزارة على الإنترنت: www.mhc.gov.om



لِقُطب الأئمّة

الشيخ الحاج امحمّد بن يوسف اطفيّش

(ت: 1332هـ / 1914م)

تحقيق وإخراج

الشيخ إبراهيم بن محمّد طلاّي

بمساعدة لجنة من الأساتذة



من الآية 51 من سورة النحل إلى آخر سورة الكهف



تخريج الأحاديث ووضع التراجم:

أ. أحمد بن حمو كروم

أ. عمر بن أحمد بازين

الرقن والفهرسة ومتابعة الطبع:

أ. مصطفى بن إبراهيم طلاي

تدقيق النص ومتابعة الطبع:

د. مصطفى بن محمد شريفي

ساعد في التدقيق:

أ. محفوظ بن صالح ترشين

16

تابع تفسير سورة النحل

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (51) وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (52) وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (53) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (54) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (55) وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ (56) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ (57) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (58) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (59) لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (60) وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (61) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ (62)﴾

مناقشةُ عقائد المشركين، وأعمالُهم القبيحة

﴿وَقَالَ اللَّهُ﴾ عطف على «وَلِلَّهِ يَسْجُدُ»، أو على «أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ» ﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾ لا تعبدوا ﴿إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ نعت «إِلَٰهَيْنِ»، أو: لا تجعلوا

إلهين اثنين معبــودا، أو: لا تصيِّرُوا اثنين إلهيــن، فـ«اثْنَيْنِ» مفعول أوَّل و«إِلَهَيْنِ» ثان.

وذكر «اثْنَيْنِ» مع أنَّ لفـظ «إِلَهَيْنِ» للاثنين إيماء إلــى أنَّ المراد بالذات نفي التعدُّد لا جنس الأُلوهِيَّــة، وإلى أنَّ الأثنينية تنافي الأُلوهِيَّــة، لأنَّا لو فرَضنا تعدُّد الواجب لاشتركا في الوجوب وتبايَنَا بالتعيين، وما به الاشتراك غيرُ ما بِهِ المباينة، فكلٌّ منهما مركَّب من جزئين، والمركَّب ممكن، والإله واجب لا ممكن.

﴿**إِنَّمَا هُوَ**﴾ أي الإله هكـــذا، أو الله ﴿**إِلَهٌ وَاحِدٌ**﴾ لفظ «إِلَهٌ» للوحدة، ومع ذلك ذكر لفظ «واحد» ليدلَّ على أنَّ المراد بالـــذات إثبات الوَحْدَانِيَّة، وعلى أنَّ الوحدة من لوازم الأُلوهِيَّة، و«اثْنَيْنِ» و«وَاحِدٌ» توكيدان لفظيَّان، وما ذكرته في بيان الإتيان بهما لا ينافي أن يكونا توكيدين لفظيين في اصطلاح النحو، فلا تهم. ﴿**فَإِيَّايَ**﴾ لا غيري ولا مع غيري ﴿**فَارْهَبُونِ**﴾.

[نحو] ياء المتكلِّم المدلول عليها بنون الوقاية حتَّى كأنَّها مذكورة هي شاغلة عن أن يكون منصوبا بـ«ارْهَبُونِ» فهو منصوب على الاشــتغال، والتقدير: فإيَّاي ارهبوا فارهبون، وزعم بعض أنَّــه فُصل وقدِّم وبقيت النــون، وهو غلط، والفاء الثانية لزيــادة تأكيد الارتباط والتفريــع، فإنَّ ما تقدَّم من الوحــدة يوجب الرهبة ففرَّعها عليها بالفاء تصريحا بطريق التكلُّم بعد صيغــة الغيبة، وكأنَّه قيل: أنا الله الواحد، وأنا ذلك الواحد إله فارهبون وحدي، إذ لا مشارك لي في وصفٍ مَّا.

والترهيب من الحاضر المواجِهِ أبلغ منه من الغائب، ولذلك انتقل الكلام عن الغيبة إلى التكلُّم. وقدَّر بعضٌ: إن رهبتم شيئا فإيَّاي ارهبون.

﴿**وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالَارْضِ**﴾ عطف على «إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ» أو على «إِلَهٌ» من تقديم الخبر المفرد على الجملة. و«مَا فِي السَّــمَاوَاتِ وَالَارْضِ» شــامل لهما وما فيهما، كما تقول: ملكت ما في عبدي، أي: أجزاءه، فهو مالكهما وما فيهما بخلقه لهما ولما فيهما، وتصرُّفِه فيهما وفيما فيهما.

﴿وَلَهُ الدِّينُ﴾ العبادة، أو الجزاء ثوابا وعقابا ﴿وَاصِبًا﴾ حال من المستتر في «لَهُ» ومعناه: لازما، فإنَّ عبادته لازمة لا تنقطع، ما دام الإنسان مكلَّفا بها، لأنَّ كلَّ ذي وصف يزول عنه وصفه بموت أو غيره.

[أصول الدين] والله لا يزول وصفه بالأُلوهِيَّة وسائر صفاته المستحقِّ هو بها أن يعبد، وكذلك ثوابه وعقابه لا يزولان في الآخرة، إلَّا أنَّ اقتضاء كونه واحدا كون الجزاء له ﷻ إنَّما هو بمعونة كون العبادة مختصَّة به؛ أو معناه: دائما، ومأصدق اللزوم والدوام واحد؛ أو معناه: واجبا، وكلُّ ذلك وارد في اللغة، ومعنى وجوب جزائه أنَّه موعود به لا يتخلَّف.

أو معناه: ذا وصب أي تعب، وعليه فهو للنسب كـ«لَابِن» و«تَامِر»، فالمعنى: وله العبادة ذات كلفة، وفي التكليف أتعاب، وأمَّا الجزاء فلا يوصف بالتعب، إلَّا إن أريد به الثواب، فإنَّه يكون بالتعب. وشاع في «وَاصِب» معنى اللزوم والدوام، وذلك أنسب بالمقام، وكذا معنى الوجوب.

﴿اَفَغَيْرَ اللّٰهِ تَتَّقُونَ﴾ توبيخ وإنكار لأن يكون عبادة غيره صوابا، مع أنَّه الإله الحقُّ لا غيره، المتفرِّد بالوحدة الذي لا يملك الضرَّ ولا النفع سواه، كما قال: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّٰهِ﴾ لا من غيره، فلا عبادة إلَّا له تعالى. والواو للحال: كيف تتقُّون غير الله والحال أنَّ نعمكم من الله؟ أو للعطف على «إِلَه». وقدِّم «غير» لأنَّ المُنكَر تقوَى غَيْرِ اللّٰهِ تعالى لا مطلق التقوى، فأَولِيَ الهمزة لذلك لا للاختصاص، فضلا عن أن يقال: إنكار تخصيص التقوى بغيره سبحانه لا ينافي جوازها، بل يجوز [أن نقول:] إنَّ التقديم لاختصاص الإنكار لا لإنكار اختصاص. ودخل في النعمة إزالة الضرِّ بعد وقوعه، ودفعه قبل وقوعه.

[تمجيد الله] **الحمد** لله الذي لا ينسى من ذكره، **والحمد** لله الذي لا يخيب من رجاه، **والحمد** لله الذي من وثق به لا يكله إلى غيره، **والحمد** لله الذي يجزي بالإحسان إحسانا ويجزي بالصبر نجاة وغفرانا، **والحمد** لله الذي

يكشــف ضرَّنا بعد كربنا، و**الحمد** لله الذي هو ثقتنا حين يسوء ظنُّنا بأعمالنا، و**الحمد** لله الذي هو رجاؤنا حين تنقطع الحيل عَنَّا.

[نحو] و«مَا» إمَّا شرطيَّة يقدَّر فعل الشرط بعدها هكذا: وما يثبت بكم من نعمة، والباء للإلصاق أو بمعنى مع، وفي ذلك حذف فعل الشرط بلا اشتغال، مثل حذفه بالاشتغال في قوله تعالى: ﴿وَإِنَ اَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة التوبة: 6] وإن زيدا ضربته، وبلا تقدُّم «إن»، ولا مِثْلَ قولِه:

[فطلِّقها فلست لها بــكــفء] وإلَّا يَعْــلُ مفْرقــك الحســام

وَإِمَّا موصولة، و«بِكُمْ» صلتها، ويقدَّر فعل الاستقرار وقد ناب عنه «بِكُمْ» ولا نائب عن فعل الشرط والموصولة أولى هنا.

[نحو] والفاء في خبرها لشــبهها بالشــرطيَّة في العموم، لكن لا يتوقَّف الخبر على صلتها لأنَّ النعم من الله كانت معهم أو لم تكن، والجواب متوقِّف على الشــرط، ويجاب: بِأَنَّ الآية جيء بها لإخبار قوم لهم نعم جهلوا معطيها أوشــكُّوا فيه، أو ذهلوا عن أنَّ لها معطيــا، أو علموه ولم يعملــوا بمقتضاه، فاستقرارها مجهولة أو مشكوكة سببٌ للإخبار بكونها من الله سبحانه، وأيضا اتِّصَالها بهم سببٌ للعلم بأنَّها من الله.

﴿**ثُمَّ إِذَا مَسَّــكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْئَرُونَ**﴾ ثمَّ للترتيب فــي الرتبة بمعنى: إنَّ جؤاركم ـ أي تضرُّعكم ـ إلى الله وحده حال لحوق الضرِّ بكم ينافي ويناقض جدًّا عبادتَكم غيرَه. و«الضرُّ»: الفقر والجدب والمرض. والجؤار: رفع الصوت بالدعاء في التضرُّع والاســتغاثة. وكان الشــرط «إِذَا» لا «إن» للجري على ما اعتيد عندهم وعند غيرهم من وقوع الضرِّ، كما أنَّه اعتيد كشفه فجيء بـ«إِذَا» في قوله: ﴿**ثُــمَّ إِذَا كَشَــفَ**﴾ أزال ﴿**الضُّــرَّ عَنكُــمُۥٓ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُــم بِرَبِّهِمْ يُشْــرِكُونَ**﴾ «ثمَّ» للترتيب الرتبــي، بمعنى: إنَّ رجوعكم إلى الإشــراك بعد تضرُّعكم إلى الله وزوال الضرِّ مناقض جِدًّا لتضرُّعكم إلى الله في كشف الضرِّ.

وذلك الفريق هم كفَّاركم، والخطاب للمؤمنين[1]، و«مِن» للتبعيض لاتِّفاق المؤمنين والمشركين بالنسب والبلد، كما أضيف الكُفَّار إليهم لهذه الملابسة، وإن جعلناه للمشركين فهي للبيان، أي فريق هم أنتم، أو تجريد للمبالغة، أو للتبعيض باعتبار البعض، كقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ [سورة لقمان: 32]. والخطاب في «بِكُم» للمؤمنين وَالكُفَّار، فإنَّ المؤمنين أيضا لا يعبدون ولا يحمدون حقَّ العبادة وحقَّ الحمد.

﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَاهُمْ﴾ اللام للعاقبة، كأنَّهم قصدوا بشركهم كفران النعمة بإضافتها إلى أصنامهم.

[بلاغة] لَمَّا صار شركهم مؤدِّيا إلى كفران النعمة صار كفرانها كأنَّه غرض لهم مطلوب بإشراكهم، وذلك تشبيه لعاقبة الشيء بعلَّته الباعثة، وذلك استعارة تبعيَّة، ويجوز أن تكون للسببيَّة، أي يشركون بسبب كفرهم النعمة بعدم شكرهم، أو الكفر اعتقاد أنَّ النعمة ليست من الله سبحانه.

ويجوز أن تكون لام الأمر للغائب تهديدا، وعليه يكون قوله: ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾ على طريق الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، على أنَّه أمر تهديد باجتماعهم على عبادة الأوثان، معطوف على «لِيَكْفُرُواْ»، ويجوز أن يكون فعلا ماضيا عطفا للماضويَّة على المضارعيَّة وهو «يُشْرِكُونَ»، فيكون قوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عاقبة أمركم تبعا للخطاب في «تَمَتَّعُوا» على أنَّه أمر، وعلى أنَّه ماض يكون على طريق الالتفات إلى الخطاب من الغيبة، وذلك كلُّه من الله.

وقد يجوز أن يكون من كلامه ﷺ على تقدير القول: قل لهم يا محمَّد ﴿فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عاقبة الإشراك وكفران النعمة، ولا داعي إلى هذا، وعلى الأمر باللام وأمريَّة «تَمَتَّعُوا» يكون هنا ثلاث وعيدات، وأغلظها الثالث

(1) في نسخة ب: «والخطاب للمؤمنين والكافرين».

إذ لا يدرك كنهه بالكلام بل بالإصابة، وهو ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تَعَقَّبَهُ بما يعيبه عليهم دينا وعرفا أدنى عاقل اعتبر، إذ قال:

﴿**وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ**﴾ «مَا» واقعة على الأصنام ورابطها محذوف، والواو للمشركين، أي ويجعلون للأصنام التي لا يعلمونها آلهة تحقيقا ولا شافعة ولا ضارَّة ولا نافعة ولو توهَّموها آلهة، أو لأصنام لا يعلمونها آلهة ولا ضارَّة ولا نافعة ولا شافعة، فيجوز لما لا يعلمونها ولما لا يعلمونه، مراعاة للفظ «مَا» ومعناها؛ أو الواو لـ«مَا» تنزيلا للأصنام منزلة العقلاء اعتبارا لِمَا عندهم، فالرابط الواو، أي للأصنام التي لا تعلم شيئا. أو «مَا» مَصدَرِيَّة فالمفعول الثاني محذوف، واللام للتعليل، أي ويجعلون لعدم علمهم.

﴿**نَصِيبًا**﴾ لِمَا لا يضرُّ ولا ينفع ولا يشفع جزءًا من الأنعام والحرث، ونصيبا لله يتقرَّبون به إليه، ﴿هَذَا للهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ [سورة الأنعام: 136] أو النصيب: البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي، أو كلُّ ذلك ﴿**مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ**﴾ من ذلك، متعلِّق بـ«يَجْعَلُونَ» فـ«مِنْ» للابتداء، أو بمحذوف نعت لـ«نَصِيبًا» فـ«مِنْ» للتبعيض.

﴿**تَاللهِ لَتُسْئَلُنَّ**﴾ سؤال توبيخ، خطاب بعد لفظ الغيبة تشديدا عليهم في الوعيد والتوبيخ ﴿**عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ**﴾ من أنَّه أَمَرَكُم بجعل نصيب للأوثان ﴿**وَيَجْعَلُونَ**﴾ يعتقدون أو يثبتون باختيار ﴿**للهِ الْبَنَاتِ**﴾ تجعل كنانة وخزاعة وطائفة من النصارى الملائكة بنات الله، مع كراهتهم للبنات، فلم ينزِّهوا الله عنها، ولا عن التجسيم ولا عن الجهة والحلول وغير ذلك، قال الله ﷻ: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ﴾ [سورة الأنعام: 101]، ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنِ افْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللهُ﴾ [سورة الصافات: 151ـ152] ﴿وَجَعَلُواْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [سورة الصافات: 158].

وقيل: لا يعتقدون ببنوَّة الملائكة بل يشبِّهونهم بالبنات المستورات إذ لا يرونهم، مع أنَّهم في مكان لا تصل إليه الأغيار، كبنات الرجل يسترهنَّ في محلٍّ

أمين ومكان مكين، والجنُّ ولو استتروا ليسوا على هذه الصورة، ومع ذلك المذكور من أَنَّهُم لم يريدوا حقيقة البنوَّة يصفهم الله بالإشراك، لأَنَّ ذَلِكَ لفظ إشراك يوهم الولادة، كما يروى أنَّ عيسى يقول: «الله أبي» أي سيِّدي، وَلَمَّا كان لفظ إشراك سمَّاه الله إشراكا، وهو محرَّم عن عيسى وغيره لأنَّه يوهم الولادة.

﴿**سُبْحَانَهُ**﴾ نزِّهوا الله أيُّها المسلمون عن ذلك تنزيها، أو تنزَّه عن ذلك تنزُّها، أو نزَّه نفسه تنزيها، وذلك متضمِّن للتعجُّب، ﴿**وَلَهُم**﴾ عطف على «لله» ﴿**مَّا يَشْتَهُونَ**﴾ من الذكور، عطف بتلك الواو على البنات عطف معمولين على معمولي عامل.

[نحو] وفي ذلك عمل عامل في ضميرين لمسمًّى واحد، وذلك جائز في باب «علم وظنَّ وفقد وعدم ورأى الحُلمية»، ولو بلا حرف جرٍّ، ويجعل من باب «علم وظنَّ» لأنَّ معناه: يعتقد، والضمير الأوَّل الواو، والثاني الهاء، ولم يجيزوه في غير ذلك ولو بحرف جرٍّ، [قلت:] وعندي يجوز في غير الباب إذا كان أحدهما بالحرف، مثل ما هنا، إذا فسَّرنا ﴿يَجْعَلُونَ﴾ بـ: يثبتون، لكثرته في القرآن، مثل: ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ [سورة البقرة: 260] ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ﴾ [سورة مريم: 25] وقد يجوز هنا ولو عندهم على أنَّه يغتفر في الثواني ـ ومنها المعطوف ـ ما لا يغتفر في الأوائل. أو «لَهُمْ» خبر لِمَا بعده، والجملة حال من الواو، ولا يصحُّ الاستئناف فلا تهم.

وأتبع ذلك مشاكلة بقوله: ﴿**وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ**﴾ ولدت له أو بولادة الأنثى له، لأنَّ التبشير موضوع لِمَا يُشتهى ويسرُّ به، استعمل في مجرَّد الإخبار لعلاقة الإطلاق والتقييد، أو أحدهما، وذلك لأنَّهم لا يحبُّون ولادة البنات فضلا عن أن يقع لهم التبشير بهنَّ، بل يكرهونهنَّ جدًّا كما قال:

﴿**ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا**﴾ اسودَّ وجهه في النهار كلِّه اغتماما بها، وكآبة وحياء من الناس، وكانوا يعيَّرون بالأنثى، و[معنى] ذلك أنَّه ينحبس الروح إلى داخل

القلب فلا يبقى له أثر ينوَّر به الوجه، بخلاف ما إذا سُرَّ فإنَّ الروح تنبسط وتصل الأطراف ولا سيما الوجه، فيستنير.

ويجوز أن يكون ذلك كناية عن الحزن لأنَّ الاسوداد من لوازمه، وخصَّ النهار بالذكر لأنَّ أكثر الولادة قيل بالليل فيؤخَّر الإخبار إلى النهار، أو لأنَّه يظهر تغيُّر الوجه فيه، أو المراد عموم الزمان، ولا نسلِّم الأكثريَّة واطِّراد التأخير. ﴿**وَهُوَ كَظِيمٌ**﴾ مملوء غيظا على زوجه أو سريَّته التي ولدت البنت، كأنَّها ملكت أمرها في بطنها فاختارت جعله أنثى، والقويَّة القلب تقول: ما عليَّ، إنَّما ولدت ما وضعت في بطني. والجملة حال من «وَجْهُهُ» أو من المستتر في «مُسْوَدًّا» وذلك من أشنع ما يكون.

ولدت امرأة بنتا وهجرها زوجها فقالت:

ما لأبي الذلفاء لا يأتينا	يظلُّ في البيت الذي يلينا
يحرد أن لا نلد البنينا	وإنَّما نأخذ ما أُعطينا

وفي رواية: «ما لأبي حمزة».

﴿**يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ**﴾ يعالج الاختفاء أو يبالغ فيه عن الرجال، و«مِنْ» بمعنى: عن، أو للتعليل، أو للابتداء، والجملة مستأنفة، وهذا أولى من كونها حالا من المستتر في «كَظِيمٌ» أو في «مُسْوَدًّا».

﴿**مِن سُوءِ**﴾ «مِنْ» للابتداء إن لم تجعل الأولى له، وللتعليل إن جعلنا الأولى له، والمعنى: من قبح أو ضرٍّ ﴿**مَا**﴾ عبَّر بـ«مَا» لا بـ«مِنْ» إهانة للأنثى؛ كأنَّها غير إنسان من الحيوانات ﴿**بُشِّرَ بِهِ**﴾ أي أخبر به على حدِّ ما مرَّ، وأصل التبشير إظهار أثر الفرح على البشرة، أي جلدة الوجه، ببسط الروح، عكس ما إذا غمَّ فإنَّ الروح يذهب إلى القلب إلَّا قليلا فيصفرُّ، والدم تابع للروح، وهذا التبشير تابع للأوَّل في المشاكلة.

ويجوز أن يكونا على ظاهرهما فلا مشـــاكلة، بأن يكون مراد المخبر بالأنثى التبشير، وفيه ضعف لشهرة كراهتهم البنت، أو بأن يكون الولادة ولو للأنثى مِمَّا يســـرُّ به عند الله ولو كرهوها، فيكون ذمًّـــا لهم بجعلهم الخير شرًّا.

وفي التـــواري للحيـــاء تلويح إلـــى التفكُّر فيمـــا يفعل، كمـــا قال ﷻ: ﴿**أَيُمْسِـــكُهُ**﴾ أي مفكِّرا أو محدِّثا نفســـه: أيمســـك ما بشِّـــر به وهو الأنثى؟ فالجملة مفعول لحال محذوفة معلَّقة بالاســـتفهام ﴿**عَلَىٰ هُونٍ**﴾ ذلٍّ للبنت أو للأب الممسِـــك، حال من الهاء أو من ضمير «يُمْسِـــكُ»، كما قال ابن عَبَّاس: ﴿عَلَىٰ هُونٍ﴾: مع رضاه بهوان نفســـه، وعلى رغم أنفه. ونُقل الأوَّل أيضا عن ابن عَبَّاس، أي أيمسكها مُهانة ذليلة؟ وهو أولى لمناسبته لمقام كراهة البنات ﴿**أَمْ يَدُسُّـــهُ**﴾ يخفيه ﴿**فِي التُّرَابِ**﴾ بدفنه فيه حيًّا، وكانـــوا يدفنون البنات في حفرة الولادة في حين الولادة، أو بعد ذلك بقليـــل، أو كثير، وبعض يغرقها، وبعض يذبحها، وبعض يلقيها من عال، وبعض بغير ذلك.

روي أنَّ رجلا قال: يا رســـول الله، والـــذي بعثك بِالحَقِّ مـــا أجد حلاوة الإسلام منذ أسلمت، وقد كانت لي في الجَاهِلِيَّة بنت أمرت امرأتي أن تزيِّنها وذهبت بها إلى واد بعيد القعر وألقيتها، فقالت: يا أبت قتلتني، فكلَّما ذكرت قولها لم ينفعني شـــيء، قال ﷺ: «**ما فـــي الجَاهِلِيَّة يهدمه الإســـلام، وما في الإسلام يهدمه الاستغفار**»[1].

وَلَمَّـــا كان كلٌّ من ذلـــك يفضي إلى الدفـــن في التراب عبَّـــر بالدسّ في التراب، وقيل الدسُّ في التراب كناية عن الإخفـــاء عن الناس، حتَّى كأنَّها لم تولد، والصحيح ما ذكر.

(1) أورده **الآلوسي** في تفسيره: ج 5، ص 169، بدون إسناد ولا تخريج.

وكانوا يفعلون ذلك خوفا من نكاح غير الكفء والزنى والسرقة، وعيب من العيوب وعدم جمالها، وللفقر، قال ﷺ: «**من ابتلي بشيء من البنات فأحسن إليهنَّ كنَّ له سترا من النار**»[1]، وقال ﷺ: «**من عال جاريتين حتَّى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين**» وضمَّ أصابعه[2]، رواهما مسلم، وهما ترغيب في المحافظة عليهنَّ مخالفة للجاهليَّة، وقوله: «بشيء من البنات» يشمل الواحدة.

﴿**أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ**﴾ ساء حكمهم هذا؛ وهو نسبة ما يذمُّونه ويتنزَّهون عنه ـ وهو البنات ـ إلى الله مع تنزُّهه عن الولادة مطلقا، وعلوِّ شأنه، أو ساء ما يحكمون من القسمة الضِّيزى، [قلت:] وكم امرأة خيرٌ لأهلها من غلام، وقضاءُ الله للمرء خير من قضائه لنفسه، أخبرنا الله بذلك لنجتنبه.

﴿**لِلذِينَ لَا يُومِنُونَ بِالَاخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ**﴾ صفة السوء كالعجز والبخل والفقر المؤدِّيات إلى دفن البنات، ومنها دفن البنات مع احتياجهم إليهنَّ في النكاح، وتربية الأولاد، والقيام بأمر البيت، ومنها الاحتياج إلى الولد الذكر استظهارا به، والله لا يحتاج؛ ومنها الموت، والله لا يموت وما يلد يموت.

﴿**وَلِلهِ الْمَثَلُ**﴾ الوصف ﴿**الَاعْلَىٰ**﴾ وهو الوجود الذي لا يتقدَّمه عدم ولا يعقبه، والغنى المطلق عن كلِّ شيء كالولد الذكر، والجود الفائق، والقدرة التامَّة، والنزاهة عن صفات الخلق، والاختصاص بالأُلوهِيَّة، ولا إله إلَّا الله وليس كمثله شيء، ﴿**وَهُوَ الْعَزِيزُ**﴾ في ملكه، المنفرد بكمال القدرة، لا يردُّ عمَّا أراد ﴿**الْحَكِيمُ**﴾ في قوله وفعله، المنفرد بكمال الحكمة.

---

(1) رواه **مسلم** في كتاب البرِّ والصلة والآداب (46) باب فضل الإحسان إلى البنات، رقم 147 (2629). من حديث عائشة.

(2) رواه **مسلم** في كتاب البرِّ والصلة والآداب (46) باب فضل الإحسان إلى البنات، رقم 149 (2631). من حديث أنس.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ﴾ في الدنيا يهلك أو يعاقب، والمفاعلة للمبالغة لا للمفاعلة بين اثنين، كما زعم ابن عطيَّة: أنَّ العبد يأخذ حقَّ الله بمعصية والله يأخذ منه بمعاقبة، لضعفه بأنَّ المأخوذين متغايران، بخلاف التضارب فإنَّ في جانب كلٍّ منهما إيلاما بالضرب، ولأنَّ نسبة أخذ حقِّ الله بالمعصية ـ مع كونه مجازا ـ تنافي حسن الأدب ﴿النَّاسَ﴾ الناس الظالمين، لذكر تعليق الحكم بالظلم بعد في قوله ﴿بِظُلْمِهِم﴾ لأنفسهم ظلما للغير، أو لأنفسهم فقط بالذنوب الكبار، فخرج غير الظالمين، ولا بأس بتأخير القرينة بقدر ما لا يفسد اعتقادا ولا عملا، أو الناس عموما بظلم الظالمين منهم.

[أصول الدين] ولا بأس بنسبة الظلم إلى العموم باعتبار أنَّ الظالمين فيهم، ولا يوهم أنَّ الأنبياء غير معصومين كما احتجَّ بهذه الآية ونحوها، على أنَّهم غير معصومين، وقد قال الله ﷻ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ [سورة فاطر: 32] فذكر الظالم وذكر المقتصد والسابق، فهما لا يطلق عليهما اسم ظالم إلَّا ببيان التوبة، أو قيد، ويجوز أيضا أن يراد بـ«النَّاس» المعهودون المذكورون والمثبتون البنات لله سبحانه.

﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ غير مهلَكة، والهاء للأرض، دلَّ عليها المقام، لأنَّ الظالمين كغيرهم في الأرض، فكلٌّ من بني آدم والدوابِّ على الأرض، فذكر الناس والدابَّة دليل على الأرض دلالة التزام.

[أصول الفقه] والحقُّ جواز تأخير القرينة قدر ما لا يحتاج إلى البيان في الأحكام، فكيف في غيرها؟

وكالدابَّةِ الحوتُ، ومرَّ أيضا إدخاله في الدَّابَّة.

[قلت:] وإهلاك غير الظالم بالظالم حكمة من الله، ولا عقاب إلَّا على الظالم، كما يصيب الناس القحط والطاعون والجدب بأسبابها من بعض الناس: كحكم الجور، والزنى، ومنع الزكاة، قال ابن مسعود رضي الله عنه: «كاد الجعل يهلك في

جحره بذنب ابن آدم»[1]. وفي مسند أحمد: «**ذنوب ابن آدم قتلت الجعل في جحره**» وسمع أبو هريرة رجلا يقول: إنَّ الظالم لا يضرُّ إلَّا نفسه، فقال: بلى والله، حتَّى إنَّ الحبارى تموت هزالا بذنب ابن آدم[2]، وذكر ابن الأثير هذا حديثا.

والمؤاخذة في الآية الضرُّ بما شاء الله؛ من منع القطر، ومن الصاعقة، وما شاء من المهلكات، **واختار بعض** أنَّ المراد منع القطر.

ويقال: الدوابُّ خلقت لانتفاع الناس بها فلو هلكوا لم يبق لها فائدة، وفيه أنَّها تعبد الله سبحانه وجَلَّ جَلَالُهُ أيضا، وإنَّ منها ما لا ينتفع به ابن آدم اللهمَّ إلَّا باعتبار بها، وأمَّا ﴿هُوَ الذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الاَرْضِ جَمِيعًا﴾ [سورة البقرة: 29] فالمراد به ما يتوصَّلون إليه.

وخصَّ الجعل بالذكر لأنَّه من أخبث شيء لا يترك بلا هلاك فكيف ما هو عظيم، والحبارى لأنَّها أبعد الطير نجعة، لأنَّها تذبح بالبصرة وتوجد في حوصلتها الحبَّة الخضراء، وبين البصرة ومنابتها أيَّام.

ومن معنى الآية: ﴿لَا تُصِيبَنَّ الذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [سورة الأنفال: 25]. والقائل: لا يضرُّ إلَّا نفسه، يريد إنَّما إثمه عليه، كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىا أَنفُسِكُمْ﴾ [سورة يونس: 23]، ولعلَّ ابن مسعود يرى أنَّ المذنب عليه إثم ما هلك به.

وقيل: المراد بالدَّابَّة خصوص الظالمين، أي من دَابَّة ظالمة، أي من أحد ظالم ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَآبِّ عِندَ اللهِ الذِينَ كَفَرُواْ﴾ [سورة الأنفال: 55]، والظاهر عموم الدَّابَّة كما مرَّ، حتَّى إنَّها تشمل الجنَّ.

[فقه] ولو يؤاخذهم لم تبق دَابَّة في الأرض، بالتمجُّس في قطع اللحى ومخالفة رسوله في أمر الله إِيَّاهُ بإعفاء اللحى، وإحفاء الشارب، ولا تقبل

---

(1) رواه **ابن أبي شيبة** في مصنفه، كتاب الزهد (36): كلام ابن مسعود رضي الله عنه، رقم 50.

(2) أورده **ابن الأثير** في النهاية، ج 1، ص 328، من حديث أنس.

شهادة من يفعل ذلك، ويجوز حلق أعلى الحَلْق لا ما فوقه من اللحيين باطنا وظاهرا أسفل مِمَّا يلي العنق، وفوق ما يلي الوجه.

أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة عنه ﷺ: «**لو أنَّ الله يؤاخذني وعيسى بن مريم بذنوبنا** ـ وفي لفظ: بما جنت هاتان الإبهام والتي تليها ـ **لعذَّبنا ما يظلمنا شيئا**»[1].

[أصول الدين] فلا بأس بتفسير الناس بما يشمل الأنبياء، ولو كانوا لا يسمَّون باسم ظالم، كما تقول: الله خالق كلِّ شيء، ودخل القردة والخنازير في ذلك ولا تقول خالق القردة والخنازير، وكما نقول: الله في كلِّ مكان، ولا نقول: الله في الدار.

[قلت:] والأولى أن يراد بالناس العموم، والظلم مصروف إلى أهله؛ وصاحبُه فيهم يؤخذ بظلمه، وغيرُه بشؤم الظالم، قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ فِتْنَةً...﴾ [سورة الأنفال: 25].

﴿**وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى**﴾ معيَّن عند الله، أجل لأعمارهم، وعذابهم، وتوالدهم، وسائر ما قضى الله في الأزل، ولو هلك الآباء لذنوبهم لم تكن الأبناء، فلا تبقى الدوابُّ لأنَّها خلقت لهم على حدِّ ما مرَّ.

﴿**فَإِذَا جَآءَ اجَلُهُمْ لَا يَسْتَاخِرُونَ سَاعَةً**﴾ ولو أقلَّ من لحظة ﴿**وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ**﴾ عطف على «إِذَا» وما بعدها، لا على جوابها، لأنَّ التقديم بعد المجيء مستحيل، فلا يتعرَّض لنفيه إلَّا أن يعطف عليه، لا لبيان انتفاء التقدُّم مع إمكانه في نفسه كالتأخُّر، بل للمبالغة في انتفاء التأخُّر بنظمه في سلك المستحيل عقلا؛ أو المراد بمجيء الأجل قربه، وقرب الشيء يقبل التقديم فيما بعد ذلك القرب، لا في نفس القرب أو قبله.

﴿**وَيَجْعَلُونَ لِلهِ مَا يَكْرَهُونَ**﴾ لأنفسهم وهو البنات والشركة في الرئاسة،

---

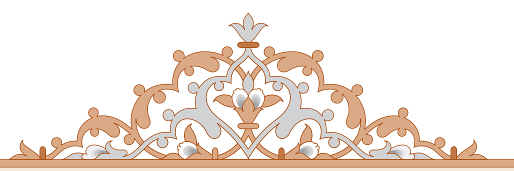
(1) أورده **ابن حبَّان** في كتاب الخوف، باب ذكر الأخبار عن ترك الاتِّكال على الطاعات... رقم 635، من حديث أبي هريرة.

أثبتوها لأصنامهم مع الله، وهم يكرهون أن يشاركهم فيها أحد، وإهانة الرسل وهم يكرهون إهانة رسلهم، وإعطاء أرذل المال لله وهم يكرهونه لأنفسهم، ولأصنامهم، وكانوا إذا رأوا ما جعلوه لله سبحانه أزكى بدَّلوه لآلهتهم، وكما عاب عليهم ذلك الجعل عاب عليهم الكذب بقوله:

﴿**وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ**﴾ فهم جمعوا بين الجعل والكذب ﴿**أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنىٰ**﴾ في تأويل المصدر بدل من الكذب مطابق، أو يقدَّر الباء، أو خبر لمحذوف أي هو أنَّ لهم، والأوَّل أولى، والمراد بالحسنى الجنَّة على سبيل فرض البعث والتقدير، كقوله: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهُمَا مُنقَلَبًا﴾ [سورة الكهف: 36] ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيَ إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى﴾ [سورة فصِّلت: 50] بعض ينكر البعث، وبعض يجيزه ويشكُّ فيه، وبعض يقرُّون به، حتَّى إنَّ أحدهم ليربط البعير النفيس على قبر الميِّت ويتركونه إلى أن يموت، ويقولون يحشر عليه صاحب القبر، فهؤلاء أقرُّوا ببعث الناس والحيوانات، ويدَّعون الاشتراك مع المؤمنين في نعيم الآخرة، كما اشتركوا في نعيم الدنيا، قال الله ﷻ: ﴿أَمْ حَسِبَ الذِينَ اجْتَرَحُواْ السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَوَآءٌ مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [سورة الجاثية: 21]، ومنهم من يقول: النار للمؤمنين والجنَّة للمشركين، لكثرة أموالهم ونعمهم، فتكون الآخرة كذلك، وتحتمله الآية بجعل تقديم الظرف للحصر.

فكذَّبهم الله ﷻ بقوله: ﴿**لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ**﴾ لا للمؤمنين، وتقدَّم معنى ﴿لَا جَرَمَ﴾ ومنه أنَّ «لا» نفي لِمَا قبل، أي لا حسنى لهم، أو لا يصحُّ ما قالوا، و«جَرَمَ» بمعنى حقَّ، و«أَنَّ لَهُمُ...» فاعله، والجواب بـ«أَنَّ لَهُمُ النَّارَ» يقوِّي تفسير ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ بالجنَّة، وقد يقال: ﴿الْحُسْنَىٰ﴾: العاقبة الحسنى.

﴿**وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ**﴾ مجاوزون الحدَّ في المعاصي، ووصف ألسنتهم بالكذب مبالغة في وصف كلامهم بالكذب، كأنَّ حقيقة الكذب كانت مجهولة وألسنتهم تصفها وتعرِفها، وسلَّى الله سُبحانه وتعالى رسوله ﷺ بقوله:



﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿63﴾ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿64﴾ ﴾

عادة الأمم في تكذيب الرسل، ومهمَّةُ النبيء البيان وإقامة الحجَّة

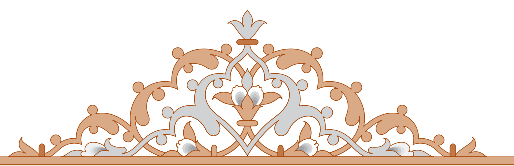
﴿تَاللهِ لَقَدَ اَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ فأصرُّوا على قبحها، وكفروا بالمرسلين، وكذَّبوا، وأهلكوا دنيا وأخرى، ونجا المرسلون ومن تبعهم من سخط الله في الدنيا، وفازوا في الآخرة، وكذلك أنت يا محمَّد ومن آمن مع أمَّتك الذين لم يؤمنوا.

﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ﴾ وليُّ الأمم ﴿الْيَوْمَ﴾ هو الدنيا، أو هو حين التزيين حكاية للحال الماضية كأنَّها حاضرة، أو هو يوم القيامة كأنَّه حاضر لتحقُّق الوقوع بعد، ويجوز عود الهاء لكفَّار قريش، الشيطان يليهم بالغرور في الدنيا حين التزيين، أو الضمير للأمم على تقدير مضاف أي وليُّ أمثالهم، والأمثال قريش، أو لقريش والأمثال الأمم، والوليُّ المقترن بهم في الدنيا بالإغواء والغرور، وفي الآخرة بالاجتماع في النار، وشدَّة ضيق النفس بالاجتماع بهم، والقرن في حديد واحد، ونحو ذلك: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [سورة التكوير: 7] ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ [سورة الزخرف: 38]، أو الوليُّ في الآخرة الناصر على التهكُّم بهم، أو لا وليَّ لهم يتوهَّمونه يوم القيامة إلَّا هو، وهو لا ينصرهم لعجزه عن نفسه فكيف بهم؟ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ اَلِيمٌ﴾ يوم القيامة.

﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ﴾ يا محمَّد ﴿الْكِتَابَ﴾ القرآن ﴿إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ أي للناس الذين في زمانك، ودخل بالأَولى قومه، أو المراد قومه. وقُدّم التبيين على الهدى والرحمة لتقدُّمه في الوجود، وهذه الآية تقوّي أنَّ [المراد بـ] الناس قبل هذه الآية المشركون من قومه المعهودين، لكن لا مانع من أن يرادوا هنا ولو عمَّ هنالك، فيرجع الضمير إليهم لقرينة التبيين، فإنَّه إنَّما يبيِّن لمن في زمانه، فيتَّصل البيان لمن بعده بالنقل عنه ﷺ لا لمن قبله.

﴿الذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾ أي خالفوك فيه، من الافتعال الذي بمعنى المفاعلة، أو اختلفوا فيه معك، وذلك هو التوحيد والقدر والقضاء والبعث وأحوال يوم القيامة والفرائض والمحرَّمات وسائر الأحكام.

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ نصبا على التعليل والعطف على محلِّ «تُبَيِّنَ» لاتِّحادهما مع الإنزال زمانا وفاعلا، ولَمَّا كان التبيين له ﷺ لا لفاعل الإنزال جرَّ باللام، ووجهه أنَّ مجرور الحرف مفعول به وصل إليه بالحرف، فمحلُّ مجرور هذه اللام النصبُ على التعليل، والأولى نصبهما بـ«أنزلناه» مقدَّرا، ولا يجوز في الفصيح: مررت بزيد وعمرًا، بنصب عمرو. ﴿لِّقَوْمٍ يُومِنُونَ﴾ به، خصَّهم بالذكر لأنَّهم المنتفعون والمعتبرون، وكذا في ﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ ونحو ذلك في محالِّه.



﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿65﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴿66﴾ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿67﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿68﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿69﴾﴾

مظاهر النعمة على الناس ومن دلائل القدرة الإلهيَّة

﴿**وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ**﴾ السماء على ظاهره، أو السحاب، قيل: أو الفلك، ﴿**مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا**﴾ شبَّه عدم إنباتها أو يبسها بالموت، أي عدم الحياة مطلقا أو بعد الحياة، وإنباتَها بالإحياء، وذلك إنبات بعد يبس، ففي الآية استعارتان تبعيَّتان، والمراد إنبات مثل ما يبس لا إعادة ما يبس، والفاء للسرعة فإنَّ النبات يسرع الخروج من الأرض عقب المطر، والموجود منه يسرع النموَّ بالمطر.

﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ**﴾ المذكور من الإنزال والإحياء ﴿**لَأيَةً**﴾ دلالة على البعث، وكمال قدرته تعالى، ووحدته ﴿**لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ**﴾ سماع فهم وقبول.

[بلاغة] ولم يقل: يبصرون، لأنَّ ما ذكر وإن كان من المبصرات لكن هذا القول المبين المذكور من المسموعات، فكان ختم الكلام بما يناسب

الابتداء مناسبة في الذروة العليا إذ قابله، فيكون كالجمع بين الإبصار والسمع، وفي ذلك إحياء قلوب القابلين كما أحيى الأرض بالماء.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الَانْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ انتقالا من جهل إلى علم.

[لغة] والعبرة العبور، وأصله المشي في الماء من جانب إلى جانب، أو على نحو قنطرة، مجاز في غير ذلك، وَقِيلَ: حقيقة في الكلِّ، ولا شكَّ أنَّه ليس في الأنعام نفس انتقال الناس إلى العلم إلَّا توسُّعا، أو على التجريد البديعي، وليس في الأنعام نفس العبرة بل هي نفسها عبرة، فبولغ في ذلك حتَّى ولد منها ما هو عبرة، هذا كلُّه قبل قوله: ﴿نَّسْقِيكُم﴾ إلخ، ولك أن تقول: أطلق المسبَّب وهو العبور على سببه وهو ما به العبور، وهو السقي من لبن فيها من بين فرث ودم، فقوله: ﴿نَسْقِيكُم...﴾ مستأنف للبيان، كأنَّه قيل: ما هي؟ فقال: نسقيكم، أو بيان للنكرة بالمعرفة التي هي مصدر مؤوَّل من «نَسْقِيكُم» على تقدير حرف المصدر الذي حذف، ورفع الفعل بعد حذفه، أي سقيا لكم، أو ينزل مرفوعا منزلة الاسم كما هو قول في المثل: «تسمع بالمعيدي خير من أن تراه»، وما ذكرته من الإطلاق مجاز في الأصل وهو حقيقة عرفيَّة في اللغة لا حقيقة في أصل اللغة ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ أي بطون الأنعام.

[صرف] وذكّر ضميره وأفرد لأنَّه اسم جمع كرهط، وما كذلك يذكَّر باعتبار اللفظ ويؤنَّث باعتبار المعنى، كما في «قد أفلح»[1]، ولو كان جمعا ـ كما هو قول ـ لتعيَّن التأنيث هكذا: «مما في بطونها»، وقيل: ذكِّر باعتبار ما ذكر على أنَّه جمع «نَعَم»، وقيل: باعتبار معنى البعض وهو الإناث، فإنَّ ذكورها لا لبن لها، أو باعتبار الواحد فإنَّ العبرة في كلِّ واحد على حدة، وهذا الواحد الحيوان الذي هو أنثى من الأنعام.

(1) يشير الشيخ إلى الآية رقم 21 من سورة المؤمنون: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الاَنْعَامِ لَعِبْرَةً نَّسْقِيكُم مِّمَا فِي بُطُونِهَا﴾.

[لغة] والذي في كتاب سيبويه أنَّ الأنعام اسم مفرد على وزن أفعال، كأخلاق وأسمال للثوب البالي، وأكياش للثوب المخصوص الذي غزل غزله مرَّتين، وفي المثل: عليك بالثوب الأكياش فإنَّه من ثياب الأكياس، وأعشار لبرمة مركَّبة من حجارة، وقال الكسائي: أفرد لتأويل ما ذكِّر، وذكر بعض أنَّ جَمْعَ غيرِ العاقل يجوز إفراده، وتذكيرُه بتأويل الجمع، وتأنيثه بتأويل الجماعة.

﴿مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ﴾ «من» الأولى للتبعيض، لأنَّ اللبن بعض ما في بطنها، وإن جعلت للابتداء كالثانية، فالثانية ومدخولها بدل اشتمال من الأولى ومدخولها، والرابط محذوف، أي: من بين فرث ودم فيه، ﴿لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ فلا يختنق أحد باللبن، ولو اختنق لم يشكل لأنَّه في الجملة سائغ، والفرث ما أكلته الدَّابَّة وهضم ما دام في البطن، وإذا خرج فروث، وقبل الخروج روث بمجاز الأَوْل، وبعده فرثٌ بمجاز ما كان عليه الشيء.

[نحو] و«مِنْ» للابتداء متعلِّق بـ«نَسْقِي». و«لَبَنًا» مفعول ثان لـ«نَسْقِي».

ومعنى ﴿خَالِصًا﴾: لا يخالطه بعض فرث أو بعض دم؛ بنفسه أو لونه أو ريحه أو طعمه، مع أنَّه بينهما، ولا شيءٌ من الأجزاء الكثيفة، بتضييق مخرجه.

[فقه] وإن وجد فيه الدم غالبا نجس اللبن.

سئل شقيق[1] عن الإخلاص فقال: تمييز العمل من العيوب كتمييز اللبن من بين فرث ودم. ومعنى ﴿سَآئِغًا﴾ سهل المرور في الحلق.

[شيء من عظيم قدرته تعالى] وإذا هضم الطعام فصافيه يجبذ إلى الكبد، والكثيف ينزل إلى الأمعاء، وما جبذ إلى الكبد يصير ماء بهضم ثان، ويخلط بصفراء تذهب إلى المرارة، وبسوداء تذهب إلى الطحال، وبزيادة المائية تذهب إلى الكلية، ومنها إلى المثانة. وأمَّا الدم فيدخل في العروق

---

(1) هو شقيق البلخي بن إبراهيم بن علي الأزدي، زاهد صوفي من مشاهير المشايخ في خرسان، استشهد في غزوة «كولان» بما وراء النهر سنة 194هـ. الأعلام للزركلي، ج 3، ص 171.

النابتة من الكبد، فيحصل هضم ثالث. وبين الكبد والضرع عروق ينصبُّ الدم منها إلى الضرع، فيقلب الله ﷻ الدم إلى لون الضرع، وذلك هو معنى: ﴿مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ﴾ وإلَّا فلا يرى أحد في الكرش مثلا دما ولا لبنا، فمعنى البينية التولُّد منهما، لا كما قيل: إنَّ معنى الآية أنَّ الثلاثة في موضع واحد؛ الفرث أسفل، والدم أعلى، واللبن بينهما، ولو تولَّد الدم في أعلى المعدة لكان الحيوان يقيء الدم، إلَّا أن يقال: يستحيل الدم إلى لون القيء عند خروجه، فتبقى الآية على ظاهرها، وهو أولى، ألا ترى أنَّه يذبح الذكر ولا توجد النطفة في بيضته، ولا يوجد الدم فيمن مات حتف أنفه في لحمه، كذا قيل.

أو يقال: المراد إنَّ أوسطه يكون مَادَّة اللبن وأعلاه مَادَّة الدم، وذلك أنَّ ذلك لا يجتمع في الكرش أو المعدة، بل الكبد يجد صفاوة الطعام ويمسكها حتَّى تهضم فيها هضما ثانيا، فتحدث أخلاط أربعة معها مائية، فتميِّز القُوَّة المميِّزة تلك المائية بما زاد على قدر الحاجة من الصفراء والسوداء، ويدفعها إلى الكلية والمرارة والطحال، ثمَّ يوزِّع الباقي على الأعضاء بحسبها فيجري إلى كلِّ واحد حقُّه على قدر ما يليق بقدرة العزيز الحكيم، وإن كان أنثى زاد أخلاطها على قدر غذائها لاستيلاء الرطوبة والبرودة على مزاجها، فيندفع الزائد أوَّلا إلى الرحم للجنين، فإذا انفصل انصبَّ الزائد أو بعضه للضرع فيبيضُّ بمجاورة لحومها البيض فيصير لبنا أبيض، والمنفذ ينطبق من الإنسان والحيوان فحين كمال الهضم انفتح المخرج لخروجه[1].

وأمَّا ما قيل من أنَّ بعض من يوثق به شاهد خروج الدم بعد اللبن في مبالغة الحلب فلا دليل فيه، لإمكان أن يكون لحصول الجرح بالحلب الشديد. والبينية على ظاهر الآية مجازية بمعنى أنَّه يحصل اللبن بهما.

(1) لا تغفل أنَّ ما ذكره الشيخ هنا وما قبله من عملية الهضم وتمثل الغذاء كان اعتمادا على معلومات الأقدمين، وفي عصرنا معلومات جديدة ارجع إليها في مظانِّها.

﴿وَمِن ثَمَـرَاتِ النَّخِيلِ وَالَاعْنَـابِ﴾ متعلِّق بقوله: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَـكَرًا وَرِزْقًا حَسَـنًا﴾. و«مِنْهُ» توكيد لفظيٌّ لقوله: ﴿مِن ثَمَـرَاتِ﴾ بتأويل ما ذكر أو تأويل الثمرات بالثمر، كأنَّه قيل ومن ثمـرات النخيل والأعناب تتَّخذون من ثمراتهـا، أو بـ«نَسْـقِيكُمْ» محذوفـا، أو بالمذكور بواسـطة العطف، والهاء للعصير المحذوف على أنَّ المعنى: ومن عصيـر ثمرات... إلخ، أو الثمرات بمعنى التمر، أو للنخيل، أو للجنس، أو للبعض، أو للمذكور، أو عطف «مِن ثَمَرَاتِ» على «في الَانْعَامِ»، والتقدير: وإنَّ لكم في الأنعام ومن ثمرات النخيل والأعناب لعبرة، فأُخِّر. و«تَتَّخِذُونَ» للبيان، كما أنَّ «نَسْـقِيكُمْ» للبيان، أو خبر لمحذوف منعوت بـ«تَتَّخذونَ مِنْهُ»، أي: ومـن ثمرات النخيل والأعناب تمر تتَّخذون منه سكرا وهو الخمر، سمِّيت بالمصدر بردِّ الهاء إلى تمر المقدَّر.

[قلت:] وإنَّما امتنَّ الله بها قبل تحريمها إذ حرِّمت بالمدينة بعد «أُحُد» أو قبلها، والسـورة مكِّيَّة، وعلى فرض أنَّ الآية مَدَنِيَّة بعـد تحريم الخمر يكون المعنى على أنَّه عابهم بالجمع بين الخمر والرزق الحسـن، أو جمع لهم بين المنَّة والعتاب، أي أحللناها لكم قبل تحريمها ولم تشكروها.

[لغة] وَقِيلَ: هو من أسماء الخمر، وقيل: السكر الخلُّ بلغة الحبشة ينطق بها العرب، وقيل: اسم للعصير ما لم يحمض تسمية له بما يؤول إليه، وقيل: النبيذ، وقيل: الطعام كقوله:

جعلت أعراض الكرام سـكرا ....[1]

أي طعاما، واستظهر بعض أنَّه في البيت الخمر، وقيل: السكر في الآية ما يسدُّ الجوع، من السَّكْرِ بفتح فإسـكان، وهو سدُّ الشيء كسددت الكوَّة كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتَ اَبْصَارُنَا﴾ [سورة الحجر: 15].

(1) أورد الشطر في اللسان ولم ينسبه لأحد، نقلا عن أبي عبيدة.

والرزق الحسن: التمر والزبيب والدِّبسُ، وهو عسل النخل بالخاء المعجمة، والخل إن لم تفسَّر السكر به، أو الرزق الحسن ما ينتفع به من أثمان ذلك، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يستعملون عقولهم بالتأمُّل فيما أوحى الله، وفي الدلائل. ختم الكلام بـ﴿يَعْقِلُونَ﴾ لِمَا تقدَّم من ذكر العبرة، لأنَّه إنَّما يعتبر أولو العقول.

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ ألهمها، شبَّه الإلهام بما وضع له الإيحاء وهو الكلام الخفيُّ، كما أخرج اللبن من بين الفرث والدم كذلك أخرج العسل من النحل.

[علم الكلام] وزعمت الصوفية المبطلة قبَّحهم الله أنَّ لسائر الحيوانات أنبياء ورسلا، ووحيا من الله ﷻ بالملائكة إليها، وكذا زعم بعض الحكماء، أنَّ لها نفوسا ناطقة.

﴿أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ «أَنْ» تفسيريَّة، لأنَّ في الإيحاء بمعنى الإلهام معنى القول دون حروفه، فإنَّه يفيد ما يفيد القول فلا تهم.

[من عجيب خلق الله في خليَّة النحل] والمراد بالإلهام خلق الميل إلى الموحى به، أو مصدريَّة مع باء الملابسة، أي بأن اتخذي من الجبال بيوتا مسدَّسة، من أضلاع متساوية لا يزيد بعضها على بعض، بحيث لا يحصل فيها خلل ولا فرجة ضائعة، وبيوتا مثلَّثة ومربَّعة ومخمَّسة، وألهمها أيضا أن تجعل على أنفسها أميرا أعظمها جثَّة لا تعصيه، ويسمَّى يعسوب النحل أي ملكها، وأن تجعل على باب كلِّ خلية بوابا لا يمكِّن غير أهلها من دخولها، وأن تخرج للمرعى وترجع إلى بيوتها، ولا تضلَّ. ويقال: تبنيها بالشمع وتلقي العسل داخلها، وإذا نفرت عن وكرها ارتدَّت بالطبل والموسيقى والأصوات الحسنة.

و﴿مِن﴾ بمعنى في، وليست تبنيه بحجر الجبال فلا حاجة إلى جعله للتبعيض، ولو أمكن باعتبار أنَّ موضع بنائها بعض من الجبل وعلى كلِّ حال



المراد جنس الجبل لا الجبال كلّها، ولا الجبل كلّه.تبني في الجبل وفي الشجر في غير العمران كما قال الله ﷻ:

﴿وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ أي وفيما يبنى لها في العمران لتأوي إليه وتبني فيه بالشمع، من كرم أو سقف، وذلك أمر تكوين إذ لا قدرة لها على العروق، أو أمر على ظاهره وليس في مضمونه ما يترتّب عليه من دخول العروق، وإلّا لم تأو، فذلك ثلاثة أنواع سمّيت بيوتا استعارة لأنّها بناء، وتأوي إليه وتتردّد إليه كما يتردّد الإنسان إلى بيته، كلُّها متقنة كأنّها عمل مهندس ماهر بالدّابد ونحوه من الآلات، بل أعظم من عمله، وقولهم لو بنتها مثلّثة أو مربّعة لكان فيها فضاء بلا نفع، غير مسلّم.

يقدّر بيوتا بعد «يَعْرِشُونَ»، أو «بُيُوتًا» المذكور شامل لها، كأنّه قيل: أن اتّخذي من الجبال ومن الشجر وَمِمَّا يعرشون بيوتا، وعلى كلّ حال أخّر وفصل بـ«مِن» للفاصلة، ولمغايرة الاتّخاذ فيه لنوع الاتّخاذ في الأوّل.

﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ التي تشتهيها حلوة ومرّة، النوار والأوراق، ويأتي عسلها كلُّه حلوا، و«ال» للاستغراق العرفي، تقول: جمع الأمير العلماء والصاغة، تريد: ما يتعارف له منهم لا علماء الدنيا وصاغتها كلّهم، وليس المراد أنّها تأكل من ثمر الدنيا كلّها، لأنّ الأمر هنا للتخلية والإباحة، بمعنى كلي مِمَّا شئت كما قيل: المراد ثمرة تشتهيها، وقِيلَ: تأكل النوار، ولا يخفى أنّ النوار ثمرة تولّدت من الشجر إلّا أنّه غير معروف، وكذلك لا يعرف أنّ الأوراق ثمرات، فالمراد بالثمرات الشجر.

وذكر المعرّي أكلها من النوار في قوله:

والنحل يجني المرَّ من زهر الربى فيكون شهدا في طريق رضابه

ويكون للنحل أيضا بيوت في كوى الحيطان، وفي بيوت الناس وما

تجوَّف من الشجر وغير ذلك، ولا حصر في الآية. و«مِن» في المواضع الأربعة للابتداء لأنَّ معنى ﴿اتَّخِذِي﴾: حصِّلي وكلي... إلخ.

﴿فَاسْلُكِي﴾ أَدخِلي ـ بفتح الهمزة وكسر الخاء ـ ما أكلت من الثمرات ﴿سُبُلَ رَبِّكِ﴾ طرق ربِّك التي خلقها طرقا للغذاء، وهي الأجواف والعروق التي يجعل فيها المرَّ وغيره عسلا، لأنَّ لها عملا يبني الله عليه ذلك، فلا يشكل بأنَّه لا اختيار لها في خلق الله تعالى ذلك، أو طرق ربِّك التي جعلها الله طريقا لطلب المرعى، ولكن هذا يفسَّر له قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ كُلِي﴾ بمعنى: ثمَّ اقصدي.

أو طرق ربِّك التي ألهمك في عمل العسل، تخرج العسل من فيها في مشمع من بيوتها، أو طرق ربِّك في الرجوع إلى بيوتك لا تضلُّ عنها ولو بعُدَ مرعاها لجدب[1] ما قرب منها أو غير ذلك، وأضاف السبل إلى الله لأنَّه خالقها وخالق المرعى لها، و«اسلك» على الأوَّل متعدٍّ والفاء للعطف في الوجه الأوَّل وعلى غيره في جواب الشرط، أي إذا أكلتها فاسلكي.

﴿ذُلُلاً﴾ جمع ذلول حال من «سُبُلَ»، بمعنى حال كونها غير متوعِّرة لا تعسر عليها، أو من ياء «اسْلُكِي» بمعنى اسلكي حال كونك منقادة لِمَا قضى الله منك لا تتخلَّفين عنه، أو لِمَا أراد أهلك، كنقلك من موضع لآخر فإنَّها لا تتعاصى، أو لِمَا أراد يعسوبك فإنَّه يستعمل بعضها في عمل الشمع وبعضا في عمل العسل وبعضا في سقي الماء وصبِّه في البيت، وبعضا في بناء البيوت، أو لذلك كلِّه.

﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ﴾ ما يشرب، ولا يعتاد أن يقال: أكلت الشراب، ﴿مُّخْتَلِفٌ اَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ مستأنف على طريق الالتفات من الخطاب إلى الغيبة، إذ لم يقل: يخرج من بطونك، يخرج العسل من بطونها على طريق أفواهها كاللعاب، كما قال شاعر:

تقول هذا مُجاج النحل تمدحه   وإن ذممت تقول: قيء الزنابير

(1) في الطبعة العُمانية: «بجذب».

وقيل: من أدبارها كما قال علي: «أشرف لباس ابن آدم لعاب دودة، وأشرف شرابه رجيع نحل»، وعنه: «أمَّا العسل فوَنيم ذباب»، والونيم ما يخرج من أسفل الذباب، ويقال: إنَّ سليمان والإسكندر وأرسطو صنعوا لها بيوتا من زجاج لينظروا كيف تصنع؟ وَمِمَّ يخرج؟ فلم تضع العسل حتَّى لطَّخت الزجاج بالطين فلا تشاهد.

وجعل الله العسل مستحيلا من نبات حامض ومرٍّ وحارٍّ ومالح، وحشائش ضارَّة، وغير ذلك، مختلفا بصفرة وحمرة وبياض باختلاف سنِّها، أو الفصول، أو باختلاف ما تأكل من النَّوْر، ولا دليل غير الاستقراء على ما قيل: إنَّ الأبيض لفتيتها والأصفر لكهلها والأحمر لمسنِّها، وهي في القُوَّة على ترتيبها.

وتنكير «شِفَاءٌ» للتعظيم، أو للتبعيض كما تقول: جاء رجالٌ، بالتنكير، أي جماعة منهم، أو لهما [للتعظيم والتبعيض]، بمعنى بعض عظيم من الشفاء وليس شفاء لكلِّ داء، فإنَّه يزيد أصحاب الصفراء وأصحاب الحرارة والإسهال ضرًّا لأنَّه حارٌّ مسهِّل، وينفع أصحاب البلغم والبرد، والنكرة في الإثبات لا تعمُّ عموما استغراقيًّا.

وفي البخاري ومسلم والترمذي عن أبي سعيد الخدري أنَّه جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إنَّ أخي استطلق بطنه، فقال ﷺ: «**اسقه عسلا**» فسقاه، ثمَّ جاءه فقال: إنِّي سقيته عسلا فلم يزده إلَّا استطلاقا، فقال له ثلاثا، وجاء الرابعة فقال: «**اسقه عسلا**» فقال: سقيته فلم يزده إلَّا استطلاقا، فقال ﷺ: «**صدق الله** ـ أي وعد الشفاء ـ **وكذب بطن أخيك**»[1] أي في استعجال الشفاء، أو في مخالفة ظاهر الآية، أو في أنَّه ليس إسهالا حقيقيًّا، فسقاه فبرئ وكأنَّه نشط من

(1) رواه **البخاري** في كتاب الطب (24) باب دواء المبطون، رقم 5716، و**مسلم** في كتاب السلام (32) باب التداوي بسقي العسل، رقم 91 (2217)، و**الترمذي** في كتاب الطب (31) باب ما جاء في التداوي بالعسل، رقم 2082. من حديث أبي سعيد.

عقال، علم مِن الله جلَّ وعلا أنَّ شـفاء هذا الرجل بالعسـل ولو كان للرجل إسهال وللعسل إسهال، وأيضا أعانه على الإسهال حتَّى فرغ بدنه منه.

[طب] ومن الطب المجمع عليه ترك الإسهال على حاله أو إعانته إذا كان من تخم أو امتلاء أو هيضة، وحبسه مضرٌّ، فيعان ما دامت القُوَّة قابلة له، وإذا لم تبق كان الدواء آخذا من الصحَّة، والآية على الغالب والإمكان وليس فيها أنَّه شـفاء لكلِّ داء في كلِّ أحد، وقيل: إنَّها على العمـوم فينظر الطبيب، كما قيل: إنَّ في أكثر المعجونات عسـلا، فهو إمَّا شفاء بنفسـه كما في الأمراض البلغمية، وإمَّا مع غيره كما في سائر الأمراض، قال ابن مسعود ﵁: «العسل شفاء من كلِّ داء، والقرآن شـفاء لِمَا في الصدور»، وعنه: «عليكم بالشفاءين: القرآن والعسل»، وكان ابن عمر لا تخرج له قرحة ولا شيء إلَّا لطَّخ الموضع بالعسـل حتَّى الدملة، وقرأ: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَـرَابٌ مُّخْتَلِفٌ اَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ وأقول: هو دواء لكلِّ شيء بالنية.

وذكر النقاش في تفسـيره الذي ألَّفه في أندلس[1]، عـن أبي وجرة أنَّه كان يكتحل بالعسل ويستنشـق به، ويتداوى به، وقال عوف بن مالك وقد أصابه مرض: إيتوني بماء قال الله ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّـمآءِ مَآءً مُّبَارَكًا﴾ [سـورة ق: 9] وبعسـل قال تعالى: ﴿فِيهِ شِـفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ وبزيت قال الله ﷻ: ﴿مِن شَـجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ [سـورة النور: 35] فأتي بهنَّ فخلطهنَّ فشربهنَّ فشفي، وقيل: على العموم إلَّا لعارض. والعسـل يشـرب بالذات أو بالماء، وذكر بعض أنَّه شـفاء على العموم إذا خلـط بخلٍّ وبطيـخ، والأظهر أن يجعل الطبخ مكان البطيخ.

(1) هو أبو بكر محمَّد بن الحسـن المعروف بالنقَّاش، أصله من الموصل ولد ببغداد ونشأ بها، وقد جرَّحه غالب المحدِّثين، ألَّف كتاب شـفاء الصدور في التفسـير، توفي سـنة 351هـ. معجم المفسِّرين، ج 2، ص 513.

وقيل: هاء «فِيهِ» للقرآن، أو لأحْوَال النحل، فإنَّ فيهما هدى من الضلال، ويردُّه أنَّ أقرب مذكور هو العسـل، فإليه الضمير، وأنَّه ﷺ فسَّـره بالعسل إذ قال: «**صدق الله وكذب بطن أخيك**».

ويقال: تقيئه ادِّخارا لها لتأكله شـتاء، وزعم بعـض: أنَّها ينزل في الليالي طلٌّ لطيف علـى الأوراق والأزهار فتأكله، وإذا شـبعت حملـت في أفواهها ذرَّات مـن بقية ذلك إلـى بيوتها فيكون بإذن الله عسـلا، وعلـى هذا يكون «بطون» بمعنى: أفواه، ويردُّه قولـه ﷻ: ﴿ثُمَّ كُلِي﴾ وأنَّه يدلُّ أنَّ للأكل تأثيرا في العسل، وتفسير الالتقاط بالأكل تعسُّف، وقول عليٍّ: أشرف لباس ابن آدم لعاب دودة، وأشرف شـرابه رجيع نحلة، أي لعابها أيضا، والقول بأنَّه تمثيل تعسُّف أيضا.

﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ**﴾ فيما ذكر من النحل وشـأنه ﴿**لَأَيَةً لِّقَوْمٍ**﴾ شـامل للنساء بالتبع ﴿**يَتَفَكَّرُونَ**﴾ في أفعال الله فيستدلُّون بها على وجوده وسائر صفاته.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (70) وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ۚ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (71) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ۚ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (72) وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (73) فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (74)﴾

بعض عجائب أحوال الناس الدالَّة على قدرة الله وتوحيده

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾ لآجالكم المختلفة، وقد يتَّفق بعض ببعض ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ عطف على محذوف دلَّ عليه ذكر التوفِّي بلا ذكر لأرذل العمر، وذكره بعد أي: منكم من يتوفَّى قبل أرذل العمر، ومنكم من يردُّ إلى أرذل العمر، وهو أخسُّه بالضعف والهرم، كالطفل في عدم القُوَّة والعقل، وباعتبار كونه قد كان طفلا قال: ﴿يُرَدُّ﴾ وقد شبَّه تصييره ضعيفا بالردِّ إلى ضعف الطفولية استعارة، أو استعمل الردَّ بمعنى مطلق التصيير مجازا مرسلا لعلاقة الإطلاق والتقييد، وذلك خمس وسبعون سنة أو تسعون سنة أو خمس وتسعون.

﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ كالطفل في النسيان وسوء الفهم، ينشأ وينمو إلى ثلاثين أو ثلاث وثلاثين أو خمس وثلاثين، ويقف إلى تمام الأربعين، وكهولة بانحطاط يسير إلى سبعين، والانحطاط العظيم إلى مائة وعشرين، وقيل: يقوى

الانحطاط من الستِّين. واللام للعاقبة ولا مانع من كونها للتعليل، و«كي» بعد اللام مَصدَرِيَّة ناصبة لا تعليلية، ومفيد التعليل أو العاقبة اللام، ويبعد أنَّها تأكيد لتعليل اللام، وأنَّ الجرَّ باللام والنصب بأن، و«شَيْئًا» مفعول مطلق، أو مفعول به.

وليس المراد استغراق النفي بل المراد لا يعلم شيئا بعد أن علمه لنسيانه، أو لا يعلم علما زائدا على علمه الأوَّل، أو لا يعلم شيئا واحدا بعد علمه أشياء، وهو بعيد، وهو مبني على الاستغراق، كما أنَّ الاستغراق قول بدون تقدير قولك بعد علمه أشياء، أو لا يعلم شيئا مًّا علما ثابتا بل كلُّ ما علم لم يثبت، أو لا يعقل بعد عقله الأوَّل شيئا، وفيه دلالة على وقوفه.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ عظيم العلم أو كثيره بما هو أقلُّ من ذَرَّات أزمانهم وأحوالهم ﴿قَدِيرٌ﴾ عظيم القدرة أو كثيرها.

[علم الكلام] والكثرة في صفات الله عائدة إلى متعلَّقاتها، وإلَّا فصفاته هو لا تقبل التعدُّد، وهو يميت الشابَّ الصحيح إذا شاء، ويبقي الهرم إذا شاء، خلق كلاًّ وبناه على أجله، لا لتأثير لطبع ولا لغيره، والمؤثِّر هو الله ﷻ، وبطل قول الطبعيين لعنهم الله: إنَّ الموت والحياة بمقتضى الطباع.

﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ غنيٌّ وأغنى، وفقير وأفقر، بمحض تفضيل الله، فكم من عاقل محتال قويٍّ يكون فقيرا، وقليل العقل عاجز يكون غنيًّا.

ومن الدليل على القضاء وكونه بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق[1]

وكذلك فضَّل بعضا على بعض في نحو الذكاء والبلادة، والحسن والقبح والصحَّة والسقم، قال الله ﷻ: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ...﴾

(1) البيت للإمام الشافعي. أورده **رشد الدين الوطواط** في كتابه: غرر الخصائص الواضحة، بعبارة:
ومن الدليل على القضاء وحكمه بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمقِ.

[سورة الزخرف: 32] منهم رازق نفسه ومَن تحت يده، ومرزوق ممَّن فوقه من أب وسيِّد، وكم مملوك يرأس على مماليك تحته.

﴿فَمَا الذِينَ فُضِّلُواْ﴾ في الرزق ﴿بِرَآدِّي﴾ معطي ﴿رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتَ اَيْمَانُهُمْ﴾ بل الله يعطي المماليك على أيدي ساداتهم، ولو جاز أن يقال: رزق السيد مملوكه بمعنى أنفق عليه، كما قال الله ﷻ: ﴿فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ [سورة النساء: 8] وزعم بعض أنَّ الله ﷻ عابهم بأنَّهم ما ردُّوا مِمَّا في أيديهم على ما ملكت أيمانهم حتَّى يستووا، سمع أبو ذرٍّ رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّما هم إخوانكم فاكسوهم ممَّا تلبسون وأطعموهم مِمَّا تطعمون**»[1] فما رئي عبده إلَّا رداءُه رداءَه وإزارُه إزارَه.

﴿فَهُمْ﴾ أي المفضَّلون وما ملكت أيمانهم ﴿فِيهِ﴾ في الرزق ﴿سَوَآءٌ﴾ في أنَّ رازقهم الله ﷻ لا غيره، والجملة لازمة ومؤكِّدة لقوله: ﴿فَمَا الذِينَ...﴾ وردٌّ على المشركين في قولهم: إنَّهم الرازقون تحقيقا لمن تحتهم، وإذا لم ترضوا بشركة مماليككم لكم فكيف رضيتم لله بمشاركة ما هو له في العبادة؟ وما تأكل مماليكُكم أرزاقَكم بل أرزاقَ أنفسهم.

﴿اَفَبِنِعْمَةِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ أيعدلون عن الحقِّ فيجحدون بنعمة الله؟ أو أيشركون به تعالى فيجحدون؟ أو أيعجبون ويمنُّون على من تحت أيديهم فيجحدون بنعمة الله؟ أو لا يفهمون فيجحدون؟ عدَّاه بالباء لتضمُّنه معنى يكفرون، وأخَّره على طريق الاهتمام والفاصلة، أو هي صلة. ومعنى جحودهم النعمة أنَّهم يدَّعون لله شركاء، وللشركاء بعض النعم، فنفوا ذلك البعض عن الله ﷻ، ويضيفونه للشركاء، وأيضا أنكروا هذه الحجج ولم يقرُّوا أنَّها دالَّة على وحدة الله ﷻ ولا أنَّها نعمه.

﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِّنَ اَنفُسِكُمُۥٓ أَزْوَاجًا﴾ لا من جنس آخر كالفرَس[2] لتأنسوا وتماثلكم أولادكم.

---

(1) أورده **الآلوسي** في تفسيره، ج5، ص189، حكاية لأبي ذر عن رسول الله ﷺ. ورواه **مسلم** بلفظ مغاير في كتاب الأيمان. باب إطعام المملوك ممَّا يأكل وإلباس ممَّا يلبس. رقم 3139.

(2) «كالفرس» إضافة من الطبعة العُمانية.

[فقه] والنفس بمعنى الجنس مجازا وأصله الذات، فلا يجوز للرجل تزوُّج الجنِّيَّة، ولا للمرأة تزوُّج الجنِّيِّ، لعدم الجنسية ولعدم الوثوق، لأنَّهم لا يشاهدون وهم يتخيَّلون فكيف يثق بها أو تثق بـه، وكيف يثق بأنَّ هذا وليُّها؟. ويقال: وقع التزوُّج منهم في أصحابنا وقومنا، ولعلَّ من فعل ذلك أمكن له التوثُّق.

وقيل: المـراد خلق حوَّاء مـن آدم عليه السلام لأنَّها خلقت من ضلعه، وسـائر النساء من نطفة الرجال، ولا يعترض بجمع الأنفس والأزواج، ولا يحتاج إلى الجواب بالتغليب، أو بأنَّ المراد بعض الأنفس وبعض الأزواج فضلا عن أن يقال: ذلك تكلُّف.

﴿**وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ اَزْوَاجِكُم بَنِينَ**﴾ يشـمل البنات أو يقـدَّر بنين وبنات ﴿**وَحَفَدَةً**﴾ أولاد البنين وأولاد البنات ذكورا أو إناثا، أو البنات وأولاد البنين عند ابن عَبَّاس والحسن وابن العربي والأزهري، فإنَّهم من الأزواج بالواسطة.

[لغة] من حفد في الشيء: أسـرع فيه، والبنات أسـرع في خدمة البيت والطاعة، ولذلك فسَّر بعضهم الحفدة بالبنات، والمفرد حافد ككامل وكملة، ولد حافد وأولاد حفدة، وفي التفسـير به زيادة امتنان، وكذلك الأولاد أسرع في ذلك كما فسِّر بهم عموما، أو الحفدة: البنون ذكروا بالبنوة وباسم السرعة في الخدمـة والطاعة، وعـن ابن عَبَّاس: البنـون: صغـار الأولاد، والحفدة: كبارهم، نظرا إلـى أنَّ الكبار أقوى فـي الخدمة، وعن مقاتـل العكس، لأنَّ الصغار أقرب للانقيـاد، وقيل: المراد الأختـان على البنـات فإنَّهم قوَّامون عليهنَّ، ويخدمون بالجدِّ والصدق، وقيل: الربائب وهنَّ بنات امرأة الرجل من غيره، وقيل: الأصهار فيحصل أن يراد أعوان الرجل من قبل المرأة ولو أخوها أو ابن أخيها ونحو ذلك من قرابتها، **ولا مانع من حمل الآية على ما ذكر كلِّه.**

﴿**وَرَزَقَكُـم مِّنَ الطَّيِّبَـاتِ**﴾ اللذائـذ، والخطاب للمؤمنيـن والكفرة، أو الطيِّبات الحلال، والصحيح أنَّ الكفرة مخاطبون بفروع الشريعة فصحَّ خطابهم

بالحلال، ولا يخفى أنَّه خلاف الظاهر، فذلك وجه إنكار من أنكره، ثمَّ إنَّ تفسير الطيِّبات بالغنائم، أو بما جاء من غير نَصَب خلاف الظاهر. و«مِنْ» للتبعيض فإنَّه لم يرزقكم كلَّ ما في الدنيا، وكلُّ ما فيها بعضٌ مِمَّا في الجنَّة اسما وصورة، والحقيقة مختلفة، أو ﴿مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾: مِمَّا في قدرة الله تعالى.

﴿أَفَبِالْبَاطِلِ﴾ هو [القول] إنَّ عبادة الأصنام حقٌّ وإنَّها تنفعهم في الدنيا، وأيضا في الآخرة إن كانت حقًّا [حسب ظنِّهم]، وتحريم السائبة والبحيرة والوصيلة والحامي، وهنَّ من الطيِّبات، والاستفهام توبيخ، وقدِّم الجارُّ على متعلَّقه وهو قوله: ﴿يُومِنُونَ﴾ على طريقة العرب في الاهتمام، أو لإيهام التخصيص مبالغة، وللفاصلة، وكذا في قوله ﴿اَفَبِنِعْمَةِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ والعطف على محذوف، أي أيكفرون بالحقِّ فيؤمنون بالباطل، وهو عبادة الأصنام وتحريم البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي.

﴿وَبِنِعْمَتِ اللهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ يستمرُّون على الكفر، كأنَّه قيل: لا يجحدون إلَّا بنعمة الله ولا يؤمنون إلَّا بالباطل، ولا يكفرون إلَّا بنعمة الله، والاستفهام التوبيخي منسحب على قوله: ﴿وَبِنِعْمَتِ اللهِ﴾ كأنَّه قيل: أو بنعمة الله هم يكفرون؟ وكذا انسحب على قوله:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالَارْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ومعنى كفرهم بنعمة الله إضافتهم إيَّاهَا للأصنام، وتحريم المحلَّل كالبحيرة، وذلك أنَّ إثبات الأُلوهِيَّة لغير الله إثبات لبعض النعم لغيره، لأنَّ الإله منعم، وقيل: الباطل: الشيطان، والنعمة: محمَّد ﷺ، وقيل: الباطل: ما حرَّم الشيطان من نحو البحيرة، ونعمة الله: ما أحلَّ الله ﷻ.

[نحو] و«شَيْئًا» مفعول لـ«رِزْقًا» من إعمال المصدر المنوَّن، أي: ما لا يملك لهم أن يرزق شيئا، وإن جعل بمعنى ما يرزق به الإنسان فـ«شَيْئًا» بدل «رِزْقًا» مؤكِّد له، جعل تنوينهما للتحقير أولا إذ شيء أعم. و«مِنْ» متعلِّق بـ«رِزْقًا» لا

يرزقهم من جهة السماء ولا من جهة الأرض، أو بمحذوفٍ نعت لـ«رِزْقًا»، ومفعول «يَسْتَطِيعُونَ» محذوف، أي لا يستطيعون ملك رزق أو هو منزل كاللَّازم بمعنى لا استطاعة لهم، والواو لِـ «مَا» في قوله: ﴿مَا لَا يَمْلِكُ﴾ مُراعاة لمعناها بعد مراعاة لفظها وهو جائز، وهو جماعة الأصنام التي يعدُّونها عقلاء عندهم أو نحو عقلاء، أو لِلْكُفَّارِ، لا يستطيعون، وهو عقلاء تحقيقا فكيف الأصنام الجمادات؟!.

وذكر هنا ﴿هُمْ﴾ دون سورة العنكبوت[1] لتقدُّم قوله تعالى: ﴿وَالذِينَ ءَامَنُواْ بِالبَاطِلِ وَكَفَرُواْ بِاللهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [سورة العنكبوت: 52] المفيد لأتمِّ التأكيد، فيستغنى عن التأكيد بقوله: ﴿هُم﴾، أو جيء به هنا لسرد النعم على أتمِّ وجه، فكان التأكيد في بيان كفرهم أنسب، ولا سرد لها في سورة العنكبوت كذلك، أو لأنَّ آيات سورة العنكبوت استمرَّت على الغيبة وهنا تقدَّمت خطابات فجيء بقوله: ﴿هُم﴾ تأكيدا في إظهار الغيبة المنتقل إليها لِئَلَّا يسبق توهُّم أحد إلى أن يقرأ: «تؤمنون» و«تكفرون» بالخطاب، وهذا ليس فيه ما يعترض عليه بأنَّه لا مقتضى للزوم الغيبة، وبأنَّه لا لبس في ترك قوله: ﴿هُم﴾، وإنَّما زاد هنا ﴿هُم﴾ دون قوله: ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُومِنُونَ﴾ لِئَلَّا يتوهَّم أنَّه تكرير لقوله: ﴿اَفَبِنِعْمَةِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ ففصل بالمبالغة والتأكيد ترقِّيا في الذمِّ، وللجري على عادة العرب في أنَّهم إذا أنكروا على أحد شيئا جدًّا أتوا بكلام آخر أذمَّ من الأوَّل، ولئلَّا تكون الفاصلة الأولى زادت على الثانية، وقال هنا: ﴿يَكْفُرُونَ﴾ وهناك: ﴿يَجْحَدُونَ﴾ لتقدُّم ضرب المثل هنالك وهو أقبح، فناسب الجحد.

﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلهِ الْاَمْثَالَ﴾ إذا كان الأمر كذلك فلا تضربوا، أو «ولا تضربوا...» على أنَّ الفاء بمعنى الواو، وذلك لأنَّ الأصنام وإيَّاكم عاجزون، لا تجعلوا لله شركاء تقيسونها عليه وتمثِّلونها به في الأُلوهِيَّة والعبادة، وذلك

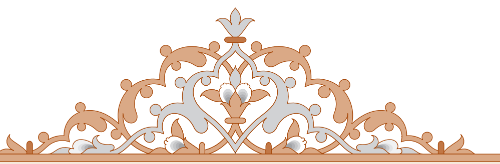
(1) يقصد قوله تعالى: ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُومِنُونَ وبِنِعْمَةِ اللهِ يَكْفُرُونَ﴾ [سورة العنكبوت: 67].

استعارة تمثيليَّة لأنَّ ضرب المثل له تعالى الإشراك به، والتشبيه به، والمشرك المشبِّه له بغيره بمنزلة ضارب المثل، إذ يشبِّه صفة بصفة وذاتا بذات.

﴿**إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ**﴾ فساد ما تزعمون من أنَّ عبادة الأصنام أشدُّ تعظيما لله سبحانه، لأنَّها عبيده، و«ال» في «الَامْثَالَ» للحقيقة، فشمل الفرد والمتعدِّد، فلا يفهم أنَّ المثل الواحد والاثنين من الجائز، وكان بصيغة الجمع لأنَّه الواقع منهم، ولا مفهوم له، وللتشنيع عليهم بأنَّهم جعلوا أندادًا متعدِّدة لمن لا يمكن أن يكون له واحد.

﴿**وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾ قُبْحَ ضربِ الأمثال وامتناع صحته، فإنَّ المالك الرازق هو الذي تحقُّ له العبادة، [قلت:] **وعبادة عبيده إفساد لنعمة المنعم**، فلو أنعم عليكم سلطان فصرتم تغفلون عن حقِّه وخدمته، واشتغلتم بعبادة حماره لَبَانَ لكلِّ ذي رأي فساد ذلك، أو إنَّ الله يعلم كنه الأشياء وأنتم لا تعلمونه، فهو عالم بكنه إشْراككم وكُنهَ عقابه دونكم، أو يعلمُ ضرب الأمثال وأنتم لا تَعلمونه. وإنَّما يصحُّ ضرب الأمثال إذا كان مثل ما في قوله عَزَّ وَجَلَّ:





﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنٗا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرّٗا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٧٥ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٧٦﴾

مثلان للأصنام والأوثان

﴿**ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا**﴾ وإنَّما يضرب المثل العالم للجاهل ليتعلَّم، هذا تعليم لهم كيف يضربون الأمثال فيصيبون ولا يخطئون، والأصنام كالعبد المملوك العاجز عن أن يملك مالا، ويتصرَّف فيه، بخلاف الحرِّ المالك للأموال الذي لا حجر عليه في المال، ينفق كما يشاء، والله ﷻ هو المالك للأشياء، الأموال وغيرها المتصرِّف فيها بالإنفاق كيف يشاء، وقال: ﴿مَمْلُوكًا﴾ تحرُّزا عن الحرِّ لأنه أيضا عبد لله، وقيَّد العبد بأنَّه ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ تحرُّزا عن المأذون له في التجر، فقد يتصرَّف في المال بلا إذن، أو بإذن، وعن المُسَرَّح ببطنه، وعن المجعول رئيسا على سائر العبيد، أو على العيال، وأمَّا المكاتب فحرٌّ عندنا.

ويناسب قوله: ﴿عَبْدًا مَّمْلُوكًا...﴾ أن نجعل «من» نكرة موصوفة أكثر مناسبة فيما إذا جعلناها اسما موصولا عامًّا.

[فقه] واختلف فيما يعطى العبد لا لعمله ولا لأجل سيِّده، فقيل: هو لسيِّده لقوله تعالى: ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ وهو مشهور المذهب، وعليه الشافعي واستظهره الزمخشري. ولا يصحُّ طلاقه إلَّا بإذن سيِّده أوَّلاً أو إجازته بعد وقوعه، وإن كان سيِّده امرأة وكَّلت رجلا يطلِّق عنه، أو يجيزه. وقيل: ما يعطى العبد له لأنَّ القيد إنَّما هو لإمكان أن يملك، وبه قال مالك وهو ظاهر الآية، لأنَّه أثبت له العجز بقوله: ﴿مَمْلُوكًا﴾ ونفى القدرة العارضة بتمليك السَّيِّد بقوله: ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ وليس المعنى القدرة على التصرُّف لأنَّ مقابله: ﴿وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾.

﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾؟ استفهام لنفي الاستواء عند كلِّ عاقل، فكيف يسوَّى من له القدرة التَّامَّة على كلِّ شيء ـ وهو الله ﷻ ـ مع العاجز من كلِّ وجه وهو الأصنام، أو الآية مثل للمؤمن الموفَّق والكافر المخذول، كما لا يستوي الحرُّ والعبد لا يستوي الموفَّق والمخذول، فإنَّه كالمربوط على جوارحه وقلبه لا يعمل بها نافعا، وقيل: في أبي بكر وأبي جهل.

والجمع في ﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ على التفسيرين لإرادة التعدُّد، كأنَّه قيل هل يستوي الأحرار والعبيد؟ أو هل يستوي الموفَّقون والمخذولون؟ ويشير قوله ﷻ: ﴿يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾ إلى كثرة المال، فالحسن المذكور في الآية حُسْنُهُ كَمِّيَّةً وهيئةً.

[بلاغة] والآية استعارة تمثيليَّة في قوله: ﴿عَبْدًا مَّمْلُوكًا...﴾ واستعارة تمثيليَّة أيضا في قوله: ﴿وَمَن رَّزَقْنَاهُ...﴾ كذا قيل، والأَولى أنَّهما معا استعارة واحدة، وسواء التفسير بالعبد والحرِّ، والمخذول والموفَّق، شبَّه الهيئة المنتزعة من حبوط عمل الكافر وصيرورته هباء بالهيئة المأخوذة من العبد وعدم قدرته تحقيقا مع أنَّه في صورة قادر، وهذا حسن جدًّا إلَّا أنَّ الملائم لِمَا قبل هو التفسير بالعبد والحرِّ.

﴿الْحَمْدُ لِلهِ﴾ كلُّه له، لا يستحقُّ معه غيره شيئا لأنَّه على النعم، وهي كلُّها منه، ولا تُستَحقُّ الأُلوهِيَّة بلا موجب، فكيف يكون عيسى إلها للناس مع أنَّه لم يخلقهم ولم يرزقهم ولم يملك أحوالهم؟! قيل الحمد لله على ظهور الحجَّة.

﴿بَلَ اَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ إذ أضافوا النعم إلى غير الله وعبدوا غيره عليها، أو لا يعلمون ظهور ذلك فبقوا على الإشراك، وقد علم بعض أنَّ الأمر ما ذكر الله وجحدوا بألسنتهم، وقيل: المراد بالأكثر الكلُّ.

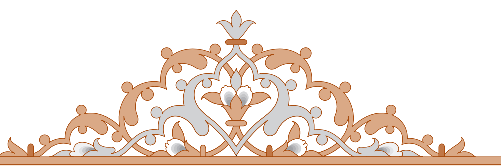
﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ﴾ ولد أخرس لا يتكلَّم، ومن ولد كذلك فهو لا يسمع، فهو لا يَفهم ولا يُفهم إلَّا بالإشارة والتجربة، والوجدانيات والبصر والمسِّ والذوقِ، ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ من الأمر بالعدل ومن السيرة الحسنة أدبا وشرعا، ومن المنافع والصنائع لنقص عقله ﴿وَهُوَ كَلٌّ﴾ ثقيل في القلب ﴿عَلَىٰ مَوْلَاهُ﴾ من يلي أمره من أب أو عمٍّ، أو قائم مَّا أو سيِّد ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ﴾ مولاه في أمر خير ﴿لَا يَاتِ بِخَيْرٍ﴾ مرادٍ أو خيرٍ غير مرادٍ، بل يأت بشرٍّ، أوْ لَا به ولا بخير.

والرجل الآخر مذكور في قوله ﷻ: ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَّامُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي والفصيح الذي يأمر الناس بالعدل ويرشدهم إلى مصالحهم وينفعهم، وهو في نفسه مهتد متمكِّن من الدين تمكُّن الراكب على المركوب، ولذا قال: ﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ﴾ ولم يقل: في صراط، وهو خفيف على أهله ذو صنائع إذا قصد أمرا تلقاه.

[لغة] فأين هذا من الذي يشمله المثل السائر: أينما أُوجَّه ألقَ سعدا. رجل يسمَّى أخبط رئيسُ قومه، وهم سعد، جفوه فارتحل عنهم إلى قوم، فوجدهم قد جفوا سيِّدهم، كما جفاه قومه، أي: أينما أُوجَّه ألق عشيرة كعشيرتي في الجفاء، وليس سعد رجلا شرِّيرا كما قيل، بل عشيرة شرِّيرة.

وهذا المثل المضروب دفع لمشاركة الأصنام الله ﷻ، أو دفع لمساواة الكفرة للمؤمنين، وكونه آمرا بالعدل وكونه على صراط مستقيم كمال ما يناقض البكامة والعجز والثقل وعدم الإتيان بخير اللاتي هنَّ صفة الأصنام، لا نفع فيها، وتحتاج إلى حاملها وماسح الأذى عنها.

وقيل: الأبكم أبو جهل والآمر بالعدل عَمَّار رضي الله عنه، وقيل: الأبكم أُبي بن خلف والآمر بالعدل عثمان بن مظعون، ولا يصحُّ ذلك، وعلى صحَّته المراد التمثيل، أو يعتبر أنَّ خصوص السبب لا يبطل عموم الحكم في اللفظ، وقيل: في عثمان بن عفَّان وعبد له كافر يسمَّى أسيد بن العيص، ينفقه عثمان، ويقوم بمصالحه، ويأمره بالتوحيد والصدقة، فيخالفه ويعكس.



﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿77﴾ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿78﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿79﴾﴾

علم الله وعجيب خلقه

﴿وَلِلهِ غَيْبُ﴾ أي علم غائب ﴿السَّمَاوَاتِ وَالَارْضِ﴾ لا يعلمه سواه بحسٍّ ولا بدليل يؤخذ من محسوس، أو من عقل، ودخل في ذلك قيام الساعة وفسّر به ﴿وَمَآ أَمْرُ السَّاعَةِ﴾ مع عظم أمرها والمُمَارَاة فيها ﴿إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ ما قيامها في السرعة والسهولة إلَّا كنظرة بعين، وفسّر أيضا بقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [سورة الزخرف: 85] الآيةَ، **والتعميم أولى**، وإن شئت فلا تقدِّر: «علم غائب السماوات والأرض» فيكون المعنى: لله غائبهما عن علوم المخلوقين. و«أو» لشكِّ المخلوق، أو تشكيك الله إيَّاهُ، أو للتخيير على جوازه في الإخبار مطلقا، أو بشرط التشبيه كما في الآية، أو للإضراب الانتقالي لا الإبطالي، لأنَّ الله ﷻ لا يقول بالباطل، إلَّا أن يقال: الأوَّل على سبيل الفرض وهو «لمح البصر»، والثاني محقَّق وهو كونه أقرب ككونه في نصف لمح البصر.

واللمح: النظر الخفيف السريع، وفسّر برجع الحدقة من أعلاها إلى أسفلها، وفيه مع ذلك أجزاء دقيقة من الزمان، وذلك أنَّ الله يحيي الخلق في

آن واحد لا يقبل التجزيء، ولو تفاوت خروجهم من قبورهم، ومعنى التخيير أنَّ الله ﷻ خيَّرنا أن نشبِّه أمرها باللمح أو بأقرب، و«أو» لمنع الخُلُوِّ لا منع الجمع، لجواز أن يشبَّه باللمح وبأقرب.

ويجوز أن يكون المعنى: أنَّ قيام الساعة ولو تراخى وقوعه هو قريب عند الله، كقرب لمح البصر أو أقرب، كما قال: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ﴾ [سورة الحج: 47] في أحد أوجه، وفي هذا التفسير الآخر الأوجه المذكورة في «أو»، ولكون أمر الساعة كلمح البصر أو أقرب مناسبة لعلم الغيب، ولعلم الغيب مناسبة للذي يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم، لأنَّه لا يكون كذلك إلَّا بعلم، وقيل المعنى: ما إماتة الناس كلِّهم آخر الدنيا وإحياؤهم إلَّا كلمح البصر.

﴿**إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ لا يعجزه شيء، فهو قادر أن يحيي الخلق دفعة كما خلقهم تدريجا، لأنَّه يفعل بلا آلة ولا علاج ولا كسب، واستدلَّ على ذلك بقوله:

﴿**وَاللهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ**﴾ العطف على ﴿إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وقيل: على ﴿واللهُ جَعَلَ لَكُم مِّنَ اَنفُسِكُمُۥٓ أَزْوَاجًا﴾ [سورة النحل: 72] الهاء زائدة كَأَهْرَاقٍ في أراق، و«أمَّهات» للعموم، وقيل: للأناسي، والأمَّات للحيوانات، وقوله ﴿**لَا تَعْلَمُونَ**﴾ لا تعرفون، حال من الكاف ﴿**شَيْئًا**﴾ مفعول به، أي شيئا من المعلومات، أو مفعول مطلق أي علما، والأوَّل أنسب، وعلى الثاني لا مفعول لـ«تعلم»، أي: لا علم لكم، والمراد ـ قيل ـ لا تعلمون شيئا من حقِّ المنعم وغيره، أو شيئا من منافعكم، أو مِمَّا قضي من سعادة أو شقاوة، أو مِمَّا أخذ عنكم من الميثاق يوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [سورة الأعراف: 172] [قلت:] **والصواب التعميم**.

وعن وهب: لا يدرك في سبعة أيَّام من ولادته شيئا ولا يدرك راحة ولا ألما، ويردُّه بكاؤه إذا أصابه ضرٌّ من جوع أو غيره، وأنَّه عالم بنفسه، وذكر بعض أنَّ النفس لا تغفل عن الذات ولو حال النوم والسكر.

وزعم بعض أنَّ «شَــيْئًا» مفعول به أوَّلٌ، والثاني محذوف، أي لا تعلمون شيئا واقعا أو موجودا.

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالَابْصَارَ وَالَافْئِدَةَ﴾ قيل: قدَّم السمع لأنَّه أشرف من البصر، وأخَّر القلوب لأنَّ الســمع والبصر وسيلتان، والوســائل مقدَّمة، قيل: وخصَّهما من سائر الوسائل لأنَّهما أشرف، والاستدلال بمدركاتهما أكثر، كما يذكر المهاجرون والأنصــار والمراد الصحابــة عُمُومًا، وكمــا يذكر الصلاة والزكاة مع أنَّ المراد جميع العبادات لشــرفهما وأصالتهما، فقد يكون مجازا بذكر الخاصِّ وإرادة العامِّ.

[صرف] ووحَّد «السَّمْعَ» لأَمْنِ اللبس، ولكونه في الأصل مصدرا يصلح للقليل والكثير بلفظ واحد، ولاتِّحــاد متعلِّقه وهو الصوت، وجمع «الأَبْصَارَ» لتعدُّد متعلِّقاتــه، من الألــوان والأعراض والأطــوال والرِّقَّة والغلــظ، وأمَّا «الأفئِدَة» فلــكلٍّ واحد فؤاد واحد، خلــق الله فيه مــن الإدراك ضعفي ما في العينين والأذنين، وأصله ألطف القلب وهو وسطه، والمراد القلب كلُّه.

ولم يذكر اللمس والذوق والشمَّ لأنَّ الدلالات اليقينية الظاهرة في وجود الله إنَّما هي في النظر في نفس الإنسان والآفاق، وفي السمع للنقليَّات، وليس الذوقُ والشــمُّ واللمسُ إلَّا دون ذلك، فذكرَ الأعظمَ استغناءً عن العظيم، كما مرَّ أنَّه يذكر الصلاة والزكاة والصوم، والمراد ما دونهما أيضا، لأنَّ العقل يعتبر أنَّه لا يقدر غير الله أن يخلــق هذه الرائحة في هذا والحــلاوة في هذا، ونحو ذلك مِمَّا يتخالف مع أنَّ الكلَّ مثلا من خشب.

والحسُّ: الرؤية والســمع واللمس والذوق والشمُّ، والحسُّ سبب للإدراك، وقد يراد بالحسِّ الإدراك بالحواسِّ الظاهرة، ويقال: الإدراك للحسِّ المشترك أو للعقل، والإحساسُ للحواسِّ الظاهرة؛ وذكر بعض أنَّ السمع والبصر عبارة عن باقي الحواسِّ الظاهرة، وقدِّما على الفؤاد لتقــدُّم الظاهر على الباطن، ولأنَّهما

لهما مدخل في إدراكه، ولأنَّهما خادمان له والخدم تتقدَّم بين يدي الســادات، كما تُقدَّم بعض السنن على الفرض، ولأنَّ مدركاتهما أقلُّ من مدركاته، ولو كان له حدٌّ ينتهي إليه كما لهما، وقدَّم الســمع على البصر لأنَّه طريق تلقِّي الوحي، ولأنَّ إدراكه أقدم من إدراك البصر، ولأنَّ مدركاته أقلُّ من مدركات البصر.

[أصول الدين] واعلــم أنَّ النفس تــدرك الكلِّيَّ والجزئيَّ باســتعمال الحــواسِّ وبدونه، والصحيــح أنَّ الإدراك للعقل خَاصَّةً والحــواسُّ أبوابه، ومعنى الحسِّ المشــترك أنَّه أدرَكَتْ فيه الشــيءَ الحواسُّ والعقلُ معا بمرَّة، وأنكره أكثر المتكلِّمين. والإنسان إذا كان جنينا له عقل هيولائي، له به العلم بالإحساس بالجزئيَّات.

والجملة معطوفة علــى «أَخْرَجَكُم» ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْــكُرُونَ﴾ المراد: تصلون إلى الشــكر بعد المعرفة بالنعــم، لأنَّ وجود النعم بلا معرفة لا يكون ســببا للشكر، وقد قيل: إنَّ «لعلَّ» للتعليل.

﴿أَلَمْ يَرَواْ اِلَى الطَّيْرِ﴾ اسم جمع طائر كراكب وركب، وقيل: جمع ويطلق على الواحد قليلا ﴿مُسَــخَّرَٰتٍ﴾ مســهَّلات للطيران بجناح لــه طرفان يمين وشمال، وإن شئت فقل: جناحان تبسطهما مرَّة وتكســرهما مرَّة كالسابح في الماء ﴿فِي جَوِّ﴾ هواء ﴿السَّــمَآءِ﴾ أضيف إلى السماء لأنَّه خارج عن الأرض إلى جهة السماء، بل المراد الهواء المتباعد عن الأرض كثيرا لأنَّ طيرانها في المتباعد أشــدُّ اعتبارا، ولو كانت ترى في القريب والبعيــد، جعل لها الهواء جسما لطيفا يسهل خرقه ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ فيه ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ بقدرته بلا دعامة من تحتها ولا علاقة من فوق، خلقها أجساما ثقالا لا تتماسك في الهواء، وجعل لها الأجنحة تتماسك بها.

وعن كعب الأحبار رَحِمَهُ اللَّهُ: إنَّ الطائر يرتفع عن الأرض اثني عشــر ميلا لا أكثــر يعني غالبا، فقــد [قيل]: طار طائــر حتَّى وصل بحرا فــي الهواء وجاء

بسمكة منه، وأظنُّ أنَّ هذا البحر فوق اثني عشر ميلا، وشاهدت غير مرَّة غرابا يعلو وأنا أراه حتَّى عجزت عن رؤيته لبعده.

﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ**﴾ التسخير ﴿**لَأَيَاتٍ**﴾ عدم سقوطهنَّ، وخرق الهواء لهنَّ، وعدم الدعامة والعلاقة ﴿**لِّقَوْمٍ يُومِنُونَ**﴾ وغيرهم، وخصَّهم بالذكر لأنَّهم المنتفعون بالتفكُّر فيها والاستدلال بها على وجود الله، وكمال قدرته وإنعامه علينا بها وبغيرها، وإنعامه عليها، وليس التنكير لأفراد مخصوصة بمعنى قوم من جملة المؤمنين، بل للتعظيم، فإنَّ المراد جنس المؤمنين، والمضارع للتجدُّد لا للاستقبال فإنَّ الإيمان متجدِّد متكرِّر.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿80﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿81﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَٰغُ الْمُبِينُ ﴿82﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَٰفِرُونَ ﴿83﴾﴾

بعض دلائل التوحيد وأنواع النعم والفضل الإلهي

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ من بيوت البناء بالماء والطين أو القرمد أو الجصّ أو الجبس أو نحو ذلك ﴿سَكَنًا﴾ موضعا تسكنون فيه حين الإقامة، كالقَبَضِ بفتحتين بمعنى المقبوض، ويجوز أن لا تقدَّر الوصفية و«في» كما رأيت، بل يعتبر معنى المسكن، قال:

جاء الشـتاء ولم أعدد له سكنا   يا ويح نفسي من شرِّ القراميص[1]

على المتبادر، أو يجعل بمعنى ما يستأنس إليه، كقول صاحب لامية العجم[2]:

---

(1) في لسان العرب وغيره بلفظ:

جـاء الشـتاء وَلَمَّـا أتَّخـذ ربضا   يا ويح كفِّي مـن حفر القراميص

والقراميص واحدها قرماص وقرموص: حفرة واسعة الجوف ضيِّقة الرأس يستدفئ فيها الإنسان والطير من البرد. اللسان.

(2) هو مؤيد الدين أبو إسماعيل الحسين بن علي الطغرائي.

فيم الإقامة بالزوراء لا سـكني فيها ولا ناقتي فيها ولا جملي؟

وليس المراد أنَّ لكم بيوتا ليست سـكنا ثمَّ جعلها سكنا بل البيوت التي سكنتم هو الذي خلقها أو صيَّرها لكم سكنا.

﴿**وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الَانْعَامِ بُيُوتًا**﴾ صغارا أو كبارا بتركيب جلد إلى جلد أو جلود، وبنسج من نباتها وهو الأكثر، والبيت الذي من نبات الجلد هو من الجلد لأنَّه نبت عليه. و«مِنْ» للابتداء في المعنيين على معنى: يحصل لكم بيوتا من جلود الأنعام، إمَّا بها وإمَّا بشعرها، وإن جعلنا «مِنْ» للتبعيض باعتبار البيوت من شعرها وللابتداء أو للبيان باعتبارها، كان استعمالا للمشترك في معنييه، وفي جوازه خلاف.

﴿**تَسْتَخِفُّونَهَا**﴾ تجدونها خفيفة أو تعدُّونها خفيفة ﴿**يَوْمَ ظَعَنِكُمْ**﴾ انتقالكم من موضع الحلول قصد ماء أو نبات، أو أمان أو غير ذلك، في السفر يسهل حملها ﴿**وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ**﴾ يسهل عليكم ضربها بأوتاد في الأرض زمان السفر، وقيل: في الحضر، على معنى أنَّكم لا تهتمُّون بها إذا أردتم سفرا سهَّل عليكم تحصيلها إن لم تكن حاصلة، وقيل: إذا أردتم ضربها في الحضر في موضع قريب تسهل عليكم، وعلى القولين هذين يكون ﴿يَوْمَ ظَعَنِكُمْ﴾ شاملا لِلَّبث في السفر وللنزول فيه.

﴿**وَمِنَ اَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ**﴾ عطف على «مِن جُلُودِ الَانْعَامِ» ﴿**أَثَاثًا وَمَتَاعًا اِلَىٰ حِينٍ**﴾ معطوفان على «بُيُوتًا»، وذلك عطف على معمولي عامل واحد. والأثاث: الآلات التي تكون في البيوت وغيرها كالبسط والثياب والحبال المحتاج إليها للسقي، ولربط الدوابِّ وإصلاح جهازها، وسمِّي أثاثا لكثرته، أثَّ الشيء: كثر. والمتاع: ما يستعمل خارج البيت، وقيل بالعكس، و«إلى» متعلِّق بـ«مَتَاعًا» على معنى اسم المصدر بمعنى: تمتُّعا، أو على معنى المتمتَّع به إلى حين بلائه أو تلفه أو إخراجه من الملك أو عدم الاحتياج إليه أو الموت.

وعن ابن عَبَّاس: المتــاع الزينة، وعن الخليل هو الأثــاث، ولو قاله غير الخليل لمثَّلت له على سبيل الزجر بقوله:

.... وألفــي قولهــا كذبــا ومينا(1)

ولم يذكر الكتان والقطن لأنَّ العرب غالبا لا يستعملونهما، وقيل: المتاع ما يتَّجر به.

﴿وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ﴾ من الشجر والجبال والأبنية والسحاب وغيرها ﴿ظِلَالاً﴾ من شدَّة الحرِّ، وبلاد العرب حارَّة والفقير يستظلُّ بذلك، والغنيُّ بما يستصحبه معه، وبذلك أيضا إن شاء، وقد يراد الاستظلال ولو من البرد.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ جمع كنٍّ بمعنى الستر، وهو الغار خلقه الله، أو البيت ينحته الإنسان، وذلك وقاية من الحرِّ والبرد والعدوِّ، وللسكنى، وأعاد ﴿جَعَلَ﴾ لتجدُّد النعمة ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَــرَابِيلَ﴾ ثيابا من نبات الأنعام والصوف والكتان والقطن للرجال وللنســاء، والحرير لهنَّ، ومرَّ أنَّ العرب لا يألفون الكتان والقطن، والصواب أنَّهم يســتعملونهما لباسا لا بيوتا ﴿تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ أي والبرد، وخصَّه لأنَّه الغالب في بــلاد العرب، وكفايته أهمُّ، كما أنَّ المطلوب الخير فاقتصر عليه في قوله ﷻ: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ [ســورة آل عمران: 26] أو لذكر البرد في قوله: ﴿لَكُم فِيهَا دِفْءٌ﴾ [سورة النحل: 5] لا لكون ما يقي الحرَّ يقي البرد، ولو لبس إنسان في الشتاء لباس الصيف أو بالعكس كان ضحكة، [قلت:] والحرُّ يتقى بلباس رقيق خفيف ولو تعرَّى للشمس لكانت أضرَّ عليه، وقد يقال: ذكر الدفء هناك باعتبار زمان البرد، والحرَّ هنا لأهَمِّيَّة زواله.

﴿وَسَــرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ شــرَّ حربكم، وهي الدروع ولباس الرأس المستعمل في الحرب، ويسمَّى البيضة، ويطلق أيضا على ما يمسك في اليد

(1) البيت لعدي بن زيد، وصدره: فقَدَّدَتِ الأَدِيمَ لِرَاهِشيهِ.



اتّقاء به كالترس، و«البأس» نفس الضرّ، وإن قلنا: الحرب قدِّر مضاف، أي ضرَّ بأسكم ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كما خلق لكم هذه الأشياء فيما مضى وهي نعم عظيمة، أو كما أتمَّها عليكم ﴿يُتِمُّ نِعْمَتَهُ﴾ سائر نعمه ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بخلقها لكم فيما يحضر ويستقبل، كما أحسن الله فيما مضى كذلك يحسن فيما بقي، أو أريد بإتمام سائر النعم تجدُّدَها مطلقا في الماضي والحال والاستقبال، والمراد بالنعمة الجنس، أو المراد ما ذكر من النعم، يذكر الله ﷻ شيئا ويشير إلى فعله لأنَّه غير وصفه، تطعم سائلا وتقول له: كذلك أطعمته، تذكِّره وصف الفعل، أو أفرده لأنَّه عظيم الجود، كلُّ كثيرٍ عنده قليلٌ، أو لأنَّه مصدر ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ توحِّدون يا أهل مكَّة، أو تذعنون للتوحيد والعمل بالتأمُّل في نعمه.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ فعل ماض للغيبة، والواو لأهل مكَّة على طريق الالتفات إليها من الخطاب، أي: فإن داموا، وليس مضارعا للخطاب حذفت إحدى تاءيه، أي: فإن تتولَّوا عن الإسلام يا أهل مَكَّة، لاستلزامه اجتماع خطابين متغايرين في كلام واحد، أحدهما هذا والآخر قوله ﷻ:

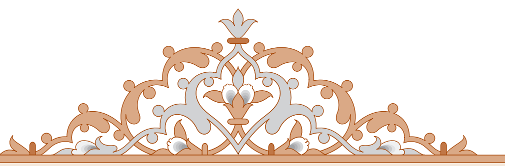
﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ﴾ يا محَمَّد ﴿الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ إلَّا أن يقدَّر ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ أي تتولَّوا أهلكتم أنفسكم، ونجوت يا محمَّد لأنَّ عليك البلاغ المبين، وقد أتيت به، فهنا كلامان لا واحد كما في قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾ [سورة يوسف: 29].

وعلى المضيِّ وهو الأصل فقد ذكر السبب وهو البلاغ المبين، وأراد المسبَّب وهو النجاة، أي نجوت لأنَّه ما عليك... إلخ؛ أو هلكوا وحدهم لأنَّه ما عليك... إلخ، وقدَّر بعضهم: «فَإِن تَوَلَّوْا فلست قادرا على خلق الإيمان في قلوبهم»، وهو خال عن الارتباط بالفاء، فالفاء لا تناسبه، إلَّا إن جعلت داخلة على هذا المحذوف فيكون: ﴿إِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ مستأنفا غير تعليل.

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ﴾ يعرفون جنس النعم أنَّها من الله إذ يعترفون بما ذكر وما لم يذكر، وهذا ظاهر فـي ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ مـاض، وإلَّا كان فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة، والمضارع للاسـتمرار أو لحكاية الحال الماضية ﴿ثُمَّ﴾ لاسـتبعاد عملهم بمقتضى إنكار معرفة أنَّها من الله، ﴿يُنكِرُونَهَا﴾ بعبادة غير الله، فإنَّ عبادة غير الله تنبئ أنَّ غير الله هو صاحـب النعم، وهذا إنكار بالفعل أقوى من الإنكار بالقـول، وعبادتهم لله مع غيره ضائعـة كأنَّهم لم يعبدوا إلَّا غير الله، وقيـل: ينكرونها بقولهم: إنَّها شـفاعة آلهتنا، أو بسـبب كذا كـ«نوء كذا»، أو بعدم أداء حقوقها.

أو نعمة الله: نبـوءة سـيِّدنا محمَّد ﷺ، عرفوهـا بالمعجـزات وأنكروها بألسنتهم عنادا، كما سأل الأخنس أبا جهل عن محَمَّد ﷺ فقال: هو نبيء، رواه ابن أبي حاتم؛ أو نعمة الله: الإسلام، يعرفون فضله وينكرونه بالمخالفة؛ أو نحو قولهم: لولا كلابنا لسـرقنا، ولولا فـلان لم أصب كذا، وقولهـم: ورثناها عن آبائنا، وغفلوا عن أنَّها من الله ﷻ؛ أو يعرفونها في الشدَّة وينكرونها في الرخاء.

﴿وَأَكْثَرُهُمْ الْكَافِرُونَ﴾ كلُّهم كقوله: ﴿الحَمْـدُ للهِ بَلَ اَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة النحل: 75] قيل: أو تحرُّزا عمَّن لم يعرف الحقَّ لنقص عقله، أو للتفريط في النظر، فإنَّه لم يكفـر النعمة صراحا، أو لـم يبلغ حدَّ التكليـف، وفيه أنَّه لا يتصوَّر استثناء القليل بأنَّهم غير كافرين، مع أنَّ الكلام فيمن تحقَّق أنَّه يعرف النعمـة ويجحدها لا غيره، ولعلَّ المـراد أنَّ القليل من مطلق المشـركين لم يصرِّح بإنكار النبوءة، أو لم تحضر فـي قلبه نفيا ولا إثباتا، أو لم يعبد الصنم أو لم يعلم النعمة من الله، ولا يعذرون في ذلك.



﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا ثُمَّ لَا يُؤۡذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ﴿84﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلۡعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿85﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿86﴾ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوۡمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿87﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ ﴿88﴾ وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا عَلَيۡهِم مِّنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴿89﴾﴾

وعيد المشركين وأحوالهم يوم القيامة، وتكذيب شركائهم

﴿**وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا**﴾ واذكر يوم نبعث... إلخ لتتسلَّى عن أذاهم، أو اذكر لهم يَوْمَ نَبْعَثُ... ليزدجروا، أو لذلك كلِّه، أو يجازون على كفرهم وإنكارهم يوم نبعث، أو خوِّفهم يوم نبعث، أو يوم نبعث... إلخ يكون ما لا يحقِّق وصفه إلَّا نحن، قيل: أو ينكرونها اليوم ويوم نبعث، وفيه أنَّهم يقرُّون بها يوم البعث حيث لا ينفعهم إقرارهم، ولا ينكرونها.

وشهيد كلِّ أمَّةٍ نبيئُها، يشهد عليها بالإيمان أو الكفر، ومعنى بَعْثِ الشهيد من كلِّ المجيءُ به كقوله ﷻ: ﴿وجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [سورة النحل: 89]، ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ﴾ [سورة النساء: 41].

﴿ثُــمَّ لَا يُوذَنُ لِلذِيــنَ كَفَرُواْ﴾ «ثُمَّ» لاســتبعاد أن يــأذن الله ﷻ لهم أن يعتذروا، كما قــال الله ﷻ: ﴿وَلَا يُوذَنُ لَهُــمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [سورة المرســلات: 36] وذلك أنَّــه لا عذر لهم البتَّة، ولا يســتأذنون فضلا عن أن يــؤذن لهم، وذلك إقناط كلِّيٌّ عندما يقال لهم: ﴿اخْسَــئُواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [ســورة المؤمنون: 108] أشدُّ عليهم من شهادة الأنبياء عليهم، وليس المراد أنَّ لهم عذرا لم يؤذن لهم في ذكره. أو لا يؤذن لهم في الرجوع إلــى الدنيا والتكليف، قيل: أو في كثرة الكلام، قيل: أو في الكلام حال الشهادة، فتشهد الأنبياء وأهل الموقف كلُّهم لا مانع لهم من السمع.

﴿وَلَا هُمْ يُسْــتَعْتَبُونَ﴾ الاســتفعال هنا لمعنى الإفعال الذي للإزالة، يقال: أعتبه إعتابا أزال عتبــاه، أي أزال ما يلام عليه فلا يطلب منهــم الرجوع إلى ما يرضي الله من العبادة، أو ما يزول به عتب الله أي عقابه، ويجوز إبقاء الاستفعال على أصله من الطلب، أي لا يطلب منهم الإعتاب، أي إزالة عتب ربِّهم وغضبه.

﴿وَإِذَا رَءَا الذِينَ ظَلَمُواْ﴾ العبادَ وأنفسَهم، أو الظلمُ: الإشراكُ ﴿الْعَذَابَ﴾.

[بلاغة] معنى رؤية العذاب إحساســه بمباشرته، اســتعمل المقيَّد وهو الرؤية في المطلق وهو الإحساس الذي منه المباشرة، وذلك مبالغة والمعنى: إذا وقعوا فيه استمرَّ بلا نقص.

ويجوز إبقاء الرؤيــة على ظاهرها، والمرئيُّ جهنَّــم المعبَّر عنها بالعذاب لأنَّها آلته ومحلُّه، والجــواب محذوف على هــذا، أي إذا رأوه حين الدخول وقعوا فيه، أو بغتهم، أو يحيق بهم ما يحيق، وعطف عليه: ﴿لَا يُخَفَّفُ﴾؛ وإن جعلنا الجواب قوله ﷻ: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ﴾ فإنَّما قــرن بالفاء لأنَّ «لا» النافية لا تلي «إذا» الشــرطيَّة، فلا يغرَّنَّك أنَّها تلي أدوات الشرط غيرها، لَا يقال: إذا لا يقوم زيد يقوم عمرو، فلا حاجة إلى تقدير: فهم لا يخفَّف... إلخ، أو فهو أي الشأن لا يخفَّف... إلخ. والمنظور بالعين هو نار جهنَّم.

﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ أي العذاب، وإن فسَّرنا العذاب بجهنَّم ورددنا الضمير إليه بمعناه الظاهر لا بمعنى جهنَّم كان استخداما، والأصل فإذا رأوا العذاب فذكَّرهم باسم موجب العذاب وهو الظلم ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ يؤخَّرون عنها بعد رؤية العين، ولا يؤخَّرون عنها بالإخراج ثمَّ يردُّون.

﴿وَإِذَا رَءَا الذِينَ﴾ الناس الكافرون الذين ﴿أَشْرَكُواْ﴾ بالله غيره ﴿شُرَكَآءَهُمْ﴾ مفعول به لـ«رَأَى»، وهم الشياطين مطلقا، وشياطين الأصنام التي تتكلَّم من أجوافها هؤلاء الشياطين قيل والأصنام لا شركة بينهم وبين الكافرين العابدين لها في مال ولا أُلُوهِيَّة، وأضيفت إليهم لأنَّ الإضافة تصحُّ لأدنى ملابسة إذ كانوا يسمُّونها شريكة لله، وادَّعوا الشركة لها، وكذا في قوله: ﴿شُرَكَآؤُنَا﴾. قلت: بل يجعلون لها في أموالهم نصيبا، فهي شريكة لله على زعمهم في الأُلوهِيَّة، وشريكة لهم في أموالهم، والأَوْلى أنَّ شركاءهم: ما يعبدونه من صنم أو وثن أو شيطان أو آدميٍّ أو ملك، وقيل: «شركاءهم» المشركون الذين دعوهم إلى الإشراك، وقيل: شركاءَهم في العقاب فسمُّوا شركاء، ولا يظهر هذا ولا القول الذي قبله، لقولهم: ﴿كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ﴾، وأمَّا أنَّ الإضافة للحمل على الكفر فلا يصحُّ إلَّا من جانب الشياطين.

﴿قَالُواْ﴾ أي الكفَّار العابدون لها يقولون بألسنتهم، أو تخرص ويقولون بجوارحهم ﴿رَبَّنَا هَؤُلَآءِ﴾ الأصنام والشياطين ومن ذكر ﴿شُرَكَآؤُنَا الذِينَ كُنَّا نَدْعُو﴾ نعبد ﴿مِن دُونِكَ﴾ ولفظ الذين تغليب للعقلاء وهم الشياطين والملائكة والآدميون، أو لدعواهم أنَّ الأصنام عقلاء، وكذا في قوله: ﴿فَأَلْقَواْ﴾ فعل ماض، والواو للشركاء، خلق الله السمع والتمييز للأصنام فتتكلَّم كما قال: ﴿فَأَلْقَواْ اِلَيْهِمُ﴾ إلى الكافرين العابدين لها ﴿الْقَوْلَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ مفعول للقول، فيكون من إعمال المصدر المقرون بـ«ال»، أو لـ«أَلْقَواْ» لأنَّ معناه قالوا، فإنَّ إلقاء القول هو التكلُّم به.

والمعنى: إنَّكم لكاذبون في قولكم إنَّ لله شركاء، لا شريك له، وهذا تقوله هؤلاء الشياطين والأصنام وغيرهم، أو المعنى: إنَّكم لكاذبون في العبادة ما عبدتُّمونا، تقوله الشياطين إنكارا للواقع خوفا، وتقوله الأصنام بمعنى: إنَّا لا نشعر بها حين أوقعتموها، وإنَّما العبادة ما عرفه المعبود وقَبِله، وما سوى ذلك فيه العقاب التامُّ، واسم العبادة، وهنا أجابت الأصنام، ولا ينافي قوله تعالى: ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾ [سورة الكهف: 52، وسورة القصص: 64] لأنَّ المعنى: لم يجيبوا بالشفاعة ودفع العذاب.

أو المعنى: إنَّكم لكاذبون في دعوى العبادة بل عبدتُّم أهواءكم، ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ اِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ...﴾ [سورة إبراهيم: 22] وهذا تقوله الشياطين والأصنام: إنَّكم عبدتم أهواءكم ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ [سورة مريم: 82] ﴿مَا كَانُواْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [سورة القصص: 63].

ومعنى قول الملائكة ونحو عيسى: ﴿إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾: ما رضينا أن تعبدونا، أو إنَّ عبادتكم باطلة، وإنَّما قالوا: ﴿رَبَّنَا هَـٰؤُلَآءِ...﴾ تعجُّبا من إحضار الأصنام مع أنَّه لا ذنوب لها واعترافا بخطئهم، وطمعا في أن يعذروا بعض عذر، فيسقط عنهم بعض العذاب، أو طمعا في أن يُحَطَّ عليها وعلى هؤلاء الشياطين نصف ذنوبهم، أو أقلَّ أو أكثر، وطمعا في أن ينجوا من العذاب كلِّه بالمعبودين الذين لا تحقُّ لهم العبادة ولا تحقُّ إلَّا لله ﷻ، ردَّ الله ﷻ عليهم بقوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [سورة الأنبياء: 98] وذلك تعذيب لهم بها لا تعذيب لها.

﴿**وَأَلْقَواْ**﴾ أي الكافرون ﴿**اِلَى اللهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ**﴾ الخضوع للحقِّ اعترافا حين لا ينفع، ﴿**وَضَلَّ**﴾ ضاع ﴿**عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ**﴾ من أنَّ الأصنام ومعبوداتهم تشفع لهم.

﴿**الذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ**﴾ منعوا الناس: من أراد الإيمان، أو آمن وضعف إيمانه، أو قوي فيجبرونه على الكفر، ﴿**عَن سَبِيلِ اللهِ**﴾ دين الله ﷻ. «الذِينَ»

مبتدأ خبرُه قوله: ﴿**زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ**﴾ الذي استحقُّوه على كفرهم ﴿**بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ**﴾ بكونهم يفسدون، وهو المنع عن دين الله، أو الاستمرار على الكفر مطلقا، أو على الصدِّ، أو يفسدون بسائر معاصيهم، ولا يخفى أنَّ الاستمرار أشدُّ على صاحبه، **ألا ترى أنَّ الصغيرة كبيرة بالإصرار**.

[قلت:] وزعم بعض أنَّ عذابها مطلقا يزداد لئلَّا يألفوه كما لو وضع إنسان يده في شيء حارٍّ لكان أوَّل وضعه شديدا عليه، **وهو خطأ** وإنَّما ذلك فيما يمكن أن يتحمَّل لا ما لا يحتمل من دنيا أو أخرى.

ولا حاجة ولا دليل على تقدير: هم الذين كفروا، أو أذمُّ الذين كفروا، أو أعني، أو الإبدال من واو «يَفْتَرُونَ» أو هاء «عَنْهُمْ».

قال ابن مسعود في تفسير العذاب المزيد: عقارب أذنابها كالنخل الطوال[1]، وعذاب النار هو عذاب على الذنب، والعقارب مزيدة كمًّا، والآية شاملة للعذاب كيفا.

ويروى أنَّهم يستغيثون بضحضاح من نار فيساقون إليه، فتتلقاهم عقارب دُهْم كأنَّها البغال الدهم، وأفاع كأنَّها البخاتي[2]، فذلك الزيادة[3]، وعن ابن عَبَّاس: هي أنهار من صفر مذاب يسيل من تحت العرش عليهم، وعن الزجَّاج: يخرجون من النار إلى الزمهرير فيبادرون من شدَّة برده إلى النار.

﴿**وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا**﴾ نبيئا يشهد، ﴿**وَإِن مِّنُ امَّةٍ اِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ**﴾ [سورة فاطر: 24] نبيء أو صالح فيهم، أو نبيء وصالح معا، [قلت:] ولا بدَّ في كلِّ عصر من قائم على أهل عصره يكون صالحا حجَّة، ولا تخلو منه أمَّة

(1) رواه **الحاكم** في المستدرك، بلفظ: «عقارب أنيابها كالنخل الطوال». كتاب التفسير، باب تفسير سورة النحل، رقم 3314.

(2) من البخت والبختية لفظ أعجميٌّ معرَّب: الإبل الخرسانية، وهي جمال طوال الأعناق، ويجمع على بخت وبخات. ابن منظور: لسان العرب، ج 1، ص 328 مَادَّة «بخت».

(3) أورده **ابن أبي حاتم** في تفسيره، عن السدي، ج 5 ص 2367.

يشهد هو لهم، وتشهد لهم أمَّته، ويزكِّي أمَّته، فإن دخل ﷺ في قوله ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ﴾ فلا بأس بذكره هنا شهيدا على غير أمَّته من الأنبياء، وجاز إرادة أمَّته في الموضعين ولا تكرار، لأنَّ الشهادة الأخيرة تزكية لهم إذ شهدوا على الأنبياء وأممهم، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمُۥٓ أُمَّةً وَسَطًا...﴾ [سورة البقرة: 143].

ولفظ «عَلَى» في الخير والشرِّ، وللشاهد علوٌّ في الجملة أو بوجه مَّا، ورسول الله ﷺ يشهد على من يأتي من أمَّته إلى قيام الساعة، وعنه ﷺ: «**حياتي خير لكم تحدِثون ويُحدَث لكم، ومماتي خير لكم، تعرض عليَّ أعمالكم، فما رأيت من خير حمدت الله تعالى عليه، وما رأيت من شرٍّ استغفرت الله تعالى لكم**»(1) وتعرض على القرابة، قال ﷺ: «**لا تفضحوا موتاكم بسيِّئات أعمالكم فإنَّها تعرض على أوليائكم من أهل القبور**»(2) رواه ابن أبي الدنيا عن أبي هريرة، قال ﷺ: «**إنَّ أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات، فإن كان خيرا استبشروا، وإن كان غير ذلك قالوا: اللهمَّ لا تمتهم حتَّى تهديهم كما هديتنا**»(3) رواه أحمد عن أنس، وروى أبو داود مثله عن جابر، زاد: «**وألهمهم أن يعملوا بطاعتك**» وقال ﷺ: «**أعمالكم تعرض على موتاكم فيسرُّون ويساءون**» رواه ابن أبي الدنيا عن أبي الدرداء، فكان أبو الدرداء يقول: «اللهمَّ إنِّي أعوذ بك أن يمقتني خالي عبد الله بن رواحة إذا لقيته»، يقول ذلك في سجوده.

﴿**عَلَيْهِم مِّنَ اَنفُسِهِمْ**﴾ يعطف ﴿يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ﴾ عَلَى ﴿يَوْمَ نَبْعَثُ﴾ السابق، أو يقدَّر ما قدِّر فيه لبعده، والأوَّل يشمل الشهادة للأمم وعليها كما مرَّ، وهذا في الشهادة عليها فقط لزيادة الزجر.

---

(1) أورده **الزبيدي** في الإتحاف: ج9، ص176 ـ 177. وابن **عدي** في الكامل: ج3، ص76. بنفس المعنى مع تقديم وتأخير وزيادة، من حديث خراش بن عبد الله مولى أنس بن مالك.

(2) أورده **الهندي** في الكنز: ج15، ص685، رقم 42739، وقال: رواه الديلمي عن أبي هريرة.

(3) رواه **أحمد** في كتاب مسند باقي المكثرين، رقم 12222، من حديث أنس.

[قلت:] وهذا التأسيس أولى من أن يقال: هذا تفسير للسابق، أو أن يقال: الشهادة عليهم بمعنى الإخبار عنهم إسلاما وكفرا، والأصل عدم التفسير، والأصل أنَّ «على» للضرِّ، و﴿مِنَ انفُسِهِمْ﴾: من جنسهم الآدمي المعاشر لهم اللائق، ولو فسِّر بالنسب لأشكل بلوط وشعيب إذ ليسا من نسب أقوامهما، إلَّا أن يحمل على النسب تحقيقا أو حكما، فإنَّهما من النسب حكما لعشرتهما لهم، أو من لم يكن من نَسبهم مثلهما شهد في مقامه صالح من نسبهم، أو يعتبر الغالب.

﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا محمَّد ﴿شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَآءِ﴾ أمَّتك وفي إنزال هذا عليها زجر عظيم إلى آخرها، ويجوز أن يفسَّر هؤلاء بشهداء الأمم وهم أنبياؤها فهو شهيد على الأنبياء، وذلك لعلمه بعقائدهم واستجماع شرعه لقواعدهم، ولأنَّه مرسل إلى الأنبياء وأممهم، فالأنبياء كآحاد أمَّته ولا مانع من هذا، ولو جاء الحديث: «**إنَّ هذه الأمَّة تشهد للأنبياء بالتبليغ**»[1] ولا مانع من تكرير الشهادة، والنبيء ﷺ يزكِّي أمَّته. وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [سورة النساء: 41] كهذه في احتمال أنَّ هؤلاءِ هُم الأنبياء.

وزعم بعض أنَّ الشهيد عشرة أجزاء من الإنسان: الأذنان والعينان والرجلان واليدان والجلد واللسان، فذلك شهيد على الإنسان من نفسه، ويردُّه المقابلة بقولِه تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾، وقولِه تعالى: ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ﴾ فالشهادة على الأمَّة لا على نفسه، [قلت:] ولعلَّ قائله أراد الوعظ لا حقيقة التفسير، **وكلُّ ما لا يجوز التفسير به لا يجوز ما يوهم أنَّه تفسير.**

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ من التوحيد أو منه ومن الفروع، لأنَّ ما يقول النبيء ﷺ من الوحي وغيره وما يقول العلماء هو في القرآن

(1) رواه **البخاري** في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً...﴾، رقم 4217، عن أبي سعيد الخدري. بنفس المعنى مع اختلاف في اللفظ.

والحديث، مثل: ﴿وَمَآ ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [سورة الحشر: 7] ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [سورة النجم: 3] وقوله: «**عليكم بسنَّتي وسنَّة الخلفاء الراشدين**»[1]، أو من الدين والدنيا ولو تفاوت الناس في القرآن بِقُوَّةِ الفهم وضعفه، قال ابن عَبَّاس: لو ضاع لي بعير لوجدته في القرآن.

﴿**وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ**﴾ عطف على «أَنزَلَ مِنَ السَّمآءِ مَآءً» أو على «وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ» أو على «أَخْرَجَكُمْ» أو الواو للحال وصاحبها «نا» من «جِئْنَا»، أو كاف «بِكَ» على تقدير: «ونحن نزَّلنا» أو «قد نزَّلنا»، وقد أجيز كون الماضي ولو متصرِّفا مثبتا مجرَّدا من «قد» حالا مع مرفوعه، والحال محكيَّة.

[أصول الدين] والزمان لا يجري على الله ومن قال بجريانه عليه اختلَّ توحيده، لأنَّه تعالى هو الخالق له قليلا قليلا.

والقرآن فيه بيان كلِّ شيء بتصريح أو فهم أو سنَّة أو قياس، وأمَّا الإجماع فمأخوذ من ذلك إلَّا أنَّه بعد ذلك يخفى موضع استنباطه من ذلك، على غير المجمعين، والمراد كلُّ شيء مِمَّا يحتاج إليه من أمر الدين. و«لِلْمُسْلِمِينَ» نعت لـ«هُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى»، أو تنازعت فيه، فيقدَّر لفظ «لهم» لِمَا أهمل، والهاء عائد إلى المسلمين، وخصَّ المسلمين لأنَّهم المنتفعون، أو لا تنازع ولكن المراد: هدى ورحمة لكلِّ أحد، كما قال ﷻ: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ للعالَمين، و﴿بُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ خاصَّةً، و﴿بُشْرَىٰ﴾: بمعنى التبشير، اسم مصدر.

[صرف ولغة] والتبيان: التبيين البليغ، ولا يوجد تِفْعال بكسر التاء في المعاني المصدَرِيَّة إلَّا «تبيان» و«تلقاء» بمعنى اللقاء، كما روى ثعلب عن

---

(1) رواه **الترمذي** في كتاب العلم (16) باب ما جاء في الأخذ بِالسُّنَّةِ واجتناب البدع، رقم 2676. **وأبو داود** في كتاب السنَّة باب لزوم السنَّة، رقم 4607. وأوَّل الحديث هو: «صلَّى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم، ثمَّ أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب...». من حديث العرباض.

الكوفيِّين، والمبرّد عن البصريِّين، وذكره الزجَّاج بلا حصر ـ وقيل له الزجَّاج لأنَّـه كان ينحت الـزجَّ وهو مـا يثبَّت فيه أصـل الرمح ـ وباقـي المعاني المصدَرِيَّة كلُّها بالفتح كالتَّستار والتَّذكار والتَّكرار والتَّهدار والتَّلعاب، وغير المعاني المصدَرِيَّة بالكسـر وصفا أو غيـره، كالتِّمسـاح والتِّمثال وتِقصار لقلادة المرأة وتِعشار وتِبراك لموضعين، ورجل تكلام وتلقام وتلعاب، وناقة تضراب قريبة بضـراب الفحـل، وتمراد لبيـت الحمام، وتلفـاف لثوبين ملفوفين، وتجفـاف لِمَا تجلَّل به الفـرس، وتهواء لجزء مـاض من الليل، وتنبال للقصير اللئيم، وتيفاق لموافقة الهلال.

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (90) وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (91) وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (92) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (93) وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (94) وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (95) مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَيَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (96) ﴾

الدعوة إلى الإنصاف والإحسان والوفاء بالعهد والتحذير من الشرِّ والإضلال

﴿**إِنَّ اللهَ يَامُرُ بِالْعَدْلِ**﴾ بترك الميل عن الحقّ، والميل: الجور، يقال: مال بمعنى جار.

[أصول الدين] ودين الله وسط لا إفراط ولا تفريط، **إمَّا اعتقادا** كالتوحيد بين نفي الله وإثباته مع الشركة، وكإثبات صفات الله وأنَّها هو، بين نفيها وإثباتها مع



اعتقاد أنَّها غيره يحتاج إليها، حاشاه عن الحاجة، وقد عاب على الأَشعَرِيَّة ابن العربي إذ قال: «لا فرق بين قول من يقول إنَّها غيره وقول من قال إنَّ الله فقير، إلَّا تزيين اللفظ»، وكالقول بأنَّ فعل المخلوق كسب منه وخلقٌ من الله، المتوسِّط بين دعوى أنَّه مجبر على عمله لا كسب له فيه، وبين دعوى أنَّه خالق له لا قدرة لله فيه.

وإمَّا عملا كأداء الواجب المتوسِّط بين البطالة والانقطاع بالكلِّية إلى العمل، وقد قال ﷺ: «**لا رهبانيَّة في الإسلام**»[1] وفي الهند قوم يتقرَّبون إلى الله بترك اللذَّات كلِّها و[يتقرَّبون] إليه وإلى ملكهم بقتل أنفسهم بالنار، أو بالإلقاء من عال. **وإمَّا خُلُقا** كالجود بين البخل والتبذير، والشجاعة مع التحرُّز بين التهوُّر والجبن. ودخل في العدل الحكم بين الخصمين بالحقِّ، وبين الأولاد والأزواج.

﴿**وَالِاحْسَانِ**﴾ نفل الطاعات، والمبالغة في تجويد الفرض، وفي الحديث: «**الإحسان أن تعبد الله كأنَّك تراه**»[2] وقصر بعضهم الآية عليه للحديث، وقيل: العدل: التوحيد أو الإنصاف، والإحسان: أداء الفرائض، وذلك إحسان الإنسان إلى نفسه، وإلى غيره من الخلق.

ويجوز أن يكون الإحسان الإتيان بالأعمال حسنة صحيحة مجوَّدة، قال عيسى بن مريم: «الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك، وليس أن تحسن إلى من أحسن إليك» كأنَّه يشير إلى أنَّ الإحسان إلى من أحسن إليك كالفرض.

وقيل: العدل أن ينصف من نفسه لغيره وينتصف لنفسه من غيره، والإحسان أن ينصف ولا ينتصف، وقيل: العدل في الفعل والإحسان في القول، وهو قول بعيد عن العدل والإنصاف، [قلت:] وعندي العدل أداء الواجب مطلقا والإحسان الزيادة عليه.

---

(1) أورده **ابن رجب** في فتح الباري، على أنّه من مراسيل طاوس، ج1، ص 102.

(2) رواه **مسلم** في صحيحه، كتاب الإيمان (1) باب معرفة الإيمان والإسلام، رقم 102 من حديث عمر بن الخطاب.

﴿وَإِيتَآءِ ذِي الْقُرْبىٰ﴾ من جهة الأب أو الأمِّ ما يحتاج إليه وجوبا إن اضطرَّ إليه، وندبا إن لم يضطرَّ إليه، فهو داخل فيما مرَّ من فرض أو نفل، وخصَّه إيذانا بشرفه إذ فيه صدقة وصلة، وفي الحديث: «**أعجل الطاعة ثوابا صلة الرحم**»[1].

﴿وَيَنْهىٰ عَنِ الْفَحْشَـآءِ﴾ الزنى وهو أقبح أحوال الإنسان، وقيل: ما ازداد قبحه من زنى أو غيره ﴿وَالْمُنكَرِ﴾ قيـل: ما ينكر على فاعله من إنهاض القُوَّة الغضبيَّة، **وكلُّ فحشاء منكر، وكلُّ منكر فحشـاء** وامتاز بالإنهاض المذكور، [قلـت:] والواضح أنَّ المنكـر ما حرَّمه الشـرع، وقيل: ما وعـد عليه النار، والفحشـاء: ما اشـتدَّ تحريمه فهو أعمُّ منها، وقيل: المنكر الشرك وهو مباين للبغـي، فتحصَّل في الآية عطـف الخاصِّ علـى العامِّ، وعطـف العامِّ على الخاصِّ وعطف مباين ﴿وَالْبَغْيِ﴾ تطاول الإنسـان بما ليس له على غيره في بدنه أو ماله أو عرضه، خصَّه بالذكر لمزيد عظمه.

﴿يَعِظُكُمْ﴾ بالأمر والنهي المذكورين، والجملة مستأنفة فتعمُّ، ولو جعلت حالا من فاعل «يَامُرُ» أو من فاعل «يَنْهَى» لـكان قيدا له فقط، ولا وجه لكونه حالا من فاعلهما لاختـلاف عاملهمـا، ولا حاجة إلى تقديـر مثله لأحدهما ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَّكَّرُونَ﴾ تتّعظون، قال ابن الأثير في المسـتدرك: **هذه أجمع آية في القرآن للخير والشرِّ**، قال الحسن البصري: «أمرت بكلِّ خير ونهت عن كلِّ شرٍّ» قال ابن عَبَّاس رضي الله عنه: إنَّه قال عثمان بن مظعون رضي الله عنه: «ما أسلمت أوَّلا إلَّا حياء من رسـول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يتقرَّر الإيمان في قلبي، فحضرته ذات يوم فبينما هو يحدِّثني إذ رأيت بصره شخص إلى السـماء ثمَّ خفضه عن يمينه ثمَّ عاد لمثل ذلك، فسـألته؟ فقال: «**بينما أحدِّثك إذ جبريل نزل عن يميني، فقال:** ﴿**إِنَّ اللهَ يَامُرُ بِالْعَدْلِ...**﴾» فوقع الإيمان في قلبي وقـال: إنَّ في هذه الآية لحلاوة وإنَّ

(1) أخرجه **العراقي** في كتابه المغني، ج 2، ص 215. والشجري في الأمالي، ج 2، ص 127، من حديث أبي هريرة.



في القرآن لطلاوة، وإنَّ أعلاه لمثمر وأسفله لمغدق ـ بغين معجمة ودال مهملة أي كثير الماء أسفله ـ وما هو بكلام البشر بل هو كلام خالق القوى والقدر».

وكان بنو أميَّة يلعنون عليًّا في المنابر، ولَمَّا تولَّى عمر بن عبد العزيز قطع ذلك في كلِّ بلد، وجعل مكانه: ﴿إِنَّ اللهَ يَامُرُ بِالْعَدْلِ وَالِاحْسَانِ... ﴾الآية فكان له على ذلك مدح عظيم وقبول، وهو حقٌّ لأنَّ اعتياد الشتم والإكثار منه ليس عبادة، [قلت:] ولا سيما ما كان **انتقاما وجهالة وبغيا** على المتقدِّم بالخلافة.

وأنا أتمنَّى قطـع ذلك من ورجـلان إذ كان مؤذِّن المالكية يقول شـتما لأصحابنا بتعريض وتورية بهم ليلة كلِّ جمعة: «من أبغض معاوية فأمُّه هاوية» مع أنَّ عليًّا ومعاوية متباغضان، ويقول: «من أبغض عليًّا فخصمه النبيء» وكلٌّ من معاوية وعثمـان أبغضا عليًّا، وبغضهما علي، ويقـول: «من أبغض عثمان فأمُّه النيران» وعليٌّ يبغضه.

[سيرة] بلغ أكتمَ بن صيفي أمرُه ﷺ، فأرسـل إليه رجلين، فقالا له: من أنت؟ وما جئت به؟ قال ﷺ: «**أنا محمَّد بن عبد الله، عبد الله ورسـوله**» وتلا: ﴿إِنَّ اللهَ يَامُرُ بِالْعَدْلِ... ﴾ قالا: ردِّد علينا، فردَّده حتَّى حفظاه، فأخبرا به أكتم، فقال: إنِّي أراه يأمر بمكارم الأخلاق وينهى عـن مذامِّها، فكونا في هذا الأمر رأسا لا أذنابا. رواه أبو نعيم عن عبد الملك بن عمير.

[أصول الفقه] وفعـل الأمر ولام الأمر، واسـم فعل الأمـر، والمصدر النائب عنه، الأصل فيهنَّ الوجوب، وأمَّا لفظ أمر ويأمر ومُرْ والأمر فموضوع للقدر المشترك بين الوجوب والندب.

ولو لم يكـن في القرآن إلَّا هـذه الآية لصدق عليه أنَّه تبيان لكلِّ شـيء وهدى ورحمة للعالمين، ولعلَّ الله نبَّه على هـذا بإيرادها عقب قوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾.

وبعد الإجمال في الأمر والنهي فصَّل بعضا في قوله تبارك وتعالى: ﴿**وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللهِ**﴾ بالعهد الذي عاهدتم الله ﴿**إِذَا عَاهَدْتُمْ**﴾ شامل للطاعة والمباح في الوعد والنذر بِأَيِّ لفظ، وشمل بيعة الإمام اعتبارا بما بعد، فإنَّ الآية مكِّية، وإنَّما البيعة بالمدينة، ولا يلزم من وجوب الوفاء بالشيء إذا كان أن يكون جائز الوقوع في الحال، ألا ترى إلى قوله ﴿إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾؟

ودخلت فيه بيعة الأنصار ﭫ الأولى والثانية والثالثة، ودخل فيه كلُّ ما قبلوه عنه ﷺ، وحِلف الجَاهِلِيَّة قال ﷺ: «**كلُّ حلف في الجَاهِلِيَّة لم يزده الإسلام إلَّا شدَّة**»[1] وكانوا يتحالفون على التناصر فيبقى في الإسلام على الوجه الشرعيِّ، ونسخ الإرث به[2].

والآية نزلت في بيعته وهي على العموم، وخصوص السبب لا ينقض عموم اللفظ، ﴿**وَلَا تَنقُضُواْ الاَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا**﴾ ليس التوكيد قيدا فلا تنقض [الأيمان] ولو لم تؤكَّد، ولكن نزلت الآية وهم يؤكِّدونها فكانت على ما هم عليه، [قلت:] وتوكيدها يكون بتكرير أسماء الله أو صفاته، مثل: والله العزيز، وقدرة الله وعزَّته وأفعاله عندي[3]، أو أَرَاد بتوكيدها أنَّها بالله أو صفته أو فعله، وأنَّها في طاعة أو مباح، وأنَّها بقصد لا بغلط أو نسيان أو توهُّم أو لغو، كقولهم: لا والله، وبلى والله.

[فقه] ولا شيء على من حلف على ما توهَّم، فلا عليه، أو على معصية، ويجب النقض فيها، ويستحبُّ فيما إذا رأى ما هو أفضل قال ﷺ: «**من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليأت الذي هو خير، وليكفِّر**

---

(1) رواه **أبو يعلى** في مسنده: ج 3، ص 10، رقم 2332، **وابن حبان** في صحيحه: ج 6، ص 251، رقم 4356 و4357، من حديث جبير بن مطعم. ورواه **الطبراني** في الكبير: ج 11، ص 224، رقم 11740، من حديث ابن عَبَّاس.

(2) الضمير يعود إلى التناصر، أي نسخ الإرث بالتحالف والتناصر بآية الميراث.

(3) يعني أنَّ توكيد اليمين يكون حتَّى بذكر صفاته تعالى الفِعلِيَّة فيما اختاره الشيخ.

عن يمينه»[1] فالآية عَامَّة خصَّصتها السنَّة، وتجب المحافظة على الوفاء باليمين، وإن نقضها وكفَّر فقد أساء، لأنَّ ذلك كالتهاون، قال الله ﷻ: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [سورة المائدة: 89] وعموم آية السورة حجَّة أيضا.

[لغة] والتوكيد والتأكيد ـ بالواو وبالهمز ـ لغتان، وقيل: الهمز بدل منها.

﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً﴾ ضامنا بالوفاء، أو شاهدا أو رقيبا، وذلك استعارة أو مجاز مرسل لعلاقة اللزوم، وكذا الجعل، ويجوز إبقاء «كَفِيلاً» على ظاهره تمثيلا لعدم تخلُّصهم من عقوبته، وأنَّه يسلمهم لها، كما يسلِّم الكفيل من كفله. والجملة حال من واو «تَنقُضُوا». وقد يراد بالعهد ما ذكر كلُّه والأيمان، وخصَّها بالذكر بعد، ﴿إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ من إيفاء ونقض وسائر أعمالكم، أو من جعلكم الله عليكم كفيلا، وذلك تهديد، وتحضيض على الوفاء وعدم النقض.

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ﴾ فكَّت ﴿غَزْلَهَا﴾ مغزولها ﴿مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ شدَّة المغزول وإتقانه ﴿اَنكَاثًا﴾ أقساما منكوثة، حال مقارنة أو مفعول مطلق بمعنى نقضات، أو مفعول ثان لتضمُّن «نَقَضَتْ» معنى صيَّرت.

امرأة حمقاء من قريش، اسمها ريطة بنت سعد بن تيم، اتَّخذَت مغزلا قدر ذراع، وصنَّارة مثل الإصبع، وفلكة عظيمة، على قدر ذلك، تغزل هي وجواريها من الغداة إلى الظهر، ثمَّ تأمرهنَّ فينقضن ما غزلن، وقيل: امرأة اسمها ريطة بنت عمرو المرِّية تلقَّب الحفراء، وكلتاهما تسمَّى خرقاء مكَّة.

وأخرج ابن حاتم عن أبي بكر بن حفص أنَّ سعيدة الأسديَّة مجنونة تجمع الشعر والليف، فنزلت الآية، وذكر ابن مردويه عن ابن عطاء أنَّها شكت جنونها

(1) رواه **ابن حبَّان** في صحيحه: ج 6، ص 273، رقم 4332، و**الطبراني** في الكبير: ج 17، ص 97، رقم 232، من حديث عديِّ بن حاتم.

إلى رسـول الله ﷺ، فقال: «**إن شـئت دعوت الله يعافك، وإن شـئت صبرت تدخلي الجنَّة**» فاختارت الصبر والجنَّة، وذكر عطاء أنَّ ابن عَبَّاس أراه إِيَّاهَا.

وقيل: ليت، الآية في امرأة مخصوصة بل مطلق من تفعل ذلك ومن ذلك نسـاء نجد تنقض إحداهـنَّ غزلها وتنفشـه فتغزله بالصـوف، وجملة قوله: ﴿**تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُم**﴾ خبر ثان لـ«تَكُونَ» أو حال من اسمه، أو من المسـتتر في «كَالَّتِي»، ولا حاجة إلى تقدير: «أتتَّخذون» بالاستفهام الإنكاريِّ على الاسـتئناف، وأيضا يصحُّ الإنكار بلا همزة كما تعيـب على أحد وتذمُّه بذكر فعله الخسيس.

و﴿دَخَلاً﴾ فسادا وغشًّـا في محَالفتكم، أن تحالفوا قوما. فإذا رأيتم أعزَّ منهم أو أكثر نقضتـم المحالفة، وحالفتم الأعزَّ أو الأكثـر ﴿**أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبىٰ مِنُ امَّةٍ**﴾ أكثر من أمَّة أي بأن تكـون أو لأن تكون، متعلِّق بـ«تَتَّخِذُونَ» أو يقدَّر: مخافة أن تكون، أو طمع أن تكون، وأمَّا [التقدير] بأن تنقضوها لأن تكون فيضعف، لمزيد الحذف، فلا يقدَّر القرآن به.

والمعنى: بـأن تحالفوا الأمَّـة الأكثرين عـددا ومالا أو عـزًّا، وتغدروا بالأولى، وإنَّما **يقِرُّهم الله على المحالفة التي في المحافظة على الحقوق.**

[نحو] و«هِيَ» ضمير فصل، ولو كان اسـمها نكرة، هذا مذهب الكوفيِّين ويجوز كونها بلا خبر.

﴿**إِنَّمَـا يَبْلُوكُمُ**﴾ يختبركـم ﴿**اللهُ**﴾ ويكلِّفكم ﴿**بِهِ**﴾ بالإيفـاء بالعهد أو بالأمر بالإيفاء، أو بكون الأمَّـة أربى، أو بالرُّبُوِّ، واختـار بعضهم عوده إلى الكون المذكور.

والمعنى: يَخْتَبِرُكُم أتبقون أَيُّهَا المؤمنون على بيعة الرسول وعلى ما أنتم عليـه أو تنقضـون؟ وذلك لكثـرة قريش وقلَّـة المؤمنين كعـادة قريش في

الجَاهِلِيَّة، ينقضون الحلف إذا رأوا كثرة وعزَّة في آخرين ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ من التصديق والتكذيب، والبقاء على العهد ونقضه، فيُجازيكم على ذلك.

﴿وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ على الإسلام بالإجبار.

[قلت:] وليس الإجبار حكمة إذ لا يمدح المجبَر ولا يذمُّ ولا يستحقُّ ثوابا ولا عقابا، أو لو شاء الله لجعلكم على الإسلام باختياركم ﴿وَلَكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ بالخذلان عن الهدى، لاختيار الضلال بالكسب الاختياري ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ بالتوفيق إليه لاختيار المهتدي.

[أصول الدين] وكلا الاختيارين مخلوق لله تعالى، ومع خلقه لا إجبار، هذا مذهبنا، فللعبد قدرة مؤثِّرة بإذن الله عز وجل مخلوقة له تعالى، وشهر عن الأَشعَرِيَّة أنَّ له قدرة مقارنة غير مؤثِّرة، وزعمت المعتزلة أنَّ له قدرة مؤثِّرة مستقلَّة عن الله، ولا تحتاج إلى إذنه، قبَّحهم الله عز وجل، وزعمت المجبرة لعنهم الله أنَّ العبد مجبر.

[قلت:] والذي حفظت من قبل أنَّ مذهب الأَشعَرِيَّة مذهبنا وهم أهل المذاهب الأربعة، ولعلَّ من نسب إليهم ما ذكرتُه قبلَ هذا عنهم أراد بهم قوما يعمُّهم من فوقهم، ولا واجب على الله عز وجل، وتوفيقه لمن يشاء فضل وإحسان، وقدَّم الإضلال لأنَّ أهله أكثر.

﴿وَلَتُسْأَلُنَّ﴾ يوم القيامة ﴿عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ سؤال تبكيت وتوبيخ، والسؤال المنفيُّ في مثل قوله: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [سورة القصص: 78] ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [سورة الرحمن: 39] للاستفهام الحقيقيِّ، لأنَّ الله لا يخفى عنه شيء، أو المنفيُّ عند الخروج من القبور والمثبت في الموقف، أو كلٌّ فيه، يسألون في موقف دون آخر سؤالا غير حقيق على كلِّ حال.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾ ليس تأكيدا لقوله: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾ لأنَّ الأوَّل عاب الله به عليهم عيبا، والثاني تصريح بما تضمَّنه العيب، فلو قلت: «أنت تسرق، لَا تَسْرِقْ» لكان الثاني نهيا عَمَّا عابه من السرقة لا تأكيدا له، والعيب بالشيء يتضمَّن النهي عنه، فإذا نهيت بعد العيب فقد صرَّحت بالمضمون، وأيضا الثاني على العموم في البيعة والمال وسائر الحقوق وغير ذلك، والأوَّل في ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍ﴾ ودعوى أنَّه الثاني غَفْلَةٌ، ووجه تسمية بعضٍ له تأكيدا أنَّه يؤخذ من الأوَّل، ومع أخذه منه صرَّح به، ولا يعارض ذلك بقوله تعالى: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ﴾ إذ لا مانع من أن يقال: فتزلَّ عَمَّا كان عليه قبل من الوفاء بالبيعة وسائر حقوق الإسلام.

[قلت:] وليس صوابا أن تقول العامُّ بعد الخاصِّ تكرير إلَّا بمعنى أنَّ الخاصَّ في ضمن العامِّ، وكذا في العكس، ومَن نفى التكرير أراد أنَّه ليس أحدهما عين الآخر.

﴿فَتَزِلَّ﴾ عن الإسلام أو عنه وعن سائر حقوقه، كما مرَّ آنفا ﴿قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾ عليه، وأفرد القدم باعتبار كلِّ فرد في قوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ﴾ كأنَّه قيل: لا تتَّخذ يا زيد يمينك دخلا مع صاحبك فتزلَّ قدمك، ولا تتَّخذ يا عمرو... إلخ، وهكذا، أو يقدَّر: «فتزلَّ كلُّ قدم منكم»، وذلك أولى من دعوى استعمال النكرة على العموم الاستغراقيِّ في الإثبات.

وأمَّا ما قيل: إنَّه أفرد تلويحا بأنَّ زلَّة قدم واحدة أمر عظيم كيف أقدام كثيرة، فإنَّما أفاد نكتة وعظية لا قاعدة عَرَبِيَّة، [قلت:] ولا يقبل في التفسير ما لم يكن على القاعدة العَرَبِيَّة، إذ لا يلزم أنَّ الزالَّ قدم واحدة حتَّى يبنى عليه أن يقال فكيف أقدام؟ بل المقام لزلل القدم، هكذا أفردت أو عمَّت.

﴿وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ تنالوا بإعراضكم عن سبيل الله أو بمنعكم غيركم عنه العذاب في الدنيا بالقتل وما دونه، وذلك بألسنتكم

وبفعلكـــم، فإنَّه من نقـــض البيعة وارتدَّ جعل ذلك ســـنَّة لغيـــره، وذلك منع بالفعل، وإذا قال لغيـــره: انقضها فذلك صدٌّ بلســـانه، وأمَّا عذاب الآخرة ففي قوله: ﴿**وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ في الآخرة.

﴿**وَلَا تَشْتَرُواْ**﴾ لا تستبدلوا ﴿**بِعَهْدِ اللهِ**﴾ شـــامل لبيعة رسوله ﷺ، والباء داخلة على ما يتركونه ﴿**ثَمَنًا قَلِيلاً**﴾ بدلا هـــو قليل، ولو كان هو الدنيا كلَّها، فكيف ثياب ودريهمات وهنوات. يعدُّها قريش لمن يرتدُّ من الضعفاء، وقيل: الآية تعمُّ ذلك وتعمُّ أخذ الرشـــوة في الحكم، وشـــهادة الزور وكتمها، وأخذ المال بغير حلٍّ وكلَّ أكل بالدِّين.

﴿**إِنَّمَا عِندَ اللهِ**﴾ من العزِّ الدنيويِّ والنصر والغنائم والجنَّة في الآخرة ﴿**هُوَ خَيْرٌ**﴾ لدوامه وعظمه ﴿**لَكُمْ**﴾ مِمَّـــا في الدنيا من جهتهم، لانقطاعه وحقارته ﴿**إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ إن كنتم من أهل التمييز يظهـــر لكم خيريته، أو إن كنتم تعلمون فلا تنقضوا.

﴿**مَا عِندَكُمْ**﴾ من الدنيا ولو مِمَّا حلَّ لكم ﴿**يَنفَدُ**﴾ ينقضي ﴿**وَمَا عِندَ اللهِ**﴾ في الآخرة من الجنَّة لمن لم ينقض ﴿**بَـــاقٍ**﴾ لا ينقضي، ومن الجائز أن يقال: ما عند الله باق وشامل لاســـتمرار الغنائم والفتوحات، وما يتأهَّل له بالإسلام، وأيضا يتَّصل نعم الدنيا الإسلاَميَّة بنعم الآخرة التي تدوم، فذلك دوام.

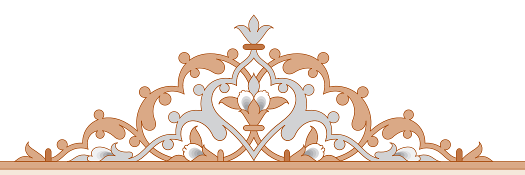
أو ما عند الله فـــي الموضعين نعم الآخـــرة، أخبرنا ســـبحانه أنَّها خير من الدنيا، وأنَّها باقية، ولا تكرارَ بهذا، ولعن الله[1] جهم بن صفوان على قوله بأن نعم الآخرة تنقضي، بخلاف ما يعدكم به المشـــركون فشـــيءٌ محصور حقير. ﴿**وَلَنَجْزِيَنَّ الذِيـــنَ صَبَرُواْ**﴾ على الوفـــاء وعدم النقض والفقر وإيـــذاء الكُفَّار

(1) وددنا لو أن الشيخ لا يتسرع إلى اللعن؛ إذ إنَّ التراث الإسلاميَّ مليء بالروايات المدسوسة عن أناس قصد التشنيع عليهم. (المراجع)

ومشاقِّ التكليف، وعن اللذَّات وعلى المصايب ﴿**أَجْرَهُم**﴾ على ذلك، مفعول ثان ﴿**بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**﴾ متعلِّق بـ«أَجْرَهُمْ». و«نَجْزِي»: بمعنى نعطي، أي نعطيهم الإثابة بحسن ما كانوا يعملون. و«أَحْسَن» خارج عن التفضيل بمعنى حسن، متحرَّز به عن القبيح من أعمالهم. و«مَا» مَصدَرِيَّة أو اسم، أو «أَجْرَهُمْ» مفعول مطلق لـ«نَجْزِي»، والباء متعلِّق بـ«نَجْزِي»، أي ولنجزينَّهم الجزاء المتأهِّلين له، والمراد: ثواب عملهم الحسن، وهو الفرض والنفل والمباح الذي قصدوا به العبادة.

أو «أحسن» باق على التفضيل، بمعنى أنَّه إذا صلُّوا قعودا أو مضطجعين لعذر متيمِّمين كتبنا لهم الصلاة بوضوء وطهارة كاملة في القيام وما أشبه ذلك، وأمَّا ما قيل من أنَّ المعنى: بجزاء أحسن من أعمالهم فلا يصحُّ، لأنَّ فيه إضافة اسم التفضيل إلى ما لا يشمله، لا تقول: يوسف أحسن إخوته لأنَّ إخوته لا تشمله، وتقول: يوسف أحسن أولاد يعقوب لأنَّ أولاد يعقوب يشمل يوسف، وذلك أنَّه فُسِّر «أَحْسَن» بالثواب.

ولو فسِّر بالعمل لجاز لأنَّه يشمله، فيجوز أن يقدَّر: ولنجزينَّهم بالعمل الأعلى على العمل الأدنى، مثل أن يجازيهم بالفرض على النفل يعطيه على النفل ثواب الفرض. ومن الأحسنيَّة أن الحسنة بعشرٍ فصاعدا، أو «أحسن ما كانوا يعملون»: الصبر، وهو من أعمال القلب وهو من جملة الأعمال **وهو أحسنها** لأنَّ جميع التكاليف محتاجة إليه فهو رأسها.



﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٧﴾

أجمع آية في الترغيب للعمل الصالح

﴿**مَنْ عَمَلَ صَالِحًا**﴾ عملا صالحا من فرض أو نفل ودخل فيه ترك ما نهي عنه ﴿**مِن ذَكَرٍ اَوُ انثىٰ**﴾ والخنثى ذكرٌ عند الله أو أنثى، أو اقتصر على الغالب، وفي ذكر الذكر والأنثى ترغيب لها ودفع لتوهُّم أن لا ثواب لها، كما روي: «**إنَّ النساء اشتكين أنَّهنَّ لا يذكرن في الخير**»(1) فأوحى الله إليه ﷺ: إنَّهنَّ مشتركات مع الرجال فيما عملوا لإعانتهم بالقيام بالبيت ومصالح الرجل، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ...﴾ [سورة الأحزاب: 35]، ومثل قوله: ﴿مِن ذَكَرٍ اَوُ انثىٰ﴾.

[أصول الدين] ﴿**وَهُوَ مُومِنٌ**﴾ موحِّد غير مصرٍّ على ذنب، إذ لا ثواب للمشرك ولا للمصرِّ، لأنَّ الإحباط مراعىً كالإحباط بالمنِّ والأذى، وكقول عائشة: «قل لفلان إنَّه أحبط عمله مع رسول الله ﷺ لبيع ربا بتذرع»(2) كما ذكره الشيخ عامر في الإيضاح(3).

---

(1) روى **أحمد** في مسنده رقم: 25389 في مسند الأنصار ما يؤيِّده معنىً.

(2) رواه **البيهقي** في سننه، باب الرجل يبيع الشيء إلى أجل ثم يشتريه بأقل، ج5، ص331، من حديث العالية بنت أيفع، بلفظ: «أبلغي زيداً أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله ﷺ إن لم يتب».

(3) الشيخ عامر بن علي **الشَّمَّاخِي**: الإيضاح، ج5، ص45، (طبعة عُمان).

واختلف في المشــرك هل ينقص عذابه في النار بحســناته فــي الدنيا؟ الصحيح لا، ونســب للجمهور، وكثرت أدلَّته، فإن صحَّ عنه ﷺ أنَّ أبا طالب في ضحضاح من نار إلى كعبيه فقط، والتخفيف عــن أبي لهب في كلِّ اثنين فمن خصوصياته ﷺ، وأعظم من هذا ما ذكروا: أنَّه يســقى أبو لهب في مثل نقرة الإبهام[1]، وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَّعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [سورة الزلزلة: 7] خاصٌّ بالسعداء وما بعده بالأشقياء، وأمَّا دفع الســوء في الدنيا بما عمل من خير فواقع لا يختلف فيه.

﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَــوٰةً طَيِّبَةً﴾ في الدنيا بالقناعة والرزق الحلال، موســرا أو متوسِّطا أو معسِّرا، وإراحة القلب عن الجزع والحرص، وعدم القلق، إذ صدَّق بأنَّ الله ﷻ ضمن رزقه ولو يوما بيوم، ورضي بقســم الله وانتظر أجر الآخرة، وإذا جاءه ســوء لم يشتدَّ عليه ما يشــتدُّ على الكافر لأنَّه قد يتوقَّعه، فلم يجئه من حيث يتوقَّع الخير، بخلاف الكافر فإنَّه ما يتوقَّع الســوء فإذا جاء جاءه من حيث يتوقَّع الخير فيزيد شــدَّة في قلبه، **والمشرك والفاسق في تعب القلب أو مع البدن، ـ ولو في إيسارٍ ـ خوفَ النقص.**

وقيل: الحياة الطَّيِّبة لــذَّة الطاعة، وقيل: في القبر لأنَّه يســتريح من أذى الدنيا، فعنــه ﷺ: «**القبر روضة من ريــاض الجنَّة أو حفرة من حفــر النار**»[2] وقيل: الحياة الطيِّبة الحياة بالحلال، لأنَّه لا يترتَّب عليها عقاب بخلاف الحياة

---

(1) روى معناه **البخاري**، كتاب النكاح، ﴿وأمهاتكم اللاتــي أرضعنكم﴾ رقم 4711، عن عروة ابن الزبير.

(2) أورده **الزبيدي** في الإتحــاف: ج1، ص380. **والهندي** في الكنــز: الكتاب الرابع من حرف الميم من قســم الأقوال، كتاب المــوت وأحوال تقع بهــذه، الفصل الســادس في الدفن، (الإكمال: ج15، ص603، رقم 42397) وقال: رواه البيهقــي في كتاب عذاب القبر عن ابن عمر. **والمنذري** في الترغيب في ذكر الموت، ج4، ص238، رقم 4.

بالحرام، كما جاء: «**كلُّ لحم نبت من سحت فالنار أولى به**»[1]، وفيه أنَّ المقام ليس لهذا، وقيل: في الجنَّة لزوال الأذى فيها البتَّة.

[قلت:] والصحيح أنَّ ذلك في الدنيا أو في البرزخ يأكل من ثمار الجنَّة عند باب الجنَّة، وإن كان شهيدا ففيها حتَّى تقوم الساعة، ويموت كلُّ شيء إلَّا الله فلا أكل، وأمَّا الآخرة ففي قوله: ﴿**وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**﴾، وإن فسِّرت بالآخرة فقوله: ﴿لَنَجْزِيَنَّهُم﴾ فيها أيضا بيان لكون مراتبها بقدر الأعمال، وليس فيها عطف الشيء على نفسه، ولا تكرير بين قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا...﴾ وقوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الذِينَ صَبَرُواْ﴾ [سورة النحل: 96] لأنَّ الأخيرة على العموم، والأولى في حقِّ من عاهد رسول الله ﷺ.

وإن جعلنا الأولى على العموم أيضا فهذه إشارة إلى جلب المصالح، أو الأولى على الصبر وهذه على ما هو أعمُّ، أو الأولى في الدنيا وهذه في الآخرة.

---

(1) رواه **الطبراني** في الكبير: ج 19، ص 105، رقم 212، في حديث طويل وأوَّله قوله: عن كعب بن عجرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أعيذك بالله من أمراء يكونون بعدي، فمن غشي أبوابهم وصدَّقهم في كذبهم وأعانهم على جورهم فليس مِنِّي ولست منه...». وفي الصغير أيضا: ج 1 ص 225. من حديث كعب بن عجرة الأنصاري.

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿98﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿99﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿100﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَا ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿101﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿102﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿103﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿104﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿105﴾ ﴾

الأمر بالاستعاذة من الشيطان، وإثبات النسخ، وعربيَّة القرآن

ولَمَّا ذكر الله ﷻ أنَّه يجازي على الصالحات ذكر ما يخلص به العمل عن الفساد وهو الاستعاذة، فقال حفظا عنه ودفعا للوسوسة في القراءة:

﴿ **فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ** ﴾ أردت قراءة القرآن، فالاستعاذة قبل القراءة، أطلق المسبَّب وهو القراءة على السبب وهو الإرادة، أو إذا شارفت قراءة القرآن، فأطلق لفظ أحد المتجاورين على الآخر، ففي الآية على الوجهين مجاز مرسل تبعيٌّ.

وقالت الظاهرية: بعد القراءة، للفظ الآيــة، ولا يقدِّرون الإرادة وهو **خطأ فاحش**، ونســب لأبي هريرة وابن ســيرين ومالك والنخعــي وحمزة القارئ وداود الأصبهاني الذي إليه تنسب الظاهرية، فعن نافع عن جبير بن مطعم أنَّ النبيء ﷺ كان يقول قبل القراءة: «**أعوذ بالله من الشــيطان الرجيم**» والحديث يفسِّــر القرآن وبالعكس، وهو رواية عن ابن ســيرين، وزعم بعض أنَّه يستعاذ قبل القراءة وبعدها احتياطا وهو **مخالف للسنَّة**.

[فقه] ويســتعاذ للقراءة في الصلاة وغيرها وجوبا علــى الصحيح، لأنَّ الأمر للوجوب، وقيل: استحبابا ونســبه قومنا للجمهور، ويستعاذ قبل القراءة في الركعة الأولى فقط عندنا وعند الحَنَفِيَّة، قال الشافعي: أوَّل كلِّ ركعة، لأنَّ القراءة قد فصلت بالتكبير وما بعده ثمَّ رجع آخرا إلى أنَّها أوَّل الركعة الأولى فقط، وهو بعد تكبيرة الإحرام لا قبلها، لأنَّها للقراءة.

وروي أنَّه ﷺ إذا أتمَّ التوجيه قال: «**أعوذ بالله الســميع العليم من الشيطان الرجيم**» ولعلَّه بذلك أخذ من يستعيذ قبل الإحرام.

[قلت:] ولا يحســن ذلك لأنَّه ﷺ رجع إلى أن لا يقال: أعوذ بالله السميع العليم... إلخ بل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وإلى أنَّه بعد الإحرام.

وعن ابن ســيرين تجزي الاســتعاذة في العمر مرَّة واحدة في الصلاة أو غيرها، ويردُّه أنَّها معلَّقة بالقراءة كالغسل من كلِّ جنابة، إذْ قال الله ﷻ: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فاطَّهَّرُواْ﴾ [سورة المائدة: 6] وكأنَّه قيل: كلَّما أردت القراءة فاستعذ.

[فقه] وأجمع القرَّاء وجمهور الفقهاء على أنَّ الاســتعاذة قبل القراءة، وجاء الحديــث على ذلك، ومــرَّ حديث نافــع، وعن معقل بن يســار أنَّه قال ﷺ: «**من قال حين يصبح ثلاث مرَّات: أعوذ بالله من الشــيطان الرجيم، بِسْــمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وقرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر، وكَّل الله**

به سبعين ألف ملك يصلُّون عليه حتَّى يمسي»[1] وفي الحديث قراءة البسملة داخل السورة، ومنعه أصحابه[2].

﴿**فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**﴾ قال ابن مسعود ﵁: قلت عند رسول الله ﷺ: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم» فقال: «**قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، هكذا أقرأنيه جبريل عن القلم عن اللوح المحفوظ**»، والمتبادر أنَّه أراد القلم الذي أمره الله بالكتابة فكتب، ولا يضرُّنا في ذلك أنَّه متقدِّم في الرتبة عن اللوح، ومعنى رواية جبريل عن القلم أنَّه ثبت عن القلم، وإلَّا فالقلم متقدِّم ساكت، وقيل: المراد القلم الذي ينسخ به جبريل من اللوح.

والمراد بالشيطان إبليس لأنَّه الذي سنَّ كلَّ شرٍّ، فالمراد الاستعاذة من شروره، ولو جرت على يد غيره، وقيل: إبليس وأعوانه ولو آدميِّين.

[فقه] وأخذ من الآية أنَّ الاستعاذة واجبة، وأنَّها للقرآن وأنَّها توصل به، وأنَّها بعد الإحرام للصلاة متَّصلة بالقرآن وغير مفصولة بالتكبير، ومن لم يطق الإعجام فهو معذور في ترك الإعجام كما يعذر في لفظ من الفاتحة أو غيرها لا يطيقه، وما في كتب الفقه من الأقوال معروف. ويعتقد أنَّ المعنى الاعتصام بالله تعالى.

﴿**إِنَّهُ**﴾ أي الشيطان لا الشأن ولو كان أقوى، إذ لا دليل له ﴿**لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الذِينَ ءَامَنُواْ**﴾ تسلُّط واستيلاء بالإجبار، وإنَّما شأنه ـ والعياذ بالله ﷻ منه ـ الوسوسة بالسوء، وقيل: ليس له سلطنة على عمل حتَّى لا تقبل التوبة منه، والجملة تعليل جملي ﴿**وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ**﴾ لا على غيره ﴿**يَتَوَكَّلُونَ**﴾

---

(1) رواه **الترمذي** في كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في من قرأ حرفا من القرآن، رقم 2922. ورواه **أحمد** في كتاب مسند البصريين، رقم 19419. ورواه **الدارمي** في كتاب فضائل القرآن، باب في فضل حم الدخان والحواميم والمسبّحات، رقم 3291. من حديث معقل بن يسار.

(2) أي أصحاب الحديث.

عطف المضارعيَّة الحاليَّة التجديديَّة على الماضويَّة الراسخة، والآية دفع لتوهُّم من يتوهَّمُ أنَّ له استيلاء على أولياء الله إذ أمر بالاستعاذة منه، بل إذا عصوا سارعوا نادمين.

﴿**إِنَّمَا سُلْطَانُهُ**﴾ قدرته المؤثِّرة بقدرة الله ﷻ ﴿**عَلَى الذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ**﴾ يهملون أنفسهم إليه ولا يأخذون حذرهم منه، ولا يتوقَّون منه إهلاكا، كأنَّه وليُّهم الذي يحبُّونه.

[قلت:] ولا أظنُّ أحدا يحبُّ الشيطان إلَّا على جهة المتابعة والتمثيل، إلَّا من يتكلَّم له من جوف الصنم فيعدُّه حبيبا.

وقدَّم تولِّيه على الإشراك لأنَّه قوبل به ما اتَّصَلَ به قبله، وهو التوكُّل على الله، ولأنَّ الإشراك متولِّد من تولِّيه متأخِّر عنه، كما أنَّ التوكُّل على الله مرتَّب على الإيمان به، والماضويَّة في «ءَامَنُوا» لتحقُّق الوقوع، والمضارعيَّة في «يَتَوَكَّلُونَ» و«يَتَوَلَّوْنَ» للتجدُّد، والاسميَّة في قوله ﷻ: ﴿**وَالذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ**﴾ للثبات، وهذا تخصيص بعد تعميم فإنَّ المتولِّين له أعمُّ من المشركين به.

وهذا أولى من جعل ذلك عطف صفة على أخرى هكذا: إنَّما سلطانه على الجامعين بين تولِّيه والإشراك به. والهاء في «بِهِ» عائدة إلى الشيطان، أي وقعوا في الشرك بالشيطان، أو إلى الله، أي أشركوا الشيطان بالله في الأُلوهِيَّة.

﴿**وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ**﴾ بنسخ حكم الأولى أو لفظها، أو حكمها ولفظها ﴿**وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ**﴾ مقتضى الظاهر: ونحن نعلم بما ننزِّل، ولم يعبِّر بذلك لتفخيم الأمر بلفظ الجلالة، والجملة معترضة أولى من أن تكون حالا.

[نحو] [قلت:] إلَّا أنَّ التحقيق عندي أنَّ المعترضة المقرونة بالواو معطوفة على الجملة التي هي في وسطها ولو كان المعطوف لا يتقدَّم على

المعطوف عليه، إذ لو جعلنا الواو اعتراضيــة لكانت كحرف الهجاء لا معنى لها، وكذا إذا قلَّدتم في واو الاســتئناف، وجعْلُ الواو اعتراضيَّة أو اســتئنافيَّة خطأً، بل تجعل الواو عاطفة أو حاليَّة، وســاغ عطف الجملة المعترضة على الجملة التي هي في داخلها قبل تمامها، مثل: «إن قام ويقعدا أخواك»، بعطف «يقعدا» على «قام أخواك» قبــل تمامه، ولا يصحُّ ما قيــل إنَّ المعطوف عليه «قام» وحده إذ لا تعطف الجملة على فعل وحده.

﴿**قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ**﴾ يا محَمَّد ﴿**مُفْتَرِۭ**﴾ كاذب على الله، إذ لو كان القرآن من الله لم يأمرك بترك شــيء بعد الأمر به، أو بفعل شــيء بعــد النهي عنه ﴿**بَلَ اَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ ليسوا من أهل العلم، أو لا يعلمون حكمة النسخ، وهي أن يعملوا بشــيء إلى وقت معلوم عنده فيأمرهم بخلافــه في ذلك لصلاحه، كما يأمرون عبيدهم ومــن تحت أيديهم وعندهــم أنَّه إذا كان كــذا أمروهُم بخلافه، إلَّا أنَّهم يجهلون، والله لا يجهل ولهم بداوة والله لا بداوة له.

[قلت:] والطبيــب الماهر يأمر أحدا بشــيء ثمَّ ينهاه عنــه ويأمر بضدِّه، **وكذلك أمر الديانة طــبٌّ لأهلها** فتختلف باختلاف الأســباب لأوقاتها، ولِمَا شاء الله من الحكم.

[سبب النزول] قال ابن عَبَّاس ﵄ : «كان المشــركون إذا نزلت آية فيها شدَّة، ثمَّ نزلت أخرى تنسخها إلى أخفَّ منها تخفيفا عليهم، أو إلى غير أخفَّ لمصلحة، قالوا: إنَّ محَمَّدًا يســخر بأصحابه، يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غدا، إنَّما هو مفتر يتقوَّله من تلقاء نفسه، فأنزل الله ﷻ : ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرِۭ بَلَ اَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾».

﴿**قُلْ نَزَّلَهُ**﴾ ردَّ الضمير للقــرآن لدلالة قوله: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَــآ ءَايَةً...﴾ عليه ﴿**رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ**﴾ من التنازع كما مــرَّ، أو يختصُّ «بُشْــرَى» به، قل يا محَمَّد لهــم: نزل القرآن

بالتدريج بحسب الحكمة والمصالح، كما هو مقتضى التشديد للزاي، إذ لم يقل: «أنزل» بالهمزة والتخفيف، وكلاهما مستعمل في شأن القرآن.

والروح: جبريل الذي هو في إحياء القلوب بالوحي كالروح للجسد، و﴿القُدُس﴾: الطهارة من إضافة الموصوف إلى صفته المعنويَّة اللغويَّة لا الاصطلاحيَّة، كما تقول: حاتم الجود، وسحبان الفصاحة، وزيد النصر، وإله القدرة، والاصطلاحيَّة: حاتم الجواد، وزيد المنصور، بأن تجعل القدُس اسما لجبريل مبالغةً، فتضيفه إليه.

وأضيف للطهر لأنَّه يجيء بما هو طهارة للنفوس، وهو القرآن والحكم والفيض الإلهي، أو لطهره من أدناس الشرِّ، ومقتضى الظاهر: «من ربِّي»، لأنَّه ﷺ إذا أدَّى إليهم يقول: «**نزَّل روح القدس عليَّ من ربِّي**».

وفي ترك خطابهم حطٌّ لقدرهم، ولكن جاء بالكاف لتربية الإجلال والمخافة في قلبه ﷺ، وإذا أصاب المؤمن فتور أو ملل أو ارتياب مَّا أو حادث زال بما ينزل، أو لم يصابوا بذلك لكن يزدادون به قُوَّة، وهذا النسخ الذي هو ريبة للكفار حجَّة للمؤمنين يزدادون به رسوخا لتدرُّبهم، وتدبُّرهم في الناسخ والمنسوخ.

[نحو] و«هُدًى» و«بُشْرَى» مجروران عطفا على مجرور اللام، أي لتثبيت الذين آمنوا، ولهدى وبشرى، قيل: ويجوز النصب على التعليل لجواز: «أعطيت زيدا لحبِّي له وإكراما»، والجرُّ أولى، وهذا النصب ما هو إلَّا كعطف التوهُّم، وهو عطف على المعنى، نحو: «زرتك لأحدِّثك وإجلالا لك» تتوهَّم أنَّك قلت: زرتك تحديثا لك، وأيضا لو قيل نزَّله روح القدس من ربِّك تثبيتَه الذين آمنوا بنصب «تثبيت» على التعليل لكان المفعول من أجله معرفة وهو مرجوح.

والآية تلويح بالخذلان لِلكُفَّارِ والإضلالِ لهم والخزيِ، ومعنى هدى المسلمين وتبشيرهم: الزيادة لهم من ذلك، فلا تحصيل حاصل، وإن شئت

فقل: المراد بالمسلمين من قضى الله إسلامه، واستحضر مثل هذا في سائر الآيات الشبيهات بهذه، فيشمل ابتداء ذلك واستمراره بعدُ، لا خصوص الزيادة، فافهم أفهمك الله الرحمن الرحيم.

﴿**وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ**﴾ كُفَّار مكَّة ﴿**يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ**﴾ يعلِّم محَمَّدًا، والهاء له ﷺ، والمفعول الثاني محذوف أي يعلِّمه القرآنَ، ويجوز أن تكون للقرآن فهي المفعول الثاني والأوَّل محذوف، أي يعلِّمه محَمَّدًا، فـ«محَمَّدًا» مفعول أوَّل مؤخَّر أو ينوى تقديمه، ورجَّح بعضهم هذا ليوافق عود ما إلى الهاء في «نزَّله». والمضارع للتجدُّد، وقيل: بمعنى الماضي، والأوَّل أولى. ﴿**بَشَرٌ**﴾ لا جبريل، وهو «جَبْرٌ الرومي» غلام عامر بن الحضرمي ـ بفتح الجيم وإسكان الباء ـ وكان يقرأ التوراة والإنجيل، وكان ﷺ يمرُّ عليه في بعض الأحيان ويسمع ما يقرأ، فقالوا: ما يقوله محَمَّد يأخذه من جَبْر وليس يوحى إليه به، وقيل: «جبر» و«يسار» روميان من أهل عين التمر، يصنعان السيوف بِمَكَّةَ، ويقرآن التوراة والإنجيل، وكان ﷺ يمرُّ بهما في بعض الأحيان ويسمع قراءتهما، قيل: يجلس إليهما إذا أذاه أهل مكَّة فقيل لأحدهما: إنَّك تعلِّم محمَّدا، فقال: لا بل هو يعلِّمني. والبشر يطلق على الاثنين فصاعدا، وعلى الواحد، فصحَّ تفسيره بهما.

وذكر السهيلي: إنَّه ابن الحضرميِّ عبد الله بن عماد، له من الأولاد العلاء وعمر وعامر، أسلم العلاء وهاجر إلى النبيء ﷺ، وعبارة بعض إنَّ هذا البشر الذي ذكروا أسلم، وقد قيل: ﴿بَشَرٌ﴾: عائش غلام حويطب بن عبد العزَّى، وقيل: اسمه يعيش، أسلم وحسن إسلامه، وله كتب يقرأها، وقيل: سلمان الفارسي، ويردُّه أنَّ سلمان أسلم بالمدينة بعد الهجرة، وكان مملوكا ليهوديٍّ بها، ولا يصحُّ أنَّه ملكه الصدِّيق وأسلم وأعتقه بِمَكَّةَ، وقيل: البشر أبو فكيهة مولى لامرأة بِمَكَّةَ اسمه يسار، وهو يهوديٌّ، وقيل: غلام روميٌّ لبعض قريش

يُسَمَّى بلعام، باسم بلعام الأوَّل، كان ﷺ يعلِّمه الإسلام فقالوا: إنَّه هو يعلِّم محَمَّدًا، ولا مانع من إرادة كلِّ من أمكن أن يذكروه.

وردَّ الله ﷻ على من قال يعلِّمه بشر بقوله: ﴿**لِسَانُ**﴾ أي لغة ﴿**الذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ**﴾ فإذا فسِّر البشر بالاثنين أو بأكثر فإفراد «الذِي» مراعاة للفظ «بَشَرٌ»، ثمَّ إنَّه لا يخفى أنَّ الظاهر أنَّ المراد رجل واحد يعلِّمه. و﴿**يُلْحِدُونَ**﴾: يَميلون إليه ـ بفتح ياء يميلون ـ من «ألحد» اللازم، بمعنى: يلوِّحون بأنَّ القرآن أخذه من البشر لا من جبريل عن الله، أو من المتعدِّي، بمعنى أنَّهم يُميلون القرآن إلى ذلك البشر ـ بضمِّ ياء يُميلون ـ أو يميلون قولهم أو الاستقامة إليه.

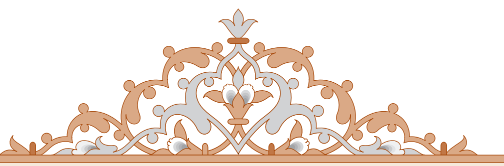
ردَّ الله ﷻ بأنَّ لغة ذلك البشر خفيَّة المعنى مبهمة لا تتَّضح، وهذا القرآن أو كلام محَمَّد الذي هو القرآن كلام متَّضح المعنى، يظهر بنفسه، أو يظهره غيره بأدنى تأمُّل، وكيف تكون معانيه الكثيرة المحتاجة إلى معلِّم ماهر في زمان متَّسع وتأليفه المعجز وإخباره بالغيوب من قعود ساعات قليلة إلى أعجميٍّ سوقيٍّ مملوك لغته غير لغة العرب! ذلك بعيد عند كلِّ عاقل، ولو كان يترجم له بِالعَرَبِيَّة.

[لغة] ومادَّة «ع ج م» للخفاء ومنه العجماوان لصلاتي الظهر والعصر، لأنَّ القراءة فيهما سرٌّ ذكره بعض الحَنَفِيَّة، وسمَّى اللغة لسانا لأنَّه آلتها، أو هذا سرد لسان لا يطيقه فصحاء العرب فكيف غيرهم؟!.

﴿**إِنَّ الذِينَ لَا يُومِنُونَ بِئَايَاتِ اللهِ**﴾ المتلوَّة أنَّها من الله، أو بالمعجزات آيات التلاوة وغيرها، والأوَّل أولى بالمقام، وقد آمن بعضهم فذلك عامٌّ مخصوص، أو المعنى: إنَّ الذين قضى الله عليهم أن لا يؤمنوا لا يهديهم، أي لا يوفِّقهم، أو إنَّ الذين لا يصرفون عقولهم إلى التدبُّر لا يوفِّقهم ﴿**لَا يَهْدِيهِمُ اللهُ**﴾ هداية توفيق وقد هداهم هدى بيان ولم يقبلوه، أو لا يهديهم إلى الجنَّة، والماصدق واحد ﴿**وَلَهُمْ عَذَابٌ اَلِيمٌ**﴾ في الدنيا والآخرة.

زعموا أنَّ محَمَّدًا ﷺ يفتري وما صدقوا، بل هم المفترون، أشار إلى ذلك بقوله: ﴿**إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الذِينَ لَا يُومِنُونَ بِـَٔايَاتِ اللهِ**﴾ ككفَّار قريش الذين قالوا: «إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ»، لأنَّهم لا يخافون ـ لكفرهم بالبعث ـ عقابا، ولو كان يتعلَّم من البشر المذكور لشهر عند الناس أنَّه تلمَّذ له، ولم يقل بأنَّه يعلِّمه بشر سواهم.

﴿**وَأُوْلَئِكَ**﴾ كفَّار مكَّة، أو الذين لا يؤمنون ﴿**هُمُ الْكَاذِبُونَ**﴾ على الحقيقة أو الكاملون في الكذب، إذ لم يجدوا شيئا يردُّون به القرآن إلَّا هذا الذي افتروه من أنَّه يعلِّمه بشر، ولم يقبله أحد عنهم، وذلك دليل على غاية عجزهم، أو الكاذبون المعتادون للكذب مع قبحه لخلوِّهم عَمَّا يردعهم من مروءة أو دين، وذلك كلُّه أولى لعمومه من أن يقال الكاذبون في قولهم إنَّما يعلِّمه بشر.



﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ (106) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ (107) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ (108) لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ (109) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ (110) ۞يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ (111) ﴾

عاقبة المرتدِّين عن الإسلام والمهاجرين بعدما فُتِنوا

﴿**مَن كَفَرَ بِاللهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَانِهِ**﴾ بدلٌ من «الْكَاذِبُونَ»، كأنَّه قيل: وأولئك هم من كفر بالله، أو من «الذِينَ لَا يُومِنُونَ» كأنَّه قيل: إنَّما يفتري الكذب من كفر بالله، أو من «أُوْلَئِكَ» كأنَّه قيل: من كفر بالله هم الكاذبون.

﴿**إِلَّا مَنُ اكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّۢ بِالِايمَانِ**﴾ حال من الإكراه مستمرٌّ حال القتل أو التعذيب، أو ذاهل حالهما غير معتقد للكفر، فإنَّه ليس بكافر، لأنَّ قلبه مطمئنٌّ بالإيمان وإن جرى لفظ الكفر على لسانه كرها، كذا قيل، وفيه أنَّ قريشا لم يكونوا أسلموا، فيجاب بأنَّ المراد أنَّهم تمكَّنوا من الإسلام ثمَّ أعرضوا عنادا.

واعترض أبو حيَّان إبدال «مَن كَفَرَ» مِن «الذِينَ لَا يُومِنُونَ» بأنَّه يقتضي أن لا يفتري الكذب إلَّا المرتدُّ، وأجيب بأنَّ المراد من كفر بالله بعد تمكُّنه من الإيمان، ويأباه قوله: ﴿إِلَّا مَنُ اكْرِهَ﴾، أو «مَن» مبتدأ موصولة أو شرطية، ويقدَّر خبر أو جواب، أي فعليهم غضب، أو استحقُّوا الغضب، أو مفعول لأذمُّ، أو خبر لمحذوف، أي هم من كفر.

[نحو] وإذا أبدل «مَن كَفَرَ» من «الْكَاذِبُونَ» لزم الحصر فيمن كفر بالله بعد إيمانه، وكذا إن جعل بدلا من «أُولَئِكَ» على حدِّ ما مرَّ في جعله بدلا من «الذِينَ». والاستثناء متَّصل لأنَّ الكفر لغةً يعمُّ القول والعقد [أي الاعتقاد]، كما يعمُّهما الإيمان، والاستثناء هو من قوله: ﴿مَن كَفَرَ بِاللهِ﴾ لأنَّه عمَّ الكفر باللسان ولو اطمأنَّ القلب بالإيمان، أو من «عَلَيْهِمْ غَضَبٌ» أو استحقُّوا... إلخ المقدَّر، ويضعف أن يكون من قوله بعدُ: ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾.

[أصول الدين] ولا تشترط المعرضة مع اطمئنان القلب، بل يكفي الاطمئنان خلافا لبعض، وأصل الإيمان التصديق بالقلب، والنطق ركن أو شرط، قولان عليهما الجمهور، الثالث أنَّه لا شرط ولا ركن، وهو قول قليل مِنَّا ومن الأَشعَرِيَّة.

﴿**وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا**﴾ وسَّع صدره له، وقَبِلَه ولو في حال الإكراه، و«صَدْرًا» مفعول به لا تمييز، فلا تهم، و«مَنْ» شرطية، وأداة الشرط تلي لكن، تقول: أكرم عَمْرًا لكن إن جاء، فلا تهم، ﴿**فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾.

[سيرة] أكره قريش على الردَّة سميَّة أمَّ عمَّار ـ بالتصغير ـ وربطوها بين بعيرين، وطعن أبو جهل في قبلها بحربة، وقالوا: أسلمت للزنى، وشردوا البعيرين فانقطعت جزأين وقتلوا أباه ياسرا، وهما أوَّل من قتل في الإسلام عليه، وكفر عمَّار وسبَّ رسول الله ﷺ ومدح الأصنام بلسانه واطمأنَّ قلبه

بالإســـلام فتركوه، فقيل: يا رســـول الله كفر عَمَّار! فقـــال: «**كلَّا إنَّ عَمَّارًا ملئ إيمانا من قرنه إلى قدميه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه**» فأتى رســـول الله ﷺ يبكي معتذرا، فقـــال له: «**ما وراءك؟**» قال: شـــرٌّ، كفرت بك، قـــال: «**ما تجد قلبك؟**» قال: مؤمنا، فجعل ﷺ يمســـح عينيـــه، فقال: «**ما لـــك إن عادوا لك بالإكراه فعد لهم بكفر اللسان مع اطمئنان قلبك بالإيمان**».

والله اختار الصبر على العذاب أو القتل، روي أنَّ مســـيلمة قال لرجل: ما تقول في محَمَّد؟ قال: رســـول الله، قال: فما تقول فيَّ؟ قال: أنت أيضا فخلَّاه، وقال للآخر: ما تقول في محمَّد؟ قال: رسول الله، قال: فما تقول فيَّ؟ قال: أنا أصمُّ، فأعاد ثلاثا فقتله، فبلغ ذلك رســـول الله ﷺ فقال: «**أمَّـــا الأوَّل فقد أخذ برخصة الله، وأمَّا الثاني فقد صدع بِالحَقِّ فهنيئا له**».

[فقه] وذكر الفخر أنَّـــه يجب [عليه عند الإكراه] شـــرب الخمر وأكل الميتة والخنزيـــر، لأنَّ حفظ النفس واجب ولا ضرر فـــي ذلك لأحد، وقد قال ﷻ: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُـــمُۥ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [ســـورة البقرة: 195] ويحرم قتل أحد أو قطع عضو من نفســـه، أو من أحد بإكـــراه، وإن فعل ففي القصاص قولان للشـــافعي، والمذهب القصـــاص وليس ذلـــك مِمَّا يـــدرأ فيه الحدُّ بالشبهة، وقاس بعضهم سائر المعاصي عند الإكراه على الإشراك مِمَّا ليس في بدن أحد، ومنع بعض كشـــف العورة بالإكراه، وكذا كشف عورة غيره، ويموت ولا يزني بل لو زنـــى بالإدخال علمنا أنَّه فعل بـــلا ضرورة، إذ لو خاف لم ينتشر، وفيه أنَّه قد ينتشر لأنَّه اطمأنَّ أنَّه لا يقتل إن زنى وعلى كلِّ حال لا يجوز له ولا يعذر.

﴿**ذَالِكَ**﴾ الكفر بعد الإيمان أو الغضب، أو المذكور من العذاب العظيم، والكفر بعد الإيمان ﴿**بِأَنَّهُم**﴾ بســـبب أنَّهم ﴿**اسْـــتَحَبُّواْ**﴾ اختـــاروا ﴿**الْحَيَواةَ الدُّنْيَا عَلَى الَاخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ**﴾ بســـبب أنَّ الله ﴿**لَا يَهْـــدِي**﴾ هداية توفيق ﴿**الْقَوْمَ**

الْكَافِرِيـــنَ﴾ إلى الإيمان وما يوجب الثبات عليه، قيـــل: لا يهديهم إلى الجنَّة وهو ضعيف، قضى الله أنَّهم يموتون كفَّارًا.

[سيرة] وأوَّل من أظهر الإســـلام ثمانية: النبـــيء ﷺ فمنعه الله بعمِّه أبي طالب، ومن قال ســـبعة أراد بعده ﷺ، وأبو بكر منعه قومه وعشيرته، وخبَّاب وصهيب وبلال ألبســـوا أذرع الحديد وأجلسوا في حرِّ شـــمس مكَّة، يعذِّبون بلالا وهو يقول: أحد أحد، حتَّى اشـــتراه أبو بكر، قال خبَّاب: أوقَدوا لي نارًا ما أطفأها إلَّا ودك ظهري، وعمَّار وياسر وســـميَّة تقدَّم ما فعل بهم، وأوَّل من كفر أبو جهل أو أبو لهب.

﴿أُوْلَئِكَ الذِينَ﴾ مبتدأ وخبر، وإشارة البعد فيه وفي «ذَٰلِكَ» للتحقير والإهانة، أو للتعظيم في ذلـــك، أي ذلك المذكور العظيم المهول في الشـــرِّ، كما يتعيَّن إذا جعلنا الإشـــارة إلى غضب الله أو إلى غضبه والعذاب والكفـــر، فإنَّ غضبه تعالى صفة ذاتية وفعلا مســـتعملا بمعنى الانتقام لا يحتقـــر ولا يهان **﴿طَبَـعَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَـــمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾** لا يصل الوعظ قلوبهم، ولا يسمعون سماع تدبُّر، ولا يبصرون بأعينهم في خلق الله إبصار اعتبار **﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾** الكاملون في الغفلة، **إذ لا غفلة أعظم من الغفلة من تدبُّر العواقب والنظر في المصالح.**

وعن ابن عَبَّاس: غافلون عَمَّا يراد بهم فـــي الآخرة. وأعاد ذكر ﴿أُولَئِكَ﴾ تنبيها على أنَّ صفاتهم تقتضـــي الطبع، وتقتضي كمـــال الغفلة، وعطف لأنَّ مفهوم الغفلة غير مفهوم الطبع، وبدأ بالطبع لأنَّه الســـابق وهو خذلان وفعل من الله، والغفلة ثانية وفعل منهم إذ غفلوا عَمَّا خوطبوا به، وعمَّا أريد بهم من التدبُّر فيه، وأصلها حبُّ الدنيا.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُـــمْ﴾ لا بدَّ من أَنَّهُـــم، أو «لَا» زائدة، و«جَـــرَمَ» بمعنى حقَّ، و«أَنَّهُمْ...» فاعله، ومـــرَّ كلام فيه[1] أو «لاَ جَرَمَ» كلمتـــان جعلتا كلمة واحدة،

(1) انظر: ج 6 ص 379، تفسير آية 22 من سورة هود.

فالمعنى حقَّ حقًّـا أنَّهم ﴿فِي الَاخِـرَةِ هُمُ الْخَاسِـرُونَ﴾ المضيِّعون لأبدانهم ونعمهم وأوقاتهم، إذ لم يسـتعملوها فيما ينجون به من النار إلى الجنَّة، وهو الإيمان، كمن ضاع مالـه فمن أين يطمع أن يربح من ماله؟! بل اسـتعملوها فيما يهلكهم، وهذا هو الخسـران الكامل، إذ هم أبدا في النار، وفي سـورةٍ: ﴿هُمُ الَاخْسَـرُونَ﴾ [سـورة هود: 22] ووجه ذلك هنا مراعاة مناسـبة «الْكَافِرِينَ» و«الْغَافِلُونَ» بالألف، ولزوم ما لا يلزم لأنَّها ليسـت تأسيسا، لأنَّ بعدها زائدا على حرفين، صالحا لأن يكون حرفا تنسب إليه القصيدة وهو النون مثلا، أو الخسارة في تلك السورة أشدُّ.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ﴾ أي رحمـة ربِّك الدائمة وهي الربـح الكامل، أو نصره، و«ثُمَّ» لتفاوت الرتب علُـوًّا ﴿لِلذِينَ هَاجَرُواْ﴾ إلى المدينـة، خبر «إِنَّ» على حذف مضاف إلى اسمها كما رأيت.

[نحو] أو على معنـى إنَّ ربَّك لهم لا عليهم، كما تقـول: إنَّ فلانا لي لا عليَّ، وهذا أولى، والذي قبله أولى من جعل خبرهـا «لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ» على أنَّ الثانية واسـمها تأكيد للأولى لا خبر لهـا، كما تقول: إنَّ زيـدا إنَّ زيدا قائم، فقائم خبر للأولى ولا خبر للثانيـة، فيتعطَّل قوله: ﴿لِلذيـنَ هَاجَرُواْ﴾ فيقدَّر مبتدأ أي للذين هاجروا... إلـخ مغفرةٌ ورحمةٌ، **وهـو ضعيف**، وأضعف منه جعل الخبر للثانية ولا خبر للأولى، أو يتعلَّق بما بعد اللام، وهو «غَفُورٌ» كما تعلَّق به «مِنۢ بَعْدِهَا» أو خبرها «لَغَفُورٌ رَّحِيـمٌ» محذوف، دلَّ عليه المذكور، وفيه أنَّه يحتاج إلى تقدير مبتدأ «لِلذيـنَ هَاجَرُوا» مع حذف الخبر، والصواب أَنَّ الخبر «لِلذِينَ هَاجَرُوا»، والمعنى: إنَّ رحمته أو نصره للذين هاجروا، أو إنَّ ربَّك لهم لا لغيرهم لهجرتهم ما ألفوا من الوطن والمال والأصحاب.

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ﴾ صرفوا بالقول والتعذيب من المشـركين، ولم يؤثِّر فيهم صرفهـم، أي فتنوا، أو مـا افتتنـوا، أو ﴿فُتِنُوا﴾: صرفوا عن الإسـلام

فانصرفوا لفظا لا قلبا ﴿ثُمَّ جَاهَدُواْ﴾ جاهدوا أنفسهم، أو الأعداء بالسيف. «ثُمَّ» هذه لترتيب الحكم على الآخر في الزمان على الأصل، وأمَّا في قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ﴾ فللتراخي في الرتبة، لعلوِّ شأن من هاجروا بعدما فُتنوا وجاهدوا، عمَّن ضلُّوا وأضلُّوا. ﴿وَصَبَرُواْ﴾ في الجهاد والجوع والشدائد ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا﴾ بعد الهجرة، أو بعد الأربعة: المهاجرة والفتن والجهاد والصبر، أو بعد الفتنة، أو بعد التوبة، لأنَّ ما قبل ذلك يدلُّ عليهما ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لهم، لا يضيِّع أجرهم، ولا يعاقبون على ذنب.

[سبب النزول] نزلت الآية في عياش بن ربيعة أخي أبي جهل من الرضاع، وقيل: كان أخاه من أمِّه، وفي جندل بن سهل بن عمرو، والوليد بن الوليد بن المغيرة، وسلمة بن هشام، وعبد الله بن أسد الثقفي، عذَّبهم المشركون فكفروا بعض كفر بألسنتهم، وبعد ذلك هاجروا وجاهدوا.

وقال الحسن وعكرمة: نزلت في عبد الله بن أبي سرح، أسلم وكان يكتب الوحي للنبيء ﷺ ثمَّ ارتدَّ ولحق بدار الحرب، وأمر ﷺ بقتله يوم فتح مكَّة، فأجاره عثمان بن عفَّان، وكان أخاه لأمِّه فأتى وأسلم وحسن إسلامه، وأظنُّه أنَّه لم يحسن في خلافة عثمان، **والصحيح القول الأوَّل** إذ لم يصل عبد الله بن أبي سرح بعد إسلامه حال الفتح أن يهاجر إذ لا هجرة بعد الفتح، نعم استحبابا، ولم يبلغ أن يجاهد بعد الفتح لأنَّه ﷺ لم يجاهد بعد الفتح إلَّا غزوة هوازن في قفوله إلى المدينة، فكيف يجاهد وينزل جهاده في القرآن وصبره؟ فلا يتمُّ ذلك، ولو قلنا: إنَّ الآية مَدَنِيَّة جعلت في سورة مَكِّيَّة، إذ لم يرو أنَّه جاهد بعد ردَّته وإسلامه منها.

وذكر قتادة أنَّها مَكِّيَّة إلَّا ﴿وَالذِينَ هَاجَرُواْ﴾ و﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ﴾ و﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ إلى آخر السورة، قال مقاتل: و﴿مَن كَفَرَ بِاللهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَانِهِ﴾ و﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً...﴾الآيات، وروي أنَّ الآية نزلت فكتب المسلمون بها

إلى من أسلم بِمَكَّةَ، فخرجوا واتَّبَعَهم أهل مكَّة، فقاتلوا فقتلوا من قتلوا ونجا من نجا، فالجهاد قتال من اتَّبَعَهم من المشركين.

وذكر بعض أنَّ الآية في عَمَّار وأضرابه، ولا يعترض بأنَّ عمَّارا لم يشرح بالكفر صدرا ثمَّ تاب بل [كان] أعلى طبقة، لأنَّا لا نسلِّم أنَّ الآية في خصوص من شرح بالكفر صدرا ثمَّ تاب.

﴿يَوْمَ﴾ يوم القيامة **﴿تَاتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾** «يَوْمَ» متعلِّق بـ«رَحِيمٌ»، أو يقدَّر: اذكر يوم... إلخ لنفسك لتتسلَّى، ولهم ليرتدعوا عن الشرِّ. ومعنى خصام النفس عن نفسها: خصام المعنى القائم بالجسم من الروح والإدراك عن بدنه، ولا يحسن أن يقال: النفس الأولى الذات، فإنَّ البدن لا يجادل بل المعنى: الحيُّ الناطق.

وعبارة بعض: النفس الأولى: مجموع الذات وصاحبها يوم يأتي كلُّ إنسان يجادل عن ذاته، لا يهمُّه شأن غيرها، من ولد أو والد أو قريب أو صاحب، تزفر جهنَّم فيخرُّ كلُّ حيٍّ على الأرض حتَّى الملائكة على ركبهم، ويقول الخليل وغيره: «ربِّ لا أسألك إلَّا نفسي». ويروى إلَّا سيِّدنا محَمَّدًا ﷺ فإنَّه يقول: «**أمَّتي أمَّتي**».

وعبارة بعض: النفس الأولى ذات الإنسان وحقيقته، والثانية بدنه. وعبارة بعض: إنَّ الأولى الشخص بأجزائه فالأجزاء فيه ملحوظة، والثانية ما يؤكِّد به، ويدلُّ على حقيقة الشيء وهويته، والأجزاء فيها غير ملحوظة، فمعنى ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾: كلُّ أحد.

والتحقيق ما ذكرته أوَّلاً، ثمَّ رأيت بعضا أشار إليه إذ قال: الأولى الروح والثانية البدن، والمجادل المدرِك وهو الروح لا البدن، وقيل: الثانية [هي] الأولى أعيدت لئلَّا يعمل عامل في ضميرين لواحد، والأصل: تجادل عنها،

وأنت خبير أنَّ ذلك العمل غير ممنـــوع، إذا كان أحد الضميرين بالحرف نحو ﴿هُزِّي إِلَيْكِ﴾ [سورة مريم: 25].

والمفاعلــة للمبالغــة أي تخاصـــم عن نفســـها خصاما شـــديدا. و«عَنْ» للمجاوزة، لأنَّها تميل عمَّا يضرُّها وتعرض عنه، لا كما قيل: إنَّها للابتداء، أمَّا جدال الكُفَّار فمثــل قولهم: ﴿هَــؤُلَآءِ اَضَلُّونَــا﴾ [ســورة الأعراف: 38] و﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [سورة الأنعام: 23] ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا﴾ [سورة الأحزاب: 67] وأمَّا جدال الأبرار فمثل: ابتليتنا بالمرض والفقر، ويا ربَّنــا منعونا عن الخير، وقيل: إنَّما يعتذر الكُفَّار، وردَّ بعموم كلِّ نفس.

[قلت:] والأصل حمل اللفظ على ظاهره ما لم يتعيَّن التأويل بدليل، وكذا في قوله: ﴿**وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ**﴾ من شـــرٍّ أو خير، والمقصود: الجزاء، فسمِّي باسم سببه وهو العمل وهو ملزومه، وذلك لكمال الاتِّصَال بين الجزاء والعمــل، وأظهر ولم يقل: «وتُوفَّــى ما عملت» بالإضمار لزيــادة التقرير، لا للإيذان باختـــلاف وقتـــي المجادلة والتوفِيَــة، إذ لا خصوصيـــة للظاهر ولا للضمير بذلك الاختلاف.

﴿**وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ**﴾ لا ينقص من ثـــواب المؤمن ولا يزاد على الكافر ما لم يعمل، ومن عمله ما أمر به غيره من شـــرٍّ أو نهى عنه من خير، ويناســـب العمـــوم أنَّه ذكر قبل ذلـــك المؤمنيـــن والكافرين، فلا حاجة إلـــى دعوى أنَّ المؤمن لا يعتـــذر، والاعتذار في موطـــن من مواطن القيامـــة والمنع منه في موطن آخر، فلا منافاة بين آية إثبات الاعتذار من الكُفَّار مثلا، وآية نفيه.

[قصص] قال عكرمة وهو عبـــد من فيء المغرب اشـــتراه ابن عَبَّاس أو أُهدي إليه فأعتقه، قال ابن عَبَّاس: «لا تـــزال الخصومة بين الناس يوم القيامة حتَّى تخاصم الروح الجســـد، فتقول الروح: يا ربِّ لم تكن لي يد أبطش بها، ولا رجل أمشـــي بهـــا، ولا عين أبصر بهـــا، فضاعف عليه العـــذاب، ويقول

الجسد: يا ربِّ أنت خلقتني كالخشبة ليس لي يد أبطش بها، ولا رجل أمشي بها، ولا عين أبصر بها، فجاءت هذه الروح كشعاع الشمس، فبها نطق لساني وبها أبصرت عيناي، وبها مشت رجلاي، فيضرب الله لهما مثلا أعمى ومُقعَدا في بستان ثمار، والأعمى لا يبصر الثمر والمُقعد لا يتناوله، فحمل الأعمى المقعد فأصابا الثمر فغشيهما العذاب» بمعنى تناولا المعاصي الشبيهة بالثمار في الميل إليها، أو تناولا الطاعة الشبيهة بها فنجوا، والروح والجسد لم يتناولا معا، بل ناول بعض بعضًا فهلكا، والمتبادر هو الأَوَّل.

وكذا في قول القرطبي: إنَّ المقعد نادى الأعمى احملني آكل وأطعمك، ففعل، فأصابا من الثمر فعلى من يكون العذاب؟ قالا ـ أي الروح والجسد ـ: عليهما، أي على الأعمى والمقعد، قال ـ أي الله ـ: عليكما جميعا العذاب، أي الروح والجسد، وهذا الحديث كالنصِّ فيما فسَّرت به النفس أوَّلاً.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١١٢ وَلَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡهُمۡ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١١٣﴾

عاقبة كفران النعم في الدنيا

﴿**وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً**﴾ «مَثَلاً» مفعول ثان، وقدّم للتشويق إلى ما به الضرب، و«قَرْيَةً» أوّل، أي صيّر الله قرية مثلا، والمراد نفس القرية، أو أهلها على حذف مضاف، أو أهلها تسميةً لهم بها لحلولهم بها، أو لوضعها لهم اسما، كما وضعت للمحلِّ. والمثلُ كلام شبّه مضربه بمورده، الكلام على القرية ورد فيها وما أشبهها مضرب يمثّل له بها.

والقرية: مَكَّة، وقيل: مطلق قرية لا مخصوصة، وذكر ابن عَبَّاس أنَّها مَكَّة ورجَّحه أبو حيَّان لمناسبة ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ﴾ أصابها القحط بعد أن كانت راغدة العيش بالطائف وجدَّة وما قاربها من القرى، وقوافلهم من اليمن والشام، وأصابتها الغارات مِمَّن حولها قبل الهجرة، أو تخوَّفوها ولو لم تكن بعد الاطمئنان من الخوف كما قال الله ﷻ: ﴿**كَانَتْ ـ ءامِنَةً**﴾ من الخوف ﴿**مُّطْمَئِنَّةً**﴾ لا يحتاج إلى الانتقال عنها ﴿**يَاتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا**﴾ واسعا ﴿**مِّن كُلِّ مَكَانٍ**﴾ بحر وبرٍّ.

﴿**فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ**﴾ بدين الله ونبيئه ﷺ، أو أنعمه البدنية والمالية والاحترام.

[صرف] والمفرد نعمة كأنَّه بلا تاء كدرع وأدرع، أو نُعم بضمٍّ فإسكان كبؤس وأبؤس، أو نعماء كبأساء وأبؤس، واختار بعض أنَّه اسم جمع، وكان من أوزان القلَّة والمراد الكثرة تلويحا بأنَّ العقاب المذكور مستحقٌّ بالقليل فكيف بالكثير؟ والمراد بالقرية أهلها على حذف مضاف فيها وفي ضمائرها بعدها، أو اسم محلٍّ لحالٍّ، أو وضع اللفظ لهم كما وضع لها على الاشتراك.

﴿**فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ**﴾ أحاط عليهم بالرقة والصفرة، ظاهرين عليهم ظهور اللباس على البدن، وأصل الإذاقة الإطعام الأوَّل ليختبر، ثمَّ استعمل في مطلق الإطعام، ثمَّ في مطلق الإصابة والابتلاء.

[بلاغة] وفي هذا بعد ـ الإطعام الأوَّل ـ إطلاقٌ للمقيَّد على المطلق، أو استعارة الإذاقة للإبلاغ إلى إدراك أثر الضرر، فاللباس لنحو الرقَّة والصفرة استعارة ثانية، وشبَّه الجوع والخوف بالمطعوم البشع، ورمز إليه بالإذاقة، فهذه ثالثة مكنية، فإنَّه لا يخفى أنَّ الإذاقة للمطعوم والمشروب لا للجوع والخوف، وإذا اعتبرنا شيوع الإذاقة بمعنى الإصابة حتَّى كأنَّها حقيقة لها كانت تجريدا للاستعارة، ولو قيل فكساها كان ترشيحا. وإن شئت ففي اللباس استعارتان: مصرَّحة إذ شبَّه ما غشي الإنسان عند الجوع به لجامع الاشتمال، ومكنية إذ شبَّه ما غشيه بالطعم المرِّ بجامع الكراهة والقرينة الإذاقة، وهي تخييل.

﴿**بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ**﴾ فيما مضى، أو استمرُّوا عليه بأشياء يصنعونها، أو بالأشياء التي يصنعونها من المحرَّمات، أو بكونهم يصنعون الصنع الفاسد، والواوان لأهل القرية المعبَّر عنهم بلفظ القرية، أو باسم مقدَّر مضاف إليها، أو للقرينة على التجوُّز، روعي لفظها فيما مرَّ، والمعنى الآن وكذا في الهاءات بعد. وعبَّر بالصنع تلويحا بأنَّ الشرَّ فيهم راسخ كرسوخ الصنعة لصاحبها.

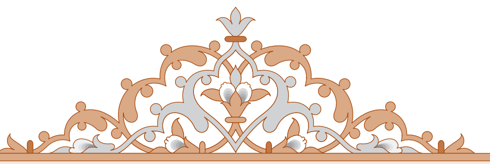
والمشـــهور أنَّ ذلــك بعد الهجــرة، والجمهــور أنّها نزلت فـــي المدينة وصحّح، وجعلت في سورة مَكِّيَّة، وعلى أنَّها في مكَّة ـ مع أنَّه يقع ذلك بعد الهجرة ـ فإخبار بما سيقع.

[سيرة] كانت مَكَّــة آمنة مطمئنَّة يأتيها رزقها رغدا مــن كلِّ مكان، ولَمَّا أصرُّوا على الكفر حتَّى ألجؤوه ﷺ إلى الهجرة، أصابهم القحط ســبع سنين، بقطع المطر، وقطع ﷺ عنهم من يأتيهم من العرب بالطعام، حتَّى أكلوا العظام المحرقة والجيف والكلاب، ومــا جاف من الميتة والوبــر المخلوط بالدم، يرون شبه الدخان من الجوع.

وكان يبعث إليهم الســرايا يقطعون الطريق ويخوِّفونهم، وأرسلوا إليه أبا سفيان وجماعة من رؤسائهم قائلين: «دأبك أنَّك تأمر بالمعروف وصلة الرحم والعفو، والآن عاديت الرجال، فما بال النســاء والصبيان؟ وقد هلك قومك، فادع الله لهم» فدعا وأمر بحمل الطعام إليهم.

وقيل: مطلق قرية صفتها ذلك لا خصوص مَكَّة، مثَّل بها، فإنَّ المثل قول يُسَمَّى مضربا يشبه قولا آخر يُسَمَّى موردا في شيء آخر ليُبَيِّن أحدهما بالآخر وهو المورد.

﴿**وَلَقَدْ جَآءَهُمْ**﴾ أي جاء أهل القرية مَكَّة، سواء فَسَّرنَا القرية بها أو بمطلق قرية ﴿**رَسُــولٌ مِّنْهُمْ**﴾ من نســبهم محَمَّد ﷺ، وهذا أدلُّ على أنَّ القرية مَكَّة ﴿**فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَــذَابُ**﴾ المعهود: الجوع والخــوف، أو قتلهم في بدر وأسرهم، أو كلُّ ذلك ولو وقع القتل والأسر المذكور بعد الهجرة، لِمَا مرَّ من الإخبار بالغيب في مكَّة بما ســيقع، وكأنَّه وقع وانقطع لتحقُّق الوقوع ﴿**وَهُمْ ظَالِمُونَ**﴾ أنفسهم بالكفر وغيرهم به وبسائر مضارِّهم، **وكلُّ ما فعلوا من سوء مضرَّة عليهم حياة وموتا.**



﴿ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١١٤ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١٥ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ١١٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١١٧ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُۖ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١١٨ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١٩ ﴾

الحلال الطيِّب من المأكولات والحرام الخبيث

﴿ **فَكُلُواْ** ﴾ خطاب للمؤمنين ﴿ **مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا** ﴾ من البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي، والغنائم ولم تحل لمن قبلكم، وكلُّ ما لم يحرِّمه فهو على أصله من الحلِّ لكم، ولا تحرِّموا على أنفسكم ما يلذُّ من الطعام، ووصف الحلال بالطيِّب تلويح بأنَّ مرجع الطيِّب الحلال، فكلُّ حلال طيِّب ولو غير مستلذٍّ، وذلك كالصفة الكاشفة.

[فقه] وظاهر اللفظ أنَّ مِمَّا رزقه الله حراما خبيثا وليس ذلك مرادا هنا، ولم يصح في نفس الأمر، لأنَّه لا يأمرنا بأكل غير الحلال، إلَّا أنَّه قد يكون في يد الإنسان حرام لم يعلم أنَّه حرام، ولا يدرك بالعلم أنَّه حرام فيحلُّ له، وقد أمره الله بأكله إذ ساقه إلى يده ولم يعلمه بأنَّه حرام، ولا يدرك بالعلم أنَّه حرام.

قال ابن عَبَّاس: «فكلوا يا معشـــر المؤمنين مِمَّا رزقكم الله ـ يريد الغنائم ـ حلالا طيِّبا لكم، لم تحلَّ لأحد قبلكم». والفـــاء تفريع، قد كفر الكُفَّار بالنعم فكلوها أنتم شاكرين كما قال:

﴿وَاشْـــكُرُواْ نِعْمَـــتَ اللهِ﴾ عليكم ﴿إِن كُنتُـــمْ إِيَّاهُ تَعْبُـــدُونَ﴾ وقيل: الخطاب في ذلك للمشركين، أي كلوا مِمَّا سرح إليكم رسولي بعد المنع، واشـــكروا نعمة الله ولا تكفروهـــا، وإن كنتم تعبدون غير الله معه فلســـتم بشـــاكريها، فإنَّ عبادة غير الله معه كفر لها، لأنَّ غيـــره لم يرزقكم، فعبادته حرام ولو ادَّعيتم أنَّها عبادة لله لكذبتم، ليســـت عبادة له تعالى ولا شفاعة منها لكم.

والشرطية تأكيد لِمَا سبق، فإمَّا أن تحمل العبادة على الطاعة ليطابق قوله: ﴿كُلُوا﴾، أو تجرى على حقيقتها على زعمهم الكاذب أنَّ آلهتهم شـــفعاؤهم عند الله، فعبادتها ظاهرا عبادته في الحقيقة لأنَّه المستحقُّ لها، وما عداه ذريعة له، هذا زعمهم، وتمام العبادة بالشكر.

[أصول الفقه] ومـــا لـــم يحرِّمـــه الله حلال كمـــا ذكر في الأصـــول: إنَّ السكوت في موضع البيان بيان، أي بيان أنَّ حكم ما عدا المذكورات مخالف لحكم المذكورات.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُـــمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَـــآ أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ﴾ رفع الصوت به عند الذكاة لغير الله وحده، أو لغير الله مع الله، والحصر إضافيٌّ معتبر فيه البحيرة وما معها، كأنَّه قيل: إنَّما حرم عليكم الميتة... إلخ لا البحيرة... إلخ، فلا يشكل باقي المحرَّمات، ويمكن دخول ما بقي في المائدة في الميتة هنا.

[فقه] وعن خالد بن الوليد: «نهى رســـول الله ﷺ عـــن أكل لحوم الحمر والبغال والخيل». وعن جابر بن عبد الله: «نهى رســـول الله ﷺ عن أكل لحوم



الحمر الأهلية، وأذن في لحم الخيــل»[1] فيقال: منع من الحمر للأنجاس فلو صينت لحلَّــت، ونهى عن لحم الخيــل لتبقى للقتال وهو في نفســه حلال، و«نهى ﷺ عن أكل ذي مخلب من الطيور، وكلِّ ذي ناب من السباع»[2].

وقيل: الحصر حقيقيٌّ، وما في المائــدة داخل هنا كما رأيت، فيحلُّ القرد والفيل والحمر والبغال والخيل وســباع الطير والوحــش، وما ورد فيه النهي فتنزيه لا تحريم، أو وجه كما رأيت.

﴿**فَمَنُ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ**﴾ إلى أكل من بعض تلك المحرَّمات، وكذا غيرها من ســائر المحرَّمات ﴿**فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ**﴾ له في أكله ﴿**رَّحِيمٌ**﴾ عليه بها، وأفهمت الآية أنَّه إن اضطرَّ باغيا على مضطرٍّ آخر ينزع عنه ما وجد من ذلك، أو باغيا بقطع طريق، أو خروج عــن والٍ محقٍّ، أو اضطرَّ متعدِّيا إلى أكثر من سدِّ الرمق بأكل أكثر، أو باســتصحاب منها، ونحو ذلك من سفر المعصية لم يبح له الأكل، وإن تاب الباغي أو العادي حلَّ له سدُّ الرمق من ذلك.

والله يقول بالآيــة الســابقة: إنَّ المحرَّم مــا حرَّمــه الله ﷻ، لا ما تصفه ألسنتكم بالحرمة من عند أنفسكم، فانتهوا عن التشرع بما لم يأذن به الله ﷻ، كما قال: ﴿**وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُم**﴾ لا تقولوا في شأن وصف ألسنتكم ﴿**الْكَذِبَ**﴾ مفعول لـ«تَصِفُ»، كأنَّ كلامهم أصــل في الكذب مبين لمطلقه، كما تقول: وجهها يصف الحسن، وعينها يصف السحر، وليس حقيقة الكذب وراء ذلك. ولا يجوز أن يكون بدل اشتمال من هاء «تصفه» إن قدِّرت إلَّا على ضعــف، فالأولى خلافــه. و«مَــا» مَصدَرِيَّــة، وإن جعلناها اســما فالمفعول

(1) رواه **الربيع** في مسنده (63) باب أدب الطعام والشراب، رقم 338، من حديث علي بن أبي طالب بلاغــا، الجزء الأوَّل منه فقــط. ورواه **البخاري** في كتاب المغــازي (38) باب غزوة خيبر، رقم 4219. من حديث جابر.

(2) رواه **البخاري** في كتاب الطبِّ (57) باب ألبان الأتن، رقم 5781، الجزء الأخير منه.

محذوف، أي فيما تصفه، فالكذب مفعول لـ«تَقُولُوا»، بمعنى: تذكروا، وأيضا الكذب مراد بــه الجملة فصحَّ نصبــه بالقول بلا تأويل بالذكــر، ألا ترى أنَّه أبدلت منه الجملة وهي قوله:

﴿**هَذَا**﴾ كالميتة والدم ﴿**حَلَالٌ وَهَــذَا**﴾ كالبحيرة ﴿**حَرَامٌ**﴾، أو هو مفعول لـ«تَصِفُ أَلْسِــنَتُكُمْ»، و«هَذاَ حَلَالٌ...» مفعول لـ«تَقُولُوا»، والجملة المحكية بالقول مطلقا مفعول به، أو مفعول مطلق، فإنَّ معنى قلت: قام زيد، قلت قولا هو قولك: قام زيد، ووجه المفعــول أنَّ المعنى: أحدثــتَ قولك قام زيد، أو يقدَّر: تقولوا هذا حلال وهذا حرام، وهذا القول المقدَّر بيان للقول المذكور.

﴿**لِتَفْتَرُواْ عَلَــى اللهِ الْكَذِبَ**﴾ إنَّــه حلَّل كذا أو حرَّم كــذا، واللام للعاقبة، بمعنى: إنَّ مرجع قولهم إلى اتِّضاح أنَّه افتراء، ويبعد قصد التعليل لأنَّ المعنى عليه: نقول هذا حلال وهذا حــرام لأجل أن نكون كاذبيــن على الله ﷻ، ولا فائدة لهم في قصد هذا ولا يســوغه قولهم: الله أمرنا بها، إلَّا على قصد ما ينجرُّ إليــه قولهم من أنَّا نفتــري على الله، فيؤخــذ قولنا. و«الْكَــذِبَ» مفعول مطلق لـ«تَفْتَرُوا»، أو مفعول به لـ«تَفْتَرُوا». ولا يتكرَّر قوله: ﴿لِتَفْتَرُواْ﴾ مع قوله: ﴿لِمَا تَصِفُ﴾ لأنَّه ليس في قوله: ﴿لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الِكَذِبَ﴾ نفس أنَّه كذب على الله. وأيضا لام العاقبة ليست بمعنى في، فجاز تعليقهما معا بـ«تَقُولُوا».

﴿**إِنَّ الذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ**﴾ في الدنيا ولا في الآخرة ﴿**مَتَاعٌ قَلِيــلٌ**﴾ انتفاعهم بذلك الافتراء متاع قليــل، أو بقاؤهم متاع قليل، أو تمتُّعهم في الدنيا تمتُّع قليل، حقير، أو لهم تمتُّع قليل، ويناسبه قوله: ﴿**وَلَهُمْ عَذَابٌ اَلِيــمٌ**﴾ في الآخرة، ولم يظفروا بالمراد علــى افترائهم بل بمتاع قليل، وأوجبوا العذاب الدائم.

﴿**وَعَلَى الذِينَ هَادُواْ**﴾ متعلِّق بقولــه ﴿**حَرَّمْنَا**﴾ قدِّم للحصر وعلى طريق الاهتمام بالذمِّ، تعالى الله عن الاهتمام، ووجه الاتِّصال بما قبله بيان ما حرَّم

علينا للمضرَّة وما حـلَّ، وبيَّن ما حرَّم على اليهود انتقامـا منهم لبغيهم كما قال: ﴿مَا قَصَصْنَـا عَلَيْكَ﴾ يـا محمَّد ﴿مِـن قَبْلُ﴾ في سـورة الأنعام [آية رقم 146]، ذا الظفر وشحوم البقر والغنم إلَّا ما حملت ظهورهما أو الحوايا، أو ما اختلط بعظم.

«مِـن قَبْلُ» متعلِّـق بـ«قَصَصْنَا»، والمـراد: من قبل نزول هـذه الآية، أو بـ«حرَّمنـا»، فالمراد: من قبل تحريـم ما حرِّم على هذه الأمَّـة، لكن ما حرِّم عليها ليس ما حرِّم على اليهود في سورة الأنعام، فتعليقه بـ«قَصَصْنَا» أولى.

وفي الحصر تكذيب اليهود إذ قالـوا: ما حرِّم علينا قد حُرِّم من قبلنا على نوح وإبراهيم ومَن بعدهما، كما كذَّبهم بقولـه ﷻ: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ احِلَّتْ لَهُمْ﴾ [سورة النساء: 160].

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بتحريم ذلـك ﴿وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَـهُمْ﴾ مفعول لقوله: ﴿يَظْلِمُونَ﴾ ظلموا أنفسهم بالبغي فعوقبوا بتحريم ذلك، ومع ذلك زادوا كفرا بأن يبيعوه ويأكلوا ثمنه، وكفروا آخر إذ أحلَّه الله لهم ببعث سـيِّدنا محَمَّدٍ ﷺ، فبقوا على تحريمه من عند أنفسهم اتِّبَاعًا لِمَا مضى، وقد أوجب الله عليهم أن يؤمنوا به ويتَّبعوه في حلِّه.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلذِينَ عَمِلُواْ السُّـوءَ﴾ الشـرك والافتراء على الله وسـائر المعاصي، وسـمِّي الذنب سوءا لأنَّه قبيح، ولأنَّه يسـوء صاحبه، ولأنَّه يسوء غيره، إذ كان متعدِّيا إلى غيره، بل يسـوء مطلقا، فمن فعل ذنبا فقد أساء إلى الملائكة والنبيء وموتاه في قبورهم يخبرون به، وذلك في الجملة.

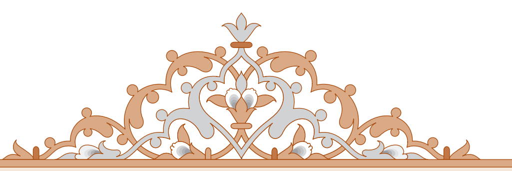
[نحو] والخبر هو قوله: «للذين» أي إنَّ ربَّك لهم لا عليهم، وذلك عموم للخير لهم في الدنيا والآخرة، ثمَّ نصَّ على ما هو الأفضل في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَـا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وهذا أولـى من أن يقدَّر خبـرُ إنَّ: «غفورٌ رحيمٌ» محذوفٌ لِدَلالةِ مَا بعده.

والآية في المخصوصين ويقاس عليهم غيرهـــم، أو على العموم فيدخل هؤلاء المخصوصـــون بالأولى ﴿**بِجَهَالَـةٍ**﴾ الجهالة: الســفه والغواية، يقول السلف: كلُّ من عصى الله فهو جاهل حتَّى ينزع من جهالته، فالجهالة أعمُّ من عدم العلم، وكلُّ عمل ســوء لا يصدر إلَّا مِمَّن جهل العاقبــة، أو تَنزَّل منزلةَ جاهلها لتغلُّب ظلمة هواه على نور عقله، إذ لا يرضى عاقل بقبيحٍ يورث خزيًا وعذابًا دائميْن.

والباء سَــبَبِيَّة، أو للمصاحبة، و«ثمَّ» لبُعد ما بيـــن الحالتين وهو التراخي الرتبيُّ، وفي قولــه: ﴿**ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ**﴾ أي بعد عمل الســوء للتراخي الزمانيِّ، فكيف لو لم يتراخ زمــان التوبة؟ وذكر ﴿**مِنۢ بَعْـدِ ذَٰلِكَ**﴾ تكرارًا لامتنانه، كمن أســاء إليك وأنعمت عليه وذكرت له أنَّ ما فعل لم يمنعك من الخير إليــه ﴿**وَأَصْلَحُواْ**﴾ حالهم بعدُ بالعمل الصالــح، أو أصلحوا أعمالهم، والمأصدق واحد، أو دخلوا في الصلاح.

﴿**إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا**﴾ بعد التوبة، هذا أولى من أن يردَّ الضمير للجهالة، ولو كان هو الاسم الصريح لأنَّه يقدر معه التوبة، ولا تقدير على الأوَّل لرجوع الضمير إليها ولو كانت غير صريحة الاسم، وأمَّا «أَصْلَحُوا» فمن أجزاء التوبة، وأجيز عوده إلى جملة ما مرَّ من عمل السوء والتوبة والإصلاح. و«مِنْ» متعلِّق بقوله: ﴿**لَغَفُورٌ**﴾ أو بقوله: ﴿**رَّحِيمٌ**﴾ ويقدَّر مثلــه للآخَر ـ بفتح الخاء ـ وفي ذلك خروج لام «إِنَّ» عن الصدر، وهو المتبادر في آيات كثيرة من القرآن.

ويجوز أن تكون الآية في المشــرك والفاسق، والإصلاح في حقِّ المشرك لِمَا بعدُ، وفي حقِّ الفاسق بتدارك ما مضى، وعلى كلِّ حال المراد: لغفور لهم رحيم بهم.



﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٠ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٢١ وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٢٢ ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٣ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبۡتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١٢٤﴾

فضل إبراهيم عليه السلام، وأمر النبيء ﷺ باتباع ملَّته

﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً**﴾ الأمَّة من خالف غيره واختصَّ كأنَّه جماعة، وهم جماعة، ومن عادة العرب في المبالغة التسمية بالمؤنَّث كالداهية، والرحَّالة والنخبة، والآية والأمَّة والنسَّابة والراوية، ويقال: فلان رحمة، قال الله عز وجل: ﴿**فَنَادَتْهُ الْمَلَآئِكَةُ**﴾ [سورة آل عمران: 39] أي جبريل.

ويقال: سمِّي أمَّة لأنَّه اجتمع فيه من صفات الكمال وصفات الخير ما لا يجتمع إلَّا في الجماعة، وعبارة بعض: قام مقام أمَّة في العبادة، وعن ابن مسعود: «**أمَّة معلِّم الخير، يأتمُّ به أهل الدنيا**»(1)، ويناسب ما ذكرته أوَّلًا قول مجاهد: إنَّه كان مؤمنا وحده والناس كفَّار، كما قال ﷺ في زيد بن عمرو بن نفيل إذ فارق الجَاهِلِيَّة بترك عبادة الأصنام: «**إنَّه يبعثه الله أمَّة وحده**»(2).

(1) رواه **الحاكم** في مستدركه: ج 3، ص 440.

(2) رواه **الحاكم** في مستدركه، كتاب التفسير، ج 2، ص 390، و**السيوطي** في الدر، ج 4، ص 149. وقال: أخرجه عبد الرزاق والفرياني وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه والحاكم وصحَّحه عن ابن مسعود.

وأمَّا زوجه سارة فتبع له بعد أن سبقها، واختصَّ زمانا طويلا، أو أريد خصَّ من الرجال كما في البخاري أنَّه قال لسارة: «**إنْ**[1] **على الأرض مؤمن غيري وغيرك**»[2]، أو معنى «أُمَّةً»: مؤتمٌّ به، كأنَّه قيل: إمام، قال الله ﷻ: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [سورة البقرة: 124] ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [سورة الفرقان: 74] وامتاز هو ومن معه بعد ذلك بالتوحيد، وأهل الأديان كلُّهم يحبُّونه، ومن ذلك قولهم: فلان رُحْلَةٌ وَنُخْبَةٌ ـ بضمِّ أوَّلهما وسكون ثانيهما ـ أي يُرحل إليه ويُختار، وإن شئت فقل: المعنى مقصود، فإنَّه كذلك كالمأموم بمعنى المتبوع المقصود، والمأموم بمعنى من تقدَّم غيره، والمقصود هنا الأوَّل، ولكونه رئيس الموحِّدين في العبادة وإبطال مذاهب الشرك كما في سورة الأنعام بالحجج [آية 74 وما بعدها]، وعقَّب ذلك بقوله:

﴿**قَانِتًا لِلهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ أي عبدا لله مائلا عن دين الإشراك إلى التوحيد والإسلام، والحنف: الميل وهو هنا معنويٌّ، ولم يكن قطُّ مشركا من ولادته إلى وفاته، وذلك تعريض بقريش إذ زعموا أنَّهم على دينه وهم مشركون، وباليهود والنصارى إذ زعموا أنَّهم على دينه وهم مشركون، ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ [سورة آل عمران: 67] ويقال: كانت قريش على دينه إلى أن غيَّره عمرو بن لحيٍّ.

﴿**شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ**﴾ لا كافرا لها كما كفرتها اليهود والنصارى وقريش، و«أنعم»: جمع قلَّة لنعمة إلغاءً للتاء، وإذا شكر النعم القليلة فأولى أن يشكر الكثيرة، وهذا أولى من أن يقال: المراد بصيغة القلَّة هنا الكثرة، لأنَّه لا شعور للقليلة في شكر الكثيرة، فقد يتوهَّم أنَّه لم يشكر القليلة، ويجاب بأنَّه شاكر لِنعم الله كلِّها وهي كثيرة، ولا بأس بهذا، وهو مراد.

(1) إنْ بمعنى ما، أي: ما على الأرض مؤمن...

(2) رواه **البخاري** في كتاب البيوع (100) باب شراء المملوك من الحربيِّ وهبته وعتقه، رقم 2104، وأوَّله قوله: قال النبيء ﷺ: «هاجر إبراهيم عليه السلام بسارة...». من حديث أبي هريرة.

[وقد قيل:] ولا يتغدَّى حتَّى يتكلَّف فيمن يتغدَّى معه إن لم يجده، ويروى أنَّه يمشي ميلا أو ميلين فإن لم يجد رجع وتغذَّى، وتلقَّته يوما ملائكة على صورة البشر فطلبهم للغداء، وتعرَّضوا إليه بالجذام، أو قالوا: أوَلو كان فينا جذام؟ فقال: «نعم، الآن وجبت مؤاكلتكم، شكرا لله إذ عافاني من الجذام».

﴿**اجْتَبَاهُ**﴾ اختاره للنبوءة والرسالة، والجملة حال من الضمير في «شاكرا» ﴿**وَهَدَاٰيهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ دين الإسلام، متعلِّق بـ«هَدَاهُ»، ولا داعي إلى تعليقه بـ«اجْتَبَاهُ» ولا تنازع ﴿**وَءَاتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً**﴾ هذا على طريق الالتفات من الغيبة في قوله: ﴿**لِلهِ**﴾ لأنَّ الظاهر من قبيل الغيبة إلى التكلُّم في «ءَاتَيْنَاهُ» وحكمته أنَّ «ءَاتَيْنَاهُ» أقوى من «آتاه». والحسنة: قبوله عند أهل الملل كلِّهم، حتَّى غير الإلهيِّين ومدحهم له وحبُّهم له، **والأولاد الطيِّبة، والعمر الطويل في السعة والطاعة، والنبوءة والمال الكثير يصرفه في طاعة الله** عَجَلَّ.

استجاب الله له قوله: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْاَخِرِينَ﴾ [سورة الشعراء: 84] وأولاده أربعة: إسماعيل وإسحاق ومدين ومدان، وقيل: ثمانية، وقيل: أربعة عشر، ومنهم روم، وقيل: روم هو ابن إسحاق، وكلُّهم طيِّبون من الصالحين القانتين وبعضهم من المرسلين، ومن ذرِّيتهم أكثر النبيئين، وعمره مائة سنة أو مائة وعشرون، وأكثر ماله البقر.

﴿**وَإِنَّهُ فِي الْاَخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ**﴾ ثابت من جملة الصالحين الكاملين، أو معدود منهم، كما سأل إذ قال: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [سورة الشعراء: 83] فهو من أعالي أهل الجنَّة، لأنَّ المراد الكمال في الصلاح.

﴿**ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ**﴾ يا محمَّد، «ثُمَّ» لتراخي الرتبة كما أنَّ تراخي الزمان موجود، وذلك الموحى إلى سيِّدنا محمَّد ﷺ أفضل ما أوحى الله، وهذا تعظيم له ﷺ، ويجوز أن يكون تعظيما لسيِّدنا إبراهيم إذ أمر سيِّدنا محَمَّدًا باتِّباعه صلَّى الله وسلَّم عليهما. و«ثُمَّ» لتراخي هذه الرتبة عن سائر رتب إبراهيم عليه السلام، ويجوز تعظيمه بجملة هذا الكلام، وهو الأمر باتِّباعه، وتعظيم سيِّدنا محَمَّد بـ«ثُمَّ».

وقد وصف الله ﷻ إبراهيم بتسع خصال، وأمر الرسول باتِّباعه، وهذا الاِتِّبَاع عاشرة. وفي ﴿ثُمَّ﴾ هذه إيذان بأنَّ أشرف ما أوتي الخليل وأجلّه اتِّبَاع محَمَّد صَلَّى الله وسلَّم عليهما له، فهذا تعظيم لهما معا، ولا بأس باتِّباع الفاضل المفضول، كما قال ﴿فَبِهُدَاٰيهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [سورة الأنعام: 90] وكما يتَّبع الأنبياء آباءهم إذا كانوا مسلمين وهم غير أنبياء، مع أنَّ هذه الآية غير خارجة عن معنى: أوحينا إليك القرآن، وهو غير مخالف لِمَا عليه إبراهيم وهو المراد في قوله: ﴿**أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ والمراد اتِّبَاعه في التوحيد وخصاله، وبعض الأشياء، وقيل: كلُّ ما في شريعتنا هو في شريعته، فهو ﷺ مبعوث لإحياء شريعة إبراهيم أصولا وفروعا، وهو قول باطل بل في بعض كما مرَّ، وكالحجِّ، بل أمره باتِّباعه في بعض الأشياء فقال: افعلها كما فعلها إبراهيم، وذلك وحي من الله سبحانه وتعالى مستقلٌّ.

وخصَّه بأشياء كثيرة لم تكن في شرع إبراهيم، وأمره الله بالختان كإبراهيم، أو علم ﷺ بأنَّ شرع إبراهيم الختان ووجد قومه يختتنون، ولم ينهه الله فجرى عليه. و«أَنْ» تفسيريَّة، قيل: أو مصدريَّة بلا تقدير جارٍّ، أي أوحينا إليك اتِّبَاع ملَّته، أو بتقديره أي باتِّباعها، وفي ذلك تعريض باليهود والنصارى وقريش بأنَّهم مشركون، فكيف يتوهَّمون أنَّهم على دين إبراهيم؟!.

ولا تضاف الملَّة إلى الله بل إلى الأنبياء أو غيرهم من الجمل كاليهود، وقد تضاف قليلا إلى المفرد، وهو غير نبيء.

أمر الله سبحانه وتعالى رسوله محَمَّدًا ﷺ باتِّباع أبيه إبراهيم عليه السلام فاتَّبعه، فقال اليهود: لو اتَّبعه لعمل بالسبت كما عمل إبراهيم، فكذَّبهم الله ﷻ بقوله: ﴿**إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ**﴾ وهم اليهود بعد إبراهيم عليه السلام بزمان طويل، في زمان موسى عليه السلام، ولم يكن السبت في شرع إبراهيم بل في شرعه الجمعة، كما في شرع سيِّدنا محمَّد ﷺ، اختاره الله له وهو أفضل الأيَّام، لأنَّ

فيه خلق آدم، وهو أفضل الخلـــق، وفيه تاب عليه، وفراغ الخلق، والمعظَّم هو يوم الفراغ وهو يوم السرور، لا يومٌ بعدَه لأنَّه تعالى هو الذي فرغ منه لا نحن، فنقول عيينا فيه، فلا يصحُّ أن يكون عيدا لنا والله لا يعيى.

والله ﷻ هو الذي اختاره لنا ولم نختره نحن لأنفسنا، وادَّخره الله لنا، وقد أمر الله ﷻ به اليهود فلم يقبلوه، وقالوا: نحن نوافق ربَّنا في ترك العمل إذ بدأ الخلق في الأحد وأتمَّه في يوم الجمعة، ولم يعمل يوم الســبت، فنحن نجعله عيدا لا نعمل فيه إلَّا ما لا بدَّ منه، واختار النصارى الأحد لأنَّه يوم بدأ العمل، فوكله الله إليهم، كما قبل من اليهود السبت.

و«حَنِيفًا» حال من «إِبْرَاهِيمَ»، لأنَّ المضاف هنــا كجزء من المضاف إليه لشدَّة الاتِّصَال، ويضعف كونه حالا من ضمير نبيئنا محمَّد ﷺ في «اتَّبِعْ».

ومعنى اختلاف اليهود في السبت مخالفتهم كلُّهم لموسى ؈، إذ أمرهم من الله بالجمعة فخالفوه إلى السبت، فجعلوا التفرُّغ إلى العبادة الذي أمروا به في يوم الجمعة في يوم الســبت، فالاختلاف بينهم وبين موسى، أي اختلفوا فيه مع موســى، وهو خلاف الظاهر، فإنَّ الظاهر فيه أن يذكر موسى أو يقول: خالفــوا، ولذلك اختار بعــض أنَّ المعنى: اختلفوا فيمـــا بينهم، بعض رضي بالجمعة والأكثر أرادوا السبت.

وقيل: لم يعيِّن الله لهم الجمعة بل ذكر يوما مطلقا من الأســبوع فاختلفوا فيه، فــأراد القليل الجمعــة، والصحيح التعيين، وهو ظاهــر قوله ﷺ: «**نحن الآخِرون الســابقون يوم القيامة، بيْدَ أنَّهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم، ثمَّ هــذا يومهم الذي فــرض عليهم ـ يعني الجمعــة ـ فاختلفوا فيه، وهدانا الله إليه، فالناس لنا فيه تبع، اليهود غدا والنصارى بعد غد**»[1].

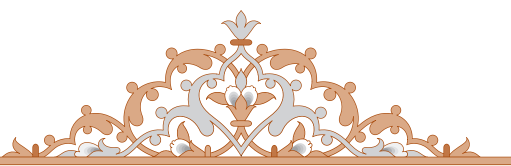
---

(1) رواه **البخاري** كتاب الجمعة، باب فرض الجمعة، رقم 836. ورواه **مسلم** في كتاب الجمعة، باب هداية هذه الأُمَّة ليوم الجمعة، رقم 855. من حديث أبي هريرة.

ومعنى بَيْد: غير، ومعنى عَلَى: أنَّه شــدَّد عليهم به إذ خالفوا إليه فألزمهم تعظيمه بالعبادة، وترك الصيــد؛ وأيضا جعل وباله عليهــم، لَمَّا اصطادوا فيه زمان داود مسخ شــبابهم قردة، وشيوخهم خنازير، أو مســخوا قردة كما هو ظاهر ســورة البقرة [آية 65]، حفروا حياضا يدخل إليها الحوت يوم الســبت فيصطادونهــا يوم الأحــد، فعوقبوا على هــذه الحيلة، كما لعنــوا بأكل ثمن الشحوم المحرَّمة عليهم.

والسبت هو يوم الســبت، أو هو بمعنى المصدر بمعنى العمل بتعظيمه، يقول: سبت اليهودي، أي عظَّم يوم السبت وعمل به، أو قطع العمل، وبقيت طائفة من اليهود علــى تعظيم الجمعة والتفرُّغ للعبــادة فيه، كما أمر الله ﷻ، وترك السبت في عهد موسى، فهم لا يحرم عليهم الصيد والعمل يوم السبت، وهم قليل، انقرضوا، ولَمَّا بعث الله رسوله ﷺ بطل السبت والأحد على اليهود والنصارى ووجبت عليهم الجمعة.

﴿**وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَــةِ**﴾ بإثابة المطيع وعقاب العاصي، فمن المطيع من عظَّم الســبت ولم يصد فيه، ومنه من عمــل بالجمعة وترك السبت ﴿**فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾ مع نبيئهم، أو اختلف بمعنى خالف.



﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (125) وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (126) وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (127) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ (128) ﴾

الأمر بانتهاج الحكمة في الدعوة إلى الله وجواز العقوبة بالمثل

﴿**ادْعُ**﴾ يا محمَّد الناس كلَّهم ﴿**إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ**﴾ دينِه، ولا يهمُّك مخالفة اليهود والنصارى وقريش، وقد نسخ السبت بالأحد، ونسخ الأحد بالجمعة، ولا سبت ولا أحد بعد بعثتك، بل الجمعة والقرآن على الكلِّ، ولا التوراة ولا الإنجيل إلَّا ما لم يخالف القرآن.

﴿**بِالْحِكْمَةِ**﴾ القرآن، أو الدلائل القطعيَّة، ومنه القرآن، وهو أصلها، فإنَّه قول موضِّح للحقِّ، كما قيل: الحكمة الدليل الموضح المزيل للشبهة، كما قال أبو حيَّان: **الحكمة الكلام الصواب القريب، الواقع في النفس أجمل موقع، وهو حقٌّ لا إشكال فيه**، وما قيل: إنَّ الحكمة إتقان العمل، وإتقان العمل غير معروف بل هي إتقان العلم، وضدُّ السفه، ووضع الأشياء في مواضعها، وقيل الحكمة هنا النبوءة والرسالة ﴿**وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ**﴾ الخطاب المقنع، ولو بما هو ظنِّيٌّ عند المخاطب يتوصَّل به إلى القطعيِّ، أو هي الترغيب والترهيب على وجه يَتَبَيَّنُ به أنَّك تريد نفعهم، والنصح لهم، أو الرفق بهم بترقيق القول.

ويقال هنا: الناس ثلاثة: الكاملون علما وعقلا وبصيرة يدعوهم بالحكمة، وهي الحجج القطعيَّة يدركونهـا، وينفعون الناس بهـا وينتفعون، وأصحاب النظر السليم، وهم الغالب وهم دون هؤلاء يدعوهم بالموعظة الحسنة، القسم الثالث أصحاب جدال وعناد وفيهم قوله تعالى: ﴿**وَجَادِلْهُمْ بِالتِي**﴾ بالمجادلة التي، أو بالطريق التي ﴿**هِيَ أَحْسَنُ**﴾ وهي ما فوق الموعظة في الشدَّة، ودون الحجج التي لا يدركونها.

قال رسـول الله ﷺ: «**أُمِرنا معاشـرَ الأنبيـاء أن نكلِّم النـاس على قدر عقولهم**»[1] ومن هذا قول العلماء: كَلِّم الإنسـان على قدر عقله لتسـلم منه، ويسلم منك، فيجادل المعاندين في رفق بمقدِّمات تسهل لهم، ويقبح عندهم إنكارها. و«أَحْسَـنُ» باق على التفضيل، ويجوز خروجه بمعنى: جادلهم بما هو حسـن ولا تقابلهم بمثل ما يفعلون من الاحتيالات الفاسدة القبيحة، فإمَّا أن يؤمنوا وإمَّا أن لا يزيد شرُّهم.

﴿**إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَـبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَـمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾ المراد الحصر في الموضعيـن، فإنَّ علم الخلـق كلِّهم دون علمـه، وكلُّ ما علمت يا محمَّد من أحوال قومك فإنَّ الله أعلم به منـك، فلا تقلق، وما عليك إلَّا ما يطابق علمك منهم، ويجوز الخروج عن التفضيـل، أي ربُّك عالم بهم، فهو مجازيهم وهو مولاك ولا مولى لهم في الخير.

ولا بدَّ من الحصر فإنَّـه تعالى عالم لا غير عالم، واسـم الـربِّ لمزيد اللطف به ﷺ بتذكير الإحسان، فكما أحسن الله إليك فيما مضى يحسن إليك في المستقبل، بالنصر والجزاء والستر. والخطاب تلويح ببعد الكُفَّار عن مقام

---

(1) أورده **السـيوطي** في الدرر المنتثرة، باب حـرف الألف، رقم 90، من حديـث ابن عَبَّاس، بلفظ: «إنَّا معاشر الأنبياء أمرنا...».

اللطف، وذكر في الكُفَّار ﴿ضَلَّ﴾ بصيغة الفعل إشـــارة إلى أنَّهم غيَّروا الفطرة «كلُّ مولود يولد على الفطرة» بدَّلوها بالكفر.

وذكر في المؤمنين لفظ ﴿الْمُهْتَدِينَ﴾ وهو اسم للدلالة على أنَّهم استمرُّوا على الفطرة، ولو فصلها كفر، لأنَّهم رجعوا إليها واستمرُّوا، وربَّما كانت فيهم ولم تفصــل بالكُلِّيَّة حتَّى راجعوها، وقــدَّم «مَن ضَلَّ» علــى «الْمُهْتَدِينَ» لأنَّ الــكلام وارد فيهم، وعليك البــلاغ وقد بلَّغت، والله هو المجــازي، ولا تلحَّ عليهم بعد مرَّة إبلاغ أو مرَّتين، وليس عليك الهدى بل الله هو الهادي.

[سبب النزول] وَلَمَّا نزل القتــال وقتل حمزة، ومثِّل به بقطع أنفه وأذنيه وذكره وأنثييه، وثقب بطنه ثقبا واسعا أقسم رسول الله ﷺ ليقتلنَّ منهم سبعين ويمثلنَّ بهم، فأنزل الله ﷻ قولــه: ﴿**وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْــلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ وَاصْبِرْ...**﴾إلخ، فأعتق عن يمينه.

والآية دلَّت على أنَّ حكم الجماعة المقاتلين حكم القاتل منهم، لأنَّه قاتل بهم، فكأنَّهم قاتلون، كما قال عمر رضي الله عنه في امــرأة قتلت في اليمن: «لو تَمَالأَ عليها أهل صنعاء لقتلتهم»[(1)].

فجاز للنبيء ﷺ أن يمثِّل بقتيل من المشــركين ولو لم يكن هو الذي قتل حمزة ومثَّل به، والقتال في المدينة، فالآيات الثلاث مدنيَّات جعلن في سورة مَكِّيَّة، وهي محكمة، وهو الصحيح.

وقيــل: نزلت فــي مَكَّة مطلقة لا في شــأن حمــزة، فتكــون تمهيدا له، ويعترض بأنَّه يحتاج إلى مناسبة لذكرها هنا. وعن ابن عَبَّاس: «أباح الله له ﷺ أن يقاتل من قاتله» بــل أوجب ولا يبدأ بالقتال، ثمَّ نســخ إلى البدء بالقتال. وحمزة رضي الله عنه أكبر منه ﷺ بعامين. وأشار بـ«إِنْ» إلى أنَّ الأصل عدم المعاقبة،

(1) رواه **مالك** في الموطأ. كتاب العقول، باب ما جاء في الغيلة والسحر، رقم 1368، من حديث سعيد بن المسيّب بلفظ: «لو تمالأ عليه أهل صنعاء لقتلتهم جميعًا».

إذ لم يقل وإذا عاقبتم، والفعل مستعمل في الإرادة، والمعنى: وإن أردتم معاقبة من أساء إليكم، والفعل مستعمل في معناه الظاهر وفي إرادته وفي الاقتصار عليه كقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ﴾ [سورة الأنعام: 119] أي ألَّا تقتصروا على الأكل ممَّا ذكر اسم الله عليه، ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ﴾ [سورة الأنعام: 118] أي اقتصروا على الأكل ممَّا ذكر اسم الله عليه، وفي تأثيره كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾ [سورة الأنفال: 17] أي أَوْصَلَه وأثره، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ [سورة يس: 11] أي يؤثِّر إنذارك، وفي المشاكلة والمشابهة كقوله: ﴿مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ فإنَّ الإساءة أوَّلاً ليست معاقبة ولكن تشابهها صورة، فهو استعارة للشبه الصوري، ومشاكلة لِمَا معه من قوله: ﴿عَاقَبْتُمْ﴾ و﴿عَاقِبُواْ﴾ وذلك من تسمية السبب باسم المسبَّب.

وفيه تلويح باستِبْعاد الإساءة حتَّى إنَّه من شأنها أن لا تكون وإنَّما تكون المعاقبة، وقوله: «هُوَ» عائد إلى المصدر المعلوم من «صَبَرْتُمْ»، كأنَّه قيل: لَلصَّبرُ. واللام للابتداء وقعت في جواب القسم المقدَّم على الشرط، أي: والله لئن صبرتم، ومعنى كونه خيرا للصابرين أنَّه منفعة لهم: الثواب في الآخرة، والنصر في الدنيا، والثناء الحسن، وقطع مَادَّة الفتنة والسوء.

أو «خَيْرٌ» اسم تفضيل، أي هو أفضل لهم لذلك من الانتقام. و«إِنْ» تلويح بأنَّ من شأن النفس أن لا تصبر، فلم يقل: وإذا صبرتم فهو والله خير للصابرين.

وبعدما فضَّل الصبر قال: ﴿**وَاصْبِرْ**﴾ بالأمر الندبيِّ، بل الواجبيِّ في حقِّه ﷺ، لأنَّ الانتقام في حقِّ الأنبياء ممَّا يعدُّ ذنبا ﴿**وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ**﴾ بتوفيقه، فلم يقتل بعد ذلك سبعين انتقاما، بل لله كسائر جهاده، ولم يمثِّل بواحد توفيقا من الله سبحانه له، وقد أكَّد الصبر في حقِّنا أيضا بالقسم

ولفظ «هُوَ» و«خَيْرٌ» والتعبيــر بـ«إن» ووضع الظاهر موضع المضمر، إذ لم يقل: لهو خير لكم.

﴿**وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ**﴾ حــزن على عدم إيمان الكُفَّار مع شــدَّة إيذائهم له وعنادهم لشــدَّة حبِّه لدين الله وإنفاذه، ورسوخ الرحمة، كما خيِّر في إهلاكهم فأبى، وقال: «**أرجــو أن يؤمن منهم مؤمــن أو يلد مؤمنا**» فقــال الله: ﴿**لَعَلَّك بَاخِعٌ...**﴾ [سورة الشعراء: 3] ونحو ذلك أمرا له أن يتسلَّى عنهم، أو «عَلَى» بمعنى اللام، وقيل: لا تحزن على قتلى «أُحُد» من المسلمين، وفيه تفكيك الضمائر، فإنَّ الضمير فــي قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَكُ فِــي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُــرُونَ**﴾ لِلْكُفَّارِ لا لقتلى «أحد» من المسلمين.

وهــذا من جملة تســليته ﷺ في شــأن عمِّــه حمزة، ووعــد بالنصر، ومقتضى الظاهر: ولا يكن فيك ـ أي في صدرك ـ ضيق من كيدهم، فقلب الكلام لنكتــة، هي أنَّه إذا اشــتدَّ الهــمُّ أحــاط بالمهتمِّ إحاطــة الظرف بالمظروف. و«مَا» مَصدَرِيَّــة ولا حاجة إلى جعلها اســما بمعنى من مكر يمكرونه، أو المكر الذي يمكرونه، وهو مصــدر، ويجوز أن يكون وصفا مشدَّد الوسط فخفِّف.

﴿**إِنَّ اللهَ مَعَ الذِينَ اتَّقَواْ**﴾ تركوا الكفر والمعاصي، والزيادة في الانتقام، أو تركوه كلَّه وعظَّمــوا الله وأمره وخافوه ﴿**وَالذِينَ هُم مُّحْسِــنُونَ**﴾ بالطاعة والصبر وعدم الانتقام، والإحســان إلى من أســاء جلبا إلى الخير، وحسما لمادَّة الشــرِّ، والشــفقة على خلق الله ﷻ. والمراد بالمعيَّة النصر والتوفيق والوَلاية والفضل.

وقدَّم التقوى على الإحســان لأنَّ التخلِّي قبل التحلِّي، والمراد موصوف واحد عطفت عليه صفتــه، كأنَّه قيــل: إنَّ الله مع الذين جمعــوا بين التقوى والإحسان، وأكَّد الإحسان بإيراده اسما وفي ذلك إيصاء بمكارم الأخلاق.

قيل لهرم بن حيان[1] حين احتضر: أوصِ، فقال: إنَّمـا الوَصِيَّة في المال ولا مال لي، ولكنِّي أوصيكم بخواتم سورة النحل.

والله الموفِّق.
ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله العليِّ والعظيم.
وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.



(1) هرم بن حيَّان العبدي الأزدي من بني عبد القيس قائد فاتح من النسَّـاك ومن التابعين، ولي بعض الحروب في أَيَّام عمر وعثمان بأرض فارس وقال عنه الجاحظ: «إنَّه من النسَّاك الزهَّاد من أهل البيان» مات بعد 26هـ في إحدى غزواته. الأعلام للزركلي، ج 8، ص 82.

17

تفسير سورة الإسراء

مكِّـيَّة إلَّا الآيات 26 و32 و33 و57 ومن 73 إلى 80 فمدنيَّة،

وآياتها 111 ـ نزلت بعد سورة القصص

[سيرة] كان الإسـراء بعد النبوءة بعشر سـنين وثلاثة أشهر، وقيل: سنة خمس أو سـتٍّ من النبوءة، وقيل: في السنة الثانية عشـرة من النبوءة، وقيل: قبل الهجرة بسنة وخمسة أشهر، وقيل: بسنة وثلاثة أشهر، وقيل: قبل النبوءة، **وهو خطأ**، وكان في ربيـع الأوَّل، وقيل: في ربيع الأخيـر، وقيل: في رجب وقيل: في رمضان، وقيل: في شـوال، وذلك في الليلة السابعة والعشرين من الشهر ليلة السـبت، وقيل: ليلة الجمعة، وصلَّى جبريل به ﷺ الظهر أوَّل يوم بعد الإسـراء، أربعا. والجمعةُ والجنازة وجبتا بعد الخمس، وفرضت بِمَكَّةَ، لكن استخفى بها، وقيل: الإسراء ليلة الاثنين.

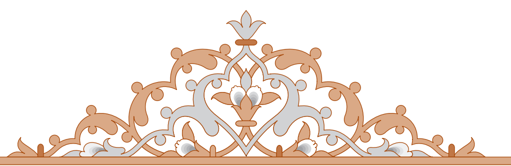
وذكر بعض أنَّ الإسـراء في سـبع عشـرة من ربيـع الأوَّل، وله إحدى وخمسون سـنة وتسـعة أشـهر وثمانية وعشـرون يوما، وقيل: ليلة السابع والعشرين من ربيع الأخير.

وليلة الإسـراء أفضل من ليلة القدر عند الجمهـور، وليلة القدر خير من سائر الليالي، وقيل: ليلة الإسراء أفضل إليه ﷺ، وليلة القدر أفضل إلى أمَّته، ويردُّه أنَّ ما هو أفضل إليه يكون أفضل إلى أمَّته، فليلة الإسراء أفضل، نعم لم يشرع التعبُّد فيها وشرع في ليلة القدر.

والإسراء ببدنه وروحه، وقيل: أسـري به قبل النبوءة بروحه تمهيدا، ثمَّ بها وببدنـه يقظة، وقيل: بجسـده وروحه إلى المقـدس، وبروحه منه إلى

السماء، كما شنَّع المشـــركون عليه الذهاب إلى بيت المقدس، ولم يشنِّعوا عليه الذهاب إلى السماء.

ولا يخفى أنَّ تســـمية البدن والـــروح معا «عبدا» أحقُّ وأظهر من تســـمية الروح وحدها عبدا. وركب جبريل خلفه معه على البـــراق، والصحيح أنَّه لم يركب بل أمسك الركاب، وميكائيل قاده، والركوب إكرام من الله ﷻ له ﷺ، ويقال: ركب علـــى البراق من مكة إلـــى صخرة بيت المقـــدس، ومنها على المعراج إلى السماء الدنيا، وعلى أجنحة الملائكة إلى السماء السابعة، ومنها على جناح جبريل إلى ســـدرة المنتهى، ومنها على الرفرف إلى قاب قوسين، وذلك إكرام، وإلَّا فالله قادر أن يوصله إلى ما شـــاء بـــدون ذلك، كما روي أنَّه سار إلى العرش، فقيل: بمرقى، وقيل: بلا مرقى.



﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ۝١﴾

إكرام الله للرسول بحادثة الإسراء

﴿سُبْحَانَ الذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ «سُبْحَانَ» اسم مصدر سبَّح بشدِّ الباء، فهو بمعنى التسبيح نائب عن فعل الأمر، أي سبِّحوا الذي أسرى بعبده، ناب سبحان عن تسبيح، وأضيف للاسم الذي ينصب بـ«سبِّحوا»، وهكذا سبحان في جميع القرآن.

أمر بالتسبيح تنزيها عن صفة مخلوق مطلقا أو تنزيها بالصلاة وما ذكرته في «التوحيد بالحجَّة»[1] مخالفا لهذا كلام نقلته بلا تأمُّل، كما أنَّ بعضا قال: التقدير: أسبِّح اللهَ بصيغة المضارع، يقوله الله عن نفسه، وهو الذي ذكرته في «التوحيد بالحجَّة» وهو في الكرخي[2] ونسبه للنحويين، وجدت منه نسخة قديمة له أو قوبلت على خطِّه، إلَّا أنَّه يحتمل أن يكون المراد أن يقول كلُّ أحد عن نفسه: أسبِّح الله، ويقدَّر الماضي إذا عطف بعده تعالى، كما يجيء بعد في هذه السورة.

(1) اسم كتيب للمؤلِّف طبع طبعا حجريا، بعنوان: «الحجَّة في بيان المحجَّة في التوحيد بلا تقليد». ولمزيد من التوضيح راجع: آراء الشيخ امحمَّد بن يوسف اطفيَّش العقديَّة، لمصطفى وينتن، ص 70.

(2) الكرخي: محمَّد بن محمَّد الكرخي البكري فقيه شافعيٌّ أصوليٌّ عارف بالتفسير، اشتهر بمصر، وتوفي بها حوالي سنة 1006 هـ. معجم المفسرين، ج 2.

[صرف] وأجاز بعض أن يكون «سُبْحَانَ» مصدر سبح بلا تشديد، بمعنى بَعُدَ عن صفة السوء، كغفران وليس قياسا كما قيل، وشهر أنَّ «سُبْحَانَ» علم للتسبيح.

و«أَسْرَى» لازم كـ«سرى»، وهو أبلغ من «سرى»، وتعديته بتأويل: أسرى ملائكتُه بعبده تكلُّف، وإنَّما تعدَّى بالباء أي: صيَّر عبده ساريا، وقال: «بِعَبْدِهِ» لأنَّ العُبُودِيَّة لله أشـرف المقامات، وكان ﷺ راغبا في اسم العُبُودِيَّة لله، وكان يقول: «**أشرف الأسماء ما تعبِّد به**»(1) أي ذكر فيه عبد، كعبد الله، وعبد العزيز، وعبد القادر، ولو قـال: بحبيبه أو نحوه لكان أقرب إلـى أن تطريه الأمَّة كما أطرت النصارى المسيح وقالوا: إنَّه إله، أو إنَّه ابن الله، أو إنَّه الله، وقد نهانا أن نطريه كما أطرت النصارى المسيح(2).

﴿**لَيْـلاً**﴾ بعد صلاة العشـاء، أي في بعض ليل عظيم لا فيـه كلِّه، ولا في النهار، ويجوز أن يكون «لَيْلاً» اسما لجزء منه، وبعض الليلِ ليلٌ كما أنَّ بعض السوقِ سوقٌ، وذلك حقيقة لا مجاز، كما قيل إنَّ قصَّة الإسراء أربع ساعات أو ثلاث أو ساعة، أو قبل أن يسـكن غصن شـجرة صادمه أوَّل الإسراء فتحرَّك، وقبل أن يبرد فراشه من سخونة الاضطجاع عليه، وهذا التبعيض بأنواعه حكمة، ذكر الليل مع أنَّ لفظ الإسراء يدلُّ عليه، وقد يجوز التجريد بأن جرِّد عن بعض معناه، فكان بمعنى السير مطلقا فقيِّد بالليل، وما تقدَّم أحقُّ لزيادة الفائدة.

﴿**مِنَ الْمَسْـجِدِ الْحَرَامِ**﴾ بعد أن أسـرت به الملائكـة: جبريل وميكائيل وغيرهما من بيت أمِّ هانئ بنت عمِّه إلى الحجر، ثمَّ منه إلى زمزم، وشقُّوا بلا ألم ولا دم قلبه، وغسلوه ثلاثا، وعاد كما كان، وأسْروا به منه(3).

---

(1) أورده **العلجوني** في الكشف، ج 1، ص 95. **والسيوطي** في الدرر المنتثرة، ص 81.

(2) روى **أحمد** في مسنده (كتاب العشرة المبشَّرين بالجنَّة رقم 149) قوله ﷺ: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم عليه السلام فإنَّما أنا عبد الله ورسوله».

(3) أورد الحديث **البخاري** في صحيحه، كتاب مناقب الأنصـار (42) باب المعراج في حديث طويل، رقم 3887. من حديث أنس. وأوَّله قوله ﷺ: «بينما أنا في الحطيم مضطجعا...».

وهذا أولى من دعوى أنَّ المراد بالمسجد الحرام مكة، فيشمل بيتها والمسجد الحرام، وهو يومئذ المطاف فقط، وحوله دور الناس وبيوتهم، ومن شاء شرع باب مسكنه في المطاف، وأوَّل من زاد في السجد عمر واتبعه غيره، يشترون الدور ويدخلونها في المسجد بلا رجوع فيها ولا شرط، وأمَّا المطاف فمن الله لم يجْرِ ملكُ أحدٍ عليه.

﴿**إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا**﴾ القصي، أي البعيد عن مكة، وقيل: لأنَّه أبعد المساجد التي تزار من المسجد الحرام، وقيل: لأنَّه ليس بعده موضع عبادة فهو أبعد مواضعها، وقيل: بعيد للزائرين، وقيل: المراد بعده عن الأقذار والخبائث، وهو ضعيف لا دليل عليه.

والظاهر أنَّه بعد حسِّيٌّ، وأنَّه هو خارج عن التفضيل، ولا خلاف أنَّه هو بيت المقدس، بنته الملائكة بعدما بنوا الكعبة بأربعين عاما، وبينه وبين مكة مسيرة ثلاثين يوما وأكثر إلى أربعين، وقيل: بنى آدم بيت المقدس بعد الكعبة بأربعين عاما، ويسمَّى بيت المقدس أي الطهر، لأنَّه لم يعبد فيه ولا حوله صنم، ولم يبن مسجد قبله في الأرض.

﴿**الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ**﴾ بالثمار والأشجار والأنهار، وبأنَّه مقرُّ الأنبياء ومتعبَّدهم، ومهبط الملائكة والوحي، وقبلة الأنبياء، ومحشر الخلق، وقد وصف الله الكعبة بالبركة إذ قال: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ...﴾ [سورة آل عمران: 96] وبركتها أعظم من بركة بيت المقدس بأضعاف، كما في آثار منها: «إنَّ الحسنة في مكة بمائة ألف، وفي المدينة بعشرة آلاف، وفي بيت المقدس بألف»[1]، وروي عنه ﷺ: «**إنَّ الدجال لا يدخل مسجد مكة، ومسجد المدينة،**

---

(1) أورد **البيهقي** في شعب الإيمان، باب فضل الحج والعمرة، رقم: 3986 قوله ﷺ: «صلاة في المسجد الحرام مائة ألف صلاة، وصلاة في مسجدي ألف صلاة، وفي بيت المقدس خمسمائة صلاة»، من حديث جابر بن عبد الله.

وبيت المقدس، والطور»[1] وأوَّل مسـجد وضع المسـجد الحـرام ثمَّ بيت المقدس وبينهما أربعون عاما.

﴿**لِنُرِيَهُ مِنَ ـ ايَاتِنَآ**﴾ دلائل وجودنا وقدرتنـا وحكمتنا. و«مِنْ» للتبعيض وهذا البعض الـذي أراه الله نبيئنا محمَّدًا ﷺ أعظم مـن الملكوت الذي أراه إبراهيم ، فإنَّه رأى العرش والكرسـي والجنَّة والنـار وغيرهما مما لم ير إبراهيم، ورأى في كلِّ سماء نبيئا.

[وقيل:] رأى خلقا كالرجال راكبين على خيل بلق شـاكي السـلاح يتبع بعض بعضا، طول كلِّ واحد وطول فرسه ألف عام. لا يرى آخرهم ولا أوَّلهم، فسـأل جبريل ، فقال: ذلك قوله ﷻ: ﴿وَمَـا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّـكَ إِلَّا هُوَ﴾ [سورة المدثِّر: 31] وهكذا أراهم إذا هبطت وإذا صعدت، لا أدري من أين يجيئون ولا إلى أين يذهبون، [قيل:] وصلَّى في كلِّ سـماء ركعتيـن، الأولى بـ﴿قُلْ يَآ أَيُّهَـا الْكَافِـرُونَ﴾ [سـورة الكافرون: 1] والثانيـة بـ﴿قُـلْ هُـوَ اللهُ أَحَـدٌ﴾ [سـورة الإخلاص: 1]، وصلَّى بالأنبياء وهم سبعة صفوف، ثلاثة صفوف مرسلون، وذلك بأرواحهم وأجسـادهم، وقيـل: بأرواحهم، وصلَّت معهـم الملائكة، وذلك قبل العروج على ما صحَّح بعض، وقيل: بعده.

وأسـري به إلى بيت المقدس لينال فضله كما نال فضل المسجد الحرام، وينال فضل المدينة، ولأنَّ باب السـماء فوق بيت المقدس ينزل منه كلَّ يوم سـبعون ألف ملك، يسـتغفرون لمن زار بيت المقدس، ولأنَّ الشـام أرض المحشر، ولتتشرَّف به أرض المحشر.

وفي لفظ «سُـبْحَانَ» تنزيه وتعجيب، وكذا فيما بعده إلى هنا تعجيب وأتمَّه بقوله: ﴿**إِنَّهُ هُوَ السَّـمِيعُ**﴾ العليم بالأقوال والأصـوات ﴿**الْبَصِيرُ**﴾

(1) أورده **الآلوسـي** في تفسـيره، ج5، ص11. وقال: «أخرجه أحمد في مسنده»، رقم 22011، بلفظ: «... يأتي كل منهل لا يأتي أربعة مساجد...»، من حديث جنادة بن أبي أميَّة.

العليم بالألوان والأعراض، والأطـوال والغلظ والرقة، والقصر والحركات والسـكنات وبالاعتقاد، فهو يقرِّب سـيِّدنا محمَّدًا ﷺ درجـات ويكرِّمه، وقيل: سميع لقول سـيِّدنا محمَّد ﷺ بصير بأفعاله، وذلك يتضمَّن التهديد لمن ينكر إسـراءه من الكُفَّار، وكان الإسـراء إلى أرض المحشـر ليطأها بقدمه للبركة على أمَّتـه إذا كانوا فيها، وليصلِّي خلفـه فيها الأنبياء كلُّهم، والملائكة، قيل: وروح كلِّ مؤمن.

[سيرة] [قلت:] والإسراء بجسـده وروحه على الصحيح، لأنَّه أعظم في الكرامة ولـو كان بروحه أو فـي المنام لـم يتعجَّب الكفار ذلـك التعجُّب المفرط، ولم ينكروه ذلك الإنكار الكلِّي، حتَّى ارتدَّ بعض من آمن، نعم قيل: سـرى بروحه في النوم قبل ذلك بسنتين، ثمَّ سرى بجسـده. ولم ير الله ولم يكن شيء مما يخالف صفات الله ﷻ.

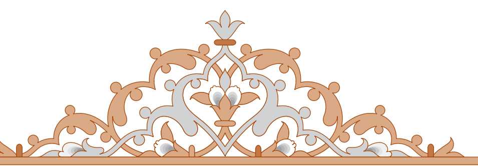
سـرى بدابَّة بيضاء تسـمَّى «البـراق» لصفائها أو لسـرعتها كالبرق، وليسـت بذكر ولا أنثى، وفي العبارة تُذَكَّر لمعنـى الحيوان مثلا، وتؤنَّث لمعنى الدابة، وهو من الجنَّة، سـرى به من مكة إلى بيت المقدس، ومنه إلى كلِّ سماء عروج، فذلك سبع، والثامن إلى سـدرة المنتهى، والتاسع إلى الكرسي، والعاشـر إلى العرش، حمل من الحِجْر بين النوم واليقظة، فما استوى على البراق إلَّا مستيقظا وذلك بعدما صلَّى العشاء، وذلك قبل الهجرة بسنة.

وَلَمَّا كذَّبوه أخبرهم بصفة بيت المقدس وأبوابـه بعد أن مثل له عند دار عقيل، إذ لم يراع وصفه حين كان فيه، وبصفة البعير الذي يقدم أوَّلا، والبعير الذي نفر فانكسر، وشـربه ماء القدح، وصدَّق أبو بكر أوَّل ما قيل له إنَّه قال كان في بيت المقدس، وقال: إن قال فقد صدق، وإنَّا لنصدِّقه في خبر السماء من العرش بلحظة، فقيل: سُمِّي صدِّيقا لذلك.

وقد قالت المهندسون: الشمس تساوي الأرض مائة ونيفا وستِّين مرة، ومع ذلك نشاهد طلوعها بسرعة في زمان لطيف، فكيف يستبعد الإسراء، وذكر بعض أنَّ الإســـراء في ليلة والعروج في ليلة، وبعض أنَّ الإسراء في اليقظة والعروج في النوم، وبعض أنَّ الإسراء وقع مرَّتين مرَّة بروحه ومرَّة بجســـده في يقظة، وبعض أنَّ الإســـراء أربع مرَّات، **والحقُّ أنَّـــه مرَّة في اليقظة،** يتَّصل به العروج في ليلة واحدة، وقصَّتهما طويلة بسطتها في شرح القصيدة النونية:

تيمـــم نجدا في تلهُّفـــه الجاني   يؤمُّ رســـول الله للإنس والجان

وفي هميان الزاد.



﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿2﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿3﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿4﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿5﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿6﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿7﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿8﴾ ﴾

أحوال بني إسرائيل في التاريخ

﴿**وَءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ**﴾ التوراة في الطور بعد المناجاة، كما أنزلنا عليك الكتاب وعرجنا بك، وهذا وجه الاتصال بما قبل، ولا سواء، فانظر كم بين ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ و﴿ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ وانظر كم بين ﴿يَهْدِي لِلتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [سورة الإسراء: 9]، وبين ﴿هُدًى لِّبَنِي إِسْرَآئِيلَ﴾، وبين ﴿خيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ﴾ [سورة آل عمران: 110] و﴿بَنِي إِسْرَآئِيلَ﴾ وَبَيْنَ ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ وَ﴿لَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا﴾ [الأعراف: 143]. والعُبُودِيَّة لله تعالى وصف عظيم.

﴿**وَجَعَلْنَاهُ**﴾ أي الكتاب، أولى من أن يقال: جعلنا موسى ﴿**هُدًى لِّبَنِي إِسْرَآئِيلَ**﴾ متعلّق بـ«هُدًى»، واللام للتقوية، أو نعت «هُدًى»، أو مُتعلّق

بـ«جَعَلْنَاهُ»، والــلام للنفع ولا تقل: للتعليل ﴿أَلَّا تَتَّخِــذُواْ مِن دُونِي وَكِيلاً﴾ «أَنْ» مفسِّــرة لـ«ءَاتَيْنَا»، أو لـ«جَعَلْنَاهُ هُدًى»، أو لهما، فإنَّ إيتاءه وجعله هدى تكليف بالامتثال والازدجار، وذلك معنى القول دون حروفه. و«لَا» ناهية، أو «أَنْ» ناصبــة و«لَا» نافيــة على تقدير البــاء أو على. ومعنــى ﴿وَكِيلاً﴾: ربٌّ يعبدونه مــن دون الله يتركون إليه أمرهــم، أي موكولا إليــه أمرهم، «فعيل» بمعنى مفعول.

﴿ذُرِّيَّةَ مَــنْ حَمَلْنَا مَعَ نُــوحٍ﴾ منصوب على النداء أي يــا ذُرِّيَّة، أو يقدَّر يا ذُرِّيَّة مَن... إلخ، أطيعوا واشكروا كنوح، أو على الاختصاص، كذا قيل، مع أنَّ ذُرِّيَّة أعمُّ من بني إســرائيل، وقد يجاب بأنَّ ذكر بني إســرائيل يحتمل أن يكون من جهة الذُّرِّيَّــة لنوح، وأن يكون لوصف آخــر كالذُّرِّيَّة للخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكغير الذُّرِّيَّة. وبنو إسرائيل من نسل ســام. ويجوز أن يكون «ذُرِّيَّةَ» بدلا من «وَكِيلاً»، أو مفعــولا أوَّلاً و«وَكِيلاً» ثانيــا، كقوله تعالــى: ﴿وَلَا يَامُرُكُمُوۥ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلآئِكَةَ وَالنَّبِيئِينَ أَرْبَابًا﴾ [سورة آل عمران: 80] ومن ذُرِّيَّة المحمولين مع نوح عيسى وعزير ومريم، وفي ذكر الحمل إيماء إلى شكر النعمة بالإنجاء من الغرق وزاد في ذلــك بقوله: ﴿إِنَّــهُ كَانَ عَبْدًا شَــكُورًا﴾ فــإنَّ الضمير لنوح الشكور، فاشــكروا نعمة الإنجاء من الغرق ونعمة التوراة، وأنجاه الله لشكره، وفي ذلك حثٌّ لذرِّيته على الشكر ـ الإسرائيلِيِّين وغيرهم ـ، وكان يشكر الله على كلِّ حال، وذلك حكمة ذكره هنا.

وقيل: الهاء لموســى، لأنَّ الكلام ســيق له بالذات، وأمَّا ذكر نوح فلو كان أقرب لكن ذكر بالعرض، وفيه أنَّه أشــدُّ شكرا من موســى وشهرةً بالشكر، كما روي أنَّه إذا لبس قال: «الحمد لله الذي ألبسني، ولو شاء لأعراني»، وإذا احتذى قال: «الحمد لله الذي أحذاني ولو شــاء لأحفاني»، وإذا أراد الأكل أو الشــرب سمَّى الله ســبحانه، وإذا أكل قال: «الحمد لله الذي أطعمني ولو شاء لأجاعني»،

وإذا شرب قال: «الحمد لله الذي سقاني ولو شاء لأظمأني»، وإذا قضى حاجته قال: «الحمد لله الذي أذاقني لذَّته وأبقى في منفعته، وأخرج عنِّي الأذى ولو شاء لحبسه»، وإذا أراد الأكل عرض على من آمن به فإن وجده محتاجا آثره على نفسه، وإذا أصبح أو أمسى قال: ﴿فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالَارْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [سورة الروم: 17ـ18].

﴿**وَقَضَيْنَآ**﴾ ضمِّن معنى أوحينا، فعدِّي بـ«إلى»، وقيل: «إلى» بمعنى «على»، أي قضينا على بني إسرائيل، وضُمِّن معنى القسم فأجيب باللام ونون التوكيد في قوله: ﴿لَتُفْسِدُنَّ﴾، ﴿**إِلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ فِي الْكِتَابِ**﴾ التوراة أو الجنس، كما قرأ ابن أبي العالية وابن جبير: «في الكُتُبِ»، بضمِّ الكاف والتاء، ﴿**لَتُفْسِدُنَّ فِي الَارْضِ**﴾ أرض بلاد بيت المقدس، أو مطلق الأرض لشيوع فسادهم فيها، ويجوز تقدير: وقضينا إلى بني إسرائيل بالإفساد قائلين: والله لتفسدنَّ في الأرض، أي لتوقعنَّ الفساد، ولا مفعول لـ«تفسد» أو يقدَّر: لتفسدنَّ التوراة أو التكليف.

ذكر الله ﷻ أنَّه آتاهم التوراة، وأنَّهم سيخالفونها بعد الإيتاء، ﴿**مَرَّتَيْنِ**﴾ إفسادتين فهو مفعول مطلق، أو زمانين فهو ظرف زمان، الأولى قتل شعياء ومخالفة التوراة، والثانية: قتل زكرياء ويحيى، وقصد قتل عيسى. وقيل: أولاهما قتل زكرياء وحبس أرمياء، والآخرة قتل يحيى وقصد قتل عيسى، وقيل: موت زكرياء بعد قتل يحيى وقيل بالعكس.

[قصص] وسبب قتل يحيى أنَّ ملكا أراد أن يتزوَّج من لا تجوز له فنهاه، وقد وعد تلك المرأة قضاء حاجة في كلِّ عيد، فقالت لها أمُّها: سليه دم يحيى، فألحَّت عليه حتَّى ذبحه في طست فوقعت قطرة في الأرض فلم تزل تغلي حتَّى قتل عليها سبعون ألفا، وقيل: راودته امرأة الملك وكان جميلا فأبى، فقالت لها أمُّها: سليه دمه، وكان كلُّ ملك في بني إسرائيل يبعث معه نبيء يسدِّده، ومنهم

«صديعة» ـ بالعين المهملة أو بالقاف، أو «صداقيا» ـ بعث الله معه شعياء المبشِّر بعيسى ومحمَّد ﷺ، واستقاموا، ثمَّ عظمت الأحداث فجاءهم «سنجاريب» ملك بابل في ستمائة ألف راية، ونزل حول بيت المقدس، وصديعة مريض في فرسخ، فأوحى الله إلى شعياء أن إيت صديعة ومره أن يوصي، ويستخلف من شاء من أهل بيته، فقال صديعة: رضيت فصلَّى ودعا وتضرَّع، فأوحى الله إلى شعياء: إنِّي زدت له خمس عشرة سنة، أي هي من القضاء الأزلي، لكن بيَّن له أنَّ سببها تضرُّعه، وإنِّي أهلك عدوَّه فخرَّ صديعة ساجدا، وأصبح العدو موتى، فصرخ رجل على باب المدينة بموتهم فخرج الملك فلم يجد في الموتى سنجاريب فبحثوا فوجدوه في غار مع خمسة نفر من كنانة، أحدهم بخت نصَّر، فجيء بهم في القيود، فخرَّ صديعة من طلوع الشمس إلى العصر ساجدا، فأمر أن يطاف بهم حول بيت المقدس وإيليا سبعين يوما في القيود.

[قصص] فأوحى الله ﷻ إلى شعياء أن يرسل صديعةُ سنجاريب ومن معه لينذروا قومهم، ويكرمهم ويبلغهم مأمنهم، فلبث في بابل سبع سنين ومات واستخلف بخت نصَّر ابنه، ومات صديعة، وتنازع بنو إسرائيل الملك وتقاتلوا، ووعظهم شعياء موعظة عظيمة ألهمه الله إياها، وَلَمَّا فرغ قصدوه بالقتل فهرب، فانفلقت له شجرة فدخل فيها وأخذ الشيطان هدبة من ثوبه فأراهم إياها فنشروها حتَّى قطعوها وقطعوه، وقيل: مات زكرياء على فراشه فيقتصر على ذكر يحيى في المرة الأولى.

واستخلف الله منهم ناشية بن أموص وبعث لهم أرمياء بن حلفياء نبيئا من سبط هارون، ويقال: إنَّه الخضر، وأحدثوا واستحلُّوا المحارم فأوحى الله تعالى إلى أرمياء ـ بضمِّ الهمزة وشدِّ الياء، وقيل: بضمِّها وكسرها وتخفيف الياء ـ أن يذكِّرهم نعمه ويعرِّفهم بأحداثهم، ألهمه الله ﷻ خطبة بليغة وفي آخرها يقول الله ﷻ: «إنِّي حلفت بعزَّتي لأقيِّضنَّ لهم فتنة يتحيَّر فيها الحليم

ولأسـلِّطنَّ عليهم جبارا ذا هيبة أنزع الرحمة من قلبه يتبعه من العساكر مثل سواد الليل المظلم، وهو بخت نصَّر» فقتلهم وقتل علماءهم وأحرق التوراة وخرَّب بيت المقدس وألقى فيه الجيف، وسبى سبعين ألفا إلى بابل فمكثوا فيها سبعين سنة، ثمَّ سأل عن بيت المقدس وقتلاه، فقيل: بيت الله وعصوا الله فسلَّطك الله عليهم، وهؤلاء السبعون ألفا من ذُرِّيَّة الأنبياء فقال: أخبروني كيف أصعد إلى السماء وأقتل من فيها وأملكها وإلَّا قتلتكم؟ فقالوا: لا يقدر أحد على ذلك، وتضرَّعوا إلى الله ﷻ، فأدخل الله بعوضة في منخره حتَّى عضَّت بأمِّ دماغه فما يسكن حتَّى يوطأ على أمِّ دماغه ومات، وشقُّوه فوجدوها عاضة فيه، وذلك انتقام وإظهار لقدرة الله ﷻ.

ورجعوا إلى الشام وبنوا وكثروا، ولا نسخة من التوراة لهم، فبكى عزير فقال له رجل وهو ملَك: ما يبكيك؟ قال: فقد التوراة وبها قِوام دين الله ﷻ، قال: أتحبُّ أن ترجع إليك؟ فارجع إلى موضعك وتطهَّر وصم، ففعل، فأتاه بإناء ماء فشربه فمثلت التوراة في صدره، ووجدوا نسخة في موضع فقرأ وقابلوه بها ولم يغيِّر حرفا، ثمَّ بعد ذلك أحدثوا وقتلوا زكرياء، قيل: قتلوه ويحيى، وقصدوا قتل عيسى. والثلاثة من آل داود.

﴿**وَلَتَعْلُنَّ**﴾ تتكبَّرون على أهلها بالظلم لهم في أبدانهم وأموالهم وأعراضهم، وعن طاعة الله واتباع الحقِّ ﴿**عُلُوًّا كَبِيرًا فَإِذَا جَآءَ**﴾ حان وقرب ﴿**وَعْدُ أُولَاهُمَا**﴾ وعد عقاب المرَّة الأولى، أو الوعيد أي المتوعَّد به، أو ﴿وَعْدُ﴾: بمعنى الوقت، لوَّح بالعقاب في ذكر الإفساد والعلو، وذكره كذكر المعهود المذكور، وفي ذلك استعمال الوعد في الشرِّ كما يستعمل في الخير وهو شائع في القرآن، ودلَّ على إرادة العقاب قوله تعالى: ﴿**بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ**﴾ قوة وشدَّة في الحرب، وذلك تأكيد، كظلٍّ ظليل أي شدَّة شديدة، أو جرَّد من الشدَّة شدَّة، وذلك تجريد بديعي، وهو مبالغة.

وهم بخت نصَّر ـ عامل هراسف على بابل ـ وجنودُه، وقيل: العمالقة، أو جالوت الخرزي البربري، أو سنجاريب من أهل نينوى، أرسل الله إليهم ملَكا يأمرهم من الله بقتال بني إسرائيل لعتوِّهم أكثر من عتي المشركين، أو وسوس لهم الشيطانُ أو عقلُهم بأن يقاتلوا بني إسرائيل، وذلك خلق من الله فسمَّاه بعثا بعثهم الله إليهم حين كذَّبوا أرمياء وجرحوه وحبسوه واختاره بعضهم.

﴿**فَجَاسُواْ**﴾ استقصوا في التفتيش عمن يجدونه فيقتلونه أو يأسرونه ويأخذون ماله ﴿**خِلَالَ الدِّيَارِ**﴾ مفرد أو جمع خَلَل، كجبل وجبال، ظرف أي في منفرج الديار، ديارِ بيت المقدس، قتلوا الكبار وسبوا الصغار وحرَّقوا التوراة، وخرَّبوا المسجد.

[أصول الدين] وذلك كلُّه خلق من الله وتسليط للكافرين على المؤمنين، كما يسلِّط الله الحيَّة والعقرب والأسد على من شاء، وذلك انتقام من بني إسرائيل لمعاصيهم على يد ظالم، ومنعت المعتزلة تسليط الكافر على المؤمن، وأوَّلوا البعث بعدم المنع، فعندهم أنَّ ذلك خلق من بخت نصَّر وجنوده والله بريء من ذلك، فلزمهم أن يكون غير الله خالقا، وأن يكون في الوجود ما لم يقرِّره الله.

﴿**وَكَانَ**﴾ أي الجوس خلال الديار، أو كان وعد العقاب، أو كان وعد أولاهما ﴿**وَعْدًا مَّفْعُولاً**﴾ لا يتخلَّف، والجمهور على أنَّ هؤلاء العباد خرَّبوا بيت المقدس وقتلوا بني إسرائيل قتلا ذريعا، وأسروهم وأحرقوا التوراة، وعن ابن عَبَّاس ومجاهد: جاسوا خلال الديار وانصرفوا بلا قتال.

[قصص] وكان بيت المقدس مبنيا لسليمان بالذهب والفضة والياقوت والزمرد وسائر الجواهر، تأتي بذلك الجن من معادنه وبنوه له، وأخذ ذلك بخت نصَّر المجوسي إلى بابل مع سائر الغنائم، على سبعين ألفا ومائة ألف عجلة، وملكه سبعمائة سنة وسبَى الأطفال والنساء وغيرهم، واستخدمهم مائة

سنة، فسار ملك من المجوس بوحي الله إليه أن يستنقذ من بقي منهم، ويستنقذ الذهب والفضة ونحوهما، ويرجعهم إلى بيت المقدس كأوَّل مرَّة، ثمَّ رجعوا إلى المعاصي فغزاهم قيصر ملك الروم في البر والبحر، فسباهم وقتلهم وأخذ الأموال والنساء، وحمل تلك الأموال على سبعين ألفا ومائة ألف عجلة، وأودعه كنيسة الذهب. قال القرطبي: وهو فيها حتَّى يأخذه المهدي، ويردُّه إلى بيت المقدس وهو ألف سفينة وسبعمائة سفينة يرمي بها على بابل حتَّى ينقله إلى بيت المقدس كما قال:

﴿**ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ**﴾ إذ تُبتم وأحسنتم، والمراد: نردُّ لكم، لكن عبَّر بالماضي لتحقُّق الوقوع، لأنَّ الردَّ لم يقع وقت الإخبار، بل بعد مائة سنة، واللام للتعدية والنفع، ولا داعي إلى كونها للتعليل كما هو ظاهر، وكما يناسب مقابلة لفظ «عليهم» بعدُ، ﴿**الْكَرَّةَ**﴾ الدولةَ، وأصلُه الرجوع، سمِّيت لأنَّها تجيء بعد العدم ﴿**عَلَيْهِمْ**﴾ على الذين بعثوا عليكم من المجوس، بأن ألقى الله الشفقة عليهم في قلب «بهمن بن اسفنديار»، لَمَّا ورث الملك من جدِّه «كشاسف بن لهراسف»، فردَّهم إلى الشام، وملَّك عليهم الله ﷺ دانيال، وقيل بواسطة أمر «بهمن» بذلك، ألقى الله الشفقة في قلبه فردَّ بني إسرائيل إلى الشام، فاستولوا على من كان في الشام من أتباع بخت نصَّر، وقيل: تزوَّج امرأة إسرائيلية فطلبت أن يردَّهم إلى الشام فردَّهم، فكانت فيهم أنبياء وكانوا أحسن مما كانوا قبل، وقيل: سلَّط داود على جالوت، ورُدَّ بأنَّه لم يكن مسجد الشام قبل داود فضلا عن أن يدخلوه أوَّل مرَّة، كما قال الله سبحانه، وابتدأ بنيانه بعد قتل جالوت ولم يتمَّه، وأتمَّه سليمان، وأجيب بأنَّ حقيقة المسجد: الأرض، والحقُّ أنَّ المسجد قبل داود.

ومعنى «بخت» بالعبرانية: ابن أو عطية، و«نصَّر» بالشدِّ: صنم، وُجدَ صبيا عند صنم ولم يعرف له أب فنسب إليه. و«عَلَيْهِمْ» متعلِّق بـ«رَدَدْنَا» أو بـ«الكَرَّةَ»، ولا حاجة إلى جعله حالا من «الكَرَّةَ».

﴿وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ﴾ رددناها عليكم وأموال مِنَّا ﴿وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمُۥ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ مِمَّا كنتم عليه، أو من عدوِّكم، والنفير: النافر، وهو من ينفر إلى العدو للقتال، أو جمع نفْر ـ بسكون الفاء ـ كعبد وعبيد، أو اسم جمع له، أو مصدر على وزن فعيل، لأنَّه للسير أي خروجا وذهابا إلى القتال إذا دعوا إليه.

﴿اِنَ اَحْسَنتُمُۥ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنَ اَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ مفعول «أحسن» و«أساء» محذوف، أي أحسنتم أعمالكم وأسأتم أعمالكم، أو وأسأتموها، أو لا مفعول لهما، أي فعلتم الإحسان والإساءة، وكرَّر ذكر الإحسان لأنَّه أغلب في شأن الله، وأنَّه إذا فعله إنسان ينبغي له العود إليه، والكلام كلُّه مفعول لحال محذوفة، أي قائلين: ﴿اِنَ اَحْسَنتُمُ...﴾، أو لمعطوف حذف مع العاطف، أي وقلنا: إن أحسنتم فثواب الإحسان بالطاعة للمطيع، ولذلك قال: ﴿لأَنفُسِكُمْ﴾، وعقاب الإساءة على المسيء، فالمعنى: فعليها.

وجاءت اللام للمشاكلة كما شاكل بقوله: ﴿مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ [سورة النحل: 126] «عَاقَبْتُمْ» و«عَاقِبُوا»، أو شبَّه العقاب بالثواب لجامع الترتب المطلق، فجرت الاستعارة التبعية باللام، إذ كان العقاب من جنس الثواب بالجامع المذكور، ففي قوله: ﴿فَلَهَا﴾ تهكُّم، أو اللَّامَانِ للاستحقاق، قيل أو للاختصاص.

والإحسان [يكون] بكثرة العمل أو بتجويد أو بهما، وكذا في الإساءة، سواء لزمته الإساءة أو الإحسان، أو تعدَّياه إلى الغير، قال علي بن أبي طالب: «ما أحسنت إلى أحد ولا أسأت إليه» وتلا الآية. والتقدير: فالإساءة لها، على الترتيب بدون تقديم الخبر، كما لم يقدَّم «لأَنفُسِكُمْ»، ولك أن تقدِّره مؤخَّرا للحصر، أي: فلها الإساءة، لقصد التشديد بالزجر عن الإساءة، أو أسأتم لها، ولما حذف «أسأتم» وبقي ما لا يلي أداة الشرط وهو «لَهَا» قُرِنَ بالفاء، وهذا مما أغفلوه، نحو: آكل تمرا وإلَّا فخبزا، والأصل: وإلَّا آكل خبزا.

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الَاخِرَةِ﴾ أي المرَّة الآخرة، جواب «إذا» محذوف تقديره: بعثناهم عليكم، يتعلَّق به قوله: ﴿لِيَسُوءُواْ وُجُوهَكُمْ﴾ بردِّ هاء «بعثناهم» وواو «لِيَسُوءُواْ» إلى قوله: ﴿عِبَادًا لَّنَآ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ على طريق الاستخدام، لأنَّ العباد أولي بأس المذكورين في المرَّة الأولى جالوت وجنوده، والمبعوثون هنا بخت نصَّر وجنوده، أو المذكورون أوَّلا بخت نصَّر وجنوده، وهنا مثلهم من جنسهم أو نَسبهم كملك بابل جودرز، أو خردوس.

ويجوز أن يقدَّر: بعثنا لكم قوما آخرين ليسوءوا وجوهكم، فلا استخدام، ويجوز تعليق اللام بـ«جاء»، والجواب محذوف للتهويل يقدَّر بعد قوله: ﴿تَتْبِيرًا﴾ أي كان ما يكون. ومعنى إساءة الوجوه: الغلبة والقهر بالسبي والقتل، حتَّى يظهر في وجوهكم أثر الذلِّ والحزن من قلوبكم، وتفصيل المجمل في المرَّتين أفادته الفاء للمرَّتين في قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾ فلم يبق للثانية إلَّا الواو ينسحب على ما بعدها تفصيل الفاء الأولى.

[بلاغة] ولكن جيء هنا أيضا بالفاء للدلالة على أنَّ مجيء وعد عقاب المرَّة الآخرة لم يتراخ عن كثرتهم واجتماعهم، لشدَّة كفرهم للنعم، وللدلالة على أنَّهم ما زالوا يزدادون كفرا لزيادة النعم فاجأهم العقاب حيث لا يحسبونه.

﴿وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ﴾ بيت المقدس للتخريب وأخذ أمواله ونقل ما بني فيه من أنواع الجواهر. والعطف على «لِيَسُوءُواْ»، وتقدير «بعثنا» هنا مع أنَّه قدِّر أوَّلا كالعبث، إذ لا دليل عليه، للاستغناء عنه، ومثل ذلك جعل هذه اللام للقسم. ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ كذلك، أي دخولا مثل دخولهم أوَّل مرَّة، ودخولا ثابتا كدخولهم أوَّل مرَّة ولا داعي إلى تقدير: كائنين كما دخلوه أوَّل مرَّة. والتشبيه في كون الدخول للإفساد كما رأيت، أو في كونه بالسيف والإذلال، وتقدَّم عن ابن عباس أن لا قتل ولا نهب في الأولى.

﴿**وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا**﴾ ليهلكوا ما علوه إهلاكا، فـ«ما» موصول اسم مفعول به، شامل للعقلاء وغيرهم، كالبلاد، والهدم إهلاك، والرابط مقدَّر، ويجوز أن تكون موصولا حرفيا ظرفية أي ليوقعوا الإهلاك، أو يُهلكوا ما قدروا عليه مدَّة علوِّهم.

[قصص] قيل: بعث عليهم بخت نصَّر في هذه المرَّة الثانية فخرَّب وقتل وسبى، وقيل: قتل نحو أربعين ألفا وسبى نحو سبعين ألفا، قيل: وجَدَ دمًا يغلي وهو دم يحيى، فصار يقتل حتَّى يسكن، فلم يسكن حتَّى قتل سبعين ألفا فسكن، وذلك دية الأنبياء.

﴿**عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَنْ يَّرْحَمَكُمْ**﴾... إلخ هو مما في التوراة محكيا بالقول المقدَّر قبل ﴿اِنَ احْسَنتُمُ...﴾ كأنَّه أعيد القول هكذا قائلين، أو قلنا: ﴿عَسَى رَبُّكُمۡ أَنْ يَّرْحَمَكُمْ﴾ بعد المرة الأخرى ﴿**وَإِنْ عُدتُّمْ**﴾ أي رجعتم إلى الإفساد مرَّة ثالثة ﴿**عُدْنَا**﴾ إلى العقاب لكم.

[سيرة] وقد عادوا إلى الإفساد بتكذيب رسول الله سيِّدنا محمَّد ﷺ وقصد قتله مرارا كإلقاء الصخرة عليه في أعمال المدينة وفي الشام، وإطعام السمِّ وغير ذلك، فعاد الله ﷻ عليهم بتسليطه عليهم، فقتل قريظة وأجلى بني النضير، وضرب الجزية على الباقين، وبتسليط الأكاسرة عليهم، وضربهم الإتاوة عليهم ونحو ذلك، والعقاب ثلاث مرَّات والعود مرَّتان، لأنَّ الأولى ليست عودا.

وتلك العقوبات الثلاث في الدنيا، وأمَّا عذاب الآخرة ففي قوله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ**﴾ لم يقل لهم لزيادة ذمِّهم، وذكر ما به العقاب وهو الكفر، أو للعموم فيدخلون بالأولى ﴿**حَصِيرًا**﴾ موضعا حاصرا لا طاقة لهم على الخروج منه، وهذا باعتبار أصله في الاشتقاق، مع أنَّه قد خرج عنه إلى معنى الموضع المسمَّى بالسجن.

[صرف] فلاعتبار معنى الموضع صحَّ الإخبار به عن المؤنَّث وهو جهنَّم، أو لم يقل: حصيرة لتأويل جهنَّم بالسجن، أو الحصير للنسب كما يقال: امرأة لَابِـــن، أي ذات لبن، وهو وجــه في قولــه تعالى: ﴿السَّـــمَآءُ مُنفَطِـــرُۢ بِهِ﴾ [سورة المزمِّل: 18]، أو لحمل فعيل بمعنى فاعل على فعيل بمعنى مفعول، كامرأة كحيل أي مكحولة، وأمَّـــا كون التأنيث مجازيا فإنَّما هو فــــي الظاهر وأمَّا في الإضمار فلا بدَّ من المطابقة نحو الشجرة قائمة، أو لتأويل الحصير بالبساط، أو لتأويله بمحصــــورة، وفعيل بمعنى مفعول لا يؤنَّث مـــع ذكر صاحبه، كأنَّه قيل: جهنَّم محصورة، أي محاط عليها لا ســـبيل لأحد إلى جعل باب أو ثلمة للخروج منها، أو إلى الغلبة عليها.

لَمَّا ذكر الله ﷻ الإسراء وبعض أخبار التوراة وموسى عليه السلام في القرآن أثنى على القرآن المشتمل على ذلك وغيره من الحكم والمصالح والشرعيات فقال:

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا ﴿9﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿10﴾ وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا ﴿11﴾﴾

من أهداف القرآن الكريم

﴿**إِنَّ هَذَا الْقُرْءَانَ يَهْدِي**﴾ كلَّ أحد هداية بيان، فالحذف للعموم، أو يقدَّر: يهدي المؤمنين، أي: مشارفي الإيمان، أو المراد: زيادة تأثير الهدى ﴿**لِلتِي هِيَ أَقْوَمُ**﴾ أي للسيرة التي هي أقوم، أو للطريقة التي، أو للملَّة التي، أو للحالة التي، أو للخصلة التي، ونحو ذلك مما هو مقبول، فتذهب النفس كلَّ مذهب لائق، وذلك من بلاغة القرآن، ولو صرَّح بواحد من ذلك لم تذهب النفس إلى غيره بل تقتصر عليه.

ومعنى «أقوم» أعدل وأصوب، و«أقوم» تفضيل على بابه، لأنَّ في القرآن ما ليس في الكتب السابقة من القوام، ولأمَّته ما ليس لأممها، أو على فرض أنَّ في غيره من دعوى الناس صلاحا فالقرآن أصلح، أو خارج عن بابه أي للتي هي قيمة، وأسند الهدى للقرآن على طريق المجاز العقلي، لأنَّه آلة للمهتدي أو لمعنى الدلالة على ما يوصل إلى المطلوب.

﴿**وَيُبَشِّرُ الْمُومِنِينَ**﴾ يشتمل على التبشير، والمبشِّر حقيقة هو الله، ولكن أسنده إلى المحل وهو القرآن، أو إلى ما به التبشير وهو القرآن ﴿**الذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا**﴾ أي بأنَّ لهم أجرا عظيما، كثرةً وجودةً، هو الجنَّة وجميع ما لهم فيها.

[أصول الدين] ومن مات مـن أهل التوحيد مُصِرًّا لـم يدخل الجنَّة بل النار، ومن مات منهم تائبا دخل الجنَّة بمرتبته، وأهل الجنَّة متفاوتون فيها.

﴿**وَأَنَّ الذِيـنَ لَا يُومِنُونَ بِالَاخِرَةِ**﴾ والحسـاب والثـواب والعقاب فيها، ﴿**أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا اَلِيمًـا**﴾ العطف على ﴿أَنَّ لَهُمُۥٓ أَجْـرًا كَبِيرًا﴾ وكأنَّه قيل: ويبشِّرهم ـ أي المؤمنين ـ بأنَّ لأعدائهم الكافرين عذابا أليما، بشَّرهم بالثواب لهم وعقاب أعدائهم وما يصيب عدوَّك من الشـرِّ سـرور لك. ولا حاجة إلى تقدير معطوف على «يبشِّـر» هكذا: ويخبرهم أنَّ الذيـن لا يؤمنون، على حدِّ «علفتها تبناً وماءً بارداً».

ويجوز تقدير «يبشِّـر» على التهكُّم، أي ويبشِّـر الكافرين بـأنَّ الذين لا يؤمنون... إلخ والكافرون هم الذين لا يؤمنون، ومن أجاز استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه أجاز استعمال المذكور في الآية على حقيقته للمؤمنين، وفي معنى التهكُّم بالعذاب في الكافرين.

ويجوز اسـتعماله بمعنى مطلـق الإخبار، مجاز مرسـل لعلاقة الإطلاق والتقييد، والمـراد عذاب جهنَّم، وهو أشـدُّ عذاب في ذاتـه، ومن حيث إنَّه عذاب لا يحتسـبونه. ودخل في ذلك اليهود والنصـارى، لأنَّهم يطمعون في الجنَّة والنجاة من النار، وقد هيِّئت لهم النار فيدخلونها، وهم لم يحتسـبوها لأنَّهم لم يؤمنوا بالآخرة، لأنَّهم قالوا: تبعث الأرواح دون الأجسـاد. ومعنى ﴿أَعْتَدْنَا﴾: هيَّأنا وأحضرنا، والتاء أصل، والهمزة همزة «أَفْعَل».

﴿**وَيَدْعُ الِانسَـانُ**﴾ المراد الجنس لا مخصوص معهود. وحذف الواو من «يدعو» بيانا للأصل في أنَّ شـأن ما حذف لفظا أن يحـذف خطًّا، ولم يكثر ذلك بل جاء في مواضع، وحذف لفظا لسـكونٍ حكمًا، ولو كسـرت بحركة النقل، وذلك مـن عدم الاعتداد بالعارض. ﴿**بِالشَّـرِّ**﴾ على نفسـه وأهله إذا ضجر أو غضب، لقلق أو همٍّ كالمـوت والفقر ﴿**دُعَـآءَهُ بِالْخَيْرِ**﴾ مثل دعائه

بالخير لنفسه أو أهله، في الإلحاح والحرص وطيب نفس، وقد يلتحق بذلك أن يلحَّ في شـيء أو عدمه قبـل التأمُّل فـي عاقبته بلا غضـب ولا ضجر، ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ [سورة البقرة: 216].

وذكر بعض العلماء أنَّه لا يستجاب للإنسـان في الدعاء بالشرِّ على نفسه أو أهله، ويردُّه قوله ﷺ: «**لا تدعو على أنفسـكم، لا تدعو على أولادكم، لا تدعو على أموالكم، لئلَّا توافقوا من الله تعالى سـاعة فيها إجابة فيسـتجيب لكم**»[1] والمراد بالخير: الخير في نفس الأمر وفي الشـرع، فتحسـن مقابلته بالشرِّ، وذلك دعاء باللسان.

[قلت:] ويبعد تفسـير الدعاء بفعل السوء المفضي إلى الشرِّ إذ هو خلاف الظاهر، ولا دليل عليه ولـو صحَّ المعنى، وكذا لا يفسَّـر الدعاء به وبالدعاء باللسان جميعا إذ لا دليل عليه، ولا يجوز أن تكون الباء بمعنى في، أي يدعو في وقت الشـرِّ كما يدعو في وقت الخير، أو سـببية بمعنى يدعو بسبب شرٍّ أصابه أو متعلّقاته، لأنَّ المقام مقام زجر، كما قال: ﴿**وَكَانَ الإِنسَـانُ عَجُولاً**﴾ المراد: الجنس المذكور أيضا يسـارع إلى ما يخطر بباله بلا نظر في العاقبة، ولا يُعزَّى أحد من عجلة لو تركها لكان أصلح له في الدين أو الدنيا أو فيهما، وأظهر «الإنْسانُ» في مقام الإضمار له لزيادة البيان والمقام للتعليل.

وقيل: المراد بالإنسان الأخير آدم، «وال» للعهد الذهني، [قلت:] ولا دليل لهذا بل الدليل على خلافه، لأنَّ الجملة كالتعليل لما قبله، لكن أظهر الإنسان تأكيدا، وعلى أنَّه آدم يكون وجه اتصاله بما قبله الإيماء إلى أنَّ العجلة بالدعاء بالشرِّ موروثة من عجلة آدم، ولا شرَّ فيها.

---

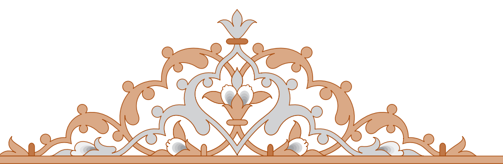
(1) رواه **أبو داود** فـي كتاب الصـلاة، باب النهي عـن أن يدعو الإنسـان على أهلـه وماله، رقم 1532. و**الهيثمي** في موارد الظمآن، برقم 2411. من حديث جابر.

[قصص] [قيل:] لَمَّا بلغت الروح إلى سرَّته أو صدره عالج النهوض فسقط، ويقال: لَمَّا بلغت الروح سرَّته وقد نظر إلى ثمار الجنَّة نهض ليأكل، وقال ابن مسعود: لَمَّا بلغت عينيه نظر إلى ثمار الجنَّة، وَلَمَّا بلغت جوفه اشتهى أكلها، فوثب إليها فسقط، وعن سلمان: خلق الله الحياة في رأسه أوَّلا ثمَّ في جسده شيئا فشيئا، وبقيت رجلاه بعد العصر، فقال: يا ربِّ أَعْجِل لي قبل الليل، فذلك قوله تعالى: ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً﴾ قلت: وعرف الليل باسمه تعليما من الله ﷻ، أو بزمانه من حيث أنَّه رأى الشمس تذهب.

[سبب النزول] ودفع رسول الله ﷺ أسيرا إلى سودة بنت زمعة فأرخت له بعض كتافه رحمة لأنينه، فهرب، فدعا عليها بقطع يدها ثمَّ ندم، فقال: «**اللهمَّ إنَّما أنا بشر فمن دعوت عليه فاجعل دعائي رحمة له**» فنزلت عليه ﷺ هذه الآية: ﴿وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَآءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً﴾، وروي أنَّه ﷺ أتى عائشة بأسير وأمرها أن تحتفظ عليه فاشتغلت مع امرأة فذهب، فسأل عنه فقالت: لا أدري، فقال: «**قطع الله يدك**»، فخرج فصاح به فوجدوه، فرجع فوجدها تقلِّب يديها، فقال: ما لك؟ قالت: أنتظر دعوتك، فرفع يديه فقال: «**اللهمَّ إنَّما أنا بشر آسف وأغضب، فأيُّ مؤمن أو مؤمنة دعوت عليه بشرٍّ فاجعل دعائي له بركة وطهرا**» ونزلت الآية، وذلك على العموم بحيث يصدق عليه ﷺ، فيكون قد لوَّح له أن يقول: «اللهمَّ اهدها»، مكان: «اللهمَّ اقطع يدها».

ويبعد أنَّه ﷺ لم يرد الدعاء بسوء، بل أراد، كما تقول العرب: «لك الويل» و«تربت يداك»، ولا يقصدون شرًّا، وأجيز أن يراد مثل من يقول: ﴿فَاتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [سورة الأعراف: 70] ومثل النضر بن الحارث القائل: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ...﴾ [سورة الأنفال: 32] فأجيب له فقتل في بدر مقبوضا.

وفيه ردٌّ لما مرَّ أنَّه لا يجاب للداعي بالشـــرِّ على نفســـه، ويجاب أنَّه أراد النضرُ لعنـــه الله بالدعاء الإهلاكَ فـــي حينه ولم يهلك في حينـــه، وأيضا أراد الإهلاك بالله لا بواسطة مخلوق، وأيضا لعلَّه أراد بالدعاء التهكُّم بأنَّ المؤمنين ليسوا على الحقِّ، لا الدعاء الحقيق، و«ال» على ذلك أيضا للعهد.



﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا (12) وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا (13) ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (14) مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا (15) وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا (16) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرًا (17) ﴾

التذكير بنعم الله في الدنيا ودلائل القدرة الإلهية

﴿**وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ**﴾ قدّمه لتقدُّمه وجودا ومنه ينسلخ النهار، ولأنَّ به ظهور غرر الشهور العَرَبِيَّة، ولترتيب غاية النهار عليها بلا واسطة، ولافتتاح السورة به إذ قال: ﴿سُبْحَانَ الذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً﴾. ﴿**وَالنَّهَارَ**﴾ ظلمة الليل وضوء النهار، واستمرار تعاقبهما، وإيلاج بعض في بعض مع إمكان غير ذلك لحكمة ﴿**ءَايَتَيْنِ**﴾ دالَّتين على قدرتنا ووحدتنا، والجعل بمعنى الخلق، فـ«ءَايَتَيْنِ» حال مقدَّرة، لأنَّ الدلالة بهما بعد وجود من يستدلُّ بهما، وجعل حالا لأنَّه بمعنى المشتقِّ، أي دالَّين، أو للتصيير فهو مفعول ثان، وهو من التصيير الذي لم يتقدَّمه غيره، كقولك: «ضيِّق فم البئر» أي من أوَّلٍ لا عن وَسْعٍ سابق، وقولك: «وسعه» أي من أوَّل لا عن ضيق سابق، و«أَدِرْ جيبها» و«سبحان من صغَّر البعوضة وكبَّر الفيل» إلَّا أن يراد أنهاه من صغر لكبر.

﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ الَّيْلِ﴾ الإضافة للبيان، أي آية هي الليل، ومحوه: محو آخره بأوّل النهار، وفي هذا إبقاء المحو على حقيقته وهي إزالة الثابت قبل، وهي إزالة ظلمته، وهي الأصل الذي خلق عليه الليل، فأخبرنا الله عز وجل بأنَّه يزيل هذه الظلمة بضوء النهار.

وقيل: المعنى جعلنا الليل مظلما من أوَّل، كقولك: «وَسِّع فم البئر»، وهذا ولو كان مجازا لكن دلَّ عليه مقابلته بجعل آية النهار مبصرة، واعترض بأنَّ مقابلته بجعل النهار مبصرا لا توجب حمله على المجاز لفائدة بيان إبقاء بعض الزمان على أصله، وجعله بعضه مضيئا، ولا يقال لا فائدة في تفسير المحو بحقيقة زائدة على ما بعده، لأنَّا نقول فائدته الإعلام بأنَّ الليل مظلم أصالة والنهار مزيل للإظلام الأصيل، ولو اقتصر على ذكر إبصار النهار لم يفد أصالة ظلمة الليل صراحا.

﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ النَّهَارِ﴾ مثل ذلك أي آية هي النهار ﴿مُبْصِرَةً﴾ مضيئة، عبَّر عن الإضاءة بالإبصار لأنَّ الإضاءة سبب لحصول الإبصار بالعين، وذلك من إطلاق اسم المسبَّب على السبب، ويجوز أن يكون الإبصار لتعدية بصر، يقال: بصر بالشيء إذا علمه، فمعنى أبصرت الشيء علمته لا رأيته.

[بلاغة] وإسناد الإبصار إلى النهار من الإسناد إلى السبب، أو مبصرة للناس من أبصره فبصر، فيكون من الإسناد إلى السبب العادي، والمبصر حقيقة هو الله، فيكون ذلك مجازا عقليا، أو مبصر أهلُه برفع أهل، فيكون من الإسناد إلى الزمان الملابس، كقولك: أضعف الرجل إذا ضعفت ماشيته، وأجبَنَ إذا جبن أهله، من الإسناد إلى ملابس الفاعل غير الزمان، فلك أن تقول من باب حذف المضاف.

أو الآيتان: الشمس والقمر أي وجعلنا نيِّري الليل والنهار آيتين، أو جعلنا الليل والنهار آيتين بنيِّريهما وهما الشمس والقمر، أو جعلنا الليل والنهار ذوَيْ آيتين، وذلك أنَّه لم يجعل ضوء القمر كضوء الشمس بل دونه، ويزداد

وينقص، وضوء الشمس فيها وضوء القمر منها، وكان القمر كالشمس في النور فكانت شمسان من نور عرشه، فمحاه جبريل إلى حاله الآن كذا قيل، فالسواد الذي فيه أثر المحو، جاء الحديث بذلك.

وعن عكرمة: خلق الله نور الشمس سبعين جزءا ونور القمر كذلك، وأزيل منه إليها تسعة وستون، فلها مائة وتسعة وثلاثون جزءا، فالقمر على جزء واحد، وفي رواية: محاه جبريل ثلاث مرَّات، وبقي كما هو الآن، وعلى غير هذا يكون المحو بمعنى جعل الليل كما هو من أول، لا محو عن شيء آخر.

﴿**لِّتَبْتَغُواْ**﴾ تطلبوا ﴿**فَضْلاً**﴾ رزقا ﴿**مِّن رَّبِّكُمْ**﴾ بالكسب في النهار، وهذا عائد إلى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ متعلِّق به، وقوله: ﴿**وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ**﴾ عائد إلى قوله: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ الَّيْلِ﴾ وقوله: ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ فيقدَّر له متعلَّق، أي فعلنا ذلك لتعلموا، ويجوز تقدير هذا قبل قوله: ﴿لِتَبْتَغُواْ﴾.

والمعنى: لتعلموا بتعاقب الليل والنهار عدد السنين والحساب لأوقات المعاش: كآجال الديون والإجارات، وأوقات الزراعة، وأوقات الدِّين: كالصلاة والحجِّ والصوم والزكاة، ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [سورة البقرة: 189] ولا يتكرَّر ذكر الحساب مع عدد السنين لأنَّ العدد موضوع الحساب لا نفسه، والعدد شيء حاصل، والحساب فعل الحاسب.

[نحو] وإنَّما لم أعلِّق «لِتَعْلَمُواْ» بـ«مَحَوْنَا» لوجود العاطف، وليس من باب العطف على معمولي عامل أو نحوه، ولا يتعلَّق بـ«مَحَوْنَا» و«جَعَلْنَا» التعلُّق الاصطلاحي إذ لا يعمل عاملان في واحد، والعاطف أيضا مانع، وثنَّى «آية» هنا وأفردها في قوله ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وابْنَهَا ءَايَةً﴾ [سورة الأنبياء: 91] لتباين الليل والنهار من كلِّ وجه، وتكرُّرهما، بخلاف عيسى ومريم عليهما السلام فإنَّهما لا يتكرَّران، وعيسى كجزء من مريم.

﴿وَكُلَّ شَــيْءٍ﴾ يُحتاج إليه في دين أو دنيا، لا كلَّ شــيء على الإطلاق، ونُصب على الاشــتغال في قوله ﴿فَصَّلْنَــاهُ﴾ أي وفصَّلنا كلَّ شــيء فصلْناه ﴿تَفْصِيلاً﴾ أي بيَّناه تبيينا لا مزيد عليه، بالقرآن أو الســنة أو اجتهاد العلماء، وذلك كقوله تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَــيْءٍ﴾ [سورة الأنعام: 38] وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [ســورة النحل: 89]. ويبعُد نصب «كُلَّ» عطفًا على «الْحِسَابَ»، أو على «عَدَدَ» فيكون «فصَّلْناه» نعتا لـ«شَيْءٍ».

وكذا في قوله: ﴿وَكُلَّ إِنسَــانٍ﴾ أي إنســان مكلَّف، وأمَّا غير مكلَّف فلا حساب عليه ولا كتاب له، إلَّا ما عمل من حسنات ﴿اَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ أي وألزمنا كلَّ إنسان ألزمناه.

[نحو] والاشــتغال من باب التوكيد اللفظي مــع اختصار بالحذف، ولا يقدَّر للتوكيد كلُّ ما للمؤكَّد، فلا يقدَّر لـ«ألزمنا» المقدَّر «طائر في عنقه»، لأنَّ المراد تأكيــد الإلزام فقط، كمــا أنَّ الفاعل لـ«أتــاك» الأوَّل فقط، ولا فاعل للثاني في قوله: «أتاكِ أتاكِ اللاحقون»[1]، وكما أنَّــه لا خبر لـ«إنَّ» الثانية في قولك: إنَّ زيدا إنَّ زيدا قائم.

و﴿طَائِرَهُ﴾: عمله والتقدير الأزلي، شــبَّه التقديــر الأزلي والمقدَّرات من حيث كونها ســببا للفعل المكتســب بالطائر، على زعم العرب، ووجه الشبه المجيء من المقر الأصلي وهو القضاء ومقرُّ الطائر، كانوا إذا أرادوا ســفرا أو تزوُّجا ونحو ذلــك أنفروا طائرا عن مكانه، فإذا ســنح ـ أي ذهب إلى يمينه ـ فرحوا وفعلوا، أو برح ـ أي ذهب إلى يساره ـ تركوا، ويعتبرون أيضا علوه إلى الجو وإلى غير ذلك، فينسبون السعادة والنحوســة إلى ذلك، ويعتبرون أيضا طيرانه بنفسه، أو بإزعاج في ذلك.

---

(1) هذا شطر من بيت تمامه:

فأين إلى أين النجاة ببغلتي أتاكِ أتــاكِ اللاحقون احبــس احبس

وكذلك يعملون بالوحش كالغزال فيزعجونه فيذهب يمينا وشـمالا، وعبارة بعض: لَمَّا كثر ذلك منهم سـمُّوا نفس الخير والشرِّ بالطائر، وتسمية للشيء باسم لازمه، وعبارة بعض: جعلوا الطائر سببا للخير والشـرِّ، وأسندوهما إليه بالسنوح والبروح، فاسـتعير الطائر اسـتعارة تصريحيَّة لَمَّا كان سـببا لهمـا، وهو قدر الله والمقدَّر من عمل العبد، وكما أنَّ الطائر ينتقل من عشِّـه (وهو ما يبنيه من عيدان ونحوها في شجرة أو حائط) أو وَكْرِهِ (وهو ما في جبل أو أرض أو حائط بلا بناء بنحو العيدان) إلى موضع، كذلك الحوادث تنتهي إلى الإنسان من علم الله ﷻ.

وعن ابن عَبَّاس ﴿طَآئِرَهُ﴾: عمله، أو الطائر ما يطير إليه أي ينوبه. وذكر العنق لأنَّه محلُّ الزينة كالقلادة، والشين كالغلِّ، وما قدَّر الله لأحد صار إليه كطائر يطير.

وعن مجاهد: ما من مولود يولد إلَّا وفي عنقه ورقة مكتوب فيها سعيد أو شـقي، ويروى: إنَّ النطفة تجول في جسـد المرأة كلِّه حتَّى الظفر، وإذا تمَّت أربعون يوما نزلت دما في الرحم، ويبقى الدم أربعين ثمَّ المضغة أربعين، وإذا تمَّت أربعة أشـهر صوِّر بشـعر وطول وقصر ولون وذكـورة وأنوثة وجمال ودمامة، وكمال ونقص، ونفخ فيه الروح بسعادة آخر ذلك أو شقاوة.

قال ابن مسعود: يا رسـول الله ما أوَّل ما يلقى الميِّت في قبره؟ قال ﷺ: «**ما سـألني عنه أحد إلَّا أنت، أوَّل ما يناديه ملك اسمه «رومان» يجوس خلال المقابر، فيقول: يا عبد الله اكتب عملـك، فيقول: لا دواة ولا قرطاس، فيقول: كفنك قرطاسـك ومدادك ريقك وقلمـك إصبعك، فيقطع لـه قطعة من كفنه فيكتب حسناته وسـيِّئاته ولا ينسى شـيئا كيوم واحد، ولو كان لا يكتب في الدنيا، ويطوي الملك القطعة ويعلِّقها في عنقه**»[1] ثمَّ قال ﷺ: ﴿وَكُلَّ إِنسَـانٍ اَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾.

(1) أورد **الآلوسي** في تفسيره (ج5، ص32) ما يقاربه لفظا، وقال: «أخرجه ابن جرير عن الحسن».

﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا﴾ مكتوبا فيه عمله ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَاهَا﴾ [سورة الكهف: 49] ﴿يَّلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾ قال الحسن: «بُسطت لك صحيفة، ووُكِّل بك ملك عن يمينك يكتب حسناتك، وملك عن يسارك يكتب سيِّئاتك، وإذا متَّ طُويت وجُعلت معك في قبرك، حتَّى تخرج لك يوم القيامة».

[نحو] و«كِتَابًا» مفعول به لـ«نُخْرِجُ» أو حال من مفعول محذوف هو ضمير الطائر، أي ونخرجه له كتابا، و«يَلْقَاهُ» و«مَنشُورًا» نعتان لـ«كِتَابًا» وذلك من تقديم النعت بالجملة على النعت بالاسم، فالأولى أنَّ «مَنشُورًا» حال من الهاء على أنَّها للكتاب، وضمير «يلقى» للإنسان وجاز العكس.

ينزع الملك كتابه من عنقه وينشره فيقول له: اقرأ كتابك، كما قال الله ﷻ: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ﴾ أي يقال له: اقرأ كتابك، وجملة: «يقال له...» مستأنفة، أو حال أو نعت، وتمَّ المقول في قوله: ﴿حَسِيبًا﴾. وذلك النزع هو تطاير الصحف، أو تنزل صحف من السماء مطابقة لما في أعناقهم، لا تغايرها شيئا.

وزعم بعض أنَّ الكتاب في الموضعين نفس الإنسان المنتقشة بآثار أعماله، فإنَّ الأفعال الاختيارية تحدث في الروح آثارا تدلُّ على تلك الأفعال كأنَّها صورها، ولذلك يفيد تكرارها لها ملكات أي كيفيات راسخة، وتلك الآثار قبل رسوخها أحوال، وبعدها ملكات، ولا بدَّ مع ذلك أن يعطى كلُّ أحد كتابه بيمينه أو شماله وإلَّا كفر القائل بذلك.

﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ﴾ الباء صلة و«نفس» فاعل، ﴿الْيَوْمَ﴾ في هذا اليوم يوم القيامة، ﴿عَلَيْكَ﴾ متعلِّق بقوله: ﴿حَسِيبًا﴾ حاسبا، كضريب بمعنى ضارب، وصريم بمعنى صارم، يقال: حسب عليه كذا، أو كجليس وخليط وعشير بمعنى المحاسب والمخالط والمعاشر، أو بمعنى الكافي، وضع موضع الشهيد، فعدِّي بـ«على» لأنَّ الشاهد يكفي المدَّعي ما أهمَّه، وهو تمييز أو حال، وهو أولى،

لأنَّ الأصل في التمييز أن لا يكون مشتقًّا، وعلى كلٍّ حال لم يؤنَّث لتأويل النفس بالشخص، أو لتأويل «حسيبا» بشيئا حسيبا، أو رجلا حسيبا.

[قلت:] ومن شأن الشهادة والقضاء ونحوها أن يتولَّاها الرجل، والكلام في الرجل والمرأة تحمل، لشمول الإنسان لهما في قوله: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ اَلْزَمْنَاهُ﴾، وإذا قدِّر: إنسانا حسيبا، أو شيئا حسيبا، أو شخصا حسيبا صدق بالمرأة.

﴿مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ ثواب اهتدائه له، لا ينفع غيره ممن لم يهتد **﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾** عقاب ضلاله عليه، لا على من لم يباشره، كلُّ أحد يعاقب بما عمل، ومن أمر بسوء فأمرُه فعلٌ له يعاقب عليه، ومن تبعه عوقب على فعله من اتباعه، وذلك تحقيق لقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ اَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾ لا تذنب نفس وازرة **﴿وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾** نفسا أخرى أي لا تتَّصف بذنبها فلا تؤاخذ به، فتتخلَّص منه الأخرى، ولا تعاقبان به معا، وفي ذلك ردٌّ على من يقول: إن لم نكن على الحقِّ فالتَّبَاعَة على الأسلاف الذين قلَّدناهم، كما قال الوليد بن المغيرة: اكفروا بمحمَّد ﷺ، وعليَّ وزركم، وهو سبب نزول الآية، وأمَّا قوله تعالى: ﴿مَنْ يَّشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً...﴾ [سورة النساء: 85] وقوله: ﴿لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ...﴾ [سورة النحل: 25] فهما من انتفاع الإنسان بحسنة نفسه، وهي إعانته على الخير أو هداه إليه، ومِن تضرُّرِه بسيِّئةِ نفسه، وهي إضلالُه غيرَه أو إعانته على معصيته، وهذا تأكيد لقوله: ﴿وَمَن ضَلَّ...﴾.

وأمَّا قوله ﷺ: «**إنَّ الميِّتَ ليعذَّب ببكاء أهله عليه**»(1) فمحمول على ما إذا أمرهم بالبكاء أو علم أنَّهم يبكون إذا مات ولم ينههم، فقد عذِّب بفعل نفسه،

(1) رواه **الربيع** في مسنده، كتاب الجنائز، باب في القبور، رقم 482، من حديث ابن عَبَّاس. ورواه **مسلم** في كتاب الجنائز (9) باب الميِّت يعذَّب ببكاء أهله عليه، رقم 16 (927) من حديث نافع عن عبد الله.

أو عذابه في قبـره ضيْقُه بهم، فهو كعـذاب الدنيا، وهو فـي القبر لا عذاب عقاب، أو الميِّت: المحتضر يتضرَّر ببكاء أهله إذ كرهه.

[فقه] وأمَّا عقل دية الخطـأ فليس عقابا بل تشـريع بالمعاونة، ألا ترى أنَّ القاتل لا ذنب له؟ فكيف قومه، وأمَّا رواية عائشة عنه ﷺ: «**أطفال المشركين في النار**» فلم تصح، ثمَّ رأيت والحمد لله أنَّ أبا عمر بن عبد البر ضعَّفها وأمَّا قوله ﷺ للصَّعب بن جثَّامـة إذ قال نصيب ذراري المشـركين في البيـات: «**هم منهم**»[1] فمعناه أنَّهم منهم في الحكم، كالاسترقاق، وهم في الجنَّة لقوله ﷺ: «**سألت رَبِّي في اللاهين** ـ يعني أطفال المشركين ـ **فأعطانيهم خدما لأهل الجنَّة**»[2].

وروى الحكيم الترمذي وابن عبد البر عن أنس عنه ﷺ: «**أولاد المشركين خدم لأهل الجنَّة**»[3]، وروى البخاري أنَّه ﷺ رأى الخليل وحوله أولاد الناس، فقالوا: يا رسول الله وأولاد المشـركين؟ قال: «**وأولاد المشركين**»[4]، وبذلك أقول لتلك الأحاديث ولآية: ﴿لَا تَـزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْـرَىٰ﴾، وقد قيل: نزلت الآية فيهم، وأيضا قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ...﴾.

﴿**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِين**﴾ أي لأحد في الدنيا أو الآخرة أو فيهما على الدين ﴿**حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً**﴾ يُبَيِّنُ له ما يجب عليه وما يحرم عليه، والمراد: ما عذَّبنا أحدا قبل التبليغ بل بعده، فكذلك أنتم تعذَّبون إن لم تؤمنـوا لأنَّا قد بلَّغناكم، وهذا أولى من أن يقال: مضى قضاؤنا الأزلي أن لا نعذِّب أحدا بعد الأزل إلَّا بعد التبليغ.

---

(1) رواه **مسلم** في صحيحه، كتاب الجهاد والسـير، باب جواز قتل النساء والصبيان في البيات من غير تعمّد، رقم 3282. من حديث الصّعب بن جثامة.

(2) أورده **الهندي** في الكنز، ج 14، ص 472، رقم 39306، وقال: «أورده أبو الحسـن في أماليه من حديث أنس».

(3) أخرجه **الحكيم الترمذي** في كتابه نوادر الأصول، و**ابن عبد البـر** في كتابه التمهيد، ج 18، ص 118، من حديث أنس.

(4) رواه **البخاري** في كتـاب التعبير (48) باب تعبير الرؤيا بعد صـلاة الصبح، رقم 7047، من حديث سمرة بن جندب.

[أصول الدين] وقد بعث الله الرسل فلا يعذر أهل الفترة في التوحيد ولا فيما دونه، ولو لم يجدوا مخبرا، هذا مذهبنـا، والواضح أنَّهم لا يعذرون في الشـرك لأنَّهم عقلاء، والموجودات دلائـل الله يعرفونه بهـا، وأغفلوا النظر فعوقبوا على الإغفال.

وبعثة الرسول منبِّهة، ثم إني تتبَّعتُ الأخبار فاتَّضح أنَّه لم يخل زمانٌ من مخبِرٍ بالتوحيد وما دونه، لأنَّهم يسمعون أنَّ ببلد كذا عالما، وأنَّ في بلد كذا شجرة كتب فيها التوحيد، ونحو ذلك، ومع هذا لا يتمُّ أنَّه بلغهم ذلـك كلِّهم، فالظاهر أنَّ أهل الفترة قـد لا يبلغهم الخبر فهم معذورون في غير التوحيـد، ولو كان مجرَّد الوحي قاطعا للعذر ـ ولو بلا سـماع ـ لزمَ كفـرُ من لم يبلغه الوحي فـي زمانه ﷺ أيضا، فيكفر من في المدينة حتَّى يجيئه الخبر من مكة، وبالعكس وكذا سائر البلاد.

وكيف يقول الله ﷻ لأهل الفتـرة: ﴿أَلَمْ يَاتِكُـمْ نَذِيرٌ﴾ [سـورة الملك: 8]؟ وكيف يقولون: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَـا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَـيْءٍ...﴾ [سـورة الملك: 9] ونحو ذلك؟ ولزم الشـرع من علم أنَّ نبيئا أرسل إلى أحد كأنَّه أرسـل إليه، وجاء الحديث بأنَّ أهل الفترة في النار، وقال ﷺ لقومه وغيرهم: «**آباؤكم في النار**» ولم يقيِّد بعدم السماع.

قال الحليمـي[1]: «إذا بلغ عاقلا خبـرٌ وجب عليه التأمُّـل فيه، وإن أهمل أشرك»، ويبعد أن يوجد أحد لم يبلغه خبر نبيء لكثرة الأنبياء، وطول أزمانهم، وكثرة من آمن وكثرة من عاند وخالف، فتلزمه الحجَّة ولو بخبر من كفر.

[أصول الدين] وزعمت الأشعرية أن لا تكليف قبل البعثة ولزمهم إباحة الإشراك، ومذهب أبي حنيفة أنَّ من لم تبلغه الدعوة إن لم يصدِّق بوجود الله

(1) هو أبو عبد الله الحسين بن الحسـن بن محمد بن حليم البخاري الشافعي. ولد سنة 338 هـ وتوفي سـنة 403 هـ. فقيه، محدث، متكلم، أديـب، من تصانيفه: منهاج الدين في شُـعَب الإيمان. معجم المؤلفين، ج 4، ص 3.

تعالى ووحدانيته يخلــد في النار، لكونه عاقلا، فجعل الرســول عامًّا للعقل. والآية ردٌّ على المعتزلة في قولهم بالحسن والقبح العقليين، وأنَّ العقل يحكم بالوجوب والتحريم طِبق حكــم الله ولا يخالفه، **وهو خطــأ فاحش**، والعقل عاجز عن ذلك كما لا يخفى عن كلِّ أحد، وهــو مخالف للقرآن لنص القرآن أنَّ الحجَّة الرسل على العقلاء.

﴿**وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا**﴾ بالطاعة على لســان الرسول المبعوث إليهــم، وليس في ذلك ابتداء بالضــرِّ وهو منزَّه عنــه لأنَّ التكليف حكمة لا يجوز تخلُّفها فلا ضير في عقاب من عصى وليس ابتداء.

أو كثَّرنا مترفيها كقوله ﷺ: «**خير المال ســكَّة مأبــورة، ومهرة مأمورة**»[1] الســكَّة: نخل مصطفٌّ، والمهرة: أنثى الخيل، ومأبورة ملقَّحة، وتأبير النخلة تلقيحها، والمأمورة: كثيرة النتاج، أي أكثر الله نتاجها، والتحقيق أنَّه من الأمر ضدُّ النهي كما رأيت، والأمر بالكثرة سبب للكثرة.

﴿**مُتْرَفِيهَا**﴾ رؤســاءَها المنعَّمين، أو الذين أترفتهــم النعمة، أي أطغتهم، والمراد: أهل قرية.

ولا يجــوز أن يقــدَّر: أمرنا مترفيهــا بالفســق ففســقوا، لأنَّ الله لا يأمر بالفحشاء، ويضعف إجازة ذلك على الاســتعارة التمثيلية بأن يشبِّه حالهم في تقلُّبهم في النعم مع عصيانهم بحال من أُمر بذلك، أو على الاستعارة المفردة بأن يشــبِّه إفاضة النعــم المترفة لهم بأمرهم بالفســق لجامــع الحمل عليه، والتسبُّب له، أو الأمر استعارة للحمل والتسبب لجامع الإفضاء.

﴿**فَفَسَقُواْ**﴾ خرجوا عن الطاعة بسبب كثرة النعم ولذَّتها، والعامة تتبعهم، بل إذا أراد الله أهلك من تبعهم ومن لم يتبعهم، كما قال الله عز وجل: ﴿واتَّقواْ فِتْنَةً

(1) رواه **الحارث** في مسنده رقم 427، من حديث ابن هبيرة.

لَّا تُصِيبَنَّ الذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُـمْ خَآصَّةً﴾ [سورة الأنفال: 25] دخل ﷺ على زينب بنت جحش فزعا يقول: «**لا إله إلَّا الله ويل للعرب من شرٍّ قد اقترب**» قالت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم، إذا كثر الخبث**»[1].

﴿**فِيهَا**﴾ في القرية وهذا دليل على حذف مضاف خاصة، ومانع من أن يراد هنا بالقرية نفس أهلها مجازا أو حقيقة، والفسق: الخروج، فهم خرجوا عمَّا أمر الله به فتركوه، وعن نهيه ففعلوا ما نهى الله عنه.

[فقه] والأمر بالطاعة شامل للنهي عن المعصية، لأنَّ المعنى: أطيعوا فيما أُمرتم به وفيما نُهيتم عنه، والأمر والنهي سابقان في كلِّ زمان، وإرادة الإهلاك متعلِّقة بهما ولو طالت المسافة بينهما وبين قرب الإهلاك.

وهذا أولى من أن يقال: يخصُّهم بأمر ونهي جديدين، ولو طبَّق ما سبق على قصد أن لا يمتثلوا فيهلكهم، كمن يأمر عبده وينهاه وإذا أراد تأديبه جدَّد له أمرا أو نهيا على قصد أن يخالفه فيؤدِّبه.

وقد يقال: معنى ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾: حملناهم بالخذلان على الفسق أو سببنا لهم عليه، وهو ضعيف لا دليل عليه، والمراد: وإذا قرب تعلُّق إرادتنا، لأنَّ الجواب وهو: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ قَبْلَ تعلُّق الإرادة، وأمر مترفيها يترتَّب على قرب التعلُّق، أو الإرادة بذلك بمعنى دنو وقت القضاء المقدَّر، لأنَّ تعلُّق الإرادة به يلزمه دنو وقته لأنَّ المراد لا يتخلَّف عن الإرادة.

﴿**فَحَقَّ**﴾ وجب أو نزل ﴿**عَلَيْهَا الْقَوْلُ**﴾ كلمة العذاب وهي الوعيد السابق، والفاء للسببية مع التعقيب، فإنَّ فسقهم سبب للعذاب وهو معقِّب له،

---

(1) رواه **مسلم** في كتاب الفتن (1) باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج، رقم 01. **والترمذي** في كتاب الفتن (33) باب ما جاء في خروج يأجوج ومأجوج، رقم 2187. من حديث زينب بنت جحش.

وإن تراخى حلوله، وذلك من تفريع الحكم على السبب المؤدِّي إليه، أو كلمة العذاب السابقة عبارة عن ظهور فسقهم الثابت في العلم الأزلي.

﴿**فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا**﴾ أهلكنا أهلها وخرَّبناهــا، فالمراد: هي وأهلها، كقوله تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَـةٍ اَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِـهَا﴾ [سورة الحج: 45] وذلك أنَّه لا تهلك قرية مع سلامة أهلها.

﴿**وَكَم**﴾ كثيرا ﴿**اَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ**﴾ الأمم سمَّى القرن قرنا لاقترانهم في زمان واحد، والقرن: أهل مائة وعشـرين سـنة، بعث ﷺ فـي أوَّل قرن آخره يزيد بن معاوية، وبذلك قـال عبد الله بن أبي أوفى، وروي أنَّه ﷺ قال لرجل: «**عش قرنا**» فعاش مائة سـنة، وقيل: عاش مائة وعشـرين، وقيل: مائة سـنة، وروى مرفوعا وبه قـال محمَّد بن القاسـم المازني، وقيـل: ثمانون، وقيل: أربعون. و«مِنْ» للبيان.

﴿**مِنۢ بَعْدِ نُـوحٍ**﴾ كعاد وثمود، و«مِنْ» هذه للابتـداء، أو صلة، والأولى للبيان، وقد ذكر ابن هشـام وابن مالك كونها صلة. لَمَّا ذكر نوحا أوَّل السورة قال هنا: ﴿مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾ وأيضا إنَّــه أوَّل نبيء حلَّت العقوبة على قومه، فلم يقل: من بعد آدم وشيت، ولم يدخلهم في القرون، تهديدا بما أصاب قومه من العقاب، إذ هو أوَّل نبيء آذاه قومه فاستأصلهم الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿**وَكَفَىٰ بِرَبِّـكَ**﴾ الباء صلة، و«ربُّك» فاعل ﴿**بِذُنُـوبِ عِبَادِهِ**﴾ متعلِّق بقوله: ﴿**خَبِيـرًا**﴾ أو بقولــه: ﴿**بَصِيـرًا**﴾، ويقدَّر للآخر لا علـى التنازع لتأخرهما.

يعلم بواطن الأمـور وظواهرها، فيعاقب عليها، وكـذا يثيب، وَلَمَّا كانت الخبرة متعلِّقـة ببواطن الأمور، والبصـر بظواهرها، قدَّم الخبـرة لأنَّ الباطن متقدِّم بالشرف على الظاهر، ولتقدُّم اعتقاد القلب على أعمال الجوارح.

وجــاء الحديــث: «**إنَّ الله لا ينظر إلــى صوركم ولكن ينظــر إلى ما في قلوبكم**»[1] و«**إنَّ الأعمال بالنيات**»[2]، ولأنَّ الخبرة أعمُّ من البصر لأنَّها تتعلَّق بالمبصرات وغيرها، والمــدرك بالبصر أظهر، تعالى الله عــن البصر، ومعنى «بصير»: عالم بظواهر الأمور.

وذكر بعض أنَّ الخبير هو الذي لا يعزب عنــه الأخبار الباطنة لا يحصل شيء بلا علم منه به، أو الخبير مستعمل في العلم بالباطل باللام بعد الطاء.

---

(1) رواه **مســلم** في كتاب البرّ والصلة والآداب (10) باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضــه، رقــم 34 (2564). و**التبريزي** في كتــاب الرقاق (5) باب الرياء والســمعة ـ الفصل الأول ـ رقم 5314 (1). من حديث أبي هريرة.

(2) تقدم تخريجه، انظر: ج 6، ص 356.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۝١٨ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ۝١٩ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝٢٠ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ۝٢١﴾

جزاء من أراد الدنيا دون العمل للآخرة

﴿**مَّن كَانَ يُرِيدُ**﴾ بعمله من العبادة ﴿**الْعَاجِلَةَ**﴾ همَّته مقصورة عليها، وهي الدنيـا، والمراد: إيثارها أو متاعهـا، وأمَّا من لم تقصر همَّتـه عليها كما قال: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْاَخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [سورة البقرة: 201] فليس مرادًا لقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ﴾ والمراد: الدار العاجلة أو الحياة العاجلة، والأوَّل أنسـب بقوله: ﴿**عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا**﴾ في العاجلة، ولو أريد الحياة العاجلة لقيل: عجَّلنا له منهـا، لأنَّ الحياة من جملة ما عجَّل ﴿**مَا نَشَـآءُ**﴾ تعجيله طبق ما يريد أو دونـه أو فوقه، **ولا يجـد كلُّ أحد جميع ما يتمنَّى إلَّا إن شاء الله**، فالأمور على مشـيئة الله والهمُّ زائد لا يزيد خيرا، وأمَّا الهمُّ بمعنى الاهتمام بالخير ففضل من الله.

[أصول الدين] والإرادة مِنَّا مخلوقة لله ﷻ عندنا، وعند الأَشعَرِيَّة، وزعم بعض منهـم أنَّ الإرادة الجزئيَّة غير مخلوقة له تعالى، وأنَّهـا أمر اعتباريٌّ لا وجود له خارجا، وهو خطأ.

﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ التعجيل له، ولا دليل على أنَّ المراد: لمن نشاء هلاكه، كما زعم بعض ولو صحَّ المعنى، **إذ لا يجوز أن يفسَّر بما يجوز في المعنى بلا دليل.** و«لِمَنْ» بدل من «لَهُ»، ومن العجيب أن يقال: «مَنْ» بدل من الهاء بإعادة الجارِّ، ما المانع أن يقال: الجارُّ والمجرور بدل من الجارِّ والمجرور معا، وهو بدل بعضٍ، لأنَّ الهاء لمن يريد العاجلة، ومن يريدها شامل لمن يعجِّل له مراده ومن لا يعجِّل له.

والرابط محذوف أي لمن نريد منهم، أو لمن نريد التعجيل له، ولا بأس بعود الضمير إلى بعض المبدل منه، وهذا البعض هو هاء «لَهُ»، وبعض الناس يريد العاجلة ولا نعطيه منها مراده.

وقيل: المراد بالآية: المنافق، يريد بعمله الصالح ـ كالجهاد مع رسول الله ﷺ والصلاة معه والصوم ـ أمرَ الدنيا كالأخذ من الغنائم. قيل: الآية متَّصلة بقوله ﷻ: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ اَلْزَمْنَاهُ...﴾ بيَّن أنَّه يصدر منه من الأعمال ما قدِّر له، وأنَّ عمله محفوظ له يجازى عليه يوم القيامة، وبيَّن هنا أنَّ بعض الناس مقصور الهمَّة على الدنيا، ويعمل لها، فينال مراده منها إن شاء الله، وله جهنَّم كما قال:

﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ﴾ مفعولان لـ«جَعَلْنَا»، بمعنى: صيَّرنا، أو الثاني محذوف، أي: مأوى، واللام في «لَهُ» للاستحقاق، أو للاختصاص، أو للنفع تهكُّما ﴿يَصْلَاهَا﴾ قال الخليل: يقاسي حرَّها، وقيل: يدخلها، مستأنف، أو مفعول ثان، أو حال من الهاء، أو من جهنَّم ﴿مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ مطرودا عن الرحمة. والمراد بـ«مَن كَانَ»: المشرك، والمنافق بإضمار الشرك، والمنافق بالجارحة، وأمَّا المؤمن المخلص ففي قوله تعالى: ﴿وَمَنَ اَرَادَ﴾ أي قصد بقلبه ﴿الَاخِرَةَ﴾ المثوبة الآخرة، وهي الجنَّة ورضا الله ﷻ ﴿وَسَعَىٰ لَهَا﴾ اللام للاستحقاق، أو التعليل ﴿سَعْيَهَا﴾ مفعول به، أي فَعلَ لها ما يليق بها،

مِن فعل ما أُمر بفعله، وترك ما أُمر بتركه، لا مـا اخترعوه مِمَّا يتقرَّبون به، أو ما يفعله أهل الأهـواء، فلا جناح بعوضة له، أو مفعول مطلق، أي سـعى لها حقَّ سـعيها الخالي عن تقصير ﴿وَهُـوَ مُومِنٌ﴾ حال مؤكِّـد، لأنَّه داخل في «سَـعَىٰ لَهَـا سَـعْيَهَا» وأمَّا عمل الكافـر فـ﴿كَرَمَـادٍ اِشْـتَدَّتْ بِـهِ الرِّيَاحُ﴾ [سورة إبراهيم: 18] و﴿كَسَرَابِ بِقِيعَةٍ يَحْسِبُهُ الظَّمْئَانُ مَآءً...﴾ [سورة النور: 39].

﴿فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ مثابا عليه مقبولا، قال بعض المتقدِّمين: «من لم يكن معه ثـلاث لم ينفعه عملـه: إيمان ثابت، ونيـة صادقة، وعمل مصيب» وتلا هذه الآية.

ولا ثواب إلَّا للمخلص، قال الله تعالى: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشـرك فيه غيري تركتـه وشـركه**»[1]، وذكر بعض قومنـا أنَّه إن ترجَّحت إرادة الآخرة أثيب على قدرها، وأبطله ابن عبد السلام، ومثل له في «الإحياء» بأن ينشـط لاطِّلاع الناس، ولو فقد لم يترك العبادة، ولو انفرد قصد الرياء لم يفعل، واختار أنَّه يثـاب على قدر قصده لله، ويعاقب على قدر قصده للناس، وكذا ذكر ابن حجر أنَّه يثاب على أقلِّ قليل قَصْدِهِ لله سبحانه.

﴿كُلاًّ﴾ من الفريقين المؤمنيـن المريدين للآخـرة والكافرين المريدين للعاجلة ﴿نُمِدُّ﴾ نزيد على اسـتمرار وتجديد بعد عطاء سابق، وليس العطاء الأوَّل إمدادا إلَّا على التوسُّـع، ولذلك فسَّـرته بالزيادة، أو عبَّر به عن مطلق الإعطاء ﴿هَؤُلَآء﴾ المريدين للعاجلة ﴿وَهَؤُلَآءِ﴾ المريدين للآخرة، هذا أولى من العكس لأنَّه على الأصل، الأوَّلُ لـلأوَّل، والثاني للثاني، ولأنَّ العطاء هنا من الدنيا، وَالكُفَّار أنسب بها لشـدَّة حرصهم، ولأنَّه قد يتوهَّم أن لا يستحقُّوا العطاء لكفرهم. و«هَؤُلَآءِ» الأوَّل بدل كلٍّ من «كُلاًّ» باعتبار عطف الثاني، ولا تقل: بدل بعضٍ، أي هؤلاء منهم، لأنَّه يبقى المعطوف متعطِّلا.

---

(1) رواه **الربيع** في مسنده (10) باب في ذكر الشرك والكفر، رقم 60، من حديث أبي هريرة.

﴿مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ من معطى ربِّك، أي مِمَّا يعطي ربُّك، اسم مصدر بمعنى مفعول، وهو صحَّة البدن والعقل، والمال والأولاد والجاه. والغيبةُ في «رَبِّ» عن التكلُّم في «نُمِدُّ» تذكير للنعمة بذكر لفظ «رَبِّ»، والأصل: من عطائنا.

﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ﴾ باق على معنى المصدَرِيَّة ﴿رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ ممنوعا في الدنيا عن كافر ولا مؤمن لتفضُّله ﷻ، ويحتمل أن يراد الكافر دفعا لِمَا يتوهَّم أنَّه يمنع، وإنَّما يمنع عن عطاء الآخرة.

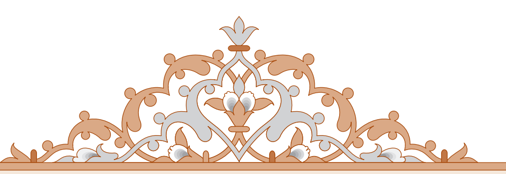
﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ في الدنيا. «كَيْفَ» حال من «نَا» وجملة «فَضَّلْنَا...» مفعول لـ«انظُرْ» علِّق إليها بصورة الاستفهام، والتفضيل هو بالمال والجاه والولد ونحو ذلك من منافع الدنيا، كالجمال وحسن الصورة ﴿وَلَلَاخِرَةُ﴾ اللام للابتداء، ولا دليل على تقدير قسم، وجَعلِ اللام في جوابه لام جواب قسم أو لام ابتداء في جوابه، وما لا دليل عليه لا يقدَّر، فلا تهم ﴿أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ﴾ درجاتها أكبر من درجات الدنيا، كما أنَّ الآخرة أفضل من الدنيا كذلك درجاتها أفضل من درجات الدنيا، أو درجات الآخرة تفاوتت أكثر مِمَّا تفاوتت درجات الدنيا.

أو المراد: التفاوت بالدرجات في مقابلة الدركات، أكبر من التفاوت بتوسيع النعم في مقابلة التضييق، ونسبة التفاوت في درجات منافع الآخرة ودركات عقابها إلى التفاوت في أمور الدنيا كنسبة نفس الآخرة إلى نفس الدنيا. وظاهر الآية التفضيل كمًّا، لأنَّ الكبر والصغر والكثرة وَالقِلَّة من مقولة الكمِّ، واختار بعض أنَّ المراد هنا مثل ما في الدنيا[1]، لأنَّ الغالب فيها أنَّ هذا أكثر مالا مثلا من هذا، ولا مانع من إبقاء الآية على الكيف.

(1) في نسخة (ج): «واختار بعض أنَّه المراد هنا...».

﴿وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ لأنَّ التفاوت فيها الجَنَّة ودرجاتها، والنار ودركاتها، وأولى من هذا اعتبار للتفاوت بين بعض أهل الجَنَّة والبعض الآخر، وبعض أهل النار والبعض الآخر، بعض أهل الجنَّة أكبر من بعض آخر، وبعض أهل النار أشدُّ عذابا من البعض الآخر.

وذكر ابن عبد البر عن الحسن أنَّه اجتمع أبو سفيان بن حرب وسهيل بن عمرو ونحوهما من الأكابر عند باب عمر، فأذن لصهيب وبلال وأهل بدر وكان يحبُّهم، وأوصى لهم، فقال أبو سفيان: يؤذن لعبيد دوننا! فقال سهيل بن عمرو: لا تغضبوا فإنَّهم دعوا ودعيتم فأسرعوا وأبطأتم، أما والله لَمَا سبقوكم به من الفضل أشدُّ عليكم فوتا من بابكم هذا الذي تتنافسون عليه. وفي رواية: إنَّما أُتِينَا من قِبَلِنَا إنَّهم دُعُوا ودُعينا فأسرعوا وأبطأنا. وهذا باب عمر فكيف التفاوت في الآخرة؟ ولئن حسدتموهم على باب عمر لِمَا أعدَّ اللهُ لهم في الجنَّة أكبر.



﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿22﴾ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿23﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿24﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿25﴾ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿26﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ۖ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿27﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿28﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿29﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿30﴾﴾

أصول تنظيم المجتمع المسلم

(1)

التوحيد أساس الإيمان، وترابط الأسرة المسلمة دعامة المجتمع

﴿**لَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهًا ـ اخَرَ**﴾ هذا خطاب للأمَّة في المعنى، بخطابه ﷺ في اللفظ، أو خطاب لمن يصلح له، وهو أولى لقوله بعدُ: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾ وهو ﷺ لم يدرك أبويه ﴿**فَتَقْعُدَ**﴾ فتصير لذلك، وهو من باب كان.

[لغة] وَاهًــا لزمــان الطفوليَّــة إذ كنــت أقرأ عند شــيخي في شــرح الشريف بن يعلى الحســني[1]، وفيه التمثيل لقعد من باب كان بمعنى صار بقولهم: شحذ شــفرته حتَّى قعدت كأنَّها حربة، وقال أبو حيان: قعد بمعنى صار مقصورا عند الأصحاب يعني الأندلسيِّين على هذا المثال، وقاسه بعض في التشــبيه، مثل: «قعد كأنَّه سلطان»، وقاســه الفرَّاء مطلقا، ومنه: «قعد لا يسأل حاجة إلَّا قضاها».

﴿**مَذْمُومًا**﴾ خبر «تَقْعُدَ» واسمه مستتر، ويجوز إبقاؤه على ظاهره من عدم القيام مجازا للعجز، وكناية عنه، فـ«مَذْمُومًا» حال ولا اسم لها، يقال: قعد عن الشــيء، بمعنى: عجز عنه، أي فتعجــز عن رفع العذاب فضــلا عن وصول الدرجات العلى، ومن شــأن المذموم المخذول أن يقعد حائرا متفكِّرا، وقعد بمعنى: صار، بمعنى: اللبث على شــيء قعد أو قــام ﴿**مَخْذُولاً**﴾ ممنوعا من التوفيق، أمَّا الذمُّ فمن الملائكة والمسلمين، وأمَّا الخذلان فمن الله، ولا ناصر لك، لأنَّ الشريك لا يدفع ســوءا ولا يجرُّ نفعا، ومن لم يجعل لله شريكا فهو منصور دنيا وأخرى، ودنيا فقط إن لم يوفِّ.

﴿**وَقَضىٰ رَبُّكَ**﴾ أمر ربُّك ﴿**أَلَّا تَعْبُدُواْ إِلَّآ إِيَّاهُ**﴾ بأن لا تعبدوا، أو أَوجَبَ ألَّا تعبدوا إلَّا إِيَّاهُ، أو حكم بأن لا تعبدوا إلَّا إِيَّاهُ، بمعنى: حكم بأنَّه لا تجوز عبادة غيره، وليس المعنى أنَّه سبقت إرادته أنَّه لا تصدر عبادة غيره عن أحد، ولو كان ذلك لم يقع إشراك البتَّة.

[نحو] و«لَا» نافية و«أَنْ» مَصْدَرِيَّة، وأعجب من إجازتهم أن تكون مَصدَرِيَّة متَّصلة بالنهي أو بالأمر، مع أنَّ النهي والأمــر لا خارج لهما يكون حدثا معنى للمصدر، فإذا جعلت «لَا» ناهية فـ«أَنْ» تفسيريَّة لتقدُّم معنى القول وهو القضاء،

---

(1) هو محمَّد بن يعلى الشريف الحسيني، له كتاب الدرَّة النحويَّة في شرح الأجروميَّة، مخطوط في مكتبة آل افضل، رقم 222.

وأنا ألهج بذلك من صغر سنِّي إلى أن رأيته للشيخ زاده[1]، ونصُّه: «صلة أن المصدَرِيَّة لا تكون شيئا مِمَّا فيه معنى الطلب على الأصحِّ وإن أجازه سيبويه».

﴿وَبِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي وبأن تحسنوا بالوالدين، على أنَّ «قَضَى» بمعنى أمر، أو أن تحسنوا بلا باء على أنَّ «قَضَى» بمعنى أوجب، وأمَّا أن نقدِّر: وأحسنوا بالوالدين إحسانا ففيه عطف الأمر على الإخبار. والباء متعلِّق بـ«إِحْسَانًا» لجواز تقديم معمول المصدر إذا كان ظرفا، ولا سيما إن كان المعنى على غير قصد انحلاله إلى حرف المصدر والفعل، كما هنا، لأنَّ تقدير الفعل قبله يغني عن انحلاله إلى ذلك، أو تتعلَّق بهذا المقدَّر قبلها.

والإحسان إليهما أعمُّ من أن يأمراه أو ينهياه فيطيعهما، وأن لا يأمراه ولا ينهياه فينظر هو ما يليق بهما فيفعله، والطاعة ما كان عن أمرهما أو نهيهما فهي أخصُّ من الإحسان. ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ﴾ «إنْ» الشرطية و«مَا» التي هي صلة للتأكيد أبدلت نونها ميما وأدغمت في الميم ﴿عِندَكَ الْكِبَرَ﴾ في كفالتك وتحت يديك بالنفقة والقيام لهما، لأنَّهما كالطفل لعجزهما في بيتك، وهو أولى أو في غير بيتك ﴿أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾ عطف على «أَحَدُهُمَا»، فإنَّ «كِلَا» لا يختصُّ بالتوكيد، فإنَّه يكون مبتدأ وفاعلا ومفعولا وغير ذلك، وهو هنا فاعل بواسطة العطف.

﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ فكيف الدفع والضرب وما هو أشدُّ من التأفيف؟

[أصول الفقه] وذلك قياس جليٌّ لأنَّه يفهم بطريق الأولى، ويسمَّى: «فحوى الخطاب» و«مفهوم الموافقة»، ولكن قد يكون مفهوم الموافقة مساويا للأُولى، وأمَّا دليل الخطاب فهو معنى الكلام المصرَّح به.

---

(1) هو الشيخ غَزِّي زاده مصطفى بن أحمد البرسوسي المتوفَّى سنة 1204هـ المعروف بغزِّي زاده، شاعر تركيٌّ له تصانيف بِالعَرَبِيَّةِ والتركيَّة، منها حاشية على البيضاوي، سمَّاها: «تزيين المقامات». معجم المفسِّرين، ج 2، ص 674.

ولا يصحُّ ما قيل عنه ﷺ: «**إنَّه لو علم الله شـيئا أدنى من الأفّ لنهى عنه**» لأنَّه تعالى علم وأعلمنا أنَّه وجـد أدنى من الأفِّ ولم يذكرها، وهي لا تجوز، مثل أن يقول لهما على وجه الضجر: ما هذا؟ ولكن مثَّل لنا بالأفِّ.

[فقه] الإحسـان إلى الوالدين واجب قبل كبرهما وفيه، وتحريم التأفيف كذلك، وكذا نهرهما، والقـول الكريم ونحو ذلك، ولكن ذكـر الكبر لكونه محلَّ تهاون الولد بهما والضجر.

[لغة] و«أفٌّ» اسم للفعل المضارع التكلُّمي، وهو أضجر أو أَتَضجَّرُ، أي أصابني الملل منكما لشدَّة مؤونتكما عليَّ، أو خدمتكما أو رائحتكما المنتنة. وقيل: «أُفِّ» خسـرانا أو قبحا أو نتنا، فيكون اسـم فعل ماض للخطاب، أي خسرتما أو قبحتما أو نتنتما، أو أشبهتما وسخ الظفر، أو ما يسقط من السقف. وقيل: اسم صوت من أصوات الفم يصوِّت به الإنسـان عند الضجر، لا اسم فعل ولا ضمير فيه، وإنَّما هو بالطبع ولا وضع فيه.

﴿**وَلَا تَنْهَرْهُمَـا**﴾ لا تغلظ الصـوت عليهما فيما تكرهـه منهما ولا في مصلحتهما وليس مـن ذلك رفع الصوت ليسـمعا، إذا ثقل سـمعهما، قيل: المراد المنع من إظهار المخالفة في القول على سـبيل الردِّ والتكذيب لهما، ولذا روعي هذا الترتيـب وإلَّا فالمنع من التأفيف يدلُّ علـى المنع من النهر بطريق الأولـى، فيكون ذكره بعده عبثـا، قلت: بل النهر يكـون أيضا بلا ردٍّ لقولهما ولا مخالفة، وليس المنع من التأفيف يـدلُّ على منع النهر بالأولى، بل قد يتساويان وقد يكون النهر دون التأفيف.

﴿**وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا**﴾ لا تكتف بترك التأفيف والنهر، وقل بدلهما قولا كريمـا، أي: جميلا ليِّنـا، كقول العبـد المذنب للسـيِّد الفـظِّ، وكـ«لَبَّيْكُما وسعديكما» إذا ناداياه، ولا تعاشرهما بسوء خلق، ومن ذلك أن يتكلَّم مع غيره بحضرتهما، ولا يكترث بهما سمعا أو لم يسـمعا، أو يتفاوضوا في أمر مفرح

ولا يشركهما فيه، **والضابط أن يجتنب ما يكرهان، ويستقصي النظر فيما يحبان فيفعله.** و«قَـوْلاً» باق على المصدَرِيَّة مفعــول مطلق، أو بمعنى مفعول فهو مفعول به. ﴿**وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ**﴾ إذا أراد الطائر الكفَّ عن الطيران خفض جناحيه عن نشرهما وارتفاعهما، فعبَّر بذلك عن التواضع لهما.

[بلاغة] جعل الإِلاَنَةَ لهما من جنس خفض الجناح من الطائر، لجامع العطف، فسمَّاها باسم الخفض، واشتقَّ منه «اخْفِضْ» بمعنى أَلِنْ، و«جَنَاح» ترشيح أو استعارة لجانب الإنسان من بدنِه أو حالِهِ بجناح الطائر، فسمَّاه به، وأضافه للذلِّ تلويحا بأن يذلَّ لهما ولا يرتفع، كأنَّه قيل: ليكن جنابك لهما جناب ذلٍّ لا جناب ترفُّع، وذلك من إضافة الشيء إلى صفته، كحاتم الجود ومادر الشحِّ. ولا داعي إلى المصير إلى الوصف النحوي مثل: أن تؤوِّل الجود بذي الجود، أو بالجواد وكذا في الآية، وإن شئت فقل: شبَّه المتواضع بالطائر المنحطِّ ورمز إلى ذلك بذكر الجناح، أو شبَّه الذلَّ بطائر منحطٍّ ورمز إليه بإثبات الجناح تخييلا والخفض ترشيحا، وقيل: المراد بخفض الجناح ما يفعله الطائر إذا ضمَّ فراخه للتربية، وإنَّه أنسب بالمقام، قلت: لا يتَّضح هذا، وسمِّي الجناح جناحا لأنَّه يميل، تقول: جنحت إلى كذا بمعنى ملت إليه.

﴿**مِنَ الرَّحْمَةِ**﴾ أي لرقَّتك عليهما، متعلِّق بـ«اخْفِضْ»، ويجوز أن تكون «مِنْ» للابتداء لأنَّ هذا الخفض شيء من الرحمة المستكنة في النفس، لافتقارهما إليه بعد أن كان أَشَدَّ افتقارا إليهما، واحتياج المرء إلى من كان محتاجا إليه غاية الذلِّ فلا بدَّ من مقابلته بِأَشَدَّ رحمةً جزاء له، قال شاعر:

ما ذلَّة السلطان إلَّا إذا أصبح ... محتاجا إلى عامله

ويضعف كونه حالا من «جَنَاحَ». ﴿**وَقُل**﴾ ولو دبر كلِّ صلاة من الخمس، أو دبر كلِّ صلاة.

[فقه] [فقد قيل: إنَّه] لا تقبل صلاة امرأة لم تدع لزوجها أو إنسان لم يدع لوالديه، قال سفيان: يجب بعد كلِّ تشهُّد التسليم، كما أمرنا بالتكبير في أيَّام معدودات، فكبَّرنا أدبار الصلوات، وبالصلاة والسلام على النبيء ففعلناهما بعد تشهُّد التسليم.

[أصول الدين] قلت: لكن كلٌّ بما يليق به، فالمتولَّى بالجنَّة وغيرها من الدين والدنيا، والموقوفُ فيه بالهداية، على قول مجيز الدعاء بالهداية لغير المتولَّى، أو بترك كذا من الذنوب، أو التوفيق إلى فعل كذا من الخير، وكذا في المتبرَّأ منه، وقد قال من قال بولاية الوالدين المستحقَّين للوقوف، ويُعرِّض لهما بدعائه بالجنَّة إذا اشتدَّا عليه بها.

﴿**رَّبِّ اِرْحَمْهُمَا**﴾ ولو اقتصر على رحمة دُنيَوِيَّة إن لم يجد سبيلا للأخرويَّة، وقد أخبرتك بطرق لها، لكن إن ماتا في البراءة لم تجد سبيلا إلى الأخرويَّة إلَّا أن تدعو لهما بزوال عذاب القبر، أو تخفيفه، كما غرز ﷺ بعض جريدة على قبر مغتاب أو نمَّام وعلى قبر من لا يستبرئ من البول.

﴿**كَمَا**﴾ الكاف للتشبيه، والتعليلُ مستفاد منه فلا حاجة إلى جعلها للتعليل، و«مَا» مَصدَرِيَّة ﴿**رَبَّيَانِي صَغِيرًا**﴾ برحمة لا بعنف حين عجزت كلَّ العجز، وحين عجزت بعضه لا يترفَّعان عن نتن ما يخرج منِّي، والأمُّ في هذا أدخل، قال رجل لرسول الله ﷺ: إنَّ أبويَّ بلغا من الكبر إلى أن ألي منهما ما وليا منِّي في الصغر، فهل قضيت حقَّهما؟ قال: «**لا! إنَّهما يفعلان ذلك ويحبَّان حياتك، وأنت تفعله وتحبُّ موتهما**».

أمره الله بتذكُّر حال الصغر وهو أشدُّ أحواله احتياجا من حيث الولادة والرضاع، وقد يريد حال الطفوليَّة كلِّها، وقد يريد ما بعدها أيضا ما دام لم يأنس رشدَه، وما لم يستقلَّ بنفسه، ولو كان بالغا متزوِّجا، والأحوال تختلف في ذلك. والكاف للتعليل، وإن كانت للتشبيه فـ «رَبَّيَانِي صَغِيرًا» بمعنى:

رحماني صغيرا، تعبيرا بالمسبَّب عن السـبب، أو باللازم عن الملزوم، ويبعد أن يقال: المراد ربِّ ارحمهما رحمة تشبه في الظهور تربيتهما إيَّاي صغيرا.

والتقدير: ربِّ ارحمهما رحمة مثل تربيتهما لي، أو مثل رحمتهما لي لأنَّ التربية رحمة، أو ربِّ ارحمهما وربِّهما كما رحماني وربَّياني. والإنسـان في تربية الله ما دام حيًّا ولو عمِّر مائة سـنة. أو ربِّ ارحمهما رحمة ظاهرة محقَّقة كما فعلا في التربية، وذلك كقولـه تعال: ﴿إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَـآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [سورة الذاريات: 23].

﴿رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ﴾ منكم ﴿بِمَا فِي نُفُوسِكُم﴾ فقد تتوهَّمون أنَّكم بارُّون بالوالدين وليس كذلك، بل قد قصَّرتم أو ملتم إلى كراهيتهما واستثقالهما، ولم تعالجوا أنفسكم عن ذلك، و«ما في نفوسكم» البرُّ إليهما أو الكراهة أو العقوق، فيجازي كلًّا على حسـبه، والخطاب فيما مضـى للعموم البدلي بالإفراد، وهنـا بالجمع للعموم الشـمولي كالبيـان بأنَّ المـراد فيما غير مشـخص، والآية وعدٌ للموفي بحقِّهما، ووعيدٌ وتهديد لمن قصَّر أو أضمر لهما ما يكرهان.

قيل: يا رسـول الله هل بقي من برِّ أبويَّ شيء أبرُّهما به بعد موتهما؟ قال: «**نعم، الصـلاة عليهما والاسـتغفار لهما، وإيفاء عهدهما مـن بعدهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلَّا بهما وإكـرام صديقهما**»[1]، وروى البخاري عن أنس عنه ﷺ: «**لا يزال العاقُّ يدعو لوالديه بعد موتهما ويسـتغفر لهما حتَّى يكتبه الله بارًّا**»[2]، وروى الأوزاعي: «**من قضى دينهما واستغفر لهما كتب بارًّا، ومن**

(1) رواه **ابن ماجه** في كتاب الأدب باب صل من كان أبوك يصـل، رقم 3664، و**ابن حبَّان** في صحيحه باب حقِّ الوالدين، ذكر وصف برِّ الوالدين لمن توفِّـي أبواه في حياته، رقم 419. من حديث مالك بن ربيعة.

(2) أروده **الآلوسي** في تفسيره: ج 5، ص 58، وقال: «أخرجه البيهقي عن أنس».

برَّهما ولم يقض دينهما فهو عاقٌّ»[1]، وروى هو وابن أبي الدنيا عن محمَّد بن النعمان عنه ﷺ: «**من زار قبر أبويه أو أحدهما في كلِّ جمعة غفر له وكتب بارًّا**»، وعنه ﷺ: «**إنَّ من أبرِّ البرِّ صلة الولد أهل ودِّ أبيه**»[2] وعنه ﷺ: «**إنَّ من أحبَّ أن يصل أباه في قبره فليصل إخوان أبيه من بعده**»[3] وقال ﷺ: «**ليعمل العاقُّ ما شاء أن يعمل فلن يدخل الجنَّة، وليعمل البارُّ ما شاء أن يعمل فلن يدخل النار**» يعني: إنَّ العقوق يجرُّ إلى الإصرار، والبرَّ يجرُّ إلى التوبة.

﴿**إِن تَكُونُواْ صَالِحِينَ**﴾ بارِّين بالوالدين موفِّين في دين الله ﷻ، أو صالحين مطيعين لله ﷻ في حقِّ الوالدين وغيره، أو صالحين في قصد الخير لهما والوفاء بالدين، فلا يضرُّكم ما صدر في بعض الأحيان مِمَّا يسوءهما لقصدكم الخير والتوبة، وهذا في عموم قوله تعالى: ﴿**فَإِنَّهُ كَانَ لِلَاوَّٰبِينَ**﴾ من الذنوب عموما ﴿**غَفُورًا**﴾ والأوَّاب: الرجَّاع إلى التوبة وإصلاح الفساد من الإساءة إليهما وغيرها، والأوَّاب: الإنسان يذنب ويتوب ويستغفر ثمَّ يذنب ويتوب كذلك، كلَّما ذكر ذنبا استغفر منه في خلوة أو مع الناس لكن لا يكشف لهم ما ستر الله عنهم، وقد يقال: أراد بالأوَّابين من كان صالحا في برِّ الوالدين فالأصل على هذا فإنَّه كان لكم غفورا، ولكن لفظ الأوب ـ وهو الرجوع ـ أنسب بمن قد يسيء إليهما ويتوب، غير أنَّ الإنسان لا يخلو من خطأ في حقِّهما أو حقِّ غيرهما.

وذكر حقَّ القرابة بعد الوالدين بقوله: ﴿**وَءَاتِ ذَا الْقُرْبىٰ حَقَّهُ**﴾ أي اجعل حقَّ ذي القرابة منك آتيا إِيَّاهُ وواصلا إليه، فكأنَّه قيل: أعط ذا القربى حقَّه من جهة الأب أو الأم أو جهتهما، احتاج أو لم يحتج، من مال أو نفع أو سلام.

---

(1) أورده **الآلوسي** في تفسيره: ج 5، ص 58 بلاغا عن الأوزاعي.

(2) رواه **مسلم** في كتاب البرِّ والصلة، باب فضل صلة الأب والأمِّ ونحوهما، رقم 11 (2552) وأوَّله: «إنَّ رجلا من الأعراب لقيه [ابن عمر] بطريق مَكَّة فسلَّم عليه...». من حديث ابن عمر.

(3) رواه **ابن حبَّان** في صحيحه، باب حقّ الوالدين، ذكر البيان بأنَّ برَّ المرء بإخوان أبيه وصلته إيَّاهُم بعد موته... رقم 433. من حديث أبي بردة.

[فقه] وإن احتاجوا ولا مكسب لهم وجب عليه الإنفاق عليه بقدر الإرث فيما بين العصبة، والبسط في الفقه، ويجب عليه حقُّ قرابة الأمِّ إن احتاجوا ولا عصبة لهم أو لهم عصبة امتنعوا، أعني يجب عليه أن لا يتركهم فيموتوا وإنَّه قبل غيره من الأباعد، ولا يحكم عليه بذلك، وعن أبي حنيفة يجب على الموسر مواساة أقاربه إذا كانوا محارم كالأخ والأخت، وقال الشافعي: لا يجب الإنفاق إلَّا على الولد والوالدين. ومن حقِّ القرابة: الزيارة وحسن العشرة. وذِكْرُ ذي القربى تعميمٌ بعد تخصيص، فإنَّ ذا القربى يتناول الوالدين لغة ولو لم يتناولهما عرفا، قال ﷺ: «**من قال لأبيه قريبي فقد عقَّه**» فلو أوصى لقرابته لم يدخل الوالدان، والوصيَّة تجري على العرف إذا كان، وإلَّا فعلى اللغة.

ويبحث فيما ذكر أنَّه ﷺ لَمَّا نزلت الآية نادى فاطمة رضي الله عنها فأعطاها «فدكا»[1]، فإنَّه إذا كانت البنت قريبة لأبيها فالأب قريب لها، إلَّا أنَّا لا نسلم إعطاء «فدك» لأنَّ الآية مَكِّيَّة و«فدك» ملكت في المدينة، إلَّا أن يقال علم أنَّه سيملكها فوهبها لفاطمة رضي الله عنها.

وقيل: ذا القربى قرابة رسول الله ﷺ يجب علينا الإنفاق عليهم إن احتاجوا، وتوقيرُهم، وحقُّهم من الخمس، ولا دليل لهذا التخصيص. قال علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب لشاميٍّ: أقرأت ﴿فَئَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ [سورة الروم: 38]؟ قال: فأنتم القربى في الآية؟ قال: نعم.

﴿**وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ**﴾ عطف على «ذَا الْقُرْبَى»، والمعطوف على «حَقَّهُ» محذوف، أي والمسكين وابن السبيل حقَّهما ﴿**وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا**﴾ لا تفرِّق المال، والتبذير التفريق، مأخوذ من التبذير وهو إلقاء البذر في الأرض

(1) فدك: أرض في خيبر، قذف الله الرعب في قلوب أهلها لَمَّا فتح الرسول ﷺ خيبر، فصالحوه على النصف، فكانت له خالصة. (انظر: سيرة ابن هشام، ج 3، ص 384)، والحادثة رواها **أبو يعلى** في مسنده، رقم 1074، من حديث أبي سعيد الخدري.

كيف ما كان من غير تعهُّد لمواقعه، قال ابن مسعود ﵁: التبذير إنفاق المال في غير حقِّه وذلك هو صرفه إلى من لا يستحقُّه، وقيل: الإسراف تجاوز في الكَمِّيَّة، والتبذير تجاوز في موضع الحقِّ، والظاهر أنَّهما سواء، وعدُّوا منهما تشييد الدار، واستدلَّ بعض على **أنَّ المراد الإنفاق في المعصية** بقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ**﴾ وما أنفق في معصية أو فيما لا نفع فيه ولو حبَّة فإنفاقه تبذير، روي أنَّه ﷺ قال لسعد وهو يتوضَّأ: «**ما هذا السرف؟**» قال: أفي الوضوء سرف؟ قال: «**نعم وإن كنت على نهر**»[1] رواه أحمد عن عبد الله بن عمر صحيحا.

ومعنى ﴿إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾: أشباه الشياطين، كما يشبه الرجل أخاه من النسب فهم كالشياطين في المعصية جمعتهم المعصية كما يجمع الإخوان أبوهم، أو أحبَّاء الشياطين كأنَّهم أحبُّوهم لاتِّباعهم في المعصية، وذلك تشبيه ولا محبَّة بينهم لكن شبِّهوا بمن أحبَّ أحدا فاتَّبعه.

[فقه] ومن ذلك ما يصرفون في الأزلام والمياسر والمفاخر ينحرون الإبل في ذلك، ولا يحلُّ أكل ذلك لأنَّه ميتة، وكذلك فعل الفرزدق أو أبوه في الإسلام فأفتى عليٌّ بأنَّها حرام لا تؤكل، **وكلُّ ما فعل من مال للرئاء إسراف.**

﴿**وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ**﴾ أي لنعم ربِّه ﴿**كَفُورًا**﴾ مبالغة في الكفر، فلا يقتدى بأحد في الكفر ولو قلَّ، بل الكفر وإن قلَّ عظيم، والكافر خبيث، ومن خبُث لا ينبغي اتِّبَاعه ولو فيما أقلَّ من كفره، وصرف المال في المعصية ضدُّ الشكر به وهو صرفه في الطاعة.

﴿**وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا**﴾ «إِنْ» الشرطية أدغمت نونها في ميم «مَا» الصلة. إن تعرض عن ذي القربى والمسكين وابن

(1) رواه **ابن ماجه** في كتاب الطهارة، باب ما جاء في القصد في الوضوء، رقم 425، ورواه **أحمد** في مسند المكثرين من الصحابة، رقم 7025. من حديث عبد الله بن عمرو.

السـبيل، أو عن أصحابك المحتاجين الطالبين منك المعروف، لأجل طلبك رحمـةً ترجوها من ربِّـك لتعطيهم منها ولـم تكن لك في الحال وسـكتت مستحييا أن تقابلهم بالردِّ.

وكان ﷺ إذا سـئل وليس عنده ما يعطي أعرض بجانبه وسـكت، وربَّما روي أنَّه غضب أو اشـتَدَّ عليه طلبهم ـ وليس كذلك ـ فنزلت الآية ﴿**فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُـورًا**﴾ مثل: «رزقكم الله»، ومثل: «إذا فتح الله أعطيكم، وارجع وقت كذا»، ومثل: «ليس عندي ما أعطيكم الآن».

وكره مالك الاقتصار على: «رزقك الله» لأنَّه لا أعظم على السائل من قطع طمعه فلا يقابله مع ذكر اسم الله بما يضرُّه، وكان يستحبُّ أن يقول له: إذا فتح الله... إلى آخر ما مرَّ، ولا يعارض بأنَّه ﷺ يقول: «رزقك الله» لأنَّ دعاء النبيء مجاب قطعا، ولا تقتصر على السكوت والإعراض، وأحواله ﷺ متعدِّدة: تارة يعطي، وتارة يسكت، وتارة يردُّ بالجميل مثل: «رزقك الله».

وعلَّة الإعراض الإعسار، لكن عبَّر عنه بالمسبَّب وهو الابتغاء، ويجوز أن يكون الإعراض كناية عن عدم النفع بدفع ما يحتاجون إليه إذ لم يوجد عنده، والإعـراض بالوجه لازم عدم النفـع، وأن يكون «ابْتِغَاءَ» بمعنـى انتظار فإنَّ الانتظار علَّة حاملـة على الإعراض، ولا ينصـب «ابْتِغَاءَ» بـ«قُـلْ» لأنَّ لفاء الجواب الصدرَ، ولا داعي إلى إخراجها عنه. و«تعرض» بمعنى الماضي، أي لا تعد في المستقبل إلى الإعراض، أو للاستقبال أي لا تقتصر على الإعراض بعد بل ضمَّ إليه قولا ميسـورا، أي ليِّنا، أو دعه إلى القول اليسر، ويجوز أن يكون المعنى: إن أردت الإعراض.

[صرف] وهو مِمَّا وزنه مفعول ومعنـاه فاعل، كمزكوم ومثله من الرباعي أُولِع فهو مُولَع بالبناء للمفعول، وجاء من ذلك مسعود ومنحوس، ويجوز أن يكون مصـدرا بوزن مفعـول كمجلود بمعنـى الجلادة ومعقـول ومحلوف

ومجرود ومعقود ومعســـور. والأصل: قل لهم قول يُسْـــرٍ، بالإضافة، فهو بدل من «قَوْلاً» أو نعتا على معنى: قولا يذكر فيه اليسر.

[سبب النزول] نزلت الآية في مهجع وبلال وصهيب وسالم وخبَّاب ﵃ يسألونه ﷺ أحيانا فيعرض عنهم حياء من الردِّ ويتضرَّرون من الإعراض.

﴿**وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَـةً اِلَىٰ عُنُقِكَ**﴾ مربوطة إلـــى عنقك بجامعة أي لا تترك مَدَّها بالإعطاء كأنَّها مربوطة إلى عنقك ﴿**وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ**﴾ بالإنفاق الكثير حتَّى لا يبقى فيها شيء، ومن بسط يده ولم يقبض بها سقط ما فيها.

أمره الله بالتوسُّط في الإنفاق وكان بين ذلك قواما وذلك بين الشحِّ والتبذير وخير الأمور أوســـاطها قال ﷺ: «**ما عال من اقتصد**»[1] أي ما افتقر، رواه أحمد عن ابن عَبَّاس، قال ابن عمر: قال رســـول الله ﷺ: «**الاقتصـــاد في النفقة نصف المعيشة**»[2] رواه البيهقي، وعن أنس عنه ﷺ: «**التدبير نصف المعيشة، والتودُّد نصف العقل، والهمُّ نصف الهرم، وقلَّة العيال أحد اليســـارين**»[3] ويقال: حسن التدبير مـــع العفاف خير مـــن الغنى مع الإســـراف ﴿**فَتَقْعُدَ**﴾ فتصيـــر ﴿**مَلُومًا مَّحْسُورًا**﴾ أو فتعجز عن الطريقة الوسطى المحمودة كالذي لا يطيق القيام حال كونك ملوما أي معاتبا، أو مذموما عند الخلق والخالق.

[نحو] ونصب «تَقْعُدَ» في جواب النهيين على معنى: لا يكن منك ذلك، ومن الخلق والخالق اللـــوم أو الذم لك والانقطاع منـــك. و«مَلُومًا» عائد إلى

---

(1) رواه **أحمد** في مســـنده: ج 2، ص 158، رقـــم 4269، من حديث ابن مســـعود. و**البيهقي** في الشـــعب (42) باب الاقتصاد في النفقة وتحريم أكل المال بالباطل، رقم 6569. من حديث أبي الأحوص عن عبد الله.

(2) رواه **البيهقي** في الشـــعب (42) باب الاقتصـــاد في النفقة وتحريم أكل المـــال الباطل، رقم 6568، مع زيادة في آخره من حديث ابن عمر.

(3) أورده **السيوطي** في الدر: ج 4، ص 197. من حديث أنس. وقال: أخرجه الديلمي.

قوله: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ وقوله: ﴿مَحۡسُورًا﴾ عائد إلى قوله: ﴿وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ﴾. و﴿مَحۡسُورًا﴾: مقطوعا بك عن المال، يقال حسره السفر إذا أثر فيه، قيل: أو نادما، فيكون «مفعول» بمعنى «فاعل»، الإنسان يحسر نفسه أي يتسبَّب في قطعها عن المال فهو حاسر لنفسه وهو محسور، وحسره الله فهو محسور، والإسراف حسره فهو محسور.

[سبب النزول] قال جابر بن عبد الله بينما رسول الله ﷺ جالس أتاه صبيٌّ فقال: إنَّ أمِّي تستكسيك درعا ـ أي قميصا ـ فقال ﷺ: «**من ساعة إلى ساعة يظهر، فعد إلينا**» فذهب إلى أمِّه فقالت: قل له إنَّ أمِّي تستكسيك الدرع الذي عليك، فدخل ﷺ داره، فنزع قميصه، وأعطاه، وقعد عريانا، وأذَّن بلال، وانتظروا الصلاة فلم يخرج فأنزل الله الآية.

فسلَّاه الله ﷻ بقوله في العموم البدلي في كلِّ معسر: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ**﴾ يا كلَّ من يصلح للخطاب ﴿**يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ**﴾ البسط له ﴿**وَيَقۡدِرُ**﴾ يضيِّقه لمن يشاء التضييق له أو عليه. وذلك مشكل، لأنَّ الآية مَكِّيَّة، ولفظ ابن مردويه عن ابن مسعود: جاء غلام إلى النبيء ﷺ فقال: إنَّ أمِّي تسألك كذا وكذا فقال: «**ما عندنا اليوم شيء**» قال: فتقول: اكسني قميصك، فخلع النبيء ﷺ قميصه فدفعه إليه، فجلس في البيت حاسرا فنزلت الآية، وليس فيه ذكر أذان بلال فلا يشكل أنَّه مكِّيٌّ.

وكذلك لا يصحُّ ما قيل: إنَّها نزلت حين أعطى «الأقرع» مائة من الإبل و«عيينة» مائة، فقال عَبَّاس بن مرداس: أتجعل نهبي...[1] الأبيات المشهورة، فقال للصدِّيق ﵁: «**اقطع عنِّي لسانه**» فأعطاه مائة فنزلت، لأنَّ الآية مَكِّيَّة

(1) وتمام البيت:

.......ونهب العُبيد بين عُيَينة والأقرع

راجع: السيرة لابن هشام، ج 4، ص 146.

والعطاء مدنيٌّ، وقد يقال: الآيــة مَدَنِيَّة جعلت في ســورة مَكِّيَّة لتجتمع فيها خصال مخصوصة، وحينئذ يصحُّ الحديث الأوَّل الذي فيه أذان بلال.

وحديث ســعيد بن منصور وابن المنذر أَنَّهُ ﷺ قسَّــم مالا فقال قوم من العرب: نأتي رسول الله ﷺ ليعطينا فوجدوه قد فرغ، فنزلت الآية.

﴿**إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا**﴾ بســرِّهم ﴿**بَصِيــرًا**﴾ بعلنهم، فهو يرزقهم على ما علم من ظواهرهم وبواطنهم. ومعنى الحديث المتقدِّم: أمهل من ســاعة أو أخر سؤالك من ساعة لم يظهر لنا فيها درع إلى ساعة يظهر لنا فيها درع، وفي رواية: «**من ساعة إلى ساعة فعد إلينا**». وقد يقال: الخطاب من قوله: ﴿وَءَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ...﴾ إلى هنا للنبيء ﷺ فيكون التسلية له هنا بالذات وغيرُه تبعٌ له.

[أصول الدين] والمراد: إنَّه يبسط ويضيِّق بحسب مشيئته، والحكمة تابعة لها، لا يفعل مــا لا حكمة فيــه، وقالت المعتزلة: المشــيئة تابعــة للحكمة والمصلحة. ولا يجب أن تكون مصلحة العبد في مشــيئة الله، خلافا للمعتزلة وقليل من الأَشــعَرِيَّة كالشــيخ زاده، ولكن نســبه للأشــعريَّة كلِّهم. والبسط والإعســار لحكمة، لا لعظم المرزوق، ولا لبُخله أو هَوَانِ المرزوق، وليست أفعاله معلَّلة بالحكمــة والمصلحة، ولا المصلحة في حــقِّ العبد واجبةٌ عليه عندنا وعندهم، خلافًا للمعتزلة.

ويجوز أن يكون المعنى: إنَّ القبض والبســط الشــديدين مختصَّان بالله، فاقتصد أنت، ودع ما يختصُّ بالله ســبحانه. وأن يكون المعنى: إنَّه يقبض تارة ويبسط أخرى، وهذا اقتصاد فاستنُّوا به. وعلى الوجهين الآية تعليل للآية قبلها الناهية عن القبض والبسط الشديدين، قيل: ويجوز أن تكون تمهيدا لقوله:



﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٖۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـٔٗا كَبِيرٗا ٣١ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ٣٢ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومٗا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنٗا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا ٣٣ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولٗا ٣٤ وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٞ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلٗا ٣٥ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولٗا ٣٦ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولٗا ٣٧ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهٗا ٣٨ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدْحُورًا ٣٩ ﴾

أصول أخرى لنظام المجتمع الإسلامي

(2)

﴿**وَلَا تَقْتُلُـوٓاْ**﴾ وفيه أنَّه لو كان كذلك لقال: فلا تقتلـوا... بالفاء ويجاب بأنَّه جيء بالواو ليفيد زجرا عن قتل الأولاد عامًّا مطلقا مسـتقلاًّ، فيدخل فيه كلُّ ما أريد دخوله ﴿**أَوْلَٰدَكُمْ خَشْـيَةَ إِمْلَٰقٖ**﴾ لأنَّه تعالى متكفِّل بأرزاق العباد بحسب مشيئته، فكيف تقتلونهم للرزق وهو مضمون عند الله، وكانت العرب يقتلون بناتهم لعجزهنَّ عن الكسـب، ولئلَّا يتزوَّجن بغير أكفائهنَّ وهو عار، وقد يقتلونهنَّ لعـدم جمالهنَّ، ولخوف زناهنَّ. والإمـلاق: الفقر، والقتل هو

دفنهنَّ، وعلَّل النهي عنه بقوله: ﴿**نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم**﴾، وبأنَّ قتلهنَّ ظلم عظيم ويقطع التناسل، وذلك في قوله: ﴿**إِنَّ قَتْلَهُمْ**﴾ قتل الأولاد التي هي هنا البنات أفاد أنَّ الاسم الصادق بالمذكر والمؤنَّث كالإنسان والولد يذكر أصالة ولو أريد به المؤنَّث، ﴿**كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا**﴾ خطئ يخطأ خطئا بوزن علم يعلم علما، وهو الإثم. وقدَّم رزق الأولاد لأنَّ المخاطبين هنا الأغنياء وفي سورة الأنعام الفقراء فقدَّم رزقهم فيها، وللإشعار بأنَّ الأولاد هم الأصل في إفاضة الرزق، وفي سورة الأنعام ذكر ما يستدعي تقديم ذكر المخاطبين، ولأنَّ الباعث على القتل في سورة الأنعام نفس الإملاق الناجز كما قال فيها: ﴿مِنِ امْلَاقٍ﴾ [سورة الأنعام: 151] والباعث هنا خشية الإملاق كما قال: ﴿خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ فهو متوقَّع لا ناجز، فكأنَّه قيل: نرزقهم بلا نقص من رزقكم فلا تتوقَّعوا الإملاق فتقتلوهم، ومرَّ كلام في سورة الأنعام.

[فقه] ﴿**وَلَا تَقْرَبُواْ الزِّنَىٰ**﴾ بتمنِّيه أو تكييفه أو العزم عليه، أو التلويح إليه بكلام أو عين أو يد أو إشارة أو بنظر الشهوات أو المسِّ أو القبلة، فضلا عن أن تزنوا بالفرج والزنى كبيرة في ذلك كلِّه، ولو مع صخرة أو مع نفسه أو بهيمة.

[فقه] ولا تصحُّ توبة الزاني إلَّا باستحلال من زنى به، إلَّا إن زنى ببالغ أو بالغة، عاقل أو عاقلة راض أو راضية حُرٍّ أو حُرَّةٍ، إلَّا إن كان لها زوج فلا بدَّ من استحلاله أيضا، وإن كانت أمة فلا بدَّ من استحلال سيِّدها وزوجها إن تزوَّجت أيضا معا.

﴿**إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً**﴾ خصلة قبيحة قبحا ظاهرا ﴿**وَسَآءَ سَبِيلاً**﴾ بئس الزنى طريقا إلى هتك الحرم ولو برضا المرأة، وإلى قطع الأنساب بأن نسب للفراش إن كان لها زوج وهو في الحقيقة من ماء غيره وإلى تهييج الفتن من أولياء المرأة ولو رضيت ومنها أيضا إن قهرت.

[فقه] ﴿وَلَا تَقْتُلُواْ النَّفْسَ التِي حَرَّمَ اللهُ﴾ أي حرَّم الله قتلها ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ كقتل لردَّة ورجم لإحصان وقتل من وجدته في دار حرمك بالغا عاقلا غير مضطرٍّ غير مَحْرم لهنَّ مختفيا متَّهما بالزنى بلا معاهدة منهنَّ أو بالمعاهدة، وكقتل للقصاص من متعمِّد مكافئ، وكقتل للإشراك بلا ردَّة، وقتل الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا، وكقتل لترك الصلاة أو الزكاة إذ منعها، وقيل: تؤخذ منه قهرا بلا قتل، وغير ذلك مِمَّا يحلُّ به الدم، [قلت:] **وجمعت منه نحو ثلاثين مسألة**[1].

[نحو] و«بِالْحَقِّ» متعلِّق بـ«تَقْتُلُوا»، أي بسبب إلَّا سبب الحقِّ، أو لمحذوف جوازا حال من الواو، أو من «النَّفْس» أي متلبِّسين بالحقِّ أو ملتبسةً بالحقِّ، أو يقدَّر: قتلا مَّا إلَّا قتلا ملتبسا بالحقِّ.

﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا﴾ تسلُّطا أو قُوَّة فإن شاء قتل، وإن شاء أخذ الدية، وذلك في قتل العمد، لأنَّ قتل الخطإ لا يسمَّى ظلما، [قلت:] ودخل في الآية من أمرك أن تقتله، فإنَّك تُقتل به إذا كان ممَّن يُقتل قاتله، وإباحتُه لك قتلَه لا تبيحه وقد منعه الشرع، وإن قتله غير وليِّ الدم قُتل به إلَّا إن أمره وليُّ الدم أن يقتله ﴿فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ﴾ بأن يقتل بما يعذِّب القتل به، أو يقتل غير القاتل، وحدَه أو مع القاتل، أو يمثِّل بالقاتل، وكانوا في الجَاهِلِيَّة إذا قتل غيرُ الشريف شريفا تركوا القاتل وقتلوا شريف قومه.

[فقه] وأمَّا عدم تكافؤ الدمين فلا تشمله الآية لأنَّه لم يجعل الله سلطانا لوليِّ المقتول الذي لا يكافئ دم القاتل. ولا يُقتل الأب في ولده أو ولد ولده، وإن قال الساحر: قتلت فلانا بسحري قُتل به.

---

(1) انظر: شرحه للنيل، ج15، كتاب الدماء، ص185، فقد ذكر مجموعة من هذه المسائل.

﴿إِنَّهُ﴾ أي الوليُّ ﴿كَانَ مَنصُورًا﴾ بإثبـات الله له القتل، أو بإعانة الحكام له، ويجوز عود الهاء إلى «مَـن قُتِلَ» فإنَّه منصور في الدنيا باستحقاق قاتله القتل، وبدخـول الجنَّة ودرجاتها إن كان متَّقيـا لله عَجَلَّ، وبالثواب مطلقا ولو شقيًّا بنقص بعض العذاب، ومنصورا أيضا باستحقاقه دية ما مثَّل به القاتل، أو عذَّبه به، واستحقاق القاتل التعزير به أو النكال أو القصاص.

وقيل: ضمير «يُسْـرِف» للقاتل ابتداء، وفيه تفكيك الضمائر لأنَّ الإضمار في ﴿إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾ لغيره، ووجهه أنَّه من بدأ القتل فقد أسرف على نفسه بتعريضها لأن يقتصَّ منه.

﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ﴾ فضلا عن إتلافه بوجه مَّا، أو تضييع ﴿إِلَّا بِالتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي هي حسنة، أو حسن من غيرها، والخطاب للأولياء والقائمين بمال اليتيم بالإيصاء، أو بالعشيرة أو بالاحتساب، و«التِي هِيَ أَحْسَنُ» الفعلة النافعة جـدًّا من حفظ ماله وتنميتـه والتَّجْر به لليتيم، وإخـراج الحقوق منه كالزكاة، وإنفاقه منه بحسـب ما يصلح له وبحسـب ماله، وإلباسـه وإسكانه ومركبه، وصرفه منه لمعلِّمه، وكلِّ ما يحتاج إليـه، أي: إلَّا بالطريقة التي هي أحسن الطرق في شأنه، ومن خالف ذلك فقد فعل كبيرة.

﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ قوَّته، بإيناس الرشـد وصلاح بدنه للقيام بماله، ولا ينحصر ذلك في سنٍّ لكن بعد البلوغ، فقد يبلغ أشدَّه بأربع عشرة سنة، وبأقلَّ بعد البلوغ وبأكثر، وذكر بعض العلماء أنَّ أشـدَّه: بلوغ ثماني عشـرة سـنة، وذلك أشدُّ اليتيم، وأمَّا أشدُّ الرجل فقيل: ثلاثون سنة.

[فقه] وإذا بلغ أشـدَّه لم يجز لأحد أن يقرب ماله ولو بالتي هي أحسن إلَّا بإذنه، إلَّا إن كان يفسده فإنَّه يمنع منه، والمنع منه هو من التي هي أحسن.

[لغة] والأشدُّ مفرد كالآنك، أو جمع لا واحد له من لفظه، أو جمع شدَّةٍ كنعمة وأنعم، أو شِدٍّ بكسر شينهما، أو شَدٍّ بفتحها كضَرٍّ وأضُرٍّ.

﴿**وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ**﴾ عهد الله إليكم بالأوامر والنواهي، وما أَلْزَمْتُم أنفسكم لله من نفل، والعهدِ بينكم وبين الخلق، أو المراد: ما عاهدتم الله به من قبول ذلك والتزامه ﴿**إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً**﴾ مطلوبًا، يطلبه الله، أو الخلقُ مِمَّن عهده، أو عهد إليه، والمراد أنَّه ليس مغفولا عنه، فلا يضيع، أو يُسأل العهدُ بنفسه كذلك تبكيتا للمعاهد إن نكث، كما تُسأل الموؤودة لا أبوها تبكيتا له، كما قال ﷻ: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾ [سورة التكوير: 8 ـ 9]، أو ذلك من باب الحذف والإيصال، والأصل: مسؤولا عنه، فالمسؤول المعاهِد، أو يقدَّر مضاف كذلك، أي إنَّ صاحب العهد كان مسؤولا، أو العهد بمعنى العاهد أي المعاهد.

[قلت:] ولا نسلِّم أنَّ العهد مشبَّه بالناكث فإنَّه لا وجه شبه بينهما، فضلا عن أن يقال: شبَّه العهد بمن نكث وسئل عن نكث عهده، فاستعمل عبارة المشبَّه به في المشبَّه على الاستعارة التمثيلية، وفضلا عن أن يقال: شبَّه العهد بمن نكث عهدا تشبيها مضمرا مرموزا إليه بنسبة السؤال إليه تخييلا على الاستعارة المكنية والتخييل.

﴿**وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ**﴾ إذا أردتم الكيل فكيلوا بلا نقص في البيع والشراء وسائر قضاء الحقوق مِمَّا يكال، والأمر للوجوب، ولو أريد الزيادة من البائع أو نحوه لم تقدَّر الإرادة، وكانَ الأمر للندب. والخطاب للبائعين ومن عليهم الحقوق في الكيل.

[فقه] وعليهم الكيل، وإن كال غيرهم فعليهم أجرة الكيَّال لا على المشتري مثلا، وإن أذن البائع للمشتري أن يكيل ورضي المشتري جاز ولا أجرة له إلَّا إن شرطها، ولكن لا يناسبه الأمر بالإيفاء إلَّا من جهة أنَّ البائع يأمره بالإيفاء، أو لا يعطِّله عنه، أو على معنى اقتصر أيُّها المشتري على الإيفاء لا تجاوزه إلى الزيادة، وأنت خبير بأنَّ الآية لا تحمل على المعنيين

معا على الصحيح، فليقتصر على الأوَّل وهو كيل البائع، وكذلك أجرة النقَّاد على من يعطي الثمن وهو المشتري، وإن احتاج المبيع إلى النقد فأجرة النقَّاد على البائع، والضابط أن من عليه الفعل فعليه أجرة فاعله.

﴿**وَزِنُواْ بِالْقُسْطَاسِ**﴾ الميزان الصغير والكبير، بلغة الروم عرِّب، وكان العرب ينطقون به فلم يخرج به القرآن عن أن يكون عربيًّا، فهو من كلام العرب، إذ كانوا ينطقون به حكاية، ولا سيما أنَّه قد عرِّب أي أصلح.

[قلت:] فلا حاجة إلى تأويل ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [سورة يوسف: 2] بأنَّ المراد: الغالب، أو إنَّه عربيُّ الأسلوب، وفي اللباب: إنَّه عربي في الأصل، وإنَّه هو الأصحُّ.

[لغة] وقيل: القسطاس القبَّان، وهو القَرَسْطون بلغة الشام، وعن قتادة: العدل، من القسط بمعنى العدل فهو عربيٌّ مكرَّر اللام، وزنه فعلال لا العين بوزن فعلاع، ويضعف أنَّه مركَّب من «قسط» أي عدل و«طاس» أي كفَّة، حذفت إحدى الطاءين. ﴿**الْمُسْتَقِيمِ**﴾ السويِّ.

﴿**ذَالِكَ**﴾ أي: المذكور، من إيفاء العهد، والكيل والوزن بالقسطاس المستقيم، ﴿**خَيْرٌ**﴾ منفعة لكم دنيا وأخرى، بالنجاة من العذاب، والفوز بأداء الواجب، وثواب ما زاد إن زاد، وفي خلافه مَضَرَّة فيهما عكس ما ذكر، أو أفضل لكم من عدمه، إذ تتوهَّمون أنَّ في نقض العهد والتطفيف خيرًا، وهو ما يبقى لكم من مثمَّن أو ثمن وما يعطى المعهود.

﴿**وَأَحْسَنُ تَاوِيلاً**﴾ حسن رجعا وفي خلافه قُبْحٌ، وخير الإيفاء النجاة من عذاب التطفيف، والفوز بثواب الإيفاء لقاصده، وإقبال الناس عليه بالمعاملة والمدح. والتأويل: تفعيل من آل يؤول بمعنى رجع، كأنَّه قيل: وأحسن عاقبة، وهو خارج عن التفضيل، وليس التأويل بمعنى التفسير. أو العاقبة خارجاً عن ذلك، بل مبنيٌّ عليه.

﴿وَلَا تَقْفُ﴾ يا من يصلح للخطاب ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ لا تتَّبع ما ليس لك علم به، من فعل أو قول أو اعتقاد، تقليدا أو ظَنًّا أو بهتا، لا تشرك نوع إشراك ما، ولا تشهد بالزور، ولا تقذف ولا تكذب، وهكذا على العموم.

لا تقل: رأيت ولم تر، أو سمعت ولم تسمع، وعلمت ولم تعلم، ولا ترم أحدا بما لم توقن أنَّه فيه، ولا تحكم عليه بما ظننت، ولا بتجسُّس، **لا تبن حكما أو معاملة على شيء من ذلك.**

[فقه] فخرج الظنُّ فإنَّه جائز بلا عمل به، كما قال ﷺ: «**إذا ظننت فلا تحقِّق**»(1) ويُظنُّ الخير في عامل الخير والشرُّ في عامل الشرِّ، إلَّا الزنى أو الإشراك فلا يجوز ظنُّهما في عامل الشرِّ إلَّا لمن رأى أمارتهما.

[أصول الفقه] وأباحت الآية حكم المجتهد بالقياس أو نحوه، لأنَّ ما أداه إليه اجتهاده عِلمٌ ولو كان ظنِّيًّا، لأنَّ العلم في الأمور الشرعيَّات ـ ودخل فيها الحكم بين الناس وسائر التحليل والتحريم ـ ليس بمعنى اليقين، ألا ترى أنَّ المجتهد يخطئ ويصيب ولا يعاقب على خطئه؟ ألا ترى أنَّا نحكم بشهادة الأمناء وشهادة من يدَّعي الإسلام ولم نر فيه كبيرة؟ وبشهادة العَامَّة بدون أن نراها فيهم، وذلك كلُّه ظنٌّ لا يقين، ألا ترى قوله تعالى: ﴿فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ [سورة الممتحنة: 10] وكفى بالاختبار والله أعلم بإيمانهنَّ؟

وإنَّ الله ردَّ الأمر إلى الظاهر، حتَّى سمِّي من لم يأت بشهادة الزنى كاذبا ولو كان صادقا عند الله، ولو شهدوا بزور ولم نعلم بهم حكمنا بهم، ومن ذلك حِلُّ ذبائح والنكاح ونحو ذلك مِمَّا يشترط فيه التوحيد مع أنَّا لا ندري ما الباطن.

[أصول الفقه] وكثر اجتهاد الصحابة وقياسهم، وأمر ﷺ معاذ بن جبل رضي الله عنه أن يعمل باجتهاده وقياسه فيما لم يحفظ فيه عنه شيئا حين أرسله

(1) تقدَّم تخريجه، انظر: ج 7، ص 78.

إلى اليمن، قال ابن عَبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «لا تشهد إلَّا بما رأته عينك وسمعته أذنك ووعاه قلبك» **وليس في ذلك شيء من اليقين**، قال ﷺ: «**من قفا مؤمنا بما ليس فيه حبسه الله في ردَغة الخبال حتَّى يأتي بالمخرج**»(1) بفتح الدال وسكونها وبالغين المعجمة، وهو عصارة أهل النار، والمخرج أن يرجع عمَّا قال قبل موته، وإن أراد الآخرة فالمعنى أنَّه لا مخرج له، والمراد بما ليس فيه بحسب الظاهر، ولو كان فيه عند الله.

﴿**انَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً**﴾ كلٌّ من الثلاثة مسؤول عن نفسه، فالإشارة والهاء والمستتر في «كَانَ» و«مَسْئُولاً» لـ «السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ».

يسأل الله هذه الأعضاء عمَّا فعل بها صاحبها ولو كانت لا تجيب، توبيخا لصاحبها، أو يخلق الله فيهنَّ عقلا ونطقا وتجيب، قال الله ﷻ: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ...﴾ [سورة يس: 65].

[نحو] أو يقدَّر مضاف، أي إنَّ صاحب السمع... إلخ وضمير «كَانَ» لصاحب، أو يقدر مضاف في «كَانَ» لا في السمع، أي كان صاحبه، أي كان صاحب كلِّ أولئك. وهاء «عَنْهُ» لكلٍّ، وضمير «مَسْئُولاً» لصاحب، [يُسألُ:] لم سمعت ما لا يحلُّ سماعه؟ ولم أبصرت ما لا يصلح إبصاره؟ ولم عزمت بفؤادك على ما لا يحلُّ العزم عليه؟ [قلت:] ويكتب على هذه الأمَّة العزم على المعصية لا أنَّها عملتها إذا لم تعملها.

[نحو] ويجوز عود ضمير «كَانَ» للقَفْوِ المعلوم من قوله: ﴿لَا تَقْفُ﴾، ويجوز أن يكون «عَنْهُ» نائب فاعل «مَسْئُولاً» وقدِّم، ولو كان نائب الفاعل لا

(1) رواه **أبو داود** في كتاب الأقضية، باب فيمن يعين على خصومة من غير أن يعلم أمرها رقم 3597، بلفظ: «قال» عوض «قفا» في حديث طويل أوَّله قوله ﷺ: «من حالت شفاعته...». من حديث ابن عمر.

يقدَّم لشبهه بالفضلة، لأنه جارٌّ ومجرورٌ لا يلتبس بالمبتدأ إذا تقدَّم، كما حذف الفاعلُ في «أبصِرْ» من قوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ [سورة مريم: 38] أي: أَبصِرْ بهم، لشبهه بالفضلة، على أنَّ مدخول الباء في أَفْعِل به من باب التعجب هو الفاعل، والفاعل لا يحذف، والمسؤول عنه في هذا الوجه صاحب الجوارح. ونقل أبو جعفر النحاس الإجماع على أنَّه لا يجوز تقديم نائب الفاعل ولو كان جارًّا ومجرورا، قال بعض: لا نسلِّم الإجماع، وفي شرح ألفية ابن معطي[1] جواز تقديم النائب إذا كان جارًّا ومجرورا مستدلًّا بهذه الآية. ومن خصَّ هؤلاء بالعقلاء جعله في الآية استعارة للأعضاء تشبيها لهنَّ بهم.

﴿وَلَا تَمْشِ﴾ يا من يصلح لهذا الخطاب ﴿فِي الَارْضِ مَرَحًا﴾ يؤوَّل بـ«مرِحاً» بكسر الراء، أو بذا مَرَح، أو مَشْيَ مرَح، أو يضمنَّ «تَمْشِ» معنى تمرح. والمرح: شدَّة الفرح المتوصَّل به إلى الكبرياء والخيلاء، أو هو الخيلاء في المشي.

﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الَارْضَ﴾ تثقبها بمرحك حتَّى تبلغ آخرها، ولا خرقا دون ذلك ﴿وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾ تمييز عن الفاعل كأنَّه قيل: لن يبلغ طولك الجبال أي طول الجبال، فأنت أيُّها المختال أحقر من الجمادين الأرض والجبل، فكيف تتكبَّر؟ **ولا خير في التكبُّر والخير في التذلُّل لله** ﷻ ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَآءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالَارْضِ﴾ [سورة الجاثية: 37]. ﴿كُلُّ ذَلِكَ﴾ أي الخصال الخمس والعشرون، الأولى: لا تجعل، والثانية والثالثة: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ﴾ لأنَّه أمر بعبادة الله ونهى عن عبادة غيره، وبالوالدين، فلا تقل، ولا تنهرهما، وقل لهما، واخفض، وقل ربِّ، و[آت] ذا القربى، والمسكين، وابن السبيل، ولا تبذِّر، فقل لهم، ولا تجعل يدك، ولا تبسطها، ولا تقتلوا أولادكم،

(1) ابن معطي يحيى بن عبد المعطي بن عبد النور الزواوي من قبيلة زواوة (بظاهر بجاية بالجزائر) عالم بِالعَرَبيَّة، له تآليف كثيرة سكن دمشق زمانا، ثمَّ انتقل إلى مصر، ودرَّس بالجامع العتيق بالقاهرة، وتوفي فيها سنة 628. الأعلام للزركلي، ج 2، ص 155.

ولا تقربوا الزنى، ولا تقتلوا النفس، فلا يسرف، وأَوفوا، وأَوفوا، وزنوا ولا تقف، ولا تمش، وهنَّ مكتوبات في ألواح موسى عليه السلام.

وليس ذلك كلُّه سيِّئة فكيف قال الله: ﴿**كَانَ سَيِّئَةً**﴾؟ الجواب: اعتبار ترك ما أمر به فإنَّه سيِّئة، وأخبر بالمؤنَّث عن المذكر لأنَّ معناه ذنب، فأصله صفة مشبَّهة لكن تغلَّبت عليه الِاسمِيَّة، أو يقدر محذوف، أي: وكان حسنا، باعتبار ما أمر به، أو الإشارة إلى ما نهي عنه خَاصَّةً، وهو اثنتا عشرة، وتأنيث السيِّئة باعتبار الخصلة أو الفعلة ﴿**عِندَ رَبِّكَ**﴾ متعلِّق بـ«كَانَ». أو نعت «سَيِّئَةً»، أو متعلق بقوله: ﴿**مَكْرُوهًا**﴾ خبر ثان لـ«كَانَ» ولا داعي إلى جعله نعتا لـ«سَيِّئَةً» وأنَّها مؤوَّلة بالذنب وهو مذكَّر كما مرَّ، ولا إلى جعله بدلا بمعنى أمرا مكروها، أو باعتباره لأنَّه لا يشترط مطابقة البدل، ومعناه: مبغَض، وذلك كراهة تحريم.

[أصول الدين] فتلك أشياء أبغضها الله وخلقها وأرادها ولا مُكرِه له، وبغض الشيء أو قبحه لا ينافي إرادته، فبطل قول المعتزلة: إنَّه لو كانت مخلوقة له لكان مريدا لها والمكروه لا يراد، زاعمين أنَّ الإرادة بمعنى الرضا وهو ضدُّ الكراهة وذلك خطأ منهم، فإنَّ الإرادة ليست عين الرضا ولا مستلزمة له.

﴿**ذَٰلِكَ**﴾ ما ذكر من الخمس والعشرين، وعن ابن عَبَّاس رضي الله عنه: ثماني عشرة آية من ﴿لَا تَجْعَلْ﴾ إلى ﴿مَدْحُورًا﴾ عشر آيات في التوراة، وعنه رضي الله عنه: التوراة كلُّها في خمس عشرة آية من هذه السورة، ثمَّ تلا ﴿وَلَا تَجْعَلْ﴾. ﴿**مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ**﴾ هي معرفة الحقِّ سبحانه لذاته، ومنها التوحيد ومعرفة الخير للعمل به، ومنه باقي التكاليف التي لا تنسخ، والأمر بالقسمين موعظة، وقد فسِّرت الحكمة بالموعظة، و«مِنَ الْحِكْمَةِ» حال من «مَا» أو من هاء المحذوفة أو بدل من «ما».

﴿**وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهًا ـ اخَرَ**﴾ ذكره أوَّلا ورتَّب عليه ما هو غاية الشــرك في الدنيا وهو الذمُّ والخذلان، [قلت:] والتوحيــد مبدأ الأمر ومنتهاه، ورأس الحكمة، فإنَّه لا عبــرة بعمل من لا قصد له، أو قصد بــه غير الله ﷻ، أو مع الله، وذكره ثانيا ورتَّب عليه ما هو غاية في الآخرة كما قال: ﴿**فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا**﴾ تلومك الملائكة وتلوم نفســك، قــال الله ﷻ: ﴿وَلَآ أُقْسِــمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [سورة القيامة: 02] ﴿**مَدْحُورًا**﴾ مبعدا عن رحمة الله ﷻ.

﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿40﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿41﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿42﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿43﴾ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿44﴾﴾

تقريع من نسب الولد والشريك إلى الله تعالى

ومن الإشراك وصف الله بالولادة ولا سيما أخس الأولاد [عندهم] وهو الإناث، كما قال:

﴿**افَأَصْفَاكُمْ**﴾ أي أفضّلكم على نفسه فأصفاكم؟ ﴿**رَبُّكُم بِالْبَنِينَ**﴾ اختاركم على نفسه بالبنين أولادا لكم خاصّة، والإصفاء بالشيء جعله خالصا لشيء ﴿**وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَآئِكَةِ إِنَاثًا**﴾ بنات له، وهنَّ نواقص تدفنونهنَّ، سبحانه، هذا مِمَّا تنكره عقولكم، فكيف كابرتموها!.

القائلون: الملائكة بنات الله هم خزاعة وبعض النصارى، يجعلون لله ما يكرهون، وذلك من تلوين الخطاب من مخاطب إلى مخاطب، والاستفهام التوبيخي منسحب على «أَصْفَاكُمْ» وعلى «اتَّخَذَ» المعطوف على «أَصْفَاكُمْ».

[نحو] و«اتَّخَذَ» متعدٍّ لواحد، و«مِنْ» متعلّق به، أو حال من «إِنَاثًا»، أو متعدٍّ لاثنين ثانيهما «مِنَ الْمَلَآئِكَةِ»، أو «بنات» محذوف و«مِنَ الْمَلآئِكَةِ» حال من «إِنَاثًا»، و«مِنْ» على كلِّ حال للبيان لا للتبعيض، لأنهم يقولون الملائكة بنات

الله لا بعض الملائكة. واختار إناثا على بنات لأنَّـه أصرح في الأنوثة التي هي أخصُّ صفات الحيوان، قال الله ﷻ: ﴿وَجَعَلُواْ الْمَلَآئِكَةَ الذِينَ هُمْ عِندَ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا﴾ [سورة الزخرف: 19] كفروا بنسبة الولادة لله وكفروا باعتقاد أنَّ الملائكة إناث.

﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمًا﴾ لأنَّ الولادة توجب التجسيم لله، والجسم ناقص فإنَّه حادث عاجز، وما يلد يفنى، وتفضيل أنفسهم بالبنين على الله وإثبات الولادة نفي للأُلوهِيَّة.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْءَانِ﴾ كرَّرنا بوجوه مختلفة وإيضاح في مواضع من القرآن، والمفعول محذوف، والتقدير: صرفنا نفي ولادة البنات كغيرهنَّ عَنَّا، و﴿هَذَا الْقُرْءَانِ﴾: كتاب الله الذي أنزل عليه ﷺ، ويجوز أن يراد بالقرآن المعنى المقروء في قوله ﷻ: ﴿افَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم...﴾، والمفعول محذوف أي ولقد صرَّفنا الكلام في هذا المعنى المقروء، وهو نفي الولادة.

ولا بدَّ أيضا من التلويح إلى معنى المقروء، في تفسير القرآن بالكتاب كلِّه لأنَّ اسم الإشارة لا ينعت بِعَلَمٍ، فإن لم يؤوَّل فالقرآن بدل، لأنَّه عَلَم على هذا الكتاب، وأمَّا ﴿فَذَٰلِكُمُ اللهُ﴾ [سورة يونس: 32] فـ«الله» خبر أوَّل لا نعت إلَّا بتأويل المعبود، ويجوز أن يكون المعنى على العموم، أي ولقد كرَّرنا في هذا الكتاب ما أردنا تكريره من نفي الولادة ونفي الشركة وغير ذلك، ليفهم ويرسخ في القلوب كما قال:

﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾ لِيَتَذَكَّروا، أي يتأمَّلوا ويتفكَّروا حتَّى يدركوا انتفاء الولادة عنه سبحانه ﴿وَمَا يَزِيدُهُمُۥ﴾ أي القرآن أو التصريف ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ عن الإدراك والحقِّ، وهو انتفاء الولادة عنه أو غيرها أيضا مِمَّا لا يجوز.

﴿قُل﴾ للمشركين ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُ﴾ أي مع ربِّكم في استحقاق العبادة ﴿ءَالِهَةٌ كَمَا تَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَواْ﴾ أي الآلهة، ذكرها بالواو لأنَّها عندهم كالذكور العقلاء، ولو سمُّوا بعضا باسم الإناث كاللات والعزَّى ومناة، والمعنى: لطلبوا وتكلَّفوا

﴿**اِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ**﴾ الملك، أو ذي الجسم العظيم المسمَّى بالعرش، متعلِّق بـ«ابْتَغَوْا» لتضمُّنه معنى التوجُّه والقصد، أو متعلِّق بحال محذوفة جوازا من قوله: ﴿**سَبِيلاً**﴾ أصلها نعت، أي سبيلا موصلة إلى ذي العرش، وذلك بطريق المغالبة، كما تفعل الملوك بعض مع بعض، وذلك من برهان التمانع كقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ...﴾ [سورة الأنبياء: 22] والملازمة قطعيَّة لا عادية، و«لَوْ» امتناعيَّة، والقياس استثنائي، استثنى فيه نقيض التالي لينتج نقيض المقدَّم المطلوب، أو بطريق الإذعان إلى الله وعجزهم عنه، كقوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ [سورة الإسراء: 57] كعيسى وعزير والملائكة وهذا مناقض للألوهِيَّة، لأنَّ المستكمل محتاج فلا يكون إلها.

[منطق] والقياس اقترانيٌّ مركَّب من مقدِّمة شرطيَّة اتفاقيَّة وحمليَّة هكذا: لو كان معه آلهة لتقرَّبوا إليه تعالى، وكلُّ من يتقرَّب إلى غيره ليس إلها، فليسوا بآلهة، فلو شرطيَّة لا امتناعيَّة.

والأوَّل أولى لقوله: ﴿**سُبْحَانَهُ**﴾ لأنَّه تنزيه عن محذور يرتكبونه، وأمَّا التقرُّب فلا يختصُّ بهذا التقدير، وليس باللزوم بل اعتقدوه البتَّة، والعامل هنا ماض أي تنزَّه عن ذلك بدليل قوله: ﴿**وَتَعَالَى**﴾ بَعُدَ بُعْدًا عظيما عمَّا يقولون، كما قال: ﴿**عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا**﴾ ناب عن تعاليًا ﴿**كَبِيرًا**﴾ لأنَّه واجب الوجود والبقاء، مالك الملك كلِّه، واتِّخاذ الولد احتياج وموجب للفناء، وكلُّ ما يلد يفنى، والفناء موجب لحدوث سابق متقدِّم عنه العدم.

﴿**يُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ**﴾ [قيل:] تقول السماء الأولى التي تلينا: «سبحان ربِّي الأعلى»، والثانية: «سبحانه وتعالى» والثالثة: «سبحانه وبحمده» والرابعة: «لا حول ولا قُوَّة إلَّا به» والخامسة: «سبحان محيي الموتى وهو على كلِّ شيء قدير» والسادسة: «سبحان الملك القدوس»، والسابعة: «سبحان الذي ملأ السماوات السبع والأرضين السبع عزَّة ووقارا».

﴿وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ الحيوانات ومنها الملائكة والإنس والجنُّ والجمادات كالمياه والشجر، فمن هؤلاء من يسبِّح بلسان حقيق، كالثقلين والملائكة، قيل: وكلُّ ما له لسان، ومن هؤلاء من يسبِّح بلسان الحال وهو ما لا لسان له.

ونفس الأجسام مطلقا كأجسام الملائكة والثقلين ولو الكُفَّار منهما، وفي ذلك جمع بين الحقيقة والمجاز، بخلاف ما إذا قلنا: معنى التسبيح دلالة ما سوى الله على تنزُّهه عن صفات الخلق، إذ دلَّت بجوازها على وجوب وجود الله ﷻ وقدمه، فيسبِّح بمعنى: يدلُّ على انتفاء صفات الخلق عن الله ﷻ، كاتِّخاذ الولد والشركة في الملك.

أو ذلك من عموم المجاز وهو أن يراد مطلق الدلالة فتشمل دلالة اللسان وغيرها، أو المراد بالتسبيح دلالة غير اللسان، والاستعارة تبعيَّة مفردة، ويجوز أن تكون مركَّبة تمثيليَّة، بأن شبَّه الدلالة على وجوب وجود الله وتنزُّهه عن صفات النقص بالدلالة على ذلك بالنطق.

﴿وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ أيُّها الناس مطلقا، إلَّا بإخبار الله وتنبيهه على أنَّ وجودها مذعنة دلالة، وتستعملون عقولكم فتدركون، وهذا على الوجه الأخير من أنَّ التسبيح دلالة، أو لا تفقهون أيُّها المشركون لإغفالكم النظر، وهو أنسب بقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ...﴾ [سورة الإسراء: 39] فإنَّه مسوق لردِّهم ونهيهم، وقد يقال: لو كان المراد مطلق الدلالة لفهمها كلُّ عاقل، وفيه أنَّ الأكثر لا يستعملون عقولهم.

وعلى التسبيح الحقيق نقول: إذا أراد الله إسماع الخلق سمعوا ونطقت الأشياء، كما سمعوا تسبيح الحصا في يد رسول الله ﷺ وفي يد غيره، ولعلَّ الجمادات لا نطق لها في أصل خلقتها، وإذا أراد الله أنطق بعضها.

[سيرة] وعن أنس أنَّــه حضر ثريد عنــده ﷺ، فقال: «**إنَّه يســبِّح وأفقه تسبيحه**»، وأدناه لآخر فسمع تسبيحه وأدناه لآخر فسمعه، فقال: «**ردُّوه**»، فقال رجل: يا رسول الله لو مرَّ عليهم جميعا، قال: «**لو سكت عند رجل لقلتم أذنب الرجل**»، وأتي بماء قليل فوضع يده فيه ففار فتطهَّروا وشــربوا، وهم يسمعون تســبيحه في الإناء وأفواههم، وقــال ﷺ: «**لا تجعلوا ظهور دوابِّكم كراســي لِتَحدُّثكم في الطرق والأسواق، فربَّ مركوبة خير من راكبها وأكثر ذكرا**».

وقالت ضفدع بحضرة داود عليه السلام: «ســبحانك وبحمــدك منتهى علمك يا رَبِّ» فقال لملك نزل: «والذي جعلني نبيئا لم أمدح الله بهذا».

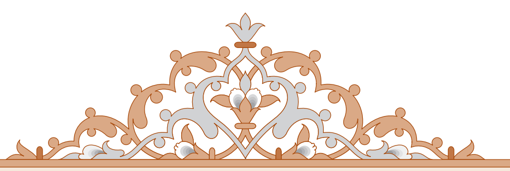
وصلَّى عند البحــر فخرجت ضفدع فقالت: إنِّي في ســبعين ألف ضفدع قائمة على رجل تسبِّح الله وتقدِّســه، وعنه ﷺ: «**إنَّ الطير إذا أصبحت سبَّحت الله وسألته رزق يومها**»[1]، وفي الحديث: «**ما قُطعت ورقةٌ أو بعضٌ من شجرة، أو صِيدَ صيد، أو أصابــه ضرب إلَّا حين لم يســبِّح**»[2]، ويــروى: «إلَّا بقلَّة التسبيح»، وجاء الأثر: إنَّ الشيء يســبِّح ما دام على أصله، فإذا قطعت الورقة أو الثمرة أو ســقطت أو أخذت الخرزة أو ابتلَّ التراب أو اتَّســخ الثوب ترك التســبيح، وزعم بعض أنَّ الكلب والحمار لا يسبِّحان، وجاء أنَّ كلَّ شيء من الجماد والحيوان والمياه يسبِّح بنطق، وإذا شاء الله أسْمَعَناه.

﴿**إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا**﴾ كأنَّه قيل: لِمَ لم يعجِّل العقاب لهؤلاء الكُفَّار مع قولهم ذلك؟ فقال: لأنَّه كان من شــأنه أن لا يعجِّل بالعقاب، فحلم عنهم ﴿**غَفُورًا**﴾ لمن تاب منهم ومن غيرهم، والخطاب لهم كما رأيت جواب ســؤال، وذلك قول الجمهور لأنَّ مــا قبله لهؤلاء، وقيــل: الخطاب للمؤمنيــن لذكر الحلم والغفران، وفيه أنَّهما غير ممنوعين عن الكُفَّار، والغفران مشروط بالتوبة.

---

(1) أورده **السيوطي** في الدر: ج 4، ص 205 من حديث علي.

(2) أورده **السيوطي** في الدر: ج 4، ص 203 من طريق الزهري. وقال: أخرجه ابن راهويه في مسنده.



﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿45﴾ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْءَانِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿46﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿47﴾ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿48﴾﴾

حماية النبيء ﷺ من أذى المشركين إذا قرأ القرآن

﴿**وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الذِينَ لَا يُومِنُونَ بِالَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا**﴾ أي جعلنا بين قراءتك وبينهم مانعا عن أن يفهموها فهمَ تدبُّر، أو بين فهم قراءتك، لا بين سماع قراءتك ولا بين رؤيتك، لأنَّهم يسمعونه ويرونه.

[صرف] و﴿مَسْتُورًا﴾: بمعنى ذا ستر، أو ساترا، كمكان مهول أي هائل، أو ذا هول، وجارية مغنوجة أي غنجة أو ذات غنج، ورجل مرطوب أي رطب أو ذو رطوبة، و﴿كَانَ وَعْدُهُ مَاتِيًّا﴾ [سورة مريم: 61] أصله مأْتويًا بوزن مفعول، قلبت الواو ياء وأدغمت وكسر ما قبله، أي آتيا أو ذا إتيان، والأولى إبقاؤه على المفعوليَّة، أي يأتيه الخلق ويلقونه، وسَيْلٌ مفعَم بفتح العين أي مالئ أو ذو إفعام، وميمون ومشئوم بمعنى يَامِن وشائم، أو ذو يمن وشؤم.

ويجوز إبقاء «مَسْتُورًا» على ظاهره بمعنى أنَّه حجاب معقول، غير حسِّي لا يرى، ومن لازم المستور ومسبّبه أن لا يرى، [قلت:] ولا يحسن تفسير الآية بحجب جبريل له ﷺ حين جاءت أمُّ جميل بحجر تضربه ﷺ بجناحيه حتَّى

ذهبت، لأنَّ مثل هذا ولو تعدَّد قليل، والمطَّرد ما فسَّرنا به الآية، ولا يَصِحُّ ما قيل: إنَّه يقرأ قوله تعالى في الكهف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً اَنْ يَّفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [سورة الكهف: 57] و﴿أُوْلَئِكَ الذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [سورة النحل: 108] في النحل، ﴿أَفَرَآيْتَ مَنِ اتَّخَذَ...﴾ [سورة الجاثية: 23] في الجاثية كلَّما أراد قراءة القرآن عليهم فلا يروه، فإنَّ الحقَّ أنَّهم يرونه ويجادلونه.

أو المراد وصفهم **بالجهل المركَّب** بمعنى أنَّهم منعوا بحجاب عن الفهم، وبحجاب آخر عن فهم كونهم لا يفهمون الدلالات المنصوبة، في الآفاق وفي أنفسهم، فهم مطبوعون على الغواية.

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أغطية تمنعهم عن فهم ما يسمعون **﴿اَنْ يَّفْقَهُوهُ﴾** لئلَّا يفقهوه، أو كراهة أن يفقهوه، أو متعلِّق بـ«أَكِنَّةً»، أي أغطية عن أن يفقهوه، وتغطية الشيء منع له، وهذا يكفي عن تقدير: منعناهم أن يفقهوه **﴿وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾** ثِقلَ سمع أو صمما، يمنعهم عن استماع لفظ القرآن، والمراد أنَّهم لا يسمعون ألفاظه في الجملة فضلا عن إدراك معانيها، وإن سمعوه فكأنَّهم لم يسمعوه فكأنَّهم صمٌّ. ويجوز أن يكون هذا الكلام استعارة تبعيَّة.

﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْءَانِ﴾ في هذا الكتاب المنزَّل أو في قراءتك **﴿وَحْدَهُ﴾** لم تذكر أصنامهم التي يعبدونها.

[صرف] قال سيبويه: «وَحْدَهُ» اسم وضع موضع المصدر الموضوع موضع الوصف الذي هو حال، فـ«وَحْدَهُ» وضع موضع اتِّحاد، واتِّحاد وضع موضع متَّحد، أراد أنَّه في الأصل اسم مصدر خماسي، وعبارة بعض عنه أنَّه في الأصل: إيحاد، مصدر: أوحد الرباعي بالهمزة، ومعناه الآن موحَّدا بفتح الحاء اسم مفعول، والمشهور أنَّه مصدر: وَحَدَ يَحِدُ كوَعَدَ يَعِدُ، استعمل بمعنى منفرد فهو حال ولو أضيف لمضمر.

﴿وَلَّوْا﴾ عنك أو عن القرآن ﴿عَلَىٰٓ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ حال مؤكِّدة على أنَّه جمع نافر كقعود جمع قاعد، وشهود جمع شاهد، أو مفرد مفعول مطلق لـ«وَلَّوْا» كأنَّه قيل: نفروا نفورا، أو ولَّوا تولية. والعلَّة محذوفة، أي: لكراهتهم مجلس الذكر، أو مفعول من أجله، أي: ولَّوا لنفورهم، أي: كراهتهم الذكر لِمَا فيه من التوحيد، فهم إذا سمعوا من القرآن ما ليس فيه ذكر الله تحيَّروا، ولم يتعلَّقوا بشيء، وإذا سمعوا ذكر الله وحده دون أصنامهم أو مع ذمِّ الشرك هربوا، وأكَّد الله هروبهم بذكر الأدبار وذكر النفور.

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ يوجِّهون سمعهم بسببه أو لأجله إليك، وهو الهزؤ بك وبالقرآن.

[نحو] واسم التفضيل يوصل بالباء في العلم والجهل، وباللام في غيرهما، نحو زيد أطعم وأكسى للفقراء، وبغيرها نحو زيد أمَرُّ بعمرو. وكان ﷺ يقوم عن يمينه رجلان وعن يساره رجلان من عبد الدار يصفِّقون ويخلطون عليه بالأشعار إذا قرأ القرآن ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ لا يتعلَّق بـ«أَعْلَمُ» لمنع العاطف من ذلك، ولا بـ«يَسْتَمِعُونَ» لفساد المعنى، بل بـ«أعلم» محذوفا أو يعطف على محذوف تقديره: نحن أعلم بما يستمعون به إليك حال استماعهم وإذ هم نجوى، أي وحال إذ هم نجوى، ففي هذا الوجه يتعلَّق بـ«أَعْلَمُ» بتوسُّط العطف، أو ذلك عطف على المعنى كعطف التوهُّم، لأَنَّ ﴿يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ في معنى إذ هم مستمعون إليك.

[صرف] و«نَجْوَى» جمع نجيٍّ، كمريض ومرضى، أو مصدر على معنى: يتناجون نجوى، أو ذوو نجوى، واستعماله مصدرا أكثر، كقوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ النَّجْوَىٰ﴾ [سورة طه: 62 وسورة الأنبياء: 3] وهو كلام أحد إلى آخرَ سرًّا.

﴿إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَّسْحُورًا﴾ أزيل عقله، كقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِ جِنَّةٌ﴾ [سورة المؤمنون: 25] هذا تفسير لِمَا يتناجون

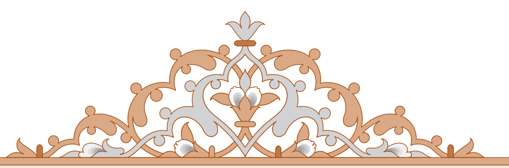
به، أي يقولون في تناجيهم: إن تتَّبعون إلَّا رجلا مسحورا إن اتَّبَعتموه، أو يتناجون مع مَن ضعُف إيمانه أو مع من صحَّ إيمانه، ولا يؤثِّرون فيه.

أو ﴿مَسْحُورًا﴾ بمعنى ساحر، كمستور بمعنى ساتر، أو ﴿مَسْحُورًا﴾ بمعنى مجعول له السحر أي الرئة، ومنها التنفُّس والعمل في الطعام والشراب، وكأنَّه قيل: إلَّا رجلا يتنفَّس ويأكل ويشرب مثلكم، كقوله تعالى: ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَاكُلُ الطَّعَامَ﴾ [سورة الفرقان: 7] فهو وصف من اسم العين كمركوب بمعنى مضروب الركبة، ومعين بمعنى مصاب بالعين.

والسَّحر بمعنى الرئة مفتوح السين ومكسوره ومضمومه ومسكن الحاء ومفتوحها. و«إِذْ» بدل من «إِذْ»، قيل: أو منصوب بـ«اذكُر». و«الظَّالِمُونَ» في موضع المضمر، والأصل: إذ يقولون، وذكرهم باسم الظلم تلويحا بأنَّ سبب تناجيهم ظلمهم وأنَّ تناجيهم ظلم.

﴿**انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ**﴾ فيما تقول من الوحي ﴿**الاَمْثَالَ**﴾ جمع مثل بفتحتين بمعنى شبه، أو بكسر فيكون مثَّلوه بالشاعر والكاهن والساحر والمجنون، تارة يشبِّهونه بكذا وتارة بكذا وبعضٌ يشبِّهه بكذا أو بعضٌ بكذا، وعلى كلٍّ أرادوا التشبيه لا التحقيق ولو بالغ بعض حتَّى أوهم التحقيق، ألا ترى أنَّ الشاعر لا يكون مجنونا ولا ساحرا ولا من شأن الكاهن أن يكون شاعرا بل مسجعا.

﴿**فَضَلُّواْ**﴾ عن الحقِّ في شأن الرسول ووصفه بغير صفته ﴿**فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً**﴾ طريقا يوصل إلى صحَّة ما قالوا في وصفه ﷺ، فهم يخبطون خبط عشواء ويتساقطون في الباطل تساقط الفراش في النار، أو طريقا يوصل إلى قبول الناس قولهم، أو طريقا إلى الحقِّ.



﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ٤٩ ۞قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ٥٠ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ٥١ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا ٥٢﴾

إنكار المشركين البعث والردُّ عليهم

﴿**وَقَالُوٓاْ**﴾ عطف على «ضَرَبُوا»، والاستفهامان بعده للتعجُّب ﴿**أَ.ذَا كُنَّا عِظَٰمٗا**﴾ مجرَّدة عن الجلود واللحوم ﴿**وَرُفَٰتًا**﴾ مفرد كالجُذاذ والرُّضاض والفتات، بمعنى ما بَلِيَ وتفتَّت كالحطام، وهي أيضا عظام، كأنَّه قيل: عظاما غير متفتِّتة وعظاما متفتِّتة، ويطلق على ما بلي وتفتَّت يابسا من غير العظام أيضا، فقد يريدون ما تكسَّر وتفتَّت من جلود ولحوم وعظام.

ولعلَّ من فسَّر الرفات بالتراب ـ وهو الفرَّاء ـ أراد أنَّها دقيقة كالتراب إذ لا يعرف الرفات بمعنى التراب حقيقة، ومع ذلك قال الله في آية أخرى: ﴿أَ.ذَا مِتْنَا وكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ [سورة المؤمنون: 82] فيفسَّر بالدقَّة كالتراب، وفسَّره بعض بالغبار، وبعض بما تكسَّر وبلي ودقَّ.

ويحتمل أن يرجع ترابا حقيقة رجوعا إلى أصله، كما قال بعض الأندلسيِّين: «كنَّا ننسف التراب في موضع يسمَّى مقبرة اليهود، فوجدنا ميِّتا في قبره الصورة إنسان، والحقيقة تراب حقيق لا فرق بينه وبين ما يليه من تراب الأرض، كأنَّه جسم مبنيٌّ من تراب»[1].

(1) ومن هذا القبيل تحوُّل الفحم الحجري في مناجمه من شجر إلى حجارة وهو باق على شكل شجرة.

و «أ.ذَا» متعلِّق بمحذوف، أي أنصير رطبا غضًّا أحياء إذا كُنَّا عظاما ورفاتا يابســة بالية؟ و«إِذَا» خارجة عن الصدر والشــرط، أو هي على أصلها فنقدِّر ذلك مؤخَّر لا بـ«مبعوثون»، لأنَّ معمــول خبر «إنَّ» لا يتقدَّم عليها، ولصدارة الاستفهام. ومعنى كونهم عظاما ورفاتا أنَّهم كأنَّهم صور من عظام ورفات من أوَّل غير مسبوقة بلحم وجلد.

﴿**انَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا**﴾ البعث متضمِّن لمعنى الخلق، فـ«خَلْقًا» مفعول مطلق لـ«مَبْعُوثُونَ» أي لمخلوقون خلقا جديدا أو «خَلْقًا» ضمِّن معنى البعث، أي لمبعوثون بعثا جديدا، والبعث الأوَّل هو خلقهم من النطفة، وهذا أولى من كونه حالا بمعنى مخلوقين، أو ذوي خلق، فيتبعه «جَدِيدًا» على لفظه من الإفراد.

﴿**قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً اَوْ حَدِيدًا اَوْ خَلْقًا**﴾ مخلوقا ﴿**مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ**﴾ مِمَّا يعظم في قلوبكم أن يكون قابلا للحياة، وتَستبعدون جِدًّا قبول الحياة فيه.

ولا نعلم أنَّ جســما مَّا من الأجســام أبعد عن الحياة من الحديد، ودونه الحجر لأنَّه ينمو بالمشــاهدة فيما يقطع، كحجــارة الجبس، ولو قطعت مدن كثيرة من موضع واحد من جبل لم يتبيَّن فيه النقص الكثير كما هو مشاهد.

ولعلَّ الأَعراض أبعد في قلوبهم في قبول الحياة من الأجسام، أو الذكر[1] لأنَّه يقطع الحديد إلَّا أنَّه يقبل الكســر أكثر من الحديــد، أو نقول: المراد ما تســتكبره عقولكم ولو كان أدنى في البعد من الحجارة والحديد، لأنَّ المقام لإبكاتهم في كلِّ ما أرادوا من ذلك.

وقدرته تعالى صالحة لكلِّ ممكن ولا سيما إحياء ما قد كان قبل حَيًّا، فإنَّه عندكم أسهل مِمَّا لم تسبق حياته، وعند الله سواء، حتَّى إنَّه يكفر من قال: إنَّها أسهل مِمَّا لم تسبق فيه.

---

(1) لعله يقصــد الذُّكر، وهو الفــولاذ. لأنه حديدٌ منقًّى مــن الخبث. ينظر: **ابن منظور**: لســان العرب، باب ذكر، وباب فلذ.

وعن مجاهد الذي يكبر [هو] السماوات والأرض والجبال. وعن ابن عَبَّاس وابن عمر والحسن وسعيد بن جبير: الأكبر: الموت، بمعنى لو كنتم نفس الموت لأحياكم مع أنَّ الموت يضادُّ الحياة.

[بلاغة] والأمر للإهانة والتحقير كقول موسى عليه السلام: ﴿أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ [سورة يونس: 80 وسورة الشعراء: 43] فلا يقتضي الوقوع جزما، لأنَّه معنى مجازي له، لا يقتضي الحصول، أو الأمر للتسخير على الفرض والتقدير لأن يكونوا حجارة أو حديدا، لأنَّ التسخير يحصل فيه الفعل كالكون قردة كما في سورة البقرة [آية: 65] وسورة الأعراف [آية: 166] كما قال التفتازاني، وكان بلفظ الكون إذ لم يقل: صيروا، ولم يقل: قعوا لمشاكلة قولهم: «كُنَّا». وقدَّم الحجارة على سبيل الترقِّي لأنَّها دون الحديد في الصلابة، ولأنَّها تنمو كما مرَّ، وهو جمع حجر، كجِمالة جمع جمل، جمعه لأنَّه خبر «كُونُوا» واسمه ضمير جمع، وأفرد «حَدِيدًا» لمجانسة جديدا، و«أَوْ» للتخيير، أو للتسوية.

﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُّعِيدُنَا﴾ أحياء رطبا بعد أن كنَّا موتى يبسا، والفاء للسببيَّة والتفريع على قوله: ﴿قُلْ كُونُوا۟...﴾، والاستفهام للإنكار، أنكروا أوَّلا البعث، وأنكروا هنا الباعث، أي: لا أحد يعيدنا ﴿قُلِ الذِي فَطَرَكُمُۥٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ من تراب لأبيكم، أو من نطف، أي قل: الذي يعيدكم الذي فطركم أوَّل مرَّة، وهذا أوفق للسؤال، أو الذي فطركم يعيدكم، أو يعيدكم الذي فطركم.

﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ يحرِّكونها نحوك استبعادا وتعجُّبا، أو إنكارا أو استهزاء، أو قيل: إنغاض الرؤوس تحريكها باضطراب، وقال الفراء: تحريكها بارتفاع وانخفاض، وذلك استعارة تمثيلية، والماضي: أنغض بهمزة التعدية، والثلاثي لازم، تقول: نغض رأسه أي تحرَّك ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾ أي البعث، أو إِعَادُنَا مصدر أعاد، كقوله تعالى: ﴿وَإِقَامِ الصَّلَاةِ﴾ [سورة النور: 37] مضافا لضمير المتكلِّم، ولإضافته قدِّر مذكَّرا.

[نحو] ويجوز ردُّ الضمير إلى الإعادة ـ بالتاء ـ لأنَّ الضمير العائد إلى ما ينسبك من الفعل وحرف المصدر يذكَّر، كما لا يؤنَّث له الفعل إذا لم يكن ضميرا، تقول: أعجبني أن تقيم أي إقامتك، ولا تقول أعجبتني بالتاء، وقيل: الضمير للعود، وهو ضعيف والمعنى صحيح، كأنَّه عجز قائله عما ذكرت.

[نحو] ﴿**قُلْ عَسَىٰٓ أَنْ يَّكُونَ قَرِيبًا**﴾ الكون تامٌّ اسم «عَسَى»، و«قَرِيبًا» خبر «عَسَى»، أو اسم «عَسَى» مستتر و«قَرِيبًا» خبر «يَكُونَ»، و«أَنْ يَّكُونَ...» خبر «عَسَى»، ونصب «قَرِيبًا» على الخبريَّة، أو على الخبريَّة الظرفيَّة، أي في زمان قريب، ويجوز أن يكون مفعولا مطلقا، أي أن يكون كونا قريبا، والكون تامٌّ.

ومعنى القرب أنَّه متحقِّق الوقوع، فهو كالقريب بل كالواقع ولو بعد، أو إنَّ الدنيا كلَّها قريبة الانتهاء، أو إنَّ ما مضى هو الأكثر وما بقي قليل بالنسبة.

﴿**يَوْمَ**﴾ المراد: اذكر يوم، أو بدل من «قَرِيبًا» إذا جعلنا «قَرِيبًا» ظرفا، أو متعلِّق بـ«يَكُونُ» أو «يبعثون» محذوفا، أو بالضمير المستتر في «يَكُونُ» لعوده إلى ما يصحُّ التعليق به كما علمت. ﴿**يَدْعُوكُمْ**﴾ أي الذي فطركم.

والدعاء بمعنى نفخ البعث على الاستعارة، أو الدعاء استعارة للبعث وتوجُّه الإرادة إليه، ولا نداء ولا كلام في ذلك، ولا موجود يخاطَب ويعقِل، فذلك قوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة يس: 82]. ﴿**فَتَسْتَجِيبُونَ**﴾ بالانبعاث، استعار الاستجابة للانبعاث، والاستعارة في الموضعين تمثيلية، والمراد: سرعة الحصول كإجابة تعقَّبت نداءً. ويجوز أن يكون الدعاء بمعنى النداء حقيقة وَلَكِنَّ الإسناد مجاز، لأنَّ المنادي إسرافيل على الصحيح، أو جبريل لا الله، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِي مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [سورة ق: 41] وقوله: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ﴾ [سورة ق: 42].

﴿**بِحَمْدِهِ**﴾ متعلِّق بحال محذوف، أي ملابسين بحمده على كمال قدرته، أو بأمره، أو بطاعته على التجوُّز في الوجهين، أو معترفين بأنَّ له الحمد، كلٌّ

من الكافرين والمؤمنين يخرجون من قبورهم ينفضون رؤوسهم من التراب، يقولون: «سبحانك اللهمَّ وبحمدك»، أو منقادين لبعثه انقياد الحامدين عليه، ولا ينفعكم أيها الكافرون.

يقول إسرافيل على صخرة بيت المقدس في قرن: «أيَّتها العظام البالية، واللحوم المتفرِّقة، والعروق المتقطِّعة، اخرجوا من قبوركم لفصل القضاء» فيخرجون.

روى أبو داود وابن حبَّان عن أبي الدرداء عنه ﷺ: «**إنَّكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فحسِّنوا أسماءكم**»[(1)] وهذا يناسب أنَّ الدعاء في الآية النداء إلَّا أنَّه ليس في الحديث أنَّ هذا النداء عند البعث، أو في الموقف ولا بعد، ولا بأس بنداء الجماد بكلام ليصير حيًّا، وذلك حكمة من الله تعالى وقدرة، ولو كان لا يسمع ولا قدرة له على الحياة، وأيضا لله أن يجعل فيه تمييزا وفهما وهو جماد ثمَّ يصير حَيًّا بالله تعالى.

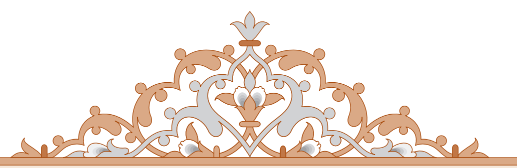
ولم يذكر في الآية أنَّ الدعاء للحساب والجزاء للعلم بذلك من أنَّ الدعاء والنداء لأمر معتدٍّ به، وإلَّا كان عبثا، ودعوة المولى لعبده لا بدَّ أن تكون لمصلحة قَوِيَّة كالاستخدام، وكالتفتيش عن حاله، وكالحضور ليسجنه أو يضربه أو يعذِّبه أو يكرِّمه، والاستخدام في الآخرة منتف لأنَّها ليست دار تكليف.

﴿**وَتَظُنُّونَ إِن**﴾ هي «إن» النافية وهي معلَّقة بلا إشكال ﴿**لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً**﴾ لبثا قليلا أو زمانا قليلا، استقصارا لمدَّة اللبث في القبور، إمَّا على نفي عذاب القبر فظاهر، ولو عذِّب أوَّلا، وإمَّا على إثباته، فقد يُحضر الله في قلوبهم جهنَّم على حقيقتها، فيستقصرون ذلك بالنسبة إليها لحضور أوانها، وتحقيق دوامها.

(1) رواه **أبو داود** في كتاب الأدب، باب في تغيير الأسماء، رقم 4948، و**ابن حبَّان** في صحيحه (20) باب الأسماء والكنى، رقم 5848. و**أحمد** في مسنده: ج 5، ص 162، رقم 21751. من حديث أبي الدرداء.

والمدَّة تستطال لشدَّتها ولو قصرت، فكيف إن طالت؟ وإذا طالت عدَّت قصيرة بالنسبة إلى ما هو أطول، فكيف ما يدوم؟

ويحتمل أن يكون المراد باللبث فيما بين نفخة الموت ونفخة البعث، فإنَّه لا عذاب في ذلك، وقيل: الخطاب للمؤمنين والكافرين **وهو بعيد**، وأبعد منه ما قيل: إنَّ الخطاب من قوله: ﴿فتَسْتَجِيبُونَ﴾ إلى ﴿قَلِيلاً﴾ للمؤمنين، لقرينة قوله: ﴿بِحَمْدِهِ﴾ أي بحمده على إحسانه وتوفيقه وإنجاز وعده بالبعث، ولقوله: ﴿وَتَظُنُّونَ﴾، وهو ضعيف، لأنَّ الكلام قبل مع الكُفَّار، ولأنَّ الفاء مرتَّبة على كلامهم، ولا نسلِّم أنَّ قوله: ﴿بِحَمْدِهِ﴾ وقوله: ﴿وَتَظُنُّونَ...﴾ دليل لذلك لِمَا مرَّ من تفسيرهما، والظنُّ على ظاهره ويجوز أن يكون بمعنى العلم.



﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿53﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿54﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿55﴾﴾

مجادلة المخالفين باللين وبالتي هي أحسن

﴿**وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ التِي**﴾ أي الكلمة التي، أو العبارة التي، والجزم في جواب الأمر، أي قل لهم: قولوا التي هي أحسن يقولوا التي هي أحسن، وقيل: مجزوم بلام الأمر، وقيل: مبنيٌّ، لقيامه مقام الأمر المبني، وهو ضعيف، والمراد بالكلمة الكلام.

﴿**هِيَ أَحْسَنُ**﴾ قل لعبادي المؤمنين يقولوا للمشركين الكلمة التي هي أحسن إذا جادلتموهم بحجج القرآن أو غيره، في شأن البعث أو غيره، فلا تُدخلوا في كلامكم سبَّهم أو سبَّ أصنامهم فيزيدوا نفرة وعنادا، وتقوم الفتنة، قال الله ﷻ: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ فَيَسُبُّواْ اللهَ عَدْوَا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [سورة الأنعام: 108] ﴿وَلَا تُجَادِلُواْ أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [سورة العنكبوت: 46] ولا يختصُّ هذا بما قبل نزول القتال كما قيل، بل هو قبله وبعده، لأنَّه إرشاد إلى ما يكون سببا للإيمان، أو سببا لعدم زيادة العناد.

والإضافة في «عِبَادِي» للتشريف، كما مرَّ أنَّ المراد بهم المؤمنون، كما يدلُّ له قوله ﷻ: ﴿يَقُولُواْ التِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ والتي هي أحسن هو قوله:

﴿رَبُّكُمُۥٓ أَعْلَمُ بِكُمُۥٓ إِنْ يَّشَأْ يَرْحَمْكُمُۥٓ أَوِ اِنْ يَّشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ ونحو هذا، وليست محصورة في هذا، وما بينهما اعتراض، وإن صرَّحوا لهم أنَّهم من أهل النار زاد كفرهم، وأيضا قد يكون منهم من يتوب بعدُ ولا يعلم الخاتمة إلَّا الله، فإن ذكر لأحد أنَّه من أهل النار قيل له: إن مت على ما أنت عليه.

﴿**إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمُۥٓ**﴾ تعليل جملي، يفسد بين المؤمنين والكافرين، لا يقولوا غير الأحسن لأنَّ الشيطان ينزغ بينهم، كمن ينزغ إنسانا أو دابة بشوكة، فإنَّ الكلام السيِّئ مثل النزغ لها، فيهيِّج الشرَّ، ففي ذلك استعارة تبعية ﴿**إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلِانسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا**﴾ ظاهر العداوة، أو مظهرها ولا يخفيها، فكيف تتَّبعونه؟

﴿**رَبُّكُمُۥٓ أَعْلَمُ بِكُمُۥٓ**﴾ أيها المشركون، العلم بعاقبتكم عند الله ﴿**إِنْ يَّشَأْ يَرْحَمْكُمُۥٓ**﴾ بالتوفيق إلى التوبة والإسلام، فتكونوا من أهل الجنَّة ﴿**أَوِ اِنْ يَّشَأْ يُعَذِّبْكُمْ**﴾ بأن لا يوفِّقكم إلى التوبة فتموتوا على الكفر.

والمعنى: قولوا لهم: إن يشأ الله يرحمكم، أو قولوا: إن يشأ يعذِّبكم، فـ«أو» للتخيير فيما يقولون، ويجوز أن تكون بمعنى الواو فيقولوا ذلك جميعا، وقيل: للإضراب تهديدا.

ويجوز أن يكون قوله: ﴿رَبُّكُمُۥٓ أَعْلَمُ...﴾ ليس تمثيلا للتي هي أحسن، بل مستأنف خطاب للمؤمنين، إن يشأ يرحمكم بإنجائكم من الكُفَّار بإهلاكهم، أو إلقاء الرعب في قلوبهم، وإن يشأ يعذِّبكم بتسليطهم عليكم بالأذى كالقتل والنهب.

﴿**وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً**﴾ رقيبا وكفيلا أن لا يعصوا، أو موكولا إليك أمرهم فتقهرهم على الإيمان، بل أرسلناك مبشِّرا ونذيرا ومأمورا أنت وأصحابك بتحمُّل أذاهم، ثمَّ أمره الله بالقتال فقال: ﴿يَآ أَيُّهَا النَّبِيءُ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ واغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [سورة التحريم: 09].

وقد يقـال: المراد إنَّك لا تسـمعهم الحقَّ مع ختم الله علـى قلوبهم ولو بالجهاد كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْـمِعُ مَنْ يَّشَـآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ [سـورة فاطر: 22] وهذا يقال به قبل القتال وبعده، إلَّا القهر على الإيمان فإنَّه لا إكراه في الدين فيؤمنون بإرادتهم، أو يقتلون.

[سبب النزول] وروي أنَّ المشـركين أفرطوا في إيذاء المسلمين، فشكَوْا إلى الرسـول ﷺ فنزل: ﴿وَقُل لِّعِبَـادِي يَقُولُـواْ التِي هِيَ أَحْسَـنُ...﴾ إلى: ﴿وَكِيلاً﴾ فالخطاب في قولـه ﷻ: ﴿رَبُّكُمُۥٓ أَعْلَمُ...﴾ علـى هذا للمؤمنين على معنى الإنجاء من الكُفَّار وعدم الإنجاء، كما مرَّ قريبا. ويروى أنَّ مشـركا شتم عمر فهمَّ بضربه اللائق به أو همَّ بسـبِّه مجازاة، فأمر في العموم بالعفو، فيكون سـببا آخر لنـزول: ﴿وَقُل لِّعِبَـادِي﴾، فالتي هي أحسـن على هذين السـببين في النزول أن يقال للشـاتم: ﴿سَـلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [سـورة القصص: 55] أو «هداك الله»، أو «عفا الله عنك» ويعني هذه الشتمة فقط، أو «أصلح الله شـأنك»، وقد مرَّ جواز طلب الهداية، [قلت:] أو يعني بنحو ذلك كلِّه أنَّ الشاتم على غير صواب لا الدعاء له.

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَـمُ بِمَن فِي السَّـمَاوَاتِ وَالَارْضِ﴾ هو أعلم من أنفسـهم بهم وبأحوالهم فيختار لنبوءته وولايته من يصلح، ولـو كان يتيما فقيرا، ولصحابته من يصلح لها ولو حفاة عراة، كما قال ﷻ: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَـالَاتِهِ﴾ [سـورة الأنعام: 124]، وكانوا يقولون: «هو يتيم أبي طالب وأصحابه حفاة عراة جُوَّع لولا نزل هذا القرآن على رجل مـن القريتين عظيم» وذلـك كلام منهم منكر، وأفتى بعض المالكيَّة بقتل قائلها، قال في الشفاء: «من قال يتيم أبي طالب قتل».

﴿وَلَقَـدْ فَضَّلْنَـا بَعْـضَ النَّبِيئِينَ﴾ كإبراهيـم بالخلَّة، وموسـى بالكلام ومحمَّد ﷺ بالإسـراء، وداود بالزبور ﴿عَلَـىٰ بَعْضٍ﴾ بالفضائل النفسـانيَّة والعلوم الدِّينِيَّة، لا بالمال، وسـعة الملك، وكثـرة الأصحاب وقوَّتهم، وعدم

اليتم، كما فضَّلنا محَمَّدًا ﷺ وأصحابه وأمَّته على سائر الأنبياء والأمم، كما قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنۢ بَعِدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْاَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [سورة الأنبياء: 105] وهو نبيئنا ﷺ وأمَّته، ولذلك قال ـ ولقول اليهود: لا نبيء ولا كتاب بعد موسى والتوراة ـ:

﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ فيه ذكر فضل محمَّد ﷺ وأمَّته بأمر الدين، كما أنَّ فضل داود بالزبور لا بما أوتي من الملك، وحُسن الصوت وكثرة الأتباع، ولو كان بالمال وسعة الملك لكان سليمان أحقَّ بالتفضيل، ولم يشهر أنَّ داود ممن وصف بعظم حسن الصورة.

[قلت:] والأمَّة خير الأمم لكون نبيئها خير الأنبياء، وكونها خير الأمم بنصِّ القرآن[1]، وقد قيل: ﴿بَعْضَ النَّبِيئِينَ﴾ في الآية هو نبيئنا محَمَّد ﷺ. و﴿زَبُورًا﴾: بمعنى مزبور، أي مكتوب أو عظيم الزجر كصبور، ويضعف أنَّه مصدر في الأصل للتأكيد كأنَّه نفس الزجر أو الكتابة، كالقَبول بالفتح، لأنَّ فعولا الذي هو مصدر محصور في ألفاظ قليلة، لم يذكروا فيها زبورا.

[لغة] واسم كتاب داود: «زبور» بدون «ال»، وإذا دخلت عليه «ال» كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ﴾ [سورة الأنبياء: 105] فللمح الأصل، وإن قلنا اسمه «الزبور» بـ«ال» فـ«زبور» بدونها تلويح لأصله الذي هو نكرة، فجاء بصيغة التنكير للتعظيم، أو لأنَّ المعنى: قطعة منه، ذكر فيها فضل محَمَّد ﷺ وأمَّته على غيرهم، أو المعنى: كتاب من الكتب، فزبور نكرة لا عَلَم، ذكر فيه محمَّد وأصحابه.

قيل: هو مائة وخمسون سورة، أطولها قدر ربع القرآن، وأقصرها قدر سورة ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ اللهِ﴾ [سورة النصر: 1]، وهذا غير معهود بين الناس،

---

(1) ونضيف إلى ما قاله الشيخ ؒ: ولكونها أمَّة القرآن، لأنَّ القرآن مشتمل على مزايا لا نجدها في كتب رسل الأمم السابقة.

والمشـــهور خلافه، والله أعلم، ولعلَّ أهل الكتاب اختصروه وليس فيه حلال ولا حرام، ولا فرض ولا حكم ولا حدٌّ، بل مواعظ ودعاء لله وتحميد وتسبيح.

وفي جملة ما فيه: «أَنا الله لا إله إلَّا أنــا مالك الملوك، قلوبهم بيدي فمن أطاعني جعلتهم لــه رحمة، ومن عصانــي جعلتهم عليه نقمة، فلا تشــتغلوا بسبِّهم، فتوبوا إليَّ لا إليهم أعطف قلوبهم عليكم».

﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝56 أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ۝57 وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ۝58 وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ۝59 وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ۝60 ﴾

تفنيد آخر لشبهات المشركين

﴿ **قُلْ** ﴾ للمشركين العابدين لغير الله من العقلاء كالملائكة والجنِّ وعيسى ومريم وعزير، لقوله: ﴿ أُوْلَئِكَ الذِينَ يَدْعُونَ ﴾ ﴿ **ادْعُواْ الذِينَ زَعَمْتُم** ﴾ قال ابن عبَّاس: كلُّ زعم في القرآن بمعنى الكذب، ويطلق أيضا على الحقِّ، ويطلق أيضا على ما قيل بلا دليل ولا يقطع بكذبه.

ومن الحقِّ قوله ﷺ: «**زعم جبريل**»[1] على ما قيل من وروده، وقول ضمام بن ثعلبة: «أتانا يا محمَّد رسولك فزعم أنَّك تزعم أنَّ الله أرسل»كذا قيل، [قلت:] والحقُّ أنَّ هذا مِمَّا لم يتبيَّن له دليل، فلمَّا قال ﷺ: «**صدق**

(1) رواه **الطيالسي** في مسنده، أحاديث أبي قتادة، رقم 622، في نهاية حديث، بدايته: «قام رجل فقال: يا رسول الله، أرأيت إن قتلتُ في سبيل الله...»

رسولي»[1] فتحقَّق الأمر عند ضمام أنَّ زعم رسوله جَزْمٌ، وأنَّ زعمه ﷺ جَزمٌ. وقول سيبويه: «زعم الخليل» يحتمل الجزم ويحتمل عدم الدليل.

﴿مِّن دُونِهِ﴾ معنى ﴿مِن دُونِهِ﴾: غيره، فليس المراد أنَّهم يعبدون غير الله وحده، وقريش يعبدون الله وغيره، ولا إشكال، ويجوز أن يقال: عبادة غير الله ناقضة لعبادة الله، فكأنَّهم اقتصروا على عبادة غير الله، والتقدير: زعمتم أنَّهم آلهة أو زعمتموهم آلهة، والأوَّل أولى لقلَّة نصب «زعم» مفعولين صريحين نحو «زعمتني شيخا»[2]، ولوروده في سائر القرآن بـ«أَن». وإن قيل: كان بعض العرب يعبدون طائفة من الملائكة يسمُّونهم الجنَّ، وبعض ـ وهم خزاعة ـ يعبدون طائفة من الجنِّ، وأسلم الجنُّ دونهم، ويجعلون للملك الذي يعبدونه تمثالا على صورته التي يتوهَّمونها، ويعبدونه.

وعن ابن عبَّاس ومجاهد: نزلت في الذين يعبدون المسيح وأمَّه وعزيرا والملائكة والشمس والقمر والنجوم، وعليه فقوله: ﴿أُوْلَئِكَ الذِينَ يَدْعُونَ...﴾ راجع إلى المجموع لا الجميع، لأنَّ الشمس والقمر والنجوم لا تتَّصف بابتغاء الوسيلة أيُّهم أقرب، والأصنام كذلك إن أدخلت في الآية، [قلت:] والأَوْلى **تخصيصهم بالعقلاء المذكورين من الملائكة والأنبياء.**

[سبب النزول] وروي أنَّ قريشا أصابهم قحط شديد أكلوا به الكلاب والجيف واستغاثوا برسول الله ﷺ فنزل قوله تعالى: ﴿قُلُ ادْعُوا الذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ﴾.

﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلاً﴾ لا يستطيعون إزالة القحط والمرض والفقر والمصائب عنكم، ولا تحويلا لذلك عنكم إلى غيركم، مِمَّن

---

(1) أورد القِصَّة ابن هشام في سيرته، ص228، عند الحديث عن وفد بني سعد بن بكر بدون ذكر لفظ: «زعم».

(2) في البيت:

زعمتني شيخا ولست بشيخ إنَّما الشيخ من يدبُّ دبيبا

لا يعبد هؤلاء، ولا سيما أنَّ عزيرا مات فكيف يزيل ذلك، وإنَّما يزيله الله قال الله ﷻ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [سورة النحل: 53].

﴿أُوْلَئِكَ﴾ إشارة إلى المعبودين الذين سمُّوهم آلهة ﴿الذِينَ﴾ نعت أولئك ﴿يَدْعُونَ﴾ يعبدون أو يطلبون منهم إزالة الضرِّ، أو يسمُّونهم آلهة، والواو للمشركين العابدين، ضمير أولئك المعبودين محذوف، أي يدعونهم، أو أولئك الذين يدعون الله، أو الناس إلى الهدى، وهم الأنبياء وأشباههم ﴿يَبْتَغُونَ﴾ خبر «أُوْلَئِكَ»، والمعنى: يطلبون ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمُ﴾ الله ﴿الْوَسِيلَةَ﴾ القربة إلى الله بالطاعة ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ «أَيُّ» بمعنى الذي، بدل بعضٍ من واو «يَبْتَغُونَ»، أو من واو «يَدْعُونَ» والمراد الجنس. و«أَقْرَبُ» خبر لمحذوف والتقدير هو أقرب إلى مناجاة الله ﷻ، والمراد: أقرب من سائرهم، أو أقرب المخلوقات، فكيف بغير الأقرب؟ ويجوز على مذهب يونس[1] من جواز تعليق غير أفعال القلب أن تكون استفهامية، والجملة مفعول «يَدْعُونَ» أو «يَبْتَغُونَ». والمراد: أقرب قربَ فضلٍ بالعبادة، ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ﴾ أن لا يهلكهم، أو الجنَّة باعتبار عيسى ومريم وعزير، وكذا الملائكة باعتبار أنَّها دار رضا الله، لا للتلذُّذ بنعيمها لأنَّهم لا يتلذَّذون بها، أو مطلق رحمته بحسب ما يصلح لكلٍّ من الآدمي والملك.

﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ كغيرهم، والمحتاج الراجي لا يكون إلها، والواوان للذين ويجوز عودها إلى «أَقْرَب» لأنَّه متعدِّد، ولو كان لفظه مفردا على ضعف. ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ على الإطلاق، لا تجد أحدا لا يحذره حتَّى الرسل والملائكة، لا أمن لأحد منه، ومن آمَنَهُ الله منه ينسى فيخافه، أو يتغلَّب عليه الخوف ولو لم ينس أنَّه أُومِنَ منه، ويكون الخوف منه خوف إجلال.

---

(1) يونس بن حبيب النحوي الضبِّي بالولاء. كان إمام نحاة البصرة في عهده، أخذ عنه سيبويه والكسائي والفرَّاء وغيرهم، قال أبو عبيدة: اختلفت إلى يونس أربعين سنة أملأ كلَّ يوم ألواحي من حفظه، توفي سنة 182هـ بالبصرة. الأعلام للزركلي، ج 8، ص 261.

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ اِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ «مِنْ» صلة في المبتدأ، أي لا قرية من القرى المخصوصة التي يدخلها الإسلام، أو يبلغها خبره ألَّا تهلك بفتح المسلمين لها، أو تعذَّب برعب الإسلام، ولا تفتح كما في قوله ﷺ: «**زويت لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمَّتي ما زوي لي منها**»[1] أو قرى الدنيا كلّها على أنَّه بلغها خبره كلَّها ولو إجمالا.

أو المراد: مهلكوها بالموت دون قتل فإنَّ الموت هلاك قال الله ﷻ: ﴿إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ﴾ [سورة النساء: 176]، أو معذِّبوها بالقتل، أو الصالحة بالموت والطالحة بالقتل، أو نحو الصاعقة والخسف، إذا تركت أمره ونهيه أو كذَّبت الرسول، وعن الضحاك: تهلك مَكَّة بالحبشة والمدينة بالجوع والبصرة بالغرق والكوفة بالترك والجبال بالصواعق والرواجف... إلخ.

أو المراد إهلاك الدنيا كلِّها، فتكون قاعا صفصفا لا ترى فيها عِوجا ولا أمْتا، فيكون الإهلاك يوم القيامة والتعذيب قبل ذلك. و«أو» لتنويع الأضرار، وهو ضعيف ﴿كَانَ ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الإهلاك والتعذيب، ومنه القحط وسائر المصايب ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ اللوح المحفوظ ﴿مَسْطُورًا﴾ مكتوبا.

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ﴾ الدالَّات على رسالتك اللاتي اقترحتها قريش منك ﴿إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا الاَوَّلُونَ﴾ فيكذِّبون بها كما كذَّب بها الأوَّلون المهلَكون بالتكذيب، فيستحقُّون الإهلاك كالأوَّلين، وليس في قضائنا إهلاكهم كالأوَّلين بالموت فجأة بمرَّة، أو بالصواعق أو بالإغراق أو نحو ذلك، لإتمام أمر محمَّد ومن يؤمن من أمَّته ومن يلدون من المؤمنين.

---

(1) رواه **مسلم** في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأُمَّة بعضهم ببعض رقم 2889. و**ابن ماجه** في كتاب الفتن، باب ما يكون من الفتن، رقم 3952. من حديث ثوبان. وتقدَّم تخريج ما يقربه لفظا، انظر: ج 4، ص 300.

[سبب النزول] اقترحوا منه ﷺ أن يجعل الصفا ذهبا، وأن يزيل الجبال عن مَكَّة للحرث، ويفجِّر العيون ونحو ذلك، فسأل الله، فأجابه على أنَّه إن لم يؤمنوا عجَّل إهلاكهم كثمود وقوم عيسى، فقال ﷺ: «**لا أريد إهلاكهم رجاء للإيمان**» فنزلت الآية.

[أصول الدين] والمنع: الصرف عن الشيء قهرا أو استيلاء، والله لا يقهره أحد ولا يستولي عليه، قيل: فهو بمعنى الترك، والمعنى وما تركنا، وذلك تعبير بالسبب والملزوم عن المسبَّب واللازم، وفيه أنَّه لا يتصوَّر أن يكون «أَن كذَّبَ بِهَا الاَوَّلُونَ» فاعلاً لـ«مَنَعَ» مع أنَّه بمعنى الترك، لأنَّ التارك هو الله لا تكذيب، وأجيب بأنَّه لا يلزم اتِّحاد الفاعل في المعنى الحقيقي والمجازي، وهو جواب لا يصحُّ فإنَّه لا بدَّ من موافقة العبارة في المعنى المجازي لها في المعنى الحقيقي.

والمناسب لـ«تَرَكْنَا» بإسكان الكاف أن يكون ﴿أَن كَذَّبَ﴾ تعليلا بلام محذوفة. فالواضح أن يفسَّر «مَنَعَنَا» بصَرَفَنا بلا قهر.

[نحو] والباء في «بِالآيَاتِ» صلة في المفعول، أو للملابسة، والمفعول محذوف، أي أن نرسل رسولا ملتبسا بالآيات، والضمير في «بِهَا» للآيات على طريق الاستخدام، لأنَّ ما أرسله على الأوَّلين ليس عين ما يرسله على قريش لو كان يرسله، أو يقدَّر مضاف أي إلَّا أن كذَّب بمثلها. ويجوز أن يكون «مَنَعَنَا» بمعنى دعانا، فيقدَّر: إلى أن نرسل. والمراد بالأوَّلين: المهلَكون بالعذاب كقوم نوح وعاد وثمود، مِمَّن قريش على طبيعتهم.

وصرَّح ببعض الأوَّلين المكذِّبين بالآيات المقترحين لها المهلَكين في قوله ﷻ:

﴿**وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ**﴾ خارجة من صخرة وبراء عشراء أو يتبعها ولدها على ما في محله ﴿**مُبْصِرَةً**﴾ مهتدية، إسناد الاهتداء إليها مجاز عقليٌّ لأنَّها سبب فيه

لو عقلوا، أو يقدَّر مضاف، أي: مبصرا أهلها لو عقلوا، وأولى من ذلك أنَّه متعدٍّ، أي مصيِّرة للناس بصيرين، أي: مهتدين، لو تأمَّلوا لخروجها من صخرة صمَّاء حاملة بولدها، أو خروجها به تابعا لها وعظم جثَّتها وضرعها، أو ذلك للنسب أي ذات بصيرة في نفسها أي اهتداء كالعاقل، أو ذات إبصار للناس.

﴿**فَظَلَمُواْ بِهَا**﴾ ظلموا أنفسهم بسببها إذ قتلوها، أو كانوا ظالمين لها بسبب قتلها، وقيل: «ظَلَمُوا بِهَا»: كفروا بها وأهلكهم الله. وخصَّ الناقة بالذكر لأنَّها من أموال العرب وهم عرب، ولأنَّ ثمود عرب ولأنَّهم أجدادهم، ولأنَّهم يمرُّون بمنازلهم في الذهاب إلى الشام فيشاهدونها.

﴿**وَمَا نُرْسِلُ بِالاَيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا**﴾ ما نرسل الآيات، فالباء صلة أو ما نرسل نبيئا مع الآيات إلَّا تخويفا للكافرين من نزول العذاب، فإن كانت باقتراح أقوامهم أهلكوا باستئصال إن لم يؤمنوا بعد وقوعها، وإن كانت بغير اقتراح ولم يؤمنوا تُرِك إهلاكهم، ويموتون بدون استئصال وعذِّبوا يوم القيامة، فالتخويف مع الاقتراح بعذاب الدنيا وبعده عذاب الآخرة، ومع غير اقتراح ـ كسائر المعجزات وكُتبِ الله كالقرآن ـ بعذاب الآخرة.

﴿**وَإِذْ قُلْنَا لَكَ**﴾ واذكر إذ قلنا لك بالوحي بواسطة جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿**إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ**﴾ علما وقدرة، لا يخرجون عَمَّا أراد ولا يعجزه شيء، فبلِّغهم ما أوحي إليك، ولا تخف إنَّ الله يعصمك من القتل ولو كانوا يؤذونك بألسنتهم. و«الناس» عامٌّ دخل فيه قريش، أو أريد به خاصٌّ لأنَّهم المعاندون جدًّا الحاضرون، أو أحاط بقريش أهلكهم يوم بدر، أي: سيهلكهم يوم بدر، والآية مَكِّيَّة، وذكر ذلك بالماضي لتحقُّق الوقوع بعدُ كأنَّه وقع، من قولك أحاط بهم العدوُّ، وكقوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثُمُرِهِ﴾ [سورة الكهف: 42] وهذا تبشير له ﷺ.

﴿**وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ**﴾ في المنام، احتجَّ بهذا من قال: الإسراء في المنام لا في اليقظة، [قلت:] وهو مذهب أصحابنا وقوم من

غيرهم، وقيل: في اليقظة لمبالغة الكُفَّار في التكذيب، ولو كان في النوم لم يبالغوا تلك المبالغة.

وإطلاق الرؤيا على رؤية اليقظة وارد في لغة العرب، قال الراعي(1):

وكبَّر للرؤيا وهشَّ فؤاده ... وبشَّر قلبًا كَان جَمًّا بَلَابِله

وأيضا سمَّاها رؤيا مشاكلة لتسميتهم إِيَّاهَا رؤيا، وجريانا على زعمهم كما سمَّى الأصنام آلهة، وأيضا يشبه ما في المنام، لكونه ليلا وللسرعة وخرق العادة، حتَّى قال بعض من ضعف إيمانه للنبيء ﷺ: لعلَّ ذلك يا رسول الله في النوم، حتَّى ارتدَّ بعض من ضعف إيمانه.

وقال بعض من قال الإسراء في اليقظة: إنَّ الرؤيا هنا غير رؤية الإسراء، بل رؤياه في المنام عام الحديبيَّة دخل مَكَّة، واعترض بأنَّ الآية مَكِّيَّة والحديبيَّة بعد الهجرة، وأجيب بأنَّه رأى في مَكَّة أنَّه سيدخلها بعد الخروج عنها، فحكى الرؤيا في الحديبيَّة، ولم يدخلوها للعمرة التي قصدوها بل رجعوا على أن يدخلوها من قابل، فافتتن بعض، حتَّى قال عمر لأبي بكر رضي الله عنهما: قد أخبرنا رسول الله ﷺ أنا ندخل البيت ونطوف به، فقال أبو بكر: لم يقل ندخله في هذا العام وسندخل في عام آخر، ودخله من قابل، ونزل: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ [سورة الفتح: 27].

وقيل: هذه الرؤيا التي في سورة الإسراء رآها في مَكَّة، في شأن وقعة بدر أنَّها تقع بعد الهجرة، وسمع قريش ذلك فسخروا منه، ويجوز أن يكون رأى في المنام مصارع المشركين وهو في بدر أو قريب منه، فسمع المشركون

---

(1) هو عبيد بن حصين الملقَّب بالراعي لكثرة وصفه الإبل من أهل بادية البصرة، من فحول الشعراء، عاصر جريرا والفرزدق وهجاه جرير هجاء مرًّا، توفي سنة 90هـ. الأعلام للزركلي، ج 4، ص 188.

الخارجون من مَكَّة للقتال فسخروا منه، قال: «**والله لكأنِّي أنظر إلى مصارع المشركين، هذا مصرع فلان وهذا مصرع فلان**»[(1)] ولم يخطئ، وفي وقعة بدر نزل: ﴿اذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً﴾ [سورة الأنفال: 43].

وقيل: هذه الرؤيا في سورة الإسراء هي أنَّه رأى في نومه قوما من بني أميَّة يرقون على منبره وينزون عليه نُزُوَّ القردة، فقال: «**هو حظُّهم في الدنيا يعطونه على إسلامهم**»[(2)].

﴿**إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ**﴾ هي تكذيبهم بالإسراء حتَّى ارتدَّ كثير من الناس، أو قولهم: وَعدَنا بالدخول ولم ندخل، وهذا في شأن الحديبيَّة، وتساخرهم بقوله: هذا مصرع فلان وهذا مصرع فلان، وهذا في شأن قتلى الكُفَّار في بدر، وقتال معاوية عليًّا، وقتل الحسين ووقعة الحرَّة، وهذا في نزوِّ بني أميَّة على المنبر في الرؤيا.

﴿**وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْءَانِ**﴾ عطف على «الرُّؤْيَا»، أي: وما جعلنا الرؤيا التي أريناك والشجرة الملعونة في القرآن إلَّا فتنة للناس، وهي شجرة الزقُّوم لعنت في قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الاَثِيمِ...﴾ [سورة الدخان: 43 ـ 44] فلعنُها: إبعادها عن مقام الخير وأهله، وإنباتها في مقام الشرِّ لأهله.

ويجوز أن يراد: الملعون أهلها فحذف المضاف، أو ذلك من المجاز العقلي، وتقول العرب لكلِّ طعام مكروه ضارٍّ: إنَّه ملعون، لكونه ضارًّا مكروها، فيكون المراد بلعنها أنَّها طعام مكروه، أو وصفت بالملعونة لتشبيه طلعها برؤوس الشياطين، والشياطين ملعونون.

---

(1) رواه **مسلم** في كتاب الجنَّة وصفة نعيمها وأهلها (17) باب عرض مقعد الميِّت من الجَنَّة أو النار... رقم 76 (2873) من حديث أنس.

(2) أورده **السيوطي** في الدر: ج 4، ص 211، من حديث سهل بن سعد، وقال: أخرجه ابن جرير.

ومعنى الفتن بها أنَّه لَمَّا سمع الكفار ذلك قالوا: «إنَّ محَمَّدًا يزعم أنَّ الجحيم تحرق الحجارة ثمَّ يقول ينبت فيها الشجر، وما نعرف الزقُّوم إلَّا التمر بالزبد» قال أبو جهل لعنه الله: يا جارية زقِّمينا فأحضرتهما، فقال لأصحابه تزقَّموا هذا هو ما يذكر محَمَّد، ولم يعلموا أنَّ الله قادر على ذلك، وأنَّ الله أبرد النار على إبراهيم ولباسه إلَّا كتافه، وأنبت النبات في تنُّور موسى المحمى.

وفي بلاد الترك دَابَّة صغيرة تسمَّى السمندل لا تؤثِّر فيها النار حيَّة أو ميِّتة، ويتَّخذ من وبرها منادل فإذا اتسخت ألقيت في النار فيذهب الوسخ فتبقى سالمة، ويقال: في بلاد هند مكان بلاد الترك، ويقال طائر مكان دَابَّة، يقال: السمندر بالراء مكان اللام، والنعامة تبلع الجمر وقطع الحديد المحماة ولا تضرُّها، ولم يعلموا أنَّ نبات النار من جنس النار، والنار لا تحرق النار، وَمِمَّا يشبه ذلك أنَّ البحر المالح ينبت حجارة المرجان، واللحم والدم ينبتان الشعر.

وقيل: الشجرة الملعونة: الشيطان، وأبو جهل فرعون رسول الله ﷺ والحكَم وأبوه أبو العاصي الحكم، قالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا سمعت رسول الله ﷺ يقول لمروان: «**الشجرة الملعونة أبوك وجدُّك**» فهؤلاء لعنوا في عموم ذمِّ الكُفَّار في القرآن.

وعن ابن عَبَّاس: إنَّ الشجرة بنو أميَّة بن الحكم بن أبي العاصي، وإنَّه ﷺ رأى في المنام بني مروان يتداولون منبره، وقصَّها على أبي بكر وعمر في خلوة بيت، ثمَّ سمع رسول الله ﷺ الحكم يخبر بها فاشتدَّ عليه ذلك واتَّهم عمر بالإفشاء، ثمَّ ظهر أنَّ الحكم تسمَّع إليهم. واعترض بأنَّ الرؤيا بالمدينة والسورة مَكِّيَّة والحكَم فيها، وروي أنَّ عائشة قالت لمروان: لعن الله أباك وأنت في صلبه، فأنت أبغض من لعنه الله.

والفتنة على هذا أنَّهم طلبوا معجزة قاهــرة، فأجيبوا بأنَّه تعالى لم يقضها لهم ليتمَّ أمر النبيء ﷺ والمسلمين، فلا يستأصلوا، فقالوا: إنَّه ﷺ غير صادق، فضاق قلبه وســلَّاه بالآية، وأنَّــه لا يضعف أمرك بقولهــم. ﴿**وَنُخَوِّفُهُمْ**﴾ من عقاب الله في الدنيا والآخرة بالآيات المتلوَّات والمعجزات، والآيات متضمِّنة لشــجرة الزقُّوم. ولم يقــل: وخوَّفناهم لإفادة التكــرار ﴿**فَمَــا يَزِيدُهُمُۥ**﴾ أي التخويف ﴿**إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا**﴾ طغيانا مجاوزا للحدِّ.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿61﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿62﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿63﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿64﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿65﴾﴾

قصَّة آدم مع إبليس ـ أمر الملائكة بالسجود

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَآئِكَةِ اسْجُدُوا لأَدَمَ﴾ اذكر إذ قلنا، سلَّاه بمكابرة إبليس عن مكابرة قومه. والسجود لآدم سجود انحناء تعظيما له، أو سجود في الأرض عبادة لله ﷻ إلى جهة آدم كالقبلة، وهذا متَّصل أيضا بقوله ﷻ: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلاِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [سورة الإسراء: 53] بيَّن أنَّه عدوٌّ قديم للإنسان من أبيه آدم ﴿فَسَجَدُواْ﴾ مسارعين رضا وفعلا.

﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ هو فيهم كأنَّه منهم مخاطب بخطابهم ﴿قَالَ ءَآسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ أي من طين كما في آية أخرى، قيل: أو حال من «مَن» أو من هاء «خلقته» المحذوفة. أو «خَلَقْتَ» أوقعت فيه الروح حال كونه طينا فلا إشكال في الحالية، إلَّا أنَّ طينا جامدا وإلَّا أنَّ الروح وقعت فيه وهو يابس لا طين، فيؤوَّل بكونه في الأصل طينا، وتؤوَّل الطين بمعنى متأصِّلا من طين، [قال:] كيف أسجد وأنا أشرف منه؟ لأنَّه من طين وإيَّاي من نار، ﴿قَالَ﴾ إبليس لله

والعياذ بالله منه ﴿أَرَءَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ كافُ «أَرَأَيْتَكَ» حرف خطاب لا ضمير، أكَّد بــه تأكيدا معنويًّا التاء، و«هَذَا» مفعول بــه، و«الذِي» نعت، ولا مفعول ثان له لأنَّه بصريٌّ مجازا، كما قدَّره بعض هكذا: لِمَ كرَّمته عليَّ؟ على أنَّ معنى «أرأيت»: أخبرني، والرؤية اعتباريَّة، أي انظر في هذا وتكلَّم فيه معي، فالعلم سبب وملزوم للإخبار، والإخبار مسبَّب له ولازم.

[بلاغة] ولعناده ـ أبعده الله ـ قال: «هذا» ولم يقل ذلك ـ بإشارة القرب ـ إهانةً له، مع إقراره بأنَّ الله كرَّمه عليه، وأطلق الاستفهام وأراد معنى فعل الأمر لجامع الطلب، وأطلق الرؤية للاعتبار علــى ما قلت، وللإخبار على ما قالوا، لأنَّ الرؤية سبب للإخبار والاعتبار.

﴿لَئِنَ اَخَّرْتَنِي إِلَىٰ يَــوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ﴾ لأســتأصلنَّهم بالإهلاك في دينهم، كما يحتنك الجراد النبات، أي أهلكه بالأكل كلَّه، أو لأقودنَّهم حيث شئت كما يحتنك الإنســان الدَّابَّة، أي يجعل اللجام أو الرسن، أو يجعل حبلا أو نحوه في حنكها، فيقودها حيث شــاء، أو ذلــك كمن يأكل شــيئا والأكل بالحنك، أو لأهلكنَّهم في دينهم كما يهلك الغراب الشــيء بحنكه أي بمنقــاره ﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾ عبادك المخلصين كما في الآية الأخرى، لا أطيقهم لقوَّتهم، بالتوفيق والعصمة.

وإنَّمــا جزم بالاحتنــاك لعلمه من قــول الملائكــة: ﴿أَتَجْعَــلُ فِيهَا...﴾ [ســورة البقرة: 30] ولم ينكر الله عليهم أنَّهم يفسدون ويسفكون، أو لعلم الملائكة وإخبارهم له بذلك، قيل: أو لقياسه الفرع وهو أولاد آدم على أصلهم آدم، إذ عصى بالأكل من الشجرة، وهو باطل لأنَّ العصيان بعد كونه في الجنَّة، ومن زعم أنَّ له وسوستين أحدهما بعد خلقته والأخرى بعد كونه في الجنَّة لم يجد دليلا، أو لكونه لَمَّا رآه قبل نفخ الروح فيه أجوف، قال: إنَّه لا يتمالك فيكون يعصي، كالجنِّ على أنَّهم قبل إبليس، وعلم أنَّــه يأكل، وبعد نفخ الروح علم ذلك أيضا من كونه ذا وهم وشهوة وغضب.

﴿قَـالَ﴾ الله ﴿اذْهَـبْ﴾ على ما رغبت فيـه من الإبقاء إلى يـوم القيامة والاحتناك، كما تقول لمن خالفك: «افعل ما تريد» على ظاهره، بمعنى اخرج منها فإنَّك رجيم، ويفسَّر بذلك كلِّه جمعا بين الحقيقة والمجاز، أو حملا على عموم المجاز، وكلٌّ من ذلـك ردٌّ عليه وتخطئة فلا يتعيَّن ما ذكرته أوَّلا لقوله: ﴿فَمَـن تَبِعَكَ﴾ فإنَّ الوعيد على متَّبعـه مع تلك التخطئة مطلقـا ﴿مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ كاملا، اسـم مفعول بمعنى اسم الفاعل، وقيل: يجيء «وَفرَ» متعدِّيا فهو بمعنى مفعول على ظاهره، أي مكمَّلا كقول زهير:

ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره، ومن لا يتَّق الشـتم يشتم

[نحو] والخطاب له ولمن تبعه، غلَّب الخطاب على الغيبة، ويجوز أن يكون الخطاب لـ«مَن» خَاصَّةً دون إبليس على طريق الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، وإذا قلنا: خبر اسم الشرط جملة الشـرط فالرابط هو المستتر في «تَبِعَ»، وكذا إن قلنا جملة الشـرط والجـواب، وإن قلنا الخبـر جملة الجـواب، فالرابط كاف الخطاب، ولو عادت لغائب، لأنَّ مسـمَّاهما واحد كما ربط بضمير المتكلِّم في قول عليٍّ: «أنا الذي سـمَّتني أُمِّي حيدرة» والراجح أن يقول: أنا الذي سمَّته أمُّه، ويعالج الوزن، فلم يخل الكلام عن الربط كما ادَّعاه ابن هشام في «تذكرته».

وإن قدَّرنا: فقل لهم إنَّ جهنَّم، فالرابط الهاء المقدَّرة، ولا التفات، وليس في ذلك بيان أنَّ إبليـس يحزن بجهنَّم لكن يتضمَّنه. و«جَـزَاءً» مفعول مطلق بـ«تجزون» محذوفـا، لا بـ«جَزَاؤُكُمْ» لأنَّ معناه نفس الشـيء الذي يقال إنَّه جزاء لا المعنى المصدري، وقيل: إنَّه تضمَّـن معنى تُجْزَوْنَ فكان ناصبا، ولا حاجة إلى جعله حالا مع أنَّه غير مشـتقٍّ، إلَّا أنَّه كثر جمـود الحال إذا كانت موطئة كما هنا.

﴿وَاسْتَفْزِزْ﴾ استخفف أي احملهم على الخفَّة وأزعجهم، والأمر تهديد، كَذَا بَاقي هذه الأوامر كما يأتي، ويبعد أن يكون لتعجيزه عن أن ينقص شـيئا

من ملك الله ﷻ كما يأتي ﴿مَنِ اسْتَطَعْتَ﴾ أن تستفزَّه ﴿مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ بدعائك إلى المعصية كما قال ابن عبَّاس ﵄، وهو الوسوسة تارة والنطق أخرى، والغالب الأوَّل وهو مجاز، وفي الثاني الجمع بينه وبين الحقيقة.

وعبارة بعض: «بِصَوْتِكَ» بدعائك بالغناء والمزامير، وكلُّ ما يوصل إلى المعصية، وعبارة بعض: الغناء واللهو واللعب.

[قصص] أسكَنَ آدم أولاد هابيل في جبل وأولاد قابيل تحته وفيهم بنات حسان، فزمَّر الشيطان تحته فانحدر أولاد هابيل إليهم للذَّة ذلك الصوت، فاقترنوا.

أو الأمر للتهديد كقولك: اجتهد جهدك فسترى ما ينزل بك، ويبعد أن يكون لتعجيزه عن أن ينقص شيئا من ملك الله ﷻ، وكذا الأوامر الثلاثة بعد هذا في قوله:

﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الاَمْوَالِ وَالاَوْلَادِ﴾ ومعنى «أَجْلِبْ» صِحْ، والجلبة: الصوت، أي سقهم وتصرَّف فيهم بكلِّ ما تريد، و«خَيْلِكَ»: الركاب، كقوله ﷺ: «**يا خيل الله اركبي**» إلَّا أنَّ الآية تحتمل تقدير المضاف أي برجال خيلك، كما جاز أنَّ الخيل عبارة عن الركَّاب مجازا مرسلا لعلاقة الجوار، وهذا متعيَّن في الحديث، الخيل بمعنى الركَّاب، ولا يقدَّر: ركَّاب خيل، لأنَّه قال: اركبي، ولم يقل: اركبوا، وفيه مجاز عقليٌّ، أسند الركوب للخيل لأنَّها آلة الركوب وللجوار.

[لغة] ويجوز أن يكون أَجْلَبَ بمعنى جلب، أي جمع، لوروده كذلك، فتكون الباء صلة في المفعول به. والخيل اسم جمع لا مفرد له، ولو قيل: مفرده خايل، وقال الأخفش في مثله: إنَّه جمع، كما في صحب وركب وطير، والرجال خيَّالة وهم راكبوها. والرَّجْلُ: جمع راجل، أو اسم جمع له كما مرَّ في صحب ونحوه، وهو الماشي على رجله.

أي صِح عليهم بـكلِّ ما تحت يدك مـن راكب وماش فـي معصية، أو اجمعهم عليهم، ولا يخفى أنَّ المـراد بخيلك ورجلك الكناية عن الأعوان لا حقيقة الراكب والماشـي، ولو كان من الجائز أن يكـون له جند بعضه راكب وبعضه ماش.

وجند إبليس يومئذ من الجنِّ، ويجوز أن يراد منهم ومن الإنس، لعلم الله بأنَّه سيكون ذلك، قال ابن عَبَّاس: له خيل ورَجل من الجنِّ ومن الإنس، فمن قاتل في معصية راجلا أو راكبا فهو من جنده.

[بلاغة] ويجوز أن يكون قوله: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْـتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ...﴾ اسـتعارة تمثيلية بأن شبَّه حرص الشـيطان في الإغواء وإعماله جهده فيه بحرص من حرص على الإغارة على الناس، وجمعه لها.

ومعنى المشـاركة في الأموال أن يحملهم على كسبها من الحرام ومنع حقِّها، وصرفهـا في الحـرام كالزنى والفجـر والذبح للأصنام، وكسـب السوائب والبحائر وتضييعها، ومعنى المشاركة في الأولاد أن يكون ماؤهم المتولِّدون هم منـه من مال حرام، [قلت:] أو يأتون نسـاءهم باشـتهائهم غيرهنَّ، والاستحضار في القلب، وتسـميتهم بعبد العزَّى، وعبد الحارث، وعبد شمس، وعبد مناة، وعبد اللات، وحملهم على المعاصي والإشراك، وكسب الأولاد بالزنى، وقتل الولد خوف العيب، والعار، أو الفقر. و[قيل:] إذا لم يسمِّ عند إرادة الوطء انطوى الشيطان على ذكره فشاركه في الولد من ذلك الوطء.

﴿**وَعِدْهُـمْ**﴾ أي احملهم على اعتقاد أن لا بعـث ولا عقاب، وأنَّ الآلهة تشفع لهم في الدنيا، وإن كانت الآخرة حقًّا شـفعت لهم فيها أيضا، وأنَّ كرم الآباء والأنساب نافع في الآخرة للأولاد، وأنَّ الشفاعة تكون للمصرِّين، وعلى تأخير التوبة وأنَّه لا خلود لسعة رحمة الله.

﴿وَمَا يَعِدُهُـمُ﴾ بذلك ﴿الشَّـيْطَانُ﴾ جنس الشـيطان، أو المعهود وهو إبليس، وهو أولـى لأنَّ الكلام بعد فيه فيكون علـى الالتفات، والأصل: وما تعدهم ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾ إلَّا وعد غرور، أو وعدا ذا غرور، أو وعدا غارًّا، أو وعده نفس الغرور مبالغة، أو لأجل غرور، وهو تزيين الخطإ بما يوهم أنَّه صواب.

ويعين على دفع وسوسـة الشـيطان أن تضع في حالها يمناك على جانب صدرك الأيسـر بحذاء قلبك وتقول: «سبحان الملك القدُّوس الخلَّاق الفعَّال» سـبعا ﴿إِنْ يَّشَـأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَاتِ بِخَلْـقٍ جَدِيدٍ وَمَـا ذَٰلِكَ عَلَـى اللهِ بِعَزِيزٍ﴾ [سورة إبراهيم: 19 ـ 20، وسورة فاطر: 16 ـ 17].

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ تسلُّط على الإغواء، والمراد عبادي المخلصين، فالإضافة للتشريف، بقوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [سورة الحجر: 40 وسـورة ص 83] كما يضاف لِمَا اسـتولى به الحـبُّ كعبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد اللحم، وعبد اللبن، وعبد الشـيطان لمن اسـتولى عليه ذلك، أو المراد العموم، أي: لا تقهرهم، بل يختارون.

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ﴾ أَيُّهَا الإنسان، أو يا محَمَّد، فلا تخافوا منه فإنَّما سلطانه على الذين يتولَّونـه لا على من تولَّـى اللهَ، وأجيز الخطـاب لإبليس لأنَّ الكلام فيه، والنفس تنفر عن أن يكون له، اللهمَّ إلَّا على طريق التهديد بأنِّي ربُّك وأنت ساع في مخالفتي ﴿وَكِيلاً﴾ يحفظ من اتَّخَذَه مَفْزَعًا إذا وَسْوَسَ إليه، أو زلَّ.

﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزۡجِي لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِي ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ٦٦ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا ٦٧ أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا ٦٨ أَمۡ أَمِنتُمۡ أَن يُعِيدَكُمۡ فِيهِ تَارَةً أُخۡرَىٰ فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفٗا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعٗا ٦٩ ۞وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ٧٠﴾

بعض نعم الله على الإنسان

واستشهد لقدرته على حفظ من توكَّل عليه بقوله:

﴿**رَبُّكُمُ**﴾ أَيُّهَا الكافرون، الخبر قوله: ﴿**الـذِي**﴾، أو هو خبر لمحذوف، و«الذي» نعت، أي: هو ربُّكم الذي، قيل: أو «رَبُّكُمْ» نعت لـ﴿الذِي فَطَرَكُم﴾ مع الفصل، ولم يشهر النعت بالربِّ ولو جاز، لأنَّه بمعنى المشتقِّ كالسيِّد والمالك، أو بدل من «رَبُّ» لأنَّ الباء صلة في الفاعل.

﴿**يُزْجِي**﴾ يدفع بالإجراء، لِئَلَّا تغرقوا ولتصلوا مطلوبكم، واختاره عن [لفظ] «يسوق» ليدلَّ على التسخير والقهر، وذلك بآلة القلوع للريح وآلة النار الموجودة الآن وغير ذلك مِمَّا لم نعلمه، أو يحدث كلَّ مقصود بالآية لأنَّه تعالى عالم بحدوثه، ولو لم يعلمه الخلق حتَّى يحدث، إلَّا أنَّه إذا أريد بالمخاطبين زمان نزول الآية مخصوصين فالمراد: الريح والقلوع، ويقاس عليه ما يمكن لأنَّه تعالى قادر.

﴿لَكُمُ الْفُلْكَ﴾ يحتمل المفرد والجمع، والأصل المفرد، و«ال» للجنس فكأنَّه جمع ﴿فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُواْ﴾ تطلبوا ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ مِمَّا تحبُّون، من سمك وتجارة وميرة وغير ذلك. و«مِنْ» للابتداء أو للتبعيض، ويجوز أن تكون صلة في المفعول به فيما قيل، والأصل عدم الزيادة، وللإثبات والتعريف.

[قلت:] وتفسير الفضل بالغزو والحجِّ غير مناسب ولو أريد التمثيل، لأنَّ الخطاب للكفَّار ولا اعتناء لهم بهما.

﴿إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ إذ جعل لكم سبيلا إلى جلب ما ليس عندكم، ورحيما أيضا بقبول التوبة.

[قصص] لَمَّا لعن إبليس قال: أسألك يا ربِّ أن تعينني على بني آدم، قال: أعنتك، قال: يا ربِّ زدني، قال: ﴿وأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ...﴾ إلى قوله: ﴿وَعِدْهُمْ﴾، فاستعاذ آدم عليه السلام بالله عز وجل، وقال: يا ربِّ جعلت بيني وبين إبليس عداوة، وقوَّيته عليَّ فأعنِّي عليه يا ربِّ، قال: إذا عملت حسنة فلك بها عشر، وإن عملت سيِّئة فواحدة، فقال: يا ربِّ زدني، قال: أغفر لمن أشاء ولا أبالي، فقال آدم: حسبي يا ربِّ.

قيل: الرحيم مختصٌّ بالدنيا لحديث: «**يا رحمن الدنيا والآخرة، ورحيم الدنيا**» وعورض بحديث: **يا رحمن الدنيا والآخرة، ورحيمهما**»[1] فلا اختصاص لأحدهما بالدنيا أو الآخرة بل يفسَّر بحسب المقام.

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ﴾ خوف الغرق، فإنَّ الخوف ضرٌّ، أو الضرُّ: ما يخافون به الغرق كشدَّة موج البحر، ودخول طرف السفينة في تراب، أو شقِّ جبل، أو تعرُّض سمكة عظيمة لها، وشدَّة الريح وضرب جبل، ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ﴾ تطلبون أو تعبدون ﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ كانوا يعبدون معه ويطلبون الآلهة، فإذا مسَّهم الضرُّ لم يطلبوا ولم يعبدوا إلَّا الله، لعلمهم أن لا ينجِّيهم من الضرِّ

(1) تقدَّم تخريجه، انظر: ج 2، ص 254.

إلَّا الله، فـ«ضلَّ» بمعنى: ذهب عن خواطركم، أو ضلَّ عن إغاثتكم أي لم ينفعكم، أو لم يهتد إلى نفعكم، وإن لم تعتبر عبادتهم الله وطلبه لقلَّتها منهم، أو لبطلانها بالإشراك فالاستثناء منقطع.

﴿فَلَمَّا نَجَّاكُمۡ﴾ من الغرق ﴿إِلَى الْبَرِّ﴾ وبَّخهم على ما مضى منهم من ذلك، ولذلك لم يقل: وإذا نجَّاكم، كما يدلُّ له قوله ﷻ: ﴿ءَامِنتُمۡ أَنْ يُعِيدَكُمْ...﴾ [الآية: 69]، ﴿أَعْرَضْتُمْ﴾ عن تخصيص الله بالطلب والعبادة، ورجعتم إلى الإشراك، وأعرضتم عن ذكره بعد تخصيصه في البحر حين خفتم بالذكر، أو توحيده أو شكره والعبادة.

روي أنَّ عكرمة بن أبي جهل ﭬ فرَّ إلى جدَّة ليركب البحر لَمَّا فتحت مَكَّة، ووافى الرئيس يقول لمن يريد الركوب: أخلصوا، وهم مشركون، فيقولون: لا إله إلَّا الله، لِئَلَّا يصيبهم غرق، فقال: هذا ما يقول محَمَّد قد أقرُّوا به ففيم الفرار منه؟ وَاتَّفَقَ أنَّ زوجه أرسلت إليه أن إيت وآمن فإنَّ محَمَّدًا ﷺ يقبل من يأتيه مؤمنا، فأتى وآمن.

ويجوز ـ على بُعدٍ لعدم دليل ـ أن يكون معنى ﴿أَعْرَضتُمْ﴾: توسَّعتم في المكارم، كمن أخذ في عرض شيء ـ ضدُّ الطول ـ، كقول ذي الرمَّة:

عطاء فتىً تمكَّن في المعالي فأَعْرَضَ في المكارم واستطالا

أي أخذ في عرضها وطولها.

[لغة] وكلُّ جسم له عرض، إمَّا بزيادة الطول عنه، أو بالاعتبار كلمح طوله وعرضه سواء، واعتبر الطول بأعلاه والعرض بجوانبه، فالمراد بالعرض العرض العظيم، فإذا عظم العرض فالأصل أن يكون الطول أكثر منه، فالمراد: أعرضتم واستطلتم.

[أصول الدين] يقال: لو كان الله جوهرا لكان له حيِّزٌ واحتاج إلى محلٍّ

ومحدث، أو جوهـــرا[1] لاحتاج إلى ذلك ولم يقدر علـــى أفعاله. فقيل: لعالم أثبت الله لي بلا ذكر جوهر وعرض، فقال: هـــل ركبت البحر وعصفت الريح وأشرفت على الغرق وأيست مِمَّن معك وغيرهم من الخلق أن ينجُّوك، وتعلَّق قلبك بشـــيء غيرهم أن ينجِّيك؟ قـــال: نعم، قال: **فذلـــك الغير هو الله** ﷻ، فاستحسن ذلك. وكذا كلُّ ما لا يخطر في قلبك معه غير الله سبحانه.

﴿**وَكَانَ الإِنسَـــانُ كَفُورًا**﴾ كثير الكفران وعظيمه في الجملة فلذا أعرضوا. والكفران: جحود النعمة، ومن شـــأنها أن تشكر بالطاعة، فإذا لم تشكر فكأنَّها لم تقع على الكافر لها، فضلا عن أن يشـــكرها، والمراد مطلق الإنســـان على إرادة الجنـــس لا كلُّ فـــرد، وإن قلنـــا: هو هـــؤلاء المخاطبـــون فعلى طريق الالتفات، إذ لفت الكلام عن أن يقول: وكنتم كافرين لطفا بهم واستجلابا.

﴿**أَفَأَمِنتُمْ**﴾ أأعرضتم؟ أو أنجوتم؟ أو أأنجاكم فأمنتم؟ مع أنَّ الإعراض موجب لأن تخافوا مـــن العقاب، والإنجاء والنجاة موجبان للشـــكر لا للبقاء على الإعراض. والاســـتفهام توبيخ وإنـــكار للياقة ذلك. ويجـــوز أن لا تقدَّر جملة بين العاطف وهمزة الاســـتفهام، ولا ســـيما إذا أدَّى التقدير إلى تكلُّف ﴿**أَنْ يَّخْسِـــفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ**﴾ أي أن يقلب الله جانب البرِّ الذي هو مأمنكم حال كونه بكم، أي متلبِّسا بكم ومصحوبا بكم، فالباء للملابسة متعلِّق بحال محذوفة من جانب خَاصَّة لا عامَّة، أو للســـببيَّة متعلِّق بـ«يَخْسِفَ»، و«جَانِبَ» مفعول به، وأجيزت ظرفيَّته، أي أن يوقع الخسف بكم في جانب البرِّ.

والمراد بجانب البرِّ: الطرف الذي يلي البحر الذي خرجوا منه، فإنَّه تعالى قادر على الإغراق في البرِّ، كما قدر عليه في البحر، فكيف تكفرون إذا نجوتم إلى الساحل؟ كأنَّه سبحانه لا يقدر على الإغراق في البرِّ ولا على الإهلاك بما شاء في كلِّ موضع، والمواضع في ذلك كلُّها سواء عنده تعالى.

---

(1) يبدو أن الصحيح: عرضًا بدل «جوهرًا». والله أعلم.

﴿أَوْ يُرْسِلَ﴾ قيل: كما فعل بقوم لوط ﴿عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ ريحا يرمي بالحصباء. والريح يذكَّر ويؤنَّث، والحصباء: الحجارة الدقاق مع التراب، أو نفس الحجارة الدقاق، وإن أريد بالحاصب النَّسب جاز ولو مؤنَّثا، تقول: امرأة لابن أي ذات لبن، ويجوز أن يكون الحاصب نفس ذلك الدقيق بإسناد الرمي إليه أي حصباء رامية ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلاً﴾ «ثُمَّ» للترتيب الذكري بلا تراخ، بمعنى أنَّه لا شيء يمنعكم من وقوع ذلك، ولا من مداركته بالإصلاح بعد الوقوع.

﴿اَمَ أَمِنتُمُۥ أَنْ يُّعِيدَكُمْ فِيهِ﴾ أي في البحر تركبونه بإذن الله لأمر تريدونه ﴿تَارَةً﴾ مرَّة ﴿أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ﴾ قاطعا من الريح لِمَا أصابته، والقصف: الكسر والقطع، فتكسر فُلككم، أو الصوت الشديد فيلزم منه لقوَّتها الكسر.

﴿فَيُغْرِقَكُم﴾ عطف على محذوف كما علمت، تقديره: فتكسر فُلككم فتغرقكم ﴿بِمَا كَفَرْتُم﴾ «مَا» مَصدَرِيَّة، أي بكفركم، أو اسم أي بنعمٍ كفرتموها، أو بالنعم التي كفرتموها، أو نعمة الإنجاء التي كفرتموها، فالرابط محذوف أي بما كفرتموه، وهذا مغن عن تكلُّف تقديره هكذا: بما كفرتم به فحذف «به» مع عدم وجود شرط حذفه أو حذف الجارُّ ووصل المضمر، وذلك نعمة. وإن أريد بـ«مَا» الله فخلاف المشهور من إطلاق ما على العالم. والباء سببيَّة.

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ﴾ بالإرسال المعلوم من يرسل أو بالإغراق المعلوم من يغرق، أو بالإرسال والإغراق معا، وعليه فالإفراد بتأويل ما ذكر، ﴿تَبِيعًا﴾ ناصرا لكم بدفع ما أردنا من الإغراق قبل وقوعه، أو بأخذ الثأر مِنَّا بأن يتبعنا بما فعلنا بكم من الإغراق، و«عَلَيْنَا» و«بِهِ» متعلِّقان بـ«تَبِيعًا».

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي ءَادَمَ﴾ بأشياء لم تجتمع للجنِّ والملائكة وسائر الحيوانات، كحسن الصورة، قال الله ﷻ: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [سورة غافر: 64 وسورة التغابن: 3] وقال فيهم: ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾

[ســورة المؤمنون: 14] وقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَــنِ تَقْوِيمٍ﴾ [سورة التين: 4] وكاعتــدال المزاج لجعل قوتهم أطيــب الأقوات، وجعل لغيرهــم ما دونه وما فضل منه وما خبث، وكاعتدال القامــة وانتصابها، وكالتمييز بالعقل، وكالإفهام بالنطق والإشارة باليد والعين والرأس، **وكالكتابة، وبها يجتمع لمن تأخَّر علوم من تقدَّم**، قال الله ﷻ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ...﴾ [سورة العلق: 1] وقال: ﴿نُ وَالْقَلَمِ...﴾ [ســورة القلم: 1] ومنه قوله تعالى: ﴿أَوَ اَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ [سورة الأحقاف: 4]، وكالاهتداء إلى أسباب المعاش والمعاد، كالتسلُّط على الأرض وحيواناتها وما فيها، بشرب مائها والاغتســال منه والحرث والغرس وأكل ثمارهما وســائر ثمارها، وصيد برِّها وبحرها، ﴿وَهُوَ الذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَاكُلُواْ...﴾ [سورة النحل: 14] وهوائها، وهو من موادِّ الحيــاة ولــولا الريــح لأَنْتَنَــت الأرض، وبالنار بالاســتضاءة بها، وبمعادنها، وكتناول الطعــام باليد، قال ابن عَبَّاس: «كلُّ حيــوان يتناول طعامه بفيه إلَّا الإنسان فبيده»، ويصدر هذا من هرٍّ وقرد إلَّا أنَّه لا فضيلة لأكلهما باليد لأنَّهما من ذوات أربع، إذ يطآن الأرض بأيديهما، ويمسَّــان القاذورات بها، مع قلَّة أكل الهرِّ بها، وكتزيين الرجال باللحى، والنســاء بالنواصي، وعبارة بعض: بالذوائب، وقيل: وبخلق أبيهم آدم بيده، **وبأن منهم خير أمَّة أخرجت للناس.**

والتكريم: جعل الشيء ذا شيء كريم أي شــيء مستحسن، ولا يعتبر في مفهومه الإضافة إلى الغير بخلاف التفضيل.

﴿**وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ**﴾ على الدوابِّ ﴿**وَالْبَحْرِ**﴾ على الســفن وليس المراد عدم دخولهم في الأرض والماء بالبقاء على ظهرهما، لأنَّ الحيوانات شاركتهم في ذلك كما قيل ﴿**وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ**﴾ مِمَّا يســتلذُّ أكلا وشــربا ولبســا وركوبا واقتناء وغير ذلــك ﴿**وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّــنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**﴾ قيل: بالتعريض لاكتساب ما فيه النجاة والزلفى، بواســطة ما كرَّمناهم به وشكروه، وقيل: بالغلبة فلزم أن لا يكونوا أفضل من الجنِّ والملائكة، لأنَّهم لم يستولوا

على الجنِّ والملائكة، فالكثير هم غير الجنِّ والملائكة، وقيل: بالشـــرف فغير الكثير الملائكة، وهم أفضل من الإنسان ونسب لابن عَبَّاس والزجَّاج.

وقيل: غيـــر الكثير خـــواصُّ الملائكـــة فخواصُّهم أفضل من الإنســـان، والإنســـان أفضل من ســـائرهم، وخواصُّهم هم: جبريل وميكائيل وإســـرافيل وعزرائيل وحملة العـــرش، والذي يكون صفًّا، وســـائر الملائكة صفًّا، وقيل: الناس أفضل من ســـائر الملائكة وغيرهم، إلَّا أنَّه فسد من فسد منهم بعد هذا بالمعاصي، فضيَّع هذه الفضيلة، و«كثير» على هذا بمعنى الكلِّ كما يســـتعمل الأكثر بمعنى الكلِّ، قال الله ﷻ: ﴿هَـــلُ انَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّـــيَاطِينُ... وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ [سورة الشـــعراء: 221 إلى223] أي وكلُّهم كاذبون وقوله: ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّومِنُونَ﴾ [سورة سبأ: 41].

وعن جابر بن عبد الله عن رســـول الله ﷺ: «**لَمَّا خلق الله آدم وذرِّيَّته قالت الملائكـــة: ربَّنا إنَّـــك أعطيت بنـــي آدم دنيـــا يأكلون ويشـــربون وينكحون ويتمتَّعون، ولم تعطنا ذلك! فأعطنا ذلك في الآخـــرة، فقال: وعزَّتي لا أجعل ذرِّيَّة من خلقته بيدي كمن قلت له كن فيكـــون**»[1] ومعنى خلقته بيدي أمرت بتراب فاجتمع، بل أمر الملَك فجمعه وكوَّنه منه، بعد أن كان طينا ثمَّ صلصالا بإرادته، وذلك كعمل باليد.

ولعلَّ الحديث لم يَصِحَّ عنه ﷺ، لأنَّه ليس في طبع الملائكة التلذُّذ بغير العبادة ولا طلبه، فإن صحَّ عنه ﷺ فذلك بأن أحدث الله فيهم ذلك التمنِّي ثمَّ أزاله، كما أحدث في طبع هاروت وماروت اشـــتهاء النكاح وشـــرب الخمر، ونحو ذلك فيما قيل على أنَّهما مَلَكان بفتح اللام.

---

(1) أورده **الســـيوطي** في الـــدر: ج 4، ص 212، وقال: أخرجـــه الطبراني عن ابـــن عمر. وأورده **الهندي** في الكنـــز، ج 12، ص 192، رقم 94620، وقال: أخرجه الديلمي وابن عســـاكر عن جابر والبيهقي عن عروة بن رويم الأنصاري.

وعن أبي هريرة: «المؤمن الواحـد أفضل عند الله من جميع الملائكة» لأنَّه أطاع الله مع وجـود دواعي المعاصي، وقـال الحَنَفِيَّة: خـواصُّ بني آدم وهم المرسـلون أفضل من جملة الملائكة، وخواصُّ الملائكة أفضل من عوامِّ بني آدم، والأتقياء والزهَّاد أفضل من عـوامِّ الملائكة، ويقال: عوامُّ المؤمنين أفضل من عوامِّ الملائكة، وخواصُّ المؤمنين أفضل مـن خواصِّ الملائكة. وخطَّؤوا الزمخشري في تفضيل جبريل على سَيِّدنَا محَمَّد ﷺ. وعبارة بَعْضٍ: الرسل من البشر أفضل مطلقا، ثمَّ الرسل من الملائكة أفضل مطلقا من البشر والملائكة، ثمَّ عموم الملائكة ثمَّ عموم البشر، ونسب لأبي حنيفة وكثير من الشَّافِعِيَّة.

وقيـل بتعميم تفضيـل الكمَّل من البشـر نبيئـا أو وليًّا، وقيـل بتفضيل الكروبيِّين من الملائكة مطلقا، ثمَّ الرسل من البشر، ثمَّ الكمَّل منهم، ثمَّ عموم الملائكة على عموم البشر، وإسجاد الملائكة لآدم فضيلة لأولاده عليهم.

ومذهبنا تفضيل الملائكة مطلقـا، لأنَّه لا تصدر منهم معصية، وما خالف هذا فأخذ مـن قومنا، ثمَّ إنَّه لا يلـزم من تفضيل جنس الإنسـان على جنس الملك تفضيل أفراد الإنسـان على الملائكة، ولا يلزم من عدم تفضيل جنس الإنسان على الملائكة عدم تفضيل بعض أفراده.

ولا يختلف في أنَّ الملائكة أكثر عددا من الجنِّ والإنس لأحاديث: «**أَطَّتِ السـماء وحقَّ لها أن تئطَّ، ما مـن موضع قدم منهـا إلَّا وفيه ملـك راكع أو ساجد**»(1) والمراد السماوات، ولا تنزل قطرة إلَّا ومعها ملك لا يرجع، ويدخل كلَّ يوم البيت المعمور سبعون ألف ملك ولا يعودون إليه.

(1) رواه **النسـائي** في السـنن الكبرى في كتاب النكاح، بـاب ما كان مطالب برؤية مشـاهدة الحق... رقم 13500. ورواه **المنذري** في الترغيـب والترهيب في كتاب التوبة والزهد، باب الترغيب في الخوف وفضله، رقم 5117. من حديث أبي ذرٍّ.

﴿يَوۡمَ نَدۡعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمۡۖ فَمَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقۡرَءُونَ كِتَٰبَهُمۡ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلٗا ٧١ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ٧٢﴾

أحوال الناس مع قادتهم يوم القيامة

﴿**يَوْمَ نَدْعُوا**﴾ اذكر يوم ندعو، أو اذكر الحادث يوم ندعو، أو اذكر قراءة الكتب، أو اذكر العدل والجزاء يوم ندعو، دلَّ على ذلك «يَقْرَءُونَ» و«لَا يُظْلَمُونَ»، ﴿**كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَامِهِمْ**﴾ نبيئهم، يا أمَّة فلان، أو بمن ائتمُّوا به، أو بمقدَّمهم في الدين، مثل: يا حزب جابر بن زيد، ومثل: يا أصحاب عامر بن علي، أو بكتابهم: يا أهل القرآن، أو: يا أهل الإنجيل، أو: يا أهل التوراة، أو نحو ذلك، ما عملتم في كتابكم؟، أو يا أهل الكعبة، ويا أهل الصليب، فيكبون في النار، ويا عبدة البقرة.

عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «**ينادى: يا أمَّة إبراهيم، يا أمَّة موسى، يا أمَّة عيسى يا أمَّة محمَّد، فيقوم أهل الحقِّ الذين اتَّبَعُوا الأنبياء فيأخذون كتبهم بأيمانهم، ثمَّ ينادى الأتباع يا أتباع نمروذ، يا أتباع فرعون، يا أتباع فلان يا أتباع فلان من رؤساء الضلال**»[1] ويدعى أيضا من شاء الله ﷻ من الأفراد كما تدعى الجماعة، قال رسول الله ﷺ: «**إنَّكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فحسِّنوا أسماءكم**»[2].

(1) لم نقف على تخريجه بهذا اللفظ.

(2) تَقَدَّمَ تخريجه، انظر: تفسير الآية رقم 52، من سورة الإسراء في هذا الجزء، ص 195.

وفسَّر بعضهم الإمام بِالقُوَّةِ الداعية للخير وللشرِّ، كالقوَّة النَّظَرِيَّة والعَمَلِيَّة والغضبيَّة والشهويَّة، وشهوة الحياة والرئاسة، والشـجاعة والصبر، والقناعة، [قلت:] ولا أقبل مثل هذا.

وقيل: الإمام كتاب الأعمال، كما قال الله ﷻ: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ اَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة يس: 12] وعن أبي هريرة: «**يدعى يا أهـل الصلاة من بابها، ويا أهل الصدقة من بابها، ويا أهـل الجهاد من بابه**» وهكذا كما في الحديث بطوله، حتَّى قال أبو بكر: وهل يدعى أحد من هذه الأبواب كلِّها؟ قال: «**نعم وأرجو أن تدعى منها**»[1] كما بسط في محلِّه.

وقيل: يا صاحب الخير، ويا صاحب الشرِّ، وعن ابن عمر عن رسول الله ﷺ: «**إذا جمع الله الأوَّلين والآخرين يوم القيامة رفع لكلِّ غادر لواء يوم القيامة، فيقال: هذه غـدرة فلان بن فلان**»[2] أخرجه البخاري ومسـلم، وفيه نداؤهم بأسـمائهم وأسماء آبائهم، وقيل: بأسماء أمَّهاتهم سترا على أولاد الزنى وعلى الآباء، ورعاية لحقِّ عيسى، قيل: وإظهارًا لشـرف الحسن والحسين تشـريفا بفاطمة رضي الله عنها لأنَّها بنت النبيء ﷺ، كما قيل: إنَّ إمام جمع أمٍّ، **ولا تنصت لمثل هذا**، ولو دعي أولاد الزنى بآبائهم لم يعرفوا لأنَّهم لم يعرفوا في الدنيا وأيضا ليسـوا بآبائهم شـرعا. وذكر القرطبيُّ أنَّه يقال: يا حنفيُّ، يا شافعيُّ، يا قدريُّ، يا معتزليُّ، ونحو ذلك.

وذلك الدعاء لإيتاء الكتـب، وللاطِّلاع على ما فيهـا وقراءتها والجزاء، ولذلك رتَّب عليه بقوله:

---

(1) رواه **البخاري** في كتاب الصوم، باب الريَّان للصائمين، رقم 1798 و3466. ورواه **مسـلم** في كتاب الزكاة، بـاب من جمع الصدقة وأعمـال البرِّ، رقـم 1027. ورواه **الترمذي** في كتاب المناقب، باب مناقب أبي بكر وعمر، رقم 3674. من حديث أبي هريرة.

(2) رواه **البخاري** في كتاب الجزية والموادعة، باب إثم الغادر للبرِّ والفاجر، رقم 3016 و5828. و**مسلم** في كتاب الجهاد (4) باب تحريم الغدر، رقم 9 (1735). من حديث ابن عمر.

﴿فَمَنُ اوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ من سعداء أولئك المدعوِّين، كما فسَّر بعض المتأخِّرين الدعاء بأنَّه يقال: يا صاحب كتاب الخير ويا صاحب كتاب الشرِّ، والمراد بكتابه كتاب عمله، والمراد: الجمع، ورُوعِيَ لفظ «مَن» وأفرد، وروعي المعنى فَجُمِع في قوله: ﴿فَأُوْلَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾ فرحين بما فيه ذاكرينه لغيرهم تبجُّحا، وأمَّا الأشقياء فيقرؤونه حزنين مغتمِّين، ويصعب عليهم قراءته لسوء ما فيه، حتَّى كأنَّهم لا يقرؤونه أو يمتنعون منها ثمَّ يقرؤونه، أو غشيهم من الغمِّ والخجل ما يحبسهم عن قراءته ثمَّ يقرؤونه، وكذلك لم تُذكر قراءتهم في قوله: ﴿وَأَمَّا مَنُ اوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمُ اوتَ كِتَابِيَهْ﴾ [سورة الحاقَّة: 25] وكذا في سورة الانشقاق [آية 10]، وقد جزم بعض المتأخِّرين بأنَّهم لا يقرؤونه لذلك، وشهر في الآثار أنَّهم يقرؤونه، حتَّى الأعمى يجعل له البصر فيقرأ، وليس في عدم ذكر قراءتها نفيها.

﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ لا ينقصون من ثوابهم ﴿فَتِيلاً﴾ شيئا قليلا مثل الممتدِّ في شقِّ النواة، أو مثل ما يفتله الإنسان بأصبعيه من الوسخ، قيل: أو مثل قميصها لأنَّه يفتل باستخراجه، وهو استعارة، وهو مفعول ثان لـ«يُظْلَمُ»، لأنَّ معناه ينقص، وينقص يلزم ويتعدَّى لواحد ولاثنين.

﴿وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ﴾ أي في هذه الدار الأولى وهي الدنيا ﴿أَعْمَىٰ﴾ صفة مشبَّهة، كأحمر وأبيض، أي عَمِيَّ القلبِ لا يبصر رشده ﴿فَهُوَ فِي الَاخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ كأعمى البصر لا يجد اتِّقاء المضرَّة، فهو في الآخرة هالك مضرور بالعذاب والنار كأعمى يمشي ولا يدري في أيِّ مسلك هو، فإنَّه يصادم الحائط، ويقع في الهوَّة وعلى الشوك، وبين يدي سبع وعلى ما يكره، وهذا كقوله تعالى ﴿وَأَمَّا مَنُ اوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ﴾ [سورة الحاقَّة: 25] فهو مقابل لقوله تعالى قبل هذا: ﴿فَأَمَّا مَنُ اوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ...﴾ [سورة الحاقَّة: 19] والمعنى: لا يجد سبيلا للنجاة.

ولَمَّا نزلت الآية قال ابن أمِّ مكتوم وهو أعمى لرسول الله ﷺ: «أفأكون في الآخرة أعمى؟» فأنزل الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الَابْصَارُ...﴾ [سورة الحج: 46]، وقيل: الأعمى: أعمى البصر في الآخرة عقوبة لهم لقوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ...﴾ [سورة طه: 124] ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ...﴾ [سورة الإسراء: 97].

[قراءة] وقيل: «أَعْمَى» تفضيل، ولو كان من العيوب، لأنَّه من عيوب الباطن فلا يمتنع صوغ اسم التفضيل فيه نحو أحمق وأبله، ولذلك قيل لم يُمِلْه أبو عمرو ويعقوب لأنَّ ألفه في الوسط بـ«مِن» التفضيليَّة، بخلاف ما إذا كان صفة مشبَّهة فليست من التفضيليَّة مقدَّرة بعده.

[قلت:] ولا نسلِّم ما قيل إنَّ الإمالة لا تحسن وسطا، بل حسنت وكثرت كما في كتب النحو والتصريف وعلم القراءة، وقد أمال «أعمى» في الموضعين حمزة والكسائي وأبو بكر، وقرأ ورش بَيْن بَينَ، ولو كانت المتطرِّفة أولى بالإمالة لأنَّها تقلب في التثنية ياء، وأيضا «مِن» التفضيلية كلمة أخرى فلا يعتبر بها ما بعدها وسطا.

﴿وَأَضَلُّ﴾ فيها ﴿سَبِيلاً﴾ منه في الدنيا، لأنَّه فيها يمكنه الاهتداء بخلافه في الآخرة.

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ﴿73﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـٔٗا قَلِيلًا ﴿74﴾ إِذٗا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرٗا ﴿75﴾ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَاۖ وَإِذٗا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿76﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿77﴾﴾

محاولة المشركين فتنة النبيء ﷺ وطرده من مَكَّة

[سيرة] وَمِمَّن هو أعمى وأضلُّ في الآخرة منه في الدنيا مَن لم يتب من ثقيف وقريش، النازل فيهم قوله تعالى:

﴿**وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الذِي أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ**﴾ مِمَّا لا يجوز كما طلبوه، أمَّا ثقيف فقالوا إذ وَفَدُوا إلى رسول الله ﷺ من الطائف: لا ندخل في دينك حتَّى تعطينا خصالا نفتخر بها على العرب، لا نعطي زكاة الحبوب، ولا تذهب بنا للقتال، ونصلِّي بلا ركوع ولا سجود، ونأخذ مالنا من الربا على غيرنا، ولا نعطي ما علينا من الربا، وأن تخلِّينا واللات وسائر أصنامنا سنة، وإذا تمَّت لم نهدمها بأنفسنا، وأن لا يقطع أحد من وادينا «وجَّ» شجرا، ولا نباتا كالحرم، وإن قالت العرب لمه؟ فقل: الله أمرني بذلك.

وفي رواية: من ذلك شرطوا أن لا نصلِّي، وفي أخرى: إذا تمَّت السنة كسرنا الأصنام بأيدينا، وفي أخرى: أن تمتِّعنا باللات سنة من غير أن نعبدها لنأخذ ما يهدى إليها، وَلَمَّا قالوا: لا نركع ولا نسجد ولا نصلِّي، قال: «**لا خير في دين لا**



ركوع فيه ولا سجود» وأمَّا الأصنام فإنِّي غير ممتِّعكم بها، وأمَّا كسرها بأيديكم الآن فلكم، وسكت عن غير ذلك كأنَّه رجا أن يبيحه الله ﷻ ليسلموا.

وأمَّا قريش فقيل: قالوا: لا نمكِّنك من استلام الحجر حتَّى تستلم آلهتنا، وروي: إنَّا لا نؤمن حتَّى تطرد هؤلاء الضعفاء والموالي الذين أسلموا، وتجعل آية رحمة آية عذاب، وآية عذاب آية رحمة، وحتَّى تستلم آلهتنا، فقيل: سكت فطمعوا ونزل لسكوته: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ﴾ بمعنى أنَّ ذلك كلَّه حرام وافتراء، ومناقض للوحي، لا يبيحه الله.

[قلت:] واستلام الحجر قبل الفتح والسورة مَكِّيَّة إلَّا ثمان آيات هذه أولاهنَّ، وأخراهنَّ آية ﴿سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾، فلا يتمُّ منعه من استلام الحجر بعد الفتح.

و«إن» مخفَّفة واللام فارقة، والفتن: صرفه عن الوحي ﴿**وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً**﴾ لو اتَّبعتهم إذا لاتَّخذوك خليلا، فتصير بريئا من ولايتي، فحذف «لو» وبقي جوابه، وليس جوابا للقسم كما قيل، لأنَّ إجابة القسم بماض متصرِّف مثبت مجرَّد من «قد» قليل وقد عدُّوا قول امرئ القيس لعنه الله:

حلفت لها بالله حلفة فاجر لناموا وما إن من حديث ولا صالي

من الشواذِّ أو الضرائر.

﴿**وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَاكَ**﴾ لاتَّبعتهم، فحذف جواب «لو» ﴿**لَقَدْ كِدْتَ**﴾ والله لقد كدت ﴿**تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ**﴾ إلى كلامهم ﴿**شَيْئًا**﴾ أي ركونا مفعول مطلق ﴿**قَلِيلاً**﴾ في غير ترك الصلاة أو الركوع والسجود، والتمتيع بالآلهة، وهو غير راكن في ذلك قليلا ولا كثيرا، ولا قريب للركون، وقربه للركون في غير ذلك ليس قربا من أن يبيحه من عنده، بل قربا من أن يدعو الله فيبيحه، ومع هذا عابه الله عليه، كمسح الآلهة لم يكد يركن إلى مسحها لأنَّه تعالى نفى قربه إلى الركون القليل، وأخطأ من قال: همَّ بذلك ولم يفعل إذ نهاه الله ﷻ، ولا يصحُّ أن

يكون المراد: كدت أن ينسب إليك أنَّك ركنت كما يقال لفاعل شيء خطير: كدت تقتل نفسك، أي يقتلك الناس به، لبعده.

﴿**إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ**﴾ مثل ﴿إِذًا لَّاتَّخَذُوكَ﴾، لو قاربت لعذَّبناك كلَّ عذاب يُستحقُّ على ذلك، أو عذَّبناك عذابا يكون بالنسبة إلى ما يزاد عليك كذوق طعام أو شراب ﴿**ضِعْفَ الْحَيَوٰةِ**﴾ ضعف عذاب الدنيا، ودلَّ على هذا قوله تعالى: ﴿لأَذَقْنَاكَ﴾ وكذا في قوله: ﴿**وَضِعْفَ الْمَمَاتِ**﴾ ضعف عذاب الموت، أي ضعف ما يعذَّب به غيرك لو قارب، لأنَّ ذنبَ العظيمِ دينًا ورتبةً أعظم، وذنب من له التقريب أعظم من ذنب غيره، ومن ذلك كثرة النعم ولا سيما الدِّينيَّة، ومن ذلك الباب قوله تعالى: ﴿يَا نِسَآءَ النَّبِيءِ مَنْ يَّاتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [سورة الأحزاب: 30] وذلك لقدر الفضل، وأيضا ذو الفضل متبوع، ومن سنَّ سوءًا فله وزره ووزر من اتَّبَعَه، ومن عكسه ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ﴾ [سورة النساء: 25] وذلك لنقصهنَّ بالرقِّ.

والأصل: عذابا ضعفا، أي مضاعفا في الحياة وعذابا ضعفا في الموت، وحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه، وأضيفت كما يضاف عذاب، وذلك كقوله تعالى: ﴿هَـؤُلَآءِ اَضَلُّونَا فَئَاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا﴾ [سورة الأعراف: 38] وقوله تعالى: ﴿فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا﴾ [سورة ص 61] والآية كقوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ [سورة الأعراف: 38] أي عذاب ضعف.

وقيل: ﴿ضِعْفَ الْحَيَوٰةِ﴾: عذاب الآخرة، ﴿وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾: عذاب القبر، وفسَّر بعضهم بمثلي عذاب المشركين في الدنيا، ومثلي عذابهم في الآخرة.

﴿**ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا**﴾ بدفع العذاب بعد مجيئه، أو قبله، أو بتخفيفه، وَلَمَّا نزل قال ﷺ: «**اللهمَّ لَا تَكلني إلى نفسي طرفة عين**» وازداد تصلُّبا في الدين، وكذا ينبغي لكلِّ مؤمن.

﴿وَإِن كَادُواْ﴾ أي أهــل مَكَّة كمــا دلَّ عليه قوله ﷻ: ﴿لَيَسْــتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ﴾ أرض مَكَّــة بمعاداتهم ﴿لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَــا﴾ فإنَّ الإزعاج من الأرض وإخراجه منها إنَّما يتصوَّر عن أرض هو فيها، وما هو ﷺ إلَّا في مَكَّة مع أهلها. والاســتفزاز: الإزعاج، وهو غير الإخراج، بل آلة لــه، والمراد: تأثير الإزعاج، فإنَّهم أزعجوه ولــم يؤثِّر إزعاجهم فيه، بل كاد يؤثِّــر، أو أراد بالإزعاج ما هو فوق ما صدر منهم من الدعاء إلى الخروج، مثل إســاءة القول، وسوء العشرة، وعزلهم في شعب بني هاشم، لا يطعمون ولا يسقون، ولا ينكح لأحدهم ولا منهم، وقع ذلك بعد نزول الآية، وصار سببا لهجرته ﷺ إلى المدينة.

[نحو] وفــي ردِّ الضمير إلى قريــش تفكيك الضمائــر، لأنَّ الضمير قبلُ لثقيف، ولا بأس في ذلك لوجود القرينة، وإن رددنــا الضمير قبلُ في ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ﴾ إلى قريش فلا تفكيك.

﴿وَإِذًا﴾ أي وعلى وقوع الإزعاج لو وقع ﴿لَّا يَلْبَثُونَ﴾ يقيمون ﴿خَلْفَكَ﴾ بعدك، اســتعمل للزمان وأصله المكان، وأصله خلف استفزازك، وأوضح من ذلك، أن تقول: خلف ما يلي الشيء من زمان أو مكان، فالمعنى: خلف زمان اســتفزازك، كما تقول: وقت كذا قبل وقــت كذا أو بعده، فذلــك حقيقة في الزمان والمكان.

﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾ لبثا قليلا، أو زمانا قليلا لكن لم يقع، فما أثَّر فيه استفزازهم فما أخرجوه في هذه القِصَّة، بل خرج وحده فلم يعجِّل إهلاكهم بل تأخَّر إلى بدر، ولو فعلوا لهلكوا في حينهم بِمَا يشاء الله.

ويجوز أن يكون في ذلك أمران: الأوَّل أنَّهم كادوا يســتفزُّونه ويخرجونه ولم يكن، وذلك في قوله: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ...﴾، والثاني أنَّهم استفزُّوه وأخرجوه، بمعنى أنَّهم شــدَّدوا العــداوة حتَّى كانت ســببا لخروجه فخرج، فكأنَّهم أخرجوه، كما قال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَــدُّ قُوَّةً مِّــن قَرْيَتِكَ الَّتِي

أَخْرَجَتْكَ﴾ [سورة القتال: 13] وذلك في قوله: ﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ أي استفزُّوه وأخرجوه فلا يلبثون إلَّا قليلا، فعدَّ ما بين استفزازه وإخراجه وبين قتلهم ببدر قليلا، وهو سنة تقريبا، ويقال: ثمانية أشهر، أي: قربوا أن يجبروك على الخروج ولو فعلوا لماتوا جميعا، لكن لم يفعلوا فلم يهلكوا، إذ قضى سبحانه أن يؤمن بعضهم، وتخرج منه ذرِّيَّة.

وقيل: نزلت في اليهود حسدوه ﷺ على إقامته بالمدينة فقالوا: «اِلْحَقْ بمقام الأنبياء الشام الأرض المقدَّسة بعد إبراهيم إن كنت نبيئا فنؤمن بك، فإن خفت الروم منعهم الله عنك، وما يثرب من مدن الأنبياء»، فقيل: خرج مرحلة أو ثلاثة أميال أو إلى ذي الحليفة، روايات، وانتظر أصحابه، فنزلت الآية، فرجع، وقتل عن قريب قريظة وأجلى النضير.

[قلت:] **وأرى هذا باطلا،** حاشاه أن يخرج من المدينة مع عزَّته وعزَّة أصحابه فيها ودين الله لقول اليهود دون انتظار أمر الله ﷻ، وليس ذو الحليفة طريقا إلى الشام، **وزعم بعض** أنَّه غزا تبوك مريدا للشام، وَلَمَّا بلغ تبوك نزل: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ...﴾ وأمر بالرجوع إلى المدينة، ففيها محياك ومماتك، ومنها تبعث، والأرض في هذا القول أرض المدينة.

وقيل: اهتمَّ المشركون كلُّهم أن يخرجوه من أرض العرب، فالأرض أرض العرب، وقيل: إخراجه من الأرض قتله؛ إذ أجمعوا عليه في دار الندوة، فيتبادر أنَّ الأرض الدنيا.

﴿**سُنَّةَ مَن قَدَ اَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا**﴾ أي: تذكَّر سنَّة، أو: لا تنس سنَّة، فإنَّها تصيبهم على إخراجك، أو اتَّبع سنَّة، أو سنَّ الله سنَّة، أو سنَنَّا سنَّة، أو كسنَّة، والسنَّة: **إهلاك كلِّ قوم أخرجوا نبيئهم من بين أظهرهم مرَّتين** ولو بتسبُّب في خروجه، أو إخراج من بعضهم وتسبُّب لإخراج من بعض. والسنَّة لله وأضيفت للرسل أو لأممهم، على تقدير: سنَّة أمم من قد أرسلنا، لأنَّها

لأجلهم، وقيل: اتَّبِع سـنَّة من قد أرسلنا، كقوله سبحانه: ﴿فَبِهُدَاٰيهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [سورة الأنعام: 90] لا تتغيَّر ولو اشتدَّ الأمر، وما تقدَّم أولى، وهو أنسب بقوله:

﴿**وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً**﴾ تغييرا أو تبديلا، فلو أخرجوك لم يلبثوا خلفك إلَّا قليلا، كما هو عادتنا مع من قبلهم، والمراد بنفي وجود التحويل نفي حصول التحويل.

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۝٧٨ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ۝٧٩ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ۝٨٠ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ۝٨١ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ۝٨٢ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ۝٨٣ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ۝٨٤ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۝٨٥﴾

أوامر وتوجيهات للنبيء ﷺ

وَلَمَّا ذكر يوم الشدَّة والحساب بقوله ﷻ: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ...﴾ وذكر شدَّة عداوتهم وكيدهم بقوله ﷻ: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ...﴾ أمره بالتقوّي على ذلك والتخلُّص من سوئه بإقامة الصلاة التي هي أفضل العبادة فقال:

﴿**أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ**﴾ كقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا...﴾ [سورة طه: 130] وقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ [سورة الحجر: 98].

ودلوكها ودلوك القمر والنجم: ميلهنَّ عن وسط السماء في جميع الفصول، وهو زوالهنَّ عنه، كما قال ﷺ: «**أتاني جبريل لدلوك الشمس حين**

زالت فصلَّى بي الظهر». قال جابر بن عبد الله: طعم عندي رسول الله ﷺ وأصحابه، ثمَّ خرجوا حين زالت الشمس، فقال ﷺ: «**هذا حين دلكت الشمس**»[1] وهذا هو الصحيح وعليه الجمهور.

[لغة] وروي عن عليٍّ وجماعة من الصحابة أنَّ الدلوك الغروب، والشمس تدلك من الأفق الظاهر إلى الأفق الباطن، ومادَّة «د.ل.ك» وما أوَّله دال فلام لمعنى الانتقال، كدلج: مشى مقارب الخطو لثقل الحمل، ودلج بمعنى: مشى بالدلو من البئر إلى الحوض ليفرغها فيه، وسار من أوَّل الليل، ودلع لسانه: خرج، ودلعه: أخرجه، ودلف الشيخ: قارب الخطى، ودلق الرجل: أراق المائع بالقاف، ودله الرجل: تحيَّر، أو ذهب عقله من الهوى، ودلهه: حيَّره، ودلك بدنه أو ثوبه مثلا في الغسل حكَّه، ودلك الناظر للشمس عينه ليقوى على شعاعها، وقد قيل: سمِّي دلوك الشمس لهذا، فأضيف إليها لأنَّها السبب.

واللام بمعنى «مِن» الابتدائية، فشمل أربع صلوات يؤدِّي كلاًّ في وقتها، وغسق الليل: شدَّة ظلمته، لا خمسا كما قيل، لأنَّ الفجر في غير وقت شدَّتها، ولذكره في قوله: ﴿وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ﴾، وإن سلَّمنا أنَّ وقته غسق لبقاء ظلمة الليل معه لم يتِمَّ لأنَّه يجوز في إسفار، بل نُدِبَ لحديث: «**أسفروا بالفجر فإنَّه أعظم للأجر**»[2] ولو دخلنا أوَّله وأطلنا إلى إسفاره.

وإن حملنا الدلوك على الغروب شمل المغرب والعشاء فقط، وقيل والفجر كما مرَّ آنفا، والغاية داخلة على ذلك كلِّه. وقيل: اللام للتوقيت، بمعنى «بَعْدَ»، فشمل الظهر والعصر فقط، وكذا إن قلنا بمعنى «في»، وبيَّن

---

(1) أورده **الطبري** في تفسيره: ج 15، ص 93.

(2) رواه **النسائي** في كتاب المواقيت (27) باب الإسفار، رقم 547 و548. ورواه **أبو داود** في كتاب الصلاة، باب في وقت الصبح، رقم 424 بمعناه مطوَّلا. و**الترمذي** في كتاب الصلاة (117) باب ما جاء في الإسفار بالفجر، رقم 154 مطوّلا. عن حديث رافع بن خديج.

الشـــرع وقت كلٍّ منهما ترجيحا، وأباح دخول إحداهما فـــي وقت الأخرى، فنقول: غســـق الليل أوَّل ظلمته، وهو آخر وقت العصـــر، ولو لم يدخل وقت المغرب، فلم تذكر المغرب والعشاء في الآية.

وقيل: إنَّ المراد الغروب فقط وإنَّ غســـق الليل غيوب الشفق الأبيض في مواضع غيوبته، وهو آخر الوقت.

[فقه] روي عنه ﷺ أنَّه: «**جمع بين الظهـــر والعصر نهارا، وبين المغرب والعشـــاء ليلا في الحضر بلا غيم ولا مطر ولا خوف**»[1] وذلك لنعلم باشتراك الظهر والعصر مـــن أوَّل الظهر إلى قدر ما تُدرَكَانِ فيـــه من آخر وقت العصر، وذلك **تســـهيل وقلَّله** [ﷺ]، وكثَّر إيقاع كلٍّ في وقتها لِئَـــلا نكثر فعل ذلك، وكذا المغـــرب إلى أن يبقى من آخر وقت العشـــاء ما تـــدركان فيه مع الوتر، **فالجمع فيما ذكر جائز لمـــن لا يَتَّخِذُه عادة**. وجاء الحديث: «**إنَّ الشـــفق هو الأحمر**»، اختـــاروا أنَّه موقوف على ابن عمر، وفسَّـــره بعـــض بالأبيض، فلا يصلَّى العشاء حتَّى يغيب. و«الأحمر» خبر «إنَّ».

﴿**إِلَىٰ غَسَـــقِ اللَّيْلِ**﴾ شدَّة ظلمته، وهو وقت العشـــاء، حين تظهر النجوم الصغار، متعلِّق بـ«أَقِمْ» أو بحال من الصلاة محذوفة جوازا لا وجوبا لكونها كونا خَاصًّا، أي ممدودة إلى غســـق الليل، وأصل الغسق: السيلان كأنَّ الظلمة تنصبُّ علـــى العالم ﴿**وَقُـــرْءَانَ الْفَجْرِ**﴾ صلاة الفجر، ســـمِّيت باســـم جزئها الأعظم وهو القرآن.

[فقه] [قلت:] ولا يدفع وجوب القـــراءة في الصلاة إلَّا جاهل، ولا يدفع كونها ركنا في الصلاة إلَّا مقلِّد. ولا مانع من تفسير ﴿قُرْءَانَ الْفَجْرِ﴾ بما يقرأ في صلاة الفجر.

---

(1) رواه **الربيع** في كتاب الصلاة، باب القران في الصلاة، رقم 251. ورواه **أحمد** في مسند بني هاشم، رقم 1852. من حديث ابن عَبَّاس.

[فقه] وينبغي الدخول فيها أوّل ما ينتشر، كما فعل ﷺ بالإغلاس وإطالة القراءة إلى الإسفار، كما قال ﷺ: «**أسفروا بالفجر فإنَّه أعظم للأجر**»[1] فتجتمع ملائكة الليل بالإغلاس وملائكة النهار بالإسفار، وليس كلَّ يوم يغلس حتَّى تخرج النساء ولا يعرفن، بل يفعل تارة وغيره أخرى، لئلَّا يدوم على حال فيتوهَّم أنَّها واجبة، ومن شاء أيضا أسفر بحيث لا يخاف الطلوع، ولو بلا إغلاس بنية ثواب الإسفار.

والعطف على الصلاة فلا حاجة إلى تقدير «أقم»، كما سمِّيت ركوعا لأنَّه أوَّل ما يبدو للناظر منها، وسمِّيت سجودا لأنَّه أشدُّ خضوعا وظهورا، ولا حاجة إلى تقدير: الزم، أو عليك، لإغناء «أَقِمْ»، واسم الفعل لا يعمل محذوفا.

﴿**إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا**﴾ إنَّ صلاة الفجر تشهدها الملائكة، وجاز التذكير مع أنَّ معناه: «صلاة» مراعاةً للفظه، تقول: جاء إنسان بالتذكير مع أنَّه امرأة ويجوز جاءت.

ويقال: ملائكة الليل وملائكة النهار يجتمعون في صلاة الصبح خلف الإمام، وكذا خلف الفذِّ، فإذا سلَّم المصلِّي عرج ملائكة الليل وقالت: يَا رَبِّ تركنا عبادك وقد صلُّوا، وإذا صعد ملائكة النهار قالوا كذلك، وأعمُّ من هذا ما شهر أنَّهم كلُّهم يقولون: «أتيناهم وهم يصلُّون وتركناهم وهم يصلُّون» إلَّا أنَّ هذا قبل الفراغ، ويقول الله ﷻ في ذلك كلِّه: «**اشهدوا أنِّي قد غفرت لهم**»[2] والحديث جاء بذلك.

---

(1) تَقَدَّمَ تخريجه، انظر: ص 237.

(2) الحديث كما أورده **البخاري** ـ في كتاب مواقيت الصلاة (15) باب فضل صلاة العصر، رقم 530 و3051 و6992، من حديث أبي هريرة ـ هو: قوله ﷺ: «يَتعاقَبونَ فِيكمْ مَلائِكَةٌ بالليلِ ومَلَائِكةٌ بالنَّهارِ، ويجتمعونَ في صلاةِ الفَجرِ وصلاةِ العصر، ثمَّ يَعرُجُ الذينَ باتوا فِيكمْ، فيَسْأَلُهُمْ ـ وهوَ أَعلمُ بهم ـ: كيفَ تَركتُمْ عِبادِي؟ فيَقُولونَ: تَركْنَاهمْ وهم يُصَلُّونَ، وأَتيناهُمْ وهم يُصَلُّون».

ولا حاجة إلى ما قيل: تشــهده شــواهد القدرة من تبدُّل الظلمــة بالضياء، والنوم المشابه للموت بالانتباه، وكذلك المصلِّي يشاهد ذلك، ويخرج من ظلمة المعصية والغفلة بضوء الصلاة كضوء الفجر، وكالخروج من العدم إلى الوجود، ولا يقدر على ذلك إلَّا الله ﷻ، [قلت:] ولا يجوز تفسير القرآن بمثل ذلك.

أو يشهده كثير من المصلِّين عادة كذا قيل، أو من شأنه أن يشهده الكثير، وفي الوجهين إغراء بصلاة الجماعة، كما اســتدلَّ بعض على وجوب القراءة في صلاة الفجر بهذه الآية، ويقاس عليها سائر الصلوات، سواء في الاستدلال فسَّــرنا ﴿قُرْءَانَ﴾ بظاهره أو بالقراءة، وخصَّ بعضهم الاســتدلال بما إذا فسِّر بالقراءة، وأخطأ من لم يوجبها فقد قــال ﷺ: «**لا صلاة إلَّا بفاتحة الكتاب**»[1] أي في كلِّ ركعة، ويزاد غيرها في محلِّه.

وخصَّ صلاة الفجر لحضور القلب فيها لاستراحته بنوم الليل، وللتمهيد لها بقيام الليــل، وينعكس نور كلِّ قلــب إلى الآخر من قلــوب الحاضرين، بأشــعة أنوار معرفة الله ﷻ، كالمرايا المتقابلة، وكلُّ يوم تشــهده ملائكة غير الملائكة الآخرين، أو ملائكة مخصوصة ترجع، قولان.

﴿**وَمِنَ الَّيْلِ**﴾ أي في الليل كلِّه أو بعضه كما قيــل «مِنْ» للتبعيض متعلِّق بقوله: ﴿**فَتَهَجَّدْ**﴾ على أنَّ الفاء صلة، أو في جواب، إمَّا مقابلة لقوله: ﴿**لِدُلُوكِ الشَّمْسِ**﴾ «وصلاة الفجر»، أو بمحذوف نعت لمحذوف، أي: وزمانا ثابتا من الليل، وهذا الزمان متعلِّق بـ«تَهَجَّدْ».

[نحو] وقد قال بعض: إنَّ «مِنْ» التبعيضية اســم، [قلــت:] والصحيح أنَّ «مِنْ» التي للتبعيض لا تكون اســما، فلا يُرَدُّ على من لم يقبل اسميَّتها بقول

---

(1) أورده **أبــو نعيم** فــي الحليــة: ج 7، ص 124 وأوَّله قولــه: «أمرني النبــيء ﷺ أن أنادي لا صلاة...». ورواه **أبو عوانة** في مسنده: ج 2، ص 125. من حديث أبي هريرة.

من يقول، إذ لا يُردُّ قول مجتهد بقول آخر، فلا إغراء اصطلاحيًا في ذلك، فإنَّه بالاسم أو بنحو «عليك».

[صرف] والتهجُّد: إزالة الهجود وهو النوم، كالتأثُّم لمجانبة الإثم، والتحرُّج لإزالة الحرج، أَزِل النوم، فالتفعُّل هنا للسلب، وأجيز أن يكون للتكلُّف وهو أكثر في التفعُّل، فيكون المعنى تكلَّف الهجود أي اليقظة، إلَّا أنَّ الهجود بمعنى اليقظة غير مسلَّم، إلَّا بمعنى إزالة النوم فيرجع للسلب.

﴿**بِهِ**﴾ أي بالقرآن وهو غير قرآن الفجر، على طريق الاستخدام، فإنَّ القراءة في صلاة الفجر غير القراءة في الليل، ولو اتَّحَدَ المقروء. أو الباء بمعنى في، والهاء لليل، أو الفاء عاطفة على محذوف، أي قم من الليل، أو اسهر فيه متهجِّدا، ومعنى «تَهَجَّدْ» على هذا: اعبد الله أو صلِّ، وهو مجاز ـ على هذا ـ لغويٌّ، وقيل: الهجود مشترك بين النوم ليلا والصلاة فيه، ولا يصحُّ هذا فإنَّ الهجود حقيقة في النوم إلَّا إن أريد بالاشتراك أنَّه يقع بمعنى النوم لغة، والصلاة شرعا.

﴿**نَافِلَةً لَّكَ**﴾ أي فريضة زائدة لك دون أمَّتك، فإنَّها لم تفرض عليهم، أو فضيلة على الصلوات المفروضة واجبة على نسخ وجوبها عليه، وقيل أمره بقيام الليل ندب، وقيل: وجوب لم ينسخ، وأفعاله لزيادة الثواب، وأفعال أمَّته لتكفير الذنوب، وقيل: وجب عليها ثمَّ نسخ بالصلوات الخمس، وبقي عليه ﷺ.

والنافلة على كلِّ حال: الزيادة، مصدرٌ على وزن فاعل، كالعاقبة والعافية، وهو مفعول مطلق، أي تنفَّل به نافلة. و«لَكَ» نعت «نَافِلَةً»، قيل: أو مفعول لـ«تَهَجَّدْ» بمعنى صلِّ، أي: فصلِّ به نافلة، ﴿**عَسَىٰٓ أَنْ يَّبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا**﴾ اتَّفَقَ المفسِّرون **أنَّ** «عَسَى» **من الله قطع، لأنَّه وُضع للإطماع**، والترك مع الإطماع عيب، تعالى الله عن العيب.

قال أبو هريرة قال رسـول الله ﷺ: «**المقام المحمود هو المقام الذي أشفع فيه لأمَّتي**»[1] رواه أحمد والترمذي والبيهقي والطبري، ويروى: يشفع فيه لأهل المحشـر كلِّهم فيذهبون عنه إلى منازلهم في الجَنَّة والنار، وعلى كلِّ حال هو مقام يحمده فيه الأوَّلـون والآخرون، لاختصاصه يوم الشـدَّة بما ليس لغيره. وجاء في الحديث: «**إنَّ الشمس تدنو فيبلغ العرق نصف الأذن، فيستغيثون بآدم للشـفاعة فيذكر أكله من الشـجرة، فيردُّهم إلى نوح، فيذكر دعاءه على قومه، وهكذا حتَّى يردَّهم إبراهيـم لقوله: ﴿هَذَا رَبِّي هَـذَآ أَكْبَرُ﴾** [سـورة: الأنعام: 78] **و﴿إِنِّي سَـقِيمٌ﴾** [سـورة الصافَّات: 89] **وإنَّهَا أختي، ويردُّهم موسـى لقتل القبطي** [سورة القصص: 15]**، وعيسى لعبادة قومه له، فيقول سـيِّدنا محَمَّد: أنا لها، أنا لها، فيشـفع، ويسـجد عند العرش أو تحتـه أو عند بـاب الجنَّة أربع سـجدات كسجدات الصلاة، فيقال له: سَلْ تُعطَ واشفع تشـفَّع وقل يُسمع» فذلك المقام المحمود**[2]، وإنَّه يرفع رأسه من السجود، ويقول: يا ربِّ أمَّتي فيقال: أدخل من لا حساب عليهم منها من الباب الأيمن، وهم شركاء غيرهم في سائر الأبواب.

[أصول الدين] وروى قومنـا من أقوال المقام المحمـود: أنَّه يجلس الله معه في الكرسـي، وهـو حديث مكـذوب تعالـى الله عن الجهات السـتِّ والحلول، وأن يحويه مكان أو زمان، وذلك يستلزم أنَّه جسم، والجسم لا بدَّ له من محدث، فلزم هؤلاء وصفه تعالى بالحدوث، وصفات الخلق، فلو صحَّ الحديث لفسَّرناه بمجرَّد التعظيم.

[نحو] واسـم الزمان والمكان الميمي لا ينصب على الظرفيَّة إلَّا بعامل من لفظه ومعنـاه، فـ«مَقَامًا» ظرف لمحذوف، أي: فتقـوم مقاما محمودا، أو

---

(1) رواه **أحمد** في كتاب مسـند المكثرين، رقم 9307. **والترمذي** في كتاب التفسـير (18) باب تفسير سورة الإسراء، رقم 3137. من حديث أبي هريرة.

(2) رواه **البخاري** في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا...﴾ رقم 3162 من حديث أبي هريرة مع اختلاف في اللفظ.

يضمَّن «يَبْعَثَ» معناه فينصبه، وأجاز الكسائي أن يعمل فيه عامل من غير لفظه ومعناه، أو ناصبه حال محذوفة، أي: يبعثك ربُّــك قائما مقاما محمودا، وهذا أولى من تقدير: ذا مقام محمود. ويجوز أن يكون مصدرا ميميًّا مفعولا مطلقا، أي: قائما قياما محمودا.

﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ لَمَّا كان المقام المحمود مبنيًّا على الموت ودخول القبر والخروج منه، أمره الله ﷻ أن يقول يا ربِّ أدخلني القبر إدخال صدق بأن أكــون على رضاك، وأخرجني منه عند البعث إخراج صدق على طبق رضاك، فألقى الكرامة.

[صرف] و«مُدْخَــل» و«مُخْرَج» مصــدران ميميَّان مــن «أَفْعَلَ» مفعولان مطلقان؛ ويجوز أن يكــون الأوَّل ظرفــا ميميًّا منه أيضــا، أي موضع دخول صدق، والثاني مصدرا مفعولا مطلقا، ويجوز أن يكون ظرفا أيضا بأن يســمَّى القبر موضع خروج صدق.

أو لَمَّا كادوا يســتفزُّونه من أرض مَكَّة أمره الله بالهجرة، وأن يقول: «ربِّ أدخلني المدينة إدخال صدق، وأخرجني من مَكَّة إخراج صدق»، أو «أدخلني الغار إدخال صدق، وأخرجني منه إخراج صــدق»، أو هما ظرفان كما مرَّ، أو أمره الله ﷻ أن يقــول لفتح مَكَّــة: ربِّ أدخلني مَكَّة مدخل صــدق بالفتح، وأخرجني منها إلى المدينة إخراج صدق، والظرفيَّة جائزة.

وفسَّــر بعضٌ الصدقَ بالمرضيِّ، أو إخــراج الصدق من مَكَّــة بالهجرة: إخراجه مع أنَّه مخلــص لله لا يلتفت قلبه إليها، أو إخراجــه منها عند الفتح: السلامة من أذى المشــركين، وكذا إدخاله الغار وإخراجه منه سالما من أذاهم وَمِمَّا قد يكون في الغار من السوء، على أنَّ دخول الغار بالوحي.

أو المراد: إدخاله في تبليغ الوحي، وإخراجه بالموت، أو بانقضائه مؤدِّيا حقَّه، أو إدخاله وإخراجه في كلِّ ما يحاوله من الدين والمباح وسائر أحواله.

﴿وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا﴾ حجَّة قَويَّة على من خالفني، أو ملكا قاهرا للكفر، أو كتابا يحوي الحدود والأحكام، أراد إتمام القرآن على ذلك، أو أراد التسليط بالسيف على أهل الشرك، وإقامة الحدود على أصحابها، أو سلطانا في كُلِّ عصر يقيم الدين، وزعم بعض أنَّه هو فتح مَكَّة.

﴿نَّصِيرًا﴾ ينصرني على من خالفني وعلى المشركين، وقال: ودعا في ذلك كلِّه فاستجاب الله ﷻ له ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [سورة المائدة: 56] ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [سورة التوبة: 33] ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الَارْضِ﴾ [سورة النور: 55] ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [سورة المائدة: 67]، وملَّكه فارس والروم.

و«نصير» صفة مبالغة، أي كثير النصر أو عظيمه، وإسناد النصر إلى السلطان مجاز، أو بمعنى منصور.

ويتقوَّى أنَّ الدخول والخروج عند الفتح بقوله ﷻ: ﴿وَقُلْ﴾ عند دخول مَكَّة بالفتح ﴿جَآءَ الْحَقُّ﴾ أي الإسلام، وهو شامل للقرآن والجهاد وعبادته ﷻ ﴿وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ ذهب الكفر، واستعمل لفظ المقيَّد ـ وهو الذهاب المقيَّد بكونه ذهاب الروح ـ في مطلق الذهاب، واستعمل منه ذهاب الباطل، أو شبَّه ذهابه بذهاب الروح، فيبقى صاحبها ميِّتا لا فعل له، ورمز إلى ذلك بلفظ الزهوق الموضوع لذهابها. ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ سبق القضاء بزهوقه.

[سيرة] قال ابن مسعود رضي الله عنه: دخل رسول الله ﷺ يوم الفتح وحول الكعبة ثلاثمائة وَسِتُّونَ صنما، فجعل ينكث في عين كلِّ واحد بعصا صغيرة في يده، ويقول: ﴿جَآءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ فينكبُّ لوجهه. ويروى: ينكث في وجه صنم فيقع على قفاه، وفي قفا صنم فيقع على وجهه، مع أنَّها مثبَّتة بالرصاص والحديد، وبقي صنم لخزاعة من صُفْرٍ أصفر، لا تناله العصا فوق الكعبة، فقال: يا علي ارم به، فصعد فرمى به وكسره. ومن أراد البسط فعليه بقصَّة فتح مَكَّة.

ومن ذلك أنَّه ﷺ حمل عليًّا فأسقطه، وقال: لو شئت لنلت السماء حين حملني، وذلك معجزة له ﷺ ذكرها علي، وقد كان يريد أن يحمل النبيء ﷺ فلم يقدر.

﴿**وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ**﴾ في الدين ﴿**وَرَحْمَةٌ لِّلْمُومِنِينَ**﴾ دنيا وأخرى. و«مِنْ» للابتداء، فَكُلُّ ما جاء من القرآن إلى سيِّدنا محَمَّد فهو شفاء ورحمة للمؤمنين، أو للتبعيض فكلُّ بعض جاء منه فهو شفاء ورحمة إلى أن تتمَّ أبعاضه، أو للبيان، وأنكره أبو حيَّان لتقدُّمها على المبيَّن، وأجازها في غير ذلك، ولم يمنع «مِنْ» البيانية مطلقا.

أو أنَّها للتبعيض على معنى أنَّ بعضه للشفاء من المرض، كالفاتحة وآيات الشفاء، وهنَّ ستٌّ: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ...﴾ [سورة التوبة: 14] ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ [سورة يونس: 57] ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [سورة النحل: 69] ﴿وَنَنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ...﴾ [سورة الإسراء: 82] ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ...﴾ [سورة الشعراء: 80] ﴿قُلْ هُوَ لِلذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [سورة فصلت: 44].

اشتدَّ ولد القشيري مرضا أشفى به على الهلاك، فقيل له في المنام: «اكتبهنَّ في إناء واجعل فيه مشروبا واسقه يبرأ» ففعل فبرئ بإذن الله ﷻ. [قلت:] والله لا يرى في المنام ولا في اليقظة، وكفر من قال بغير ذلك[1].

والتحقيق في تفسير الآية أنَّ القرآن شبيه بالدواء للمريض، والجهل وسوء الاعتقاد شبيه بالمرض، فهو مزيل لأمراض القلب، وهذا أولى، لأنَّ القرآن نزل بالذات لذلك، وأمَّا شفاء المرض فتابع إذا تُوُسِّل به من قلبٍ صفيٍّ. وداوى صحابيٌّ بالفاتحة فقال ﷺ: «**ما أدراك أنَّها رقية؟**» وصدقه وأجاز له[2].

---

(1) يردُّ على راوي الحادثة أنَّ القشيري رأى الله في المنام.

(2) يشير الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ إلى الحديث الذي أورده **البخاري** ـ وغيره ـ في صحيحه في كتاب الإجازة (16) باب ما يعطى في الرقية على أحياء العرب بفاتحة الكتاب، رقم 2156. من حديث أبي سعيد.

[فقه] ويجوز الاستشـفاء بالقرآن تعليقا وغسلا ومسحا بالغسالة وشربا، ولو بفعل الإنسان ذلك بنفسه لنفسه، كما كان ﷺ يقرأ وينفث في يديه ويمسح بهما جسده، وينزع ما علَّق إذا أراد الكنيف أو الجماع، أو يستره كما ورد أنَّه ﷺ يُخفي نقش خاتمه إلى باطن كفه عند قضاء حاجة الإنسان، ولا يكتب دفعا لمرض قبل نزوله، وأجازه بعض كما جاز الدعاء.

ونهى ﷺ عن النشرة يعني ما تكتبه الجَاهِلِيَّة لا يعرف معناه، وفي الخبر «لا شفى الله من لم يستشف بالقرآن».

[قلت:] ووجه كون القصص والأخبار شفاء لمرض القلب أنَّها تتضمَّنُ الثواب والعقاب في الدنيا، وكشف الغيب، وتفيد الاتِّعاظ بها والثواب بقراءتها[1].

﴿**وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا**﴾ لتكذيبهم به، إذ كلَّما نزل شيء منه كذَّبوا به، فذلك زيادة خسار وهو فساد الدين، بخلاف المؤمنين، فكلَّما نزل شيء منه آمنوا به، فذلك رحمة بازدياد الإيمان والثواب، وأيضا عدم انتفاع الكافر به خسار، وعن قتادة: «لم يجالس القرآن أحد إلَّا قام عنه بزيادة أو نقص، قضى الله الذي قضى: ﴿شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُومِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾»[2].

كماء صار في الأصداف درًّا ... وَفِي ثَغْرِ الأَفَاعِي صَارَ سمًّا

وفي ذكر الشفاء رمز إلى الاستعارة بالكناية، أو في لفظ «شِفَاءٌ» استعارة تصريحيَّة.

﴿**وَإِذَآ أَنْعَمْنَا**﴾ بِالصِّحَّةِ في بدنه وسعة المال والجاه ﴿**عَلَى الِانسَانِ**﴾ المعهود بالكفر مطلقا، أو الوليد بن المغيرة، ذكر الإنعام لأنَّه مراد بالذات، والشرُّ لعارض، أو [المراد] الجنس اعتبارا لحال الأكثر، ويكفي الوجود ولو في القليل، ولا يناقضه عدمه في الباقي.

---

(1) وهذا ما يؤيِّده علم النفس.

(2) رواه **الدارمي** في سننه، باب في تعاهد القرآن، رقم 3407.

﴿أَعْرَضَ﴾ زاد إعراضا عن ذكر الله، أو عن كلِّ نعمة تقتضي شكرا، وهذا أولى من أن يؤوَّل بـدَامَ على الإعراض ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ لوى عطفه عنه كأنَّه مستغن عن الله وعن نعمه، مستقلٌّ بنفسه، فضلا عن أن يشكرها.

أو ذلك كناية عن التكبُّر، فإنَّ الإعراض بالجنب من عادة المتكبِّر، أو ﴿نَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾: أعرض بنفسه أي بذاته، يقال: جاء من جانب فلان كذا، أي من فلان، وأصل النأْيِ: البعدُ، وفي الإعراض بالجانب بعض البُعْد.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ الفقر أو المرض أو الذلُّ أو أمر ممَّا يكره ﴿كَانَ يَـُٔوسًا﴾ عظيم الإيَّاس، وقد علمت أنَّ ذلك في الكافر المعهود، أو في الجنس باعتبار أكثر الحال وأكثر الناس.

﴿قُلْ كُلٌّ﴾ أي كلُّ أحد ﴿يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ على طريقته التي تشاكل حاله في الهدى والضلال، أي تماثل حاله، فمن كان حاله الاهتداء فعادته السداد دائما، أو في الأكثر، أو الضلال فبعكس ذلك. سمِّيت الطريقة شاكلة لتلك المشاكلة، أي المشابهة لحاله في الهدى والضلال، وإن شئت فقل: على طريقته التي تشبه حاله في السعادة أو الشقاوة المكتوبة في اللوح المحفوظ، من الهدى والضلال، أو تشبه حاله في علمه وقضائه الأزلي.

روى البخاري ومسلم عن عديٍّ بن حاتم رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «**ما منكم من أحد إلَّا وقد كتب مقعده من النار، ومقعده من الجنَّة**» فقالوا: يا رسول الله أفلا نتَّكل على كتابنا؟ فقال: «**اعملوا فكلُّكم ميسَّر لِمَا خلق له، وأمَّا من كان من أهل السعادة فييسَّر لعمل السعادة، وأمَّا من كان من أهل الشقاوة فييسَّر لعمل الشقاوة**» **ثمَّ قرأ:** ﴿**فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ...**﴾ [سورة الليل: 5ـ7][1].

(1) رواه **البخاري** في كتاب التفسير (6) باب قوله: ﴿وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ رقم 4948 و4949، من حديث عبد الرحمٰن السلمي. **والتبريزي** في كتاب الإيمان (3) باب الإيمان بالقدر، رقم 85 (7)، من حديث عليٍّ كرَّم الله وجهه.

وفسَّر البخاري الشاكلة بالنية، وبعض بالطبيعة، وبعض بالدين، وبعض بالعادة، ومن مشهور الكلام: «العادات قاهرات»، وأجيز تفسير الشاكلة بالروح وأحوالها التابعة لمزاج بدنه، فذو النفس الطاهرة يصدر منها الإيمان والإسلام، وذو النفس الخبيثة غير ذلك.

والنفوس مختلفة بالماهية، واختلافُ أحوالها وأفعالها لاختلاف جواهرها وماهياتها، وقيل: متساوية بالماهية، واختلافُ أفعالها لاختلاف أمزجة أبدانها، ويدلُّ للأوَّل أنَّ الله ﷻ بيَّن أنَّ القرآن بالنسبة إلى البعض يفيد الشفاء والرحمة، وبالنسبة إلى البعض يفيد الخسار، وأتبعه بقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ بمعنى أنَّ النفوس الطاهرة يليق بها أن يظهر فيها بالقرآن آثار السعادة، والخبيثة على عكس ذلك، ويبحث بأنَّ القرآن يناسب القول الثاني أيضا لأنَّ اختلاف الأمزجة كاف في ذلك، وأيضا قد يقال من أين اختلاف الأمزجة؟ لم لا تكون واحدة؟ فما تقولون؟.

[أصول الدين] والصواب ما أثبته ابن مالك في تفسير حديث: «**اعملوا فكلُّكم ميسَّر...**» من أنَّ السبيل إلى معرفة ذلك التوقُّف، فمن عدل عنه وأجال فيه العقل ضلَّ، لأنَّ القدر سرٌّ ضُرِب دونه الستر، لم ينكشف لأحد من الأنبياء والأولياء، يعني أنَّ حقيقة الإنسان لا تقتضي لذاتها سعادة ولا شقاوة، وإنَّما هما بأمور خَارِجِيَّة سبق بها القضاء، فالتيسير لِمَا خلق له على هذا: التيسير إلى ما سبق به القضاء، وعلى القولين السابقين: التيسير إلى مقتضى جواهرها أو الأمزجة.

وقد يقال: أصل الإنسان الطاعة لقوله: «بلى» بعد قوله ﷻ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ...﴾ [سورة الأعراف: 172] ومعصيته بعوارض، كصحيح البدن يمرض بالعوارض، والأنبياء والكتب أطبَّاء، وفي الحديث القدسي: «**إِنِّي خَلَقْتُ عبادي كلَّهم حنفاء، وأتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم**»[1] وعنه ﷺ: «**كلُّ**

(1) رواه **الطبراني** في الكبير: ج 17، ص 263. **والسيوطي** في الدر: ج 4، ص 220.

مولود يولد على فطرة الإسلام، ثمَّ أبواه يهوِّدانه وينصِّرانه ويمجِّسانه»[1] وعن الصدِّيق ﷺ: «لم أر في القرآن أرجى من هذه الآية، لا يشاكل بالعبد إلَّا المعصية ولا بالربِّ إلَّا الغفران». وقال عمر: «﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ [سورة غافر: 3]» وقدَّم الغفران على قبول التوبة. وقال عثمان: «﴿نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [سورة الحجر: 49]». وقال عليٌّ: «﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ [سورة الزمر: 53]». وعن محمَّد بن الحَنَفِيَّة: «أرجى آية عندكم أهل العراق قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الذِينَ أَسْرَفُواْ...﴾ [سورة الزمر: 53] وعندنا أهل البيت: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [سورة الضحى: 5]». وقال أبو عثمان النهدي[2]: «﴿وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ [سورة التوبة: 102]». وعن عليٍّ: «﴿وَمَآ أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ بِمَا كَسَبَتَ اَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾ [سورة الشورى: 30]». فالمصائب بكسب الأوزار فإذا عاقبه الله في الدنيا فالله أكرم من أن يعذِّبه ثانيا، وإذا عفا عنه في الدنيا فهو أكرم من أن يعذِّبه في الآخرة».

﴿فَرَبُّكُمُۥ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلاً﴾ أسدُّ طريقا فيثاب عليه، و«أَهْدَى»: اسم تفضيل من الخماسي، وهو الاهتداء على خلاف القياس، وحذف الزائدان: همزة الوصل والتاء، أو من «هَدَى» الثلاثي اللازم بمعنى اهتدى.

[سبب النزول] ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ أي اليهود عند ابن مسعود ﷺ، والدليل معرفته ﷺ بالسائلين ولو لم يتقدَّم ذكر اليهود قريبا، أو قريش بتعليم اليهود عند ابن عَبَّاس ﷺ، إذ قالوا لقريش تعنُّتا: اسألوا محَمَّدًا عن الروح، ويناسب الأوَّل قوله ﷻ: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ لأنَّ المتَّصفين بالعلم اليهود لا قريش.

---

(1) تقدَّم تخريجه، انظر: ج 2، ص 338.

(2) أبو عثمان النهدي عبد الرحمٰن بن مَلِي بن عمرو البصري، مخضرم معمَّر أدرك الجَاهِلِيَّة والإسلام، غزا في خلافة عمر غزوات. وثَّقه ابن المديني، وأبو زرعة وجماعة، وكان من سادة العلماء العاملين، مات سنة 95هـ. **تهذيب سير أعلام النبلاء**، ج 1، ص 140.

قال ابن مسـعود رضي الله عنه: بينما أنا أمشي مع رسـول الله ﷺ وهو يتوكَّأ على عسـيب، فمرَّ بنفر من اليهود فقال بعض لبعض: اسـألوه عـن الروح، وقال بعض: لا، لئلَّا يجيء بما تكرهونه، وقال بعض: اسـألوه، فقام رجل منهم، فقال: يا أبا القاسم ما الروح؟ فسكت، فقلت يوحى إليه، فقمت، فلمَّا انجلى عنه قال: ﴿وَيَسْـئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ...﴾الآيـة، فقال بعضهم: قد قلنا لكم لا تسألوه، وهذا في المدينة.

وقال ابن عَبَّـاس رضي الله عنه: اجتمع قريش أي في مَكَّـة، وقالوا: إنَّ محَمَّدًا نشـأ فينا بالأمانة والصدق، وما اتَّهمناه بكذب قطُّ، فابعثوا نفرا إلى اليهود بالمدينة واسـألوهم عنه فإنَّهم أهل كتاب، فبعثوا جماعة، منهم النضر بن حارث، وعقبة بن أبي معيط، وهما أكبر الجماعة، فاقتصر بعضهم عليهما، أو هما المراد بالجماعة، فقال اليهود: اسـألوه عن فتيـة فُقِدوا في الزمان الأوَّل، ما كان أمرهم؟ ولهم حديث عجيب، وعن رجل بلغ شرق الأرض وغربها، ما خبره؟ وعن الروح، فإن أجاب عن ذلـك كلِّه أو لم يجب عن شـيء فليس نبيئا، وإن أجـاب عن اثنين فقـط فهو نبيء، فسـألوه ﷺ، فأخبرهم بأصحـاب الكهـف وذي القرنين بعدمـا رجعوا إليـه في مَكَّة وسألوه، فذلك سؤال وقع في مَكَّة، ووقع بعد الهجرة، والذي تلبَّث الوحي فيه هو سؤالهم بِمَكَّة.

[سيرة] كما روي أنَّهم سألوه فقال: أخبركم غدا، ولم يقل: «إن شاء الله»، فلبث عنه الوحي اثني عشر يوما، وقيل: خمسـة عشر، وقيل: أربعين، فقالوا: وعدنا أن يخبرنا غدا فلم يخبرنا، وحزن ﷺ، وشـقَّ عليه ذلك، ثمَّ نزل قوله تعالـى: ﴿وَلَا تَقُولَـنَّ لِشَـيْءٍ اِنِّـي فَاعِـلٌ ذَٰلِـكَ غَـدًا اِلَّآ أَنْ يَّشَـآءَ اللَّهُ﴾ [سـورة الكهف: 23ـ24]، ونزل في الفتية: ﴿أَمْ حَسِـبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ...﴾ [سورة الكهف: 9]، وفي ذي القرنين قوله تعالى: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ...﴾

[سورة الكهف: 83]، ونزل ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ ولم يخبره بالروح، وكانت مبهمة في التوراة، فنقول: وقع السؤال في مَكَّة وفي المدينة، وابن عَبَّاس رواه له الصحابة بحسب ما وقع في مَكَّة.

ومعنى سؤالهم عن الروح أنَّهم سألوه عن حقيقتها أو محلِّها من الحيوان، أو أقديمة أم حادثة؟ أمجرَّدة أم حالَّة في متحيِّز؟ أتبقى بعد الموت أم تفنى؟ والظاهر السؤال عن حقيقتها.

[قصص] وزعم بعض أنَّ الروح المسؤولَ عنها ملكٌ هو صفٌّ، والملائكة كلُّهم صفٌّ، وبعضٌ: أنَّه جنس من الملائكة على صورة ابن آدم لا ينزل ملك إلَّا ومعه واحد منهم، وعن مجاهد: لا تراهم الملائكة كما لا نرى الملائكة، وعن سلمان: الجنُّ تسعة أجزاء والإنس جزء عاشر، والملائكة تسعة والجنُّ جزء، والروح تسعة والملائكة جزء، والكروبيُّون تسعة والروح جزء.

وقيل: الروح المسؤول عنه جبريل، كما قال الله ﷻ: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الَامِينُ﴾ [سورة الشعراء: 193]، وقيل: القرآن كما قال ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنَ اَمْرِنَا﴾ [سورة الشورى: 52].

﴿قُلِ الرُّوحُ مِنَ﴾ تبعيضية أو بيانية ﴿اَمْرِ رَبِّي﴾ أجبهم بعارض من عوارضها، إذ لم يعرِّفه الله بحقيقتها وذاتيتها، إذ لم يجعل الله علما بذلك لأحد، كما أجاب موسى عليه السلام من قال: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الشعراء: 23] ولم يقل: قل هي من أمر ربِّي، إظهارا لكمال الاعتبار في شأنها.

[أصول الدين] وفي قوله: ﴿مِنَ اَمْرِ رَبِّي﴾ أنَّها حادثة مخلوقة لله ﷻ، بقول: «كُنْ» وهو أمره، ومعناه: توجُّه الإرادة إلى وجودها، أو خلق الله لَفْظَ «كُنْ» حيث شاء، إلَّا أَوَّل المخلوقات فيتقدَّمه مخلوق، وهو لفظ «كُنْ» على هذا بلا محلٍّ، ولا ناطق به، والصحيح في أمره وقول «كُنْ» توجُّه الإرادة،

على الاســتعارة التمثيليَّة، وأمر ربِّي قوله: «كُنْ» ضدُّ النهي، ويجوز أن يكون ﴿اَمْرِ رَبِّي﴾ بمعنى: شأنه، فيكون بمعنى: أمر من أمور الله.

[أصول الدين] والصحيح أنَّ الأرواح حادثة، يخلقها الله إذا دخل الجنين في الشهر الخامس، وقيل: الأرواح مخلوقة قبل الأجساد كلِّها، كما قيل: أوَّل المخلوقات روح ســيِّدنا محمَّد ونوره، ومــن **قال: الأرواح قديمة، أشــرك**، والقول بأنَّهــا خلقت قبل الأجســاد خطأ عند بعــض المحقِّقين، فيســتثنى روحه ﷺ، وقوله ﷺ: «**ينفخ في الجنين الروح**»[1] لا ينصُّ على عدم ســبقها، لجواز أنَّ الملك يأتي بها من خارج فينفخ بها.

وقيل: ذكر الله الــروح في التوراة وأبهمه عنهم وهــو جبريل، وقيل: خلقٌ أعظم من الملائكة، وقيــل: الوحي، وقد علم ذلك كلَّــه لكن لم يعلم ﷺ أنَّ ذلك هو المراد في التوراة، أو علم فلم يخبرهم ليطابق قولَهم: إنَّه يجيب عن اثنين ويسكت عن واحد.

أو يســألوه ﷺ: كيف جبريل في نفســه؟ وكيف قيامه في تبليغ الوحي؟ فقال: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنَ اَمْرِ رَبِّي﴾ أي: من عَالِمِ الأمر، أو: وجوده بأمره ﷻ، أو تكوينه، أو ينــزل أو يُبَلِّــغ بأمره، كما قــال: ﴿وَمَا نَتَنَــزَّلُ إِلَّا بِأَمْــرِ رَبِّكَ﴾ [ســورة مريم: 64] وقد ســمِّي روحا في قوله ﷻ: ﴿نَزَلَ بِهِ الــرُّوحُ الاَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [سورة الشعراء: 193] وقوله: ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا﴾ [سورة الشورى: 52].

ومرَّ أنَّ الروح ملكٌ أعظم الملائكة، وهو أو جبريل المراد في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَآئِكَةُ صَفًّا﴾ [ســورة النبأ: 38] وأنَّه المراد في السؤال، قال عليٌّ: له ســبعون ألف وجه لكلِّ وجه سبعون ألف لســان، لكلِّ لسان سبعون

---

(1) انظر الحديث الذي أورده **البخاري** في كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم 3036، من حديث ابن مسعود. وَأَوَّلُه قوله ﷺ: «إنَّ أحدكم يجمع خلقه في بطن أمِّه...».

ألف لغة، يسبِّح اللهَ بها، ويخلق الله بكلِّ تسبيحة ملكا، ولا خلق أعظم منه غير العرش، والسماواتُ والأرضون كلقمة له، وهو في صورة الملائكة ووجهِ الإنسان، هو عن يمين العرش يوم القيامة، يشفع لأهل التوحيد، لولا ستر من نور بينه وبين الملائكة لاحترقوا من نوره.

وعن ابن عَبَّاس: الروح جند الله لهم أيد وأرجل، وقيل: عيسى. ويتَّجه تفسير الروح بالقرآن بتقدُّمه في قوله ﷻ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ...﴾ وتأخُّره في قوله: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالذِي...﴾ إلى قوله: ﴿...ظَهِيرًا﴾، سألوه عنه فقال: إنَّه ليس من كلام الخلق، بل من أمر ربِّي، وقد سمَّاه روحا في قوله ﷻ: ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا﴾ [سورة الشورى: 52] وقوله: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَآئِكَةَ بِالرُّوحِ﴾ [سورة النحل: 2]، وكلٌّ من القرآن وجبريل للقلب كالروح للجسد، ومن جملة ما أمر بقوله: قوله تعالى: ﴿**وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً**﴾ تستفيدونه بسمعكم وأبصاركم وسؤالكم وحواسِّكم، ومنها الحواسُّ الباطنة المدركة للوجدانيَّات، ومن فقد حسًّا فَقَدَ علما، ولا يليق بكم معرفة الروح.

والخطاب للناس مطلقا، وقيل: لليهود، قالوا: أوتينا التوراة وفيها العلم الكثير، يدلُّ للأوَّل أنَّه لَمَّا قال لهم: ﴿وَمَآ أُوتِيتُمْ...﴾ قالوا: أنحن مختصُّون بهذا الخطاب؟ فقال: بل نحن وأنتم، فقالوا: ما أعجب شأنك! ساعة تقول: ﴿وَمَنْ يُّوتَ الْحِكْمَةَ فَقَدُ اوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [سورة البقرة: 269]، وساعة تقول هذا، فنزل: ﴿وَلَوَ اَنَّ مَا فِي الاَرْضِ مِن شَجَرَةٍ...﴾ [سورة لقمان: 27]، فإنَّ معلومات الله لا تتناهى.

﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿86﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿87﴾ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿88﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿89﴾﴾

إعجاز القرآن

﴿**وَلَئِن شِئْنَا**﴾ أي لو شـــئنا الذهاب بما كذَّبوا به ﴿**لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ**﴾ وهو القرآن، عبَّر عنه بالذي أوحيناه إليك تعظيما له، والذهاب به أبلغ من إذهابه، نذهبه من الصدور ومِمَّا كتب فيه بلا أثرِ محوٍ، كأنَّه لم يكتب، كما يفعل به آخر الزمان.

[أصول الدين] فنقول: لا دليل على ثبوت الكلام النفســيِّ ولا على أنَّ القرآن كلام نفسيٌّ قديم، وأنَّ هذا المتلوَّ ترجمته، فالقرآن هذه الألفاظ الحادثة المخلوقة القابلة للإفناء.

قال ابن مسعود: «اقرؤوا القرآن قبل أن يرفع، فإنَّه لا تقوم الساعة حَتَّى يرفع» قيل: هذه المصاحف ترفع فكيف بما في الصدور، وسارت به الذرِّيَّة ما نسلت؟ قال: «يســرى عليهم ليلا فيرفع ما في الصدور، فيصبحون لا يحفظون شيئا، ولا يجدون في المصاحف شـيئا، فيفيضون في الشـعر» قـال عبد الله بن عمرو بن العاص: «لا تقوم الساعة حتَّى يرجع القرآن من حيث نزل، له دويٌّ كدويِّ النحل، فيقول الربُّ: ما لك؟ فيقول: يــا ربِّ أُتلى ولا يُعمل بي». وفــي الحديث: «إنَّه

يدرس القرآن كما يــدرس الثوب ووشــيه، ولا يدري ما صــوم ولا صلاة، ولا صدقة، يرفعه جبريلُ والتوراةَ والزبورَ والإنجيلَ من الصحف، حتَّى لا تبقى منهنَّ آيــة ولا كلمة ولا حرف، ثــمَّ بمدَّة قريبة يرفعــن من الصدور ليــلا، فيصبحون يقولون: كنَّا نقول شــيئا فيرجعون إلى الشــعر، ويقول الشــيخ والشيخة: أدركنا الناس يقولون: «لا إله إلَّا الله» فنقولها الآن، والمؤمن هو الذي يقولها يومئذ»[1].

فإن صحَّ هذا ارتفع عَمَّن يقولها التكليف بســائر الشــرع، والمعروف أنَّه يكون الرفع غضبا لله عن المكلَّفين كلِّهم، ولكن لله أن يفعل ما شاء، ولا تقوم الساعة حتَّى يعدم قول: لَا إِلَه إِلَّا الله أربعين عاما.

﴿**ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً**﴾ يردُّه محفوظا في قلوبكم مسطورا حيث كان مسطورا قبل ﴿**اِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ**﴾ الاستثناء منقطع، بمعنى «لكن» عند البصريِّين و«بل» عن الكوفيِّين، كأنَّه قيل: إلَّا أنَّنا أبقيناه إلى قرب قيام الساعة رحمة مِنَّا، مننَّا عليك بإبقائه، كما مننَّا بإنزاله.

[قلــت:] ولا يجوز أن تُقــدِّر مع ذلك ما نصُّــه: فلَمْ تحتج إلــى من يُتوكَّل للاســترداد، لأنَّه ﷺ لا يطمع في رادٍّ لو ذهب به، وذكر لفظ «رَبِّ» مكان ضمير المتكلِّم على طريق الالتفات من التكلُّم إلى الغيبة. وأجيز أن يكون [الاســتثناء] متَّصلا لأنَّ الوكالة المنفية إنَّما هي الــردُّ، والردُّ رحمة، وكأنَّه قيل: لا تجد وكيلا باسترداده إلَّا رحمة من ربِّك إن شاء وجدتها، وفيه أنَّه لا يتبادر أنَّ الرحمة وكيلة.

﴿**إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا**﴾ كإرســالك، وإنزال الكتاب عليك، وإبقائه في حفظك، وإعطاء المقام المحمــود، وحفظه عن التغيُّر، كما قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَــهُ لَحَافِظُونَ﴾ [ســورة الحجر: 9] واصطفائك على غيرك، وختم الأنبياء والرسل بك.

---

(1) روى ما يقرب منه **ابن ماجه** في ســننه، باب ذهاب القرآن والعلــم، رقم 4039، من حديث حذيفة بن اليمان، وأوله: قال ﷺ :«يدرُس الإسلام كما يدرسُ وَشْيُ الثوب».

والآيتان ذكر للقدرة لا تهديد بإذهاب ما أوتوا، ليصدَّهم عن سؤال ما لم يؤتوا، كعلم الروح وعلم الساعة كما قيل، لأنَّ المؤمنين لا يعتنون بالسؤال بقدر ما يستحقُّون التهديد، وَالكُفَّار لا يعتنون بالقرآن فضلا عن أن يهدَّدوا بدفعه. ولا يتبادر أنَّهما تسلية له ﷺ عن إبطاء الوحي في ذي القرنين والروح وأصحاب الكهف كما قيل.

﴿**قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الِانسُ وَالْجِنُّ**﴾ يقدَّر القسم: واللهِ، أو وعزَّة الله، لقوله: «قُل»، لا «وعزَّتي» إلَّا على ضرب من التأويل، بمعنى قل عنِّي: وعزَّتي، أو قل لهم هذا المعنى معبِّرًا عنه بما يليق، ولم يذكر الملائكة لأنَّ الله عَجَلَّ لم يعطهم بلاغة الكلام، كما أعطاها الإنس والجنَّ، ولأنَّ المقام للتحدِّي على منكري القرآن، وليس من شأنهم إنكاره، قيل: ولأنَّهم الوسائط فيه، والنازلون به، وهم على قلب ملك واحد لا مغايرة بينهم، كما تغاير الثقلان بالإنكار والتصديق، ولأنَّه لم يقل أحد من الثقلين إنَّه كلام الملائكة، ولأنَّ إتيان الملائكة بمثله لا يخرجه عن كونه معجزة لو أتوا به، لأنَّه ﷺ يتحدَّاهم أيضا بِأَنَّهُم ملائكة من الله جاءوني به، فهلَّا جاءوكم به وهم عاجزون كالإنس والجنِّ، ويبعد أن يرادوا في لفظ «الجن» كغيرهم من الجنِّ، ولو أريدوا في قوله عَجَلَّ: ﴿وَجَعَلُواْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [سورة الصافات: 158].

﴿**عَلَىٰٓ أَن يَّاتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْءَانِ**﴾ فصاحة وبلاغة ﴿**لَا يَاتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ**﴾ متعلِّق بقوله: ﴿**ظَهِيرًا**﴾، والعطف على محذوف أي: لو لم يكن بعضهم لبعض ظهيرا، وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا، ولا يضرُّ الإظهار لأنَّ مثله محذوف. ولا تقل: الواو للحال.

و﴿ظَهِيرًا﴾: مُعينا في الإتيان بمثله، وفيهم العرب العرباء، وأرباب البيان واللسان، نزل ذلك ردًّا عليهم إذ قالوا: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾

[سورة الأنفال: 31] كَذَبُوا! لا طاقة لهم بفصاحته وبلاغته، كما لا طاقة لهم في إخباره بالغيوب، مع أنَّه مخلوق مثلهم.

[أصول الدين] إذ لا دليل عقليّ ولا نقليّ على ثبوت الكلام النفسيِّ، وأنَّ القرآن هو الكلام النفسيُّ القديم، وأنَّ هذا المتلوَّ ترجمته، وقد جعله الله من جنس كلامهم، وقال لهم: «ايتوا بمثله»، فتبيَّن أنَّه حادث كما لا إشكال، ودعوى أنَّه ترجمة عن الكلام النفسيِّ رجم بما لا يعلمون، والقديم لا يقال بإعجازه، والإعجاز إنَّما هو بالحادث.

ويجوز أن تكون الآية تقريرا أيضا لقوله: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ...﴾ على أنَّ معناه: لا تجد وكيلا يعوِّضك مثل القرآن لو ذهب، إذ لا يقدر أحد على أن يؤلِّف مثله، لا على معنى أنَّه لا يردُّ نفس الذاهب.

﴿**وَلَقَدْ صَرَّفْنَا**﴾ أي كرَّرنا [ونَوَّعْنَا] والمفعول به محذوف، أي: صرفنا البيِّنات والعبر ﴿**لِلنَّاسِ**﴾ مطلقا أو أهل مَكَّة ﴿**فِي هَذَا الْقُرْءَانِ**﴾، أو المفعول محذوف منعوت بقوله: ﴿**مِن كُلِّ مَثَلٍ**﴾ أي أنواعا ثابتة من كلِّ معنى شبيه بالغرابة، والوقوع في النفس للمثل، والمراد: المواعظ والوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، والاستدلال على ما يحقُّ اعتقاده، وما يحقُّ العمل به، ويبطل الباطل ليتَّعظوا ويذعنوا.

﴿**فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ**﴾ مطلقا أو أكثر أهل مَكَّة ﴿**إِلَّا كُفُورًا**﴾ بِالحَقِّ عنادا، إذ لم يقدروا على الإتيان بمثله، وفي «أَبَى» معنى النفي، فساغ التفريغ كأنَّه قيل: فما فعلوا إلَّا كفورا.

﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ۝٩٠ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ۝٩١ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۝٩٢ أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ۝٩٣﴾

اقتراح المشركين إنزال إحدى آيات ست

ويتقوّى أنَّ المراد أهل مَكَّة بقوله:

﴿**وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ**﴾ لن نذعن بالإيمان ﴿**لَكَ**﴾... إلخ لأنَّ قائلي ذلك أهل مَكَّة. والعطف على «أَبَى»، وهذا مِمَّا أدَّاهم إليه عجزهم عن الإتيان بمثله ﴿**حَتَّىٰ تُفَجِّرَ لَنَا مِنَ الۡاَرۡضِ**﴾ أرض مَكَّة ﴿**يَنۢبُوعًا**﴾ عينا ماؤها كثير لا يزول، ولذلك كان اللفظ بوزن يفعول من النبع، كيعبوب من: عبَّ الماء، إذا كثر وماج.

[سيرة] اجتمع نفر منهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو سفيان بن حرب، والأسود بن المطلب، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبو جهل، وعبد الله بن أبي أميَّة، وأميَّة بن خلف، وغيرهم عند الكعبة، عند غروب الشمس، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: «يا محمَّد، إن جئت بهذا الحديث ـ أي القرآن ـ تبتغي به مالا جمعنا لك ما تكون به أغنانا، أو شرفا سوَّدناك علينا، أو ملكا ملَّكناك علينا، أو غلب عليك جنِّيٌّ سعينا بأموالنا لنزيله بالطبِّ»، فقال ﷺ: «**لا شيء من ذلك، لكن بعثني الله رسولا إليكم وأنزل عليَّ**

كتابا، وأمرني أن أكون بشـيرا ونذيرا، فبلَّغتكم رسـالة ربِّي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مِنِّي فهـو حظُّكم من الدنيـا والآخرة، وإن تردُّوه علـيَّ أصبر لأمر الله ﷻ حتَّى يحكم الله بيني وبينكم»، فقالوا: «يا محمَّد، إن كنت صادقا فسل الله يسيِّر عنَّا هذه الجبال المضيِّقة علينا، ويبسط أرضنا ويفجِّر فيها أنهارا كأنهار الشام والعراق، نحرث ونغرس عليها، ويبعث علينا من آبائنا من مضى، وليكن منهم قصي فإنَّه كان شيخا صدوقا فنسـألهم، فإن صدَّقوك صدَّقناك، وإلَّا فسل ربَّك أن يبعث ملكا يصدِّقك، وأن يجعل لك جنانا وقصورا، وكنوزا من ذهب أو فضَّة تعينك على معاشـك»، فقال: «**مـا بعثت بهذا**» وقالـوا: «إن كنت لا تستطيع الخير لك ولا لقومك فاستطع الشـرَّ، وأسقط علينا السماء كِسَفًا، فإنَّ ربَّك إن شـاء فعل، وأخبر ربَّك بما قلنا لك وأخبرنا بما أجابك به، ولن نؤمن لك حتَّى تأتينا بالله والملائكة قبيلا يشهدون لك».

وقال عبد الله بن أبي أميَّة وهو ابن عمَّته ﷺ «عاتكة»: «لا أومن لك حتَّى تتَّخذ سـلَّما إلى السـماء ترقى فيه، ونحن ننظر فتأتي بكتاب ونفر أربعة من الملائكة يشـهدون لك، وأيم الله لو فعلت لا أجزم بتصديقك»، فانصرف ﷺ حزينا لبعدهم عن الهدى.

فسلَّاه الله ﷻ في هذه الشروط السـتَّة بقوله: ﴿**وَقَالُواْ لَن نُّومِنَ لَكَ حَتَّىٰ تُفَجِّرَ لَنَا مِنَ الاَرْضِ يَنبُوعًا**﴾ ﴿**اَوْ تَكُونَ لَكَ**﴾ خاصَّةً ﴿**جَنَّةٌ**﴾ بسـتان تسـتر أشـجاره الأرض تحتها وبينها ﴿**مِّن نَّخِيـلٍ وَعِنَبٍ**﴾ فـي أرض مَكَّة دوننا، خصَّهما لجلالـة قدرهما مع أنَّهما النـوع الموجود في تلك البـلاد ﴿**فَتُفَجِّرَ الاَنهَارَ خِلَالَهَا**﴾ ظرف، أي وسطها ﴿**تَفْجِيرًا**﴾ تنبعها واسعة، ومادة «ف.ج.ر» للتوسيع ﴿**اَوْ تُسْقِطَ السَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ**﴾ إسقاطا ثابتا كالإسقاط الذي زعمته أنَّه محذور، أو «مَـا» مَصدَرِيَّة، والمصدر بمعنى: مزعوم أنَّـه محذور ﴿**عَلَيْنَا كِسَفًا**﴾ يعنون قوله ﷻ: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِـفْ بِهِمُ الاَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا

مِّنَ السَّمَآءِ﴾ [سورة سبأ: 9] ﴿وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ السَّمَآءِ سَاقِطًا...﴾ [سورة الطور: 44] أي لا يقولون سقط عليهم لكفرهم.

[صرف] والكِسَفُ جمع كِسْفة، بكسر فإسكان، كقطعة وقطع، وزنًا ومعنًى، وسِدَرة وسدر، وكِسرة بكسر الكاف وكِسَر، ووجه إسكان السين في قراءة بعضهم أنَّه ورد كذلك، أو للتخفيف، وإنَّما لا يخفَّف المفتوح إذا فتح ما قبله، أمَّا إذا كسر ما قبله ـ كما هنا ـ أو ضمَّ فإنَّه يجوز تخفيفه، لثقله بما سبق من كسر أو ضمٍّ، ولو كان الفتح خفيفا، وذلك سماعيٌّ لا قياسيٌّ.

﴿اَوْ تَاتِيَ بِاللهِ وَالْمَلَآئِكَةِ قَبِيلاً﴾ كفيلا أو مقابلا كالعشير بمعنى معاشر، والجليس بمعنى مجالس، بمعنى: يقابلوننا، وهذا كقولهم: ﴿أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾ [سورة الفرقان: 21] أي ليخبرنا برسالتك.

[بلاغة وصرف] وأفرد ﴿قَبِيلاً﴾ لأنَّ مرادهم أنَّ الله وملائكته ضامنون بمرَّة كضمان الواحد، وعلى قصد كلِّ فرد، فالإفراد لأنَّ معنى الضمان واحد فيهم، كما سمَّى موسى وهارون برسول لاتِّحاد دعواهما صلَّى الله عليهما، أو أفرد لأنَّه فعيل بمعنى فاعل، ويجوز إفراده لأنَّه كالمصدر، أو يقدَّر: «قبيلا» آخر بعد قوله: ﴿بِاللهِ﴾، فيبقى الكلام في الجمع والإفراد على أوجهه المذكورة، أو يجعل المذكور لـ«اللهِ» ويقدَّر لـ«الْمَلَآئِكَةِ» هكذا: «قبيلِينَ» بالجمع، ويجوز أن يكون بمعنى: جماعة جمعها الضمان، وهم الله والملائكة معا، وهذا غير بعيد عن سفههم.

أو جمع قبيلة، أي قبائل الملائكة وفِرَقِها، فليس فيه شيء يعود إلى الله ﷻ، وهو في ذلك حال على ما رأيت، وعن الزجَّاج أنَّه بمعنى المصدر، فهو مفعول مطلق لمحذوف: تُقابلنا بهم مقابلة.

﴿اَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ أي من ذهب على أنَّه وضع اسما للذهب، أو الزخرف: الزينة، استعمل في خاصٍّ وهو الذهب تجوُّزا، لأنَّه أفضل، أو باق على جنس الزينة فيفسَّر بالذهب أو به وبغيره.

﴿أَوْ تَرْقَىٰ﴾ بسلَّم ﴿فِي السَّمَآءِ﴾ إحدى السبع كما هو المذكور في القرآن، والمتبادر عند الإطلاق، وقيل: المكان المرتفع وهو خلاف المتبادر، وفيه أنَّ مطلق المرتفع يشارك ويرقى، وإنَّما يطلق على مرتفع إذا دلَّ عليه دليل أو صرَّح بذلك كقوله:

وقد يسمَّى سماء كلُّ مرتفع وإنَّما الفضل حيث الشمس والقمر

والمعنى: تصعد فيها، عدِّي بـ«في» لتضمّن معنى تدخل، ودخولها يستلزم الصعود إليها، أو «في» بمعنى إلى، والصعود إليها يترتَّب عليه دخولها، أو يبقى على ظاهره، ولكن يقدَّر مضاف، أي ترقى في معارج السماء، ومع سفههم يبعد أن يقترحوا عليه الصعود بلا معارج، إذ لا يطلب ذلك عاقل.

﴿وَلَن نُّومِنَ﴾ بك ﴿لِرُقِيِّكَ﴾ لأجله، أو به وحده، بلا نزول لك بكتاب منها كما قال: ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا﴾ مكتوبا فيه: إنَّك رسول الله، وهذا قيد للإطلاق في قولهم: «أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَآءِ» ﴿نَقْرَؤُهُ﴾ نعت «كِتَابًا».

﴿قُلْ﴾ لهم متعجِّبا، والتعجُّب واقع في قلبه ﷺ، أمرَه أن ينطق بما يدلُّ عليه، أو قل منزِّها لله عن ذلك ﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾ يُذكَر هذا اللفظ الكريم تعجُّبا، ويذكر تنزيها، ولا ثواب لذاكره متعجِّبا مع إهمال النية، كما يقوله الغضبان بلا قصد لمعنى التنزيه ولا لمعنى الذكر، وكذا ما أشبهه كـ«لا إله إلَّا الله»، والنبيء ﷺ لا يذكره مهملا ولا يأمره الله بقوله مهملا، والراجح أنَّ المراد التنزيه مصحوبا بتعجُّب، أو دون تعجُّب، فإنَّه منزَّه عن الإتيان الحقيق، لأنَّه يلزم منه أن يكون في موضع، ويلزم الحدّ، وأنَّه جسم أو عرض، ومنزَّه أن يتحكَّم عليه أو يشارك في القدرة.

﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا﴾ كسائر البشر، خبر جيء به للتمهيد لا يتعلَّق به إنكارهم، كقولك: زيد رجل قريشيٌّ، فـ«رجل» تمهيد للنعت، كما أنَّ «بشر» تمهيد لنعته، وهو قوله: ﴿رَسُولاً﴾ كسائر الرسل، لا يأتون أقوامهم إلَّا بما

يظهر الله على أيديهم مِمَّا يلائم حال أقوامهم، ولم يجعل الله أمر الآيات إليهم ولا إلى ما يقترحه عليهم أقوامهم، مع أنَّه لو أزال جبال مَكَّة وسائر الستَّة الشروط المذكورة لأهلكهم الله على سنَّته فيمن طلب أمثالهنَّ ولم يؤمن، وقد علم الله أنَّهم لا يؤمنون ولم يجر القضاء بإهلاكهم لإتمام أمره ﷺ.

أو «رَسُولاً» خبر ثان، أو خبر و«بَشَرًا» حال لازمة، ولا يلزم أن تكون له حال غير البَشَرِيَّة، وقوله سبحانه: ﴿سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولاً﴾ جواب إجمال، والجواب بالتفصيل هو الإهلاك المذكور في السورة قبل هذا، وفي قوله ﷻ: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ...﴾ [سورة الأنعام: 7] وقوله: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَآءِ...﴾ [سورة الحجر: 14].



﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿94﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿95﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿96﴾ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿97﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿98﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿99﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا ﴿100﴾﴾

الردُّ على منكري بشريَّة الرُّسل والبعث

﴿**وَمَا مَنَعَ النَّاسَ**﴾ وقوله: ﴿**أَنْ يُّومِنُوا**﴾ مفعول ثان، أو يقدَّر بـ«مِنْ» أو «عن» ﴿**إِذْ**﴾ متعلِّق بـ«مَنَعَ»، أو بـ«يومنوا» ﴿**جَاءَهُمُ الْهُدَى**﴾ وظهر لهم الحقُّ، ولم تبق لهم شبهة ﴿**إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَّسُولاً**﴾ بالاستفهام الإنكاريِّ.

﴿**قُلْ**﴾ مجيبا لهم ﴿**لَوْ كَانَ فِي الاَرْضِ مَلاَئِكَةٌ يَمْشُونَ**﴾ كبني آدم مشيا، لا يطيرون ليستمعوا من ملائكة السماء ما يجب علمه ﴿**مُطْمَئِنِّينَ**﴾ إلى الدنيا ولذاتها، أو ساكنين فيها كسكنى الإنسان في وطنه بدون أن يُستفزَّ منه، وفي الأرض ملائكة لكن يطيرون ويمشون.

[نحو] وملائكة فاعل «كَانَ»، و«يَمْشُــونَ» نعــتٌ، و«مُطْمَئِنِّينَ» حال من الواو، أو «مَلَائِكَةٌ» اسمه، و«فِي الَارْضِ» خبره، و«يَمْشُونَ» نعت، و«مُطْمَئِنِّينَ» حال من الواو، أو الخبر «مُطْمَئِنِّينَ».

﴿لَنَزَّلْنَـا عَلَيْهِم مِّنَ السَّـمَآءِ مَلَكًا رَّسُـولاً﴾ يتلقَّون منــه، لتمكُّنهم من الاجتماع به والأخذ عنه، وعامَّة البشــر لا يقدرون علــى ذلك إلَّا من قوَّاه الله عليهم، وهــم الأنبياء، مــع أنَّهم لا يــرون الملَك علــى صورته إلَّا ســيِّدنا محمَّدًا ﷺ، فإنه رآه على صورته مرَّتين: مرَّة في السماء ومرَّة في الأرض، قال الله ﷻ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَــكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً﴾ [سـورة الأنعام: 9] أي: على صورة رجل، إذ لا تقدرون على صورة الملَــك، فتقولون: هذا رجل لا ملك، وجَعْلُ البشرِ كلِّهم أو المكلَّفين على قوَّة النبيِّين فيسمعوا من المَلَك مخلٌّ بالحكمة، **والجنــس بالجنس أليق**، ولو جاءهــم ملك على صورة البشــر كما جاءه ﷺ بصورة أعرابيٍّ يسأله فيجيبه، وغاب وقال: «**هذا جبريل يعلِّمكم أمر دينكم**»[1] لقالوا: إنَّه بشر لا ملَك.

[أصول الدين] وهو ﷺ مرسل إلى الجنِّ والملائكة، مع أنَّه ﷺ ليس من جنسهم. أمَّا الجنُّ فأرسل إليهم بما أرســل إلينا، وأمَّا الملائكة فأرسل إليهم بالإيمان به، وبما شاء ﷻ، وقيل: لم يبعث إلى الملائكة.

و«مَلَكًا» مفعول به، و«رَسُولاً» نعت، أو هو مفعول، و«مَلَكًا» حال.

﴿قُلْ كَفَــى بِاللهِ شَــهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُــمْ﴾ على أنِّي رســول منه إليكم، وشــهادته تعالى: إظهار المعجزة على طِبْقِ دعواه، فلا يجب أن يكون النبيء ملَكا كما زعمتم. وذلك اســتعارة تبعيَّــة، أو كَفَى بِاللهِ شَــهِيدًا أنِّي بلَّغت ما أرسلت به، وأنَّكم لم تقبلوا فيعذرني ربِّي ويعاقبكم.

(1) الحديث تقدَّم تخريجه: «الإحسان أن تعبد الله...». انظر: ج 3، ص 8.

﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ ببواطنهم ﴿بَصِيرًا﴾ بظواهرهم، وهذا من الله ﷻ تسلية لرسول الله ﷺ، وتهديد لهم بالمجازاة على كفرهم، أو داخل في القول.

[نحو] وإذا تعــدَّدت الجمل المحكيَّــة فالكلُّ مفعول بــه، لا كلُّ واحدة مفعول به، ومحلُّ النصب للكلِّ، فلا تَهِــمْ، إلَّا إن قُدِّر لكلِّ واحدة قول، ولا حاجة إلى تقديره.

وليس من القول قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَّهْدِ اللَّهُ﴾ إلــى الحقِّ ﴿فَهُوَ الْمُهْتَدِي﴾ إليه أو إلى ما يطلبه، لقوله ﷻ: ﴿وَمَنْ يُّضْلِــلْ﴾ يخلق فيه الضلال باختياره لا إجبارًا ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمُۥٓ أَوْلِيَآءَ﴾ يهدونهم إلى طريق الحقِّ، أو طريق يوصلهم إلى طريق الحقِّ، أو طريق يوصلهم إلى ما يصلح من الدنيا أو الدين، أو طريق النجاة ممَّا أوجبه ضلالهم ﴿مِن دُونِهِ﴾. لو كان من القول قولُه: ﴿وَمَنْ يَّهْدِ اللَّهُ...﴾ إلخ لقال: «فلن أجد لكم»، إلَّا إن جُعل «وَمَنْ يُّضْلِل...» إلخ غير داخل.

وفي «فَهُوَ الْمُهْتَــدِي» مراعاةُ لفظ «مَن»، ومناســبة إفــراد التوحيد وهو الهدى، وفي «لَهُم» مراعاة معناها مناســبةً لتشــنيع طرق الضــلال، كما قال الله ﷻ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ...﴾ إلخ [سورة الأنعام: 153].

[صرف] والآية من مقابلة أفراد جمعٍ بأَفراد جمــعٍ، بمعنى: لن تجد لواحد وليًّا. وزعم بعض أنَّ المعنى: لن تجد لواحدٍ واحدٍ جماعةً جماعةً تنفعه، لو وُجد لواحدٍ جماعةٌ لم تنفعه، فكيف ينفعه وليٌّ واحدٌ؟ ولا وليَّ لواحد أو لا أولياء.

﴿وَنَحْشُــرُهُمْ﴾ على طريق الالتفات من الغيبة في قوله: ﴿وَمَنْ يُّضْلِلِ﴾ ـ إذا لم يدخل في القــول ـ إلى التكلُّم في «نَحْشُــرُهُمْ» ﴿يَــوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ متعلق بحال محذوفة جوازًا، أو من ضمير «نَحْشُرُ»، أي: ساحبين، أو مــن الهــاء، أي: مســحوبين، أو مفعول مطلــق لتضمين «نَحْشُــرُ» معنى الســحب، أو الإمشــاء أي: ســحبًا منَّا عليها، أو إمشــاء لهم عليها؛ كما قيل لرســول الله ﷺ: كيف يمشــون على وجوههم؟ قال: «**أليس الذي أمشاه على**

رجليه قادرًا على أن يمشـيه على وجهه يوم القيامة؟»[1] رواه البخاري ومسلم عن أنس. ومثله للترمذي عن أبي هريرة.

وروى الترمذيُّ عن أبي هريرة عنه ﷺ: «**يُحشـر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف: صنف مشاة، وصنف ركبان، وصنف على وجوههم**»، فقيل: أما إنَّهم يَلقون بوجوههم كلَّ حدب وشـوك!‏[2]، ولم يجبه تلويحًـا بأنَّهم أهل لذلك التعذيب بالحدب والشـوك، أو ردًّا عليه بأنَّ الأرض يومئذ مستوية لا حدب ولا شجرة، والله أعلم. ولعلَّ الاستواء وعدم الشوك في حقِّ غيرهم.

وعن أبي ذرٍّ في هـذه الآية عنه ﷺ: «**إنَّ الناس يُحشـرون يوم القيامة على ثلاثة أفواج: فوج طاعمين كاسـين راكبين، وفوج يمشـون ويسعون، وفوج تسـحبهم الملائكة على وجوههم**»[3] رواه أحمد والنسائي والحاكم. وأخرج أحمد والنسـائيُّ والترمذيُّ عن معاوية بـن حيدرة عنه ﷺ: «**إنَّكم تحشـرون رجالا وركبانًا وتجرُّون علـى وجوهكـم**»[4] والخطاب للناس عمومًا، فالجرُّ لكفَّارهم.

﴿**عُمْيًا**﴾ من قبورهم، ﴿**وَبُكْمًا**﴾ لا يقـدرون على الكلام، ﴿**وَصُمًّا**﴾ لا يسمعون، وإِذا وصلوا المحشـر أبصروا وتكلَّموا وسمعوا، كذا قيل، ويُشكل

---

(1) رواه **البخاري** في كتاب تفسـير القـرآن، باب قوله: ﴿الَّذِينَ يُحْشَـرُونَ عَلَـىٰ وُجُوهِهِم﴾، رقم: 4482. ورواه **مسـلم** في كتاب صفة يوم القيامة والجنَّة والنار، باب يُحشر الكافر على وجهه، رقم: 2806، من حديث أنس.

(2) رواه **الترمذي** في كتاب التفسير (18)، باب تفسير سورة الإسـراء، رقم: 3142، من حديث أبي هريرة.

(3) رواه **أحمد** في مسنده، مسند الأنصار، رقم: 20483. **والحاكم** في مستدركه، كتاب التفسير، باب تفسير سـورة الإسـراء، ج 2، ص 398، رقم: 3389/526. **والنسـائي** في كتاب الجنائز (118)، رقم: 2085، من حديث ابن عبَّاس.

(4) رواه **أحمد** في مسـنده، مسـند البصريِّين، رقم: 19171. **والترمذي** في كتاب التفسير (18) تفسير سورة الإسراء، رقم: 3145، من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جدِّه.

عليه قولهم: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرقَدِنَا﴾ [سورة يس: 52]، فهذا تكلُّمٌ، فيجاب بأنَّهم إذا خرجوا تكلَّموا، ثمَّ يخرصون من عند القبور إلى المحشر.

وكلٌّ من قوله تعالى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ﴾ [سورة الكهف: 53] و﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا﴾ [سورة الفرقان: 12]، و﴿تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ [سورة النحل: 111]، و﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [سورة الأنعام: 23]، و﴿يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾ [سورة الإسراء: 71]، ونحو ذلك، إنَّما هو في المحشر، أو المراد: نَحشرهم عُميًا... إلخ من المحشر إلى النار، أو المراد: حين يقال لهم: ﴿اخْسَئُواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [سورة الْمُومِنُونَ: 108]، وعليه فالحال مقدَّرة.

أو المراد: لا يبصرون ما يسرُّهم، ولا يسمعون ما يلذُّهم، ولا يتكلَّمون باعتذار مقبول، كما لم يستبصروا في الحياة بالآيات، ولم يستمعوا لها، ولم ينطقوا بالصدق.

[بلاغة] والترتيب في الآية لأنَّ آفة السمع أشدُّ من آفة البكم، وآفة اللسان أشدُّ من آفة البصر، وآية سورة البقرة على التنزُّل[1]، ووسَّط البُكْمَ فيهما لأنَّه لازم للصمم، فلا يفارقه في الذِّكر، والنَّصْب على الحال عطفا على الحال السابقة، أو على الحال من الضمير في «مسحوبين على وجوههم» المستتر أو في «كائنين» إن قدِّر كونا عامًّا، فيجب الحذف، أي: كائنين على وجوههم.

﴿**مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ**﴾ النار، لقوله: ﴿**كُلَّمَا خَبَتْ**﴾ سكن لهيبها، والموضع لا يلتهب بل ناره، أو جهنَّم: الموضع، وضمير «خَبَتْ» للنار المدلول عليها بالموضع، أو أسند ذلك للموضع تجوُّزًا للحلول، والمراد بـ﴿خَبَتْ﴾: قُرب خبوِّها، لإتيانها على كلِّ لحومهم وعظامهم وأبعاضهم، ولم تنقطع، إذ لا يخفَّف عنهم العذاب، تُجَدَّدُ أجسامُهم قبل خُبُوِّهَا.

---

(1) يشير الشيخ إلى قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾ (الآية: 18)، وقوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (الآية: 171).

[نحو] وجملة «مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ» مستأنفة، أو حال من هاء «نحشرهم»، لا من هاء «وجوههم»، و«كلَّ» ظرف لإضافته إلى مصدر نائب عن الزمان، إذ «ما» مصدريَّة، والمصدر الخُبُوُّ، كأنَّه قال: كلَّ خُبُوِّها، أي: كلَّ وقت خبُوِّها، متعلِّق بقوله:

﴿**زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا**﴾ مصدر، أي: سعرا؛ وهو متعدٍّ بنفسه، يقال: سعَّر النارَ يسعِّرها، أي: شدَّد إيقادَها، سعَرًا وسعيرًا، ولا يزال عذابهم يزداد شدَّة. أو المراد بالزيادة: الإتيان بمثل ما مضى، وذلك كما كانوا يعقِّبون كلَّ تذكير بإنكاره. أو اسم مفعول، أي: نارًا مسعورة، ولم يؤنَّث لظهور أنَّ المراد المؤنَّث، وهو «فعيل» بمعنى «مفعول»، وإذا دلَّ على الأنثى دليل قيل: كحيل أي: مكحولة، كما تقول: جاءت كحيل.

﴿**ذَلِكَ**﴾ المذكور من زيد السعير، أو منه ومن الحشر عُميًا وبُكمًا وصُمًّا ﴿**جَزَآؤُهُمْ بِأَنّهُمْ كَفَرُوا بِئَايَاتِنَا وَقَالُوا أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا اِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا**﴾ جزاءً وفاقا، كما كذَّبوا بالإعادة بعد الإفناء جدَّد الله عليهم على الدوام فناءً لأبدانهم وعودة، إلَّا أنَّه من غير موت. و«بِأَنَّهُمْ» متعلِّق بنسبة الكلام بين المبتدأ والخبر وهما «ذَلِكَ جَزَاءُ»، أي: حكم عليهم بذلك بتكذيبهم، أو بمحذوفٍ، أي: جزيناهم بذلك لأنَّهم كذَّبوا، ومرَّ تعليقه بـ«جزاؤهم» لتضمُّنه معنى جزينا. و«خَلْقًا» مفعول مطلق لـ«مَبْعُوثُونَ»؛ لأنَّ معناه: مخلوقون، أو «خلقًا» بمعنى بعثًا، أو يقدَّر مضاف حال، أي: ذوي خلق.

وهل ما يعاد هو الأوَّل؟ قولان. والمعذَّب في كلِّ حيٍّ الروح لا الجسد، فلا يقال: كيف يعذَّب ما لم يعص؟

﴿**اَوَلَمْ يَرَوا**﴾ ألم يتفكَّروا ولم يروا، أي: لم يعلموا ﴿**اَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَّخْلُقَ مِثْلَهُمْ**﴾ أي: أن يخلقهم بعد فنائهم مثل خلقهم الأوَّل، كما قال: ﴿خَلْقًا جَدِيدًا﴾. ومِثْلُ الشيء لَمَّا كان مساويًا له

في حالته جاز أن يُعبَّر به عن الشـيء نفسـه، كما يقال: مثلـك لا يفعل كذا، ويراد: أنت لا تفعل، وذلك أنسـب بالمقام من أن يقال: إنَّ المعنى: قادر على أن يخلق ناسًـا يعبدون الله ولا يعصونـه، ويوحِّدونه ولا يشـركون به، وهم مثلكم في الإنسانيَّة.

وليس بعثهم أصعب من خلق السـماوات والأرضين، ولا الإعادة أصعب من البدء، وكل شيء عنده سواء، لا أصعب ولا أخفَّ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَاتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سورة إبراهيم: 19، وسـورة فاطر: 16]، وقوله ﷻ: ﴿...يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [سورة محمَّد: 38].

[أصول الدين] وعامَّـة آيات البعث إمَّا ظاهـرة أو صريحة في أنَّه تبعث الأجسـام الذاهبة بعينها، وما بقي لم يفن كالمؤذِّنين، ومـا بقي من أجزاء ما يفنى يُنفخ فيه الروح بعينه، ويردُّ إليه ما فنـي، وجاء في الحديث: «**إنَّ عجْبَ الذنب لا يبلـى ولا يأكله التـراب**»[1]، فنقول: فيُجمع إليه مـا ذهب ويُحيَى الكلُّ، وفسَّر بعضهم ذلك بأنَّ العَجْبَ المذكور لا يفنى بالتراب، بل يفنيه الله بلا تراب، كما يفنى ملَك الموت بلا ملَك مـوت. وذكر بعضٌ أنَّ كلَّ ما بقي يفنى أيضًا ثمَّ يُعاد، وأمَّا فناء الأحياء بالموت فلا يستثنى منه مخلوق.

﴿**وَجَعَلَ لَهُمُ أَجَلاً لَّا رَيْبَ فِيـهِ**﴾ هو الموت أو القيامة، والجملة معطوفة على قوله: ﴿اَوَلَمْ يَرَوَا﴾؛ لأنَّ معناه: قَدرَ، كأنه قيل: قدر على أن يخلق مثلهم وجعل لهم، وليس الاستفهام منسـحبا عليه. وأفرد الأجل لأنَّ المعنى: جعل لكلِّ أحد أجلا هو الموت، أو لأنَّ القيامـة أمر واحد، ويجوز أن يراد بالأجل مدَّة الحياة كلّها لكلِّ أحد. ويجـوز عطفها على «خَلَقَ»، أو «قَادِرٌ» فيتسـلَّط عليها الاسـتفهام، وهذا ظاهر في التفسـير بالموت، أو بمدَّة الحياة. وأمَّا في

(1) رواه **البخاري** في كتاب تفسير القرآن، باب ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾، رقم: 4651. ورواه **مسلم** في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ما بين النفختين، رقم: 2955، من حديث أبي هريرة.

التفســير بالقيامة فباعتبار وضوح أمرها بالدلائل حتَّى كأنها ممَّا لا ينكرونه، فيقال: أوَلم يروا أنَّه جعل لهم يوم القيامة بلا ريب؟

﴿فَأَبَى الظَّالِمُونَ﴾ المشــركون مع وضوح الحــقِّ ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ جحودًا للحقِّ، وهو القدرة على البعث.

﴿قُل لَّـوَ اَنتُـمْ﴾ فاعــل لـ«تملك» أصلــه: تملكــون، دلَّ عليــه قوله: ﴿تَمْلِكُونَ﴾ حذف الفعــل، وانفصل الضمير، وهذا مــن التوكيد اللفظيِّ مع الاختصار، وكذا باب الاشــتغال في النصب. وقدَّر بعضٌ: لو كنتم تملكون، فحذف «كان» وحده وانفصل الضمير، فـ«تملكون» خبر لـ«كان»، وذلك بناء على أنَّ «لو» لا يليها اسم على طريق إيلائه «إن» و«إذا» إلَّا ضرورة.

﴿خَزَائِنَ﴾ استعارة للموجودات في علم الله من الخير تحقيقيَّة أو تخييليَّة ﴿رَحْمَةِ﴾ نعمة، وهو مجاز مرســل ﴿رَبِّيَ﴾ من الرزق والمطر، وصحَّة البدن وغير ذلك. ﴿إِذًا لَّأَمْسَــكْتُمْ﴾ اســتُعمل بمعنى: بخلتم، فكان لازما، أو بقي على تعدِّيه فيقدَّر له مفعول به، أي: لأمسكتم ما بأيديكم لا تنفقونه.

﴿خَشْــيَةَ الِانفَاقِ﴾ عاقبة الإنفاق، وهي نقصه، أو الفقــر وفقدها بالكلِّيَّة، فيقدَّر مضــاف كما رأيــت، أو الإنفاق كناية عــن لازمه، وهو نفــاد الكلِّ أو النقص، أو الإنفاق بمعنــى الافتقار، كالإملاق في الآيــة الأخرى، يقال: أنفق مال فلان، أي: ذهب، ونفق ماله ونفق الــزاد: ذهب. والبخل لازمٌ لكلِّ واحد، فإن كلَّ أحد يختار نفسه بماله عن غيره، وإن أعطاه فلأنه يرجو عطاءً دنيويًّا، أو عوض مدح، أو نحو هذا، أو عوضا أخرويًّا، والله جلَّ وعلا يعطِي بدون ذلك.

وسئل بعض أصحابنا الأغنياء فقال لســائله: خذ من زكاتي، فأبى، فقال: هل سمعت بغنيٍّ جواد؟ يعني أنَّ الجود إعطاء جميع ما في اليد والملك، وما كان الإنسان غنيًّا إلَّا لعدم هذا الجود، ولو جاد كذلك كان فقيرًا.

﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا﴾ ضيِّقًا ممسكا بخيلا، لأنَّه محتاج.

[فقه] ويحرم عليه أن يؤخِّر قضاء الدَّين وقد وجد القضاء وأمكنه، سواء كان الدَّين لخاصٍّ أو لعامٍّ، لميِّت أو لحيٍّ، كالأموال التي تجب للفقراء كالزكاة، وما لا يُعرف له ربٌّ، وأنواع الكفَّارات، فمؤخِّرُها مع الوجود والإمكان داخل في قوله ﷺ وآتاه الوسيلة: «مَطْلُ الغنيِّ ظلم»[1]، ومن ذلك تأخير أموال الأوقاف والوصايا مع الوجود والإمكان، ولا سيما تأخير شيء من ذلك كلِّه إلى ما بعد الموت مع الوجود والإمكان. والدرهم في الحياة كسبعين بعد الموت، وسبعون بعد الموت، كواحد في الحياة، وتأخير الواجب مع الوجود والإمكان من الرغبة والرهبة.

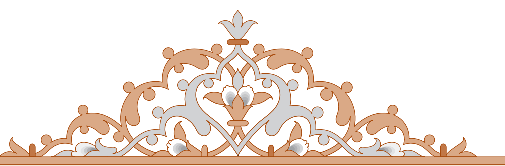
والحج ليس حقًّا لمخلوق، فلا بأس بتأخيره، وهو مكروه، إلَّا حجًّا أُوصِيَ به، فيعجِّل الوارثُ والخليفةُ به.

ووصيَّة الأقرب لا تنفَّذ قبل الموت، إذ لا يتعيَّن الأقرب إلَّا بعد الموت، وليس في ذكر الوصيَّة في القرآن والحديث إجازةُ تأخير حقوق الناس إلى الموت، بل يجب إنفاذها، وإلَّا فلا أقلَّ من الإيصاء بها، فذِكْرُها فيهما يشمل الإيصاء بالواجب، وبئس ما فعل من تأخيره. ويشمل الإيصاءَ بغير الواجب.

ولشحِّ الإنسان كان إنَّما ينفق لرجاء عِوَض، وهكذا حاله ولو كان غنيًّا، ويُحتمل أن يراد أنَّ غالب الناس بخلاء لا كلُّهم. قال الكرخيُّ: «إنَّ من الإنسان الأجواد الكرام، حتَّى إنَّ منهم من يجود بنفسه، وقد قيل: الجود بالنفس أقصى غاية الجود» انتهى. حصلت لي نسخة منه عتيقة قوبلتْ على أصله.

(1) رواه **البخاري** في كتاب الحوالة، باب إذا أحال على مليٍّ، رقم: 2166. ورواه **مسلم** في كتاب المساقاة، باب تحريم مطل الغنيِّ، رقم: 1546، من حديث أبي هريرة.

وقيل: الخطاب قبـــل هذا للقائلين: «لَن نُّومِنَ لَــكَ...» إلخ، وإنَّهم المراد بـ«الإنسان»، ولما قالوا: «لَن نُّومِنَ لَكَ...» إلخ أجابهم الله بأنَّا قد آتينا موسى آيات مساويات لما ذكرتم أو أعظم، ولكن علِمْنا أن لا تؤمنوا لو أعطيناكم ما طلبتم، كما لم يؤمن قوم موسى، كما قال:



﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًاۖ ﴿101﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًاۖ ﴿102﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًاۖ ﴿103﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًاۖ ﴿104﴾ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًاۖ ﴿105﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍۢ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًاۖ ﴿106﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿107﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًاۖ ﴿108﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًاۖ ﴿109﴾﴾

الآيات التسع لموسى عليه السلام وصفة إنزال القرآن

﴿**وَلَقَدْ ـ اتيْنَا مُوسَى تِسْعَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ**﴾ اليد، والعصا، والطوفان، والجراد، والقمَّل ـ وهو سوس ـ، والضفادع، والدم، والطمس على أموالهم بمسخها حجارة، والسنون ونقص الثمرات. أو العصا، واليد، والجراد، والقمَّل، والضفادع، والدم، وانفجار الماء من الحجر، وانفلاق البحر، ونتق الجبل على بني إسرائيل. أو الطوفان والسنون، ونقص الثمرات مكان الثلاثة الأخيرة. أو يُجمع الكلُّ؛ لأن ذكر العدد لا يفيد الحصر.

ويُبحث بأنَّ الحجَرَ والطور ليسا من الآيات المذهوب بها إلى فرعون، وفلق البحر ليس على التحدِّي. قلت: كلُّ ما عَلِم به أو شَهِده فهو آية جيء بها

له، وذكروا منها: مـوت البهائم، وبردًا ونـارًا أهلكَا كلَّ ما مـرَّا به من نبات وحيوان، وظلمةً، وموتًا عمَّ كبار الآدميِّين وجميع الحيوان.

وروى الترمـذيُّ والنسـائيُّ وابـن ماجه، عـن عبد الله بن سـلمة، عن صفوان بن عسال أنَّ يهوديًّا سأل النبيء ﷺ عن الآيات فقال: «**ألَّا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسـرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التي حرَّم الله إِلَّا بالحقِّ، ولا تسحروا، ولا تأكلوا الربا، ولا تمشوا ببريء إلى ذي سلطان ليقتله، ولا تقذفوا محصنة، ولا تفرُّوا من الزحف، وعليكم خاصَّة اليهود لا تعدوا في السبت**»[1]، فقبَّل اليهوديُّ يده ورجله. وفي رواية عنه أنَّه جاءه يهوديَّان اتَّفقا أن يسـألاه، فسألاه فأَخبرهما بذلك، فأَسلما فقبَّلا يديه ورجليه.

وهؤلاء عشر لا تسـع، فيجوز أن تفسَّر الآية بالتسـع المذكورة في هذا. والاعتداء في السـبت خاصٌّ بهم قبل بعث رسول الله ﷺ، فهنَّ آيات تعمُّ كلَّ أمَّة، وبعد بعثه ﷺ يجوز لهم الصيد في السبت من البحر كغيرهم.

[نحو] وكسـر «بيِّنَاتٍ» جُرَّ على أنَّه نعت «آيـاتٍ»، أو نُصِب على أنَّه نعت «تِسْعَ».

﴿**فَاسْـأَلْ**﴾ يا محمَّد ﴿**بَنِي إِسْـرَائِيلَ**﴾ عن الآيات العامَّة غير المنسوخة الموحاة إلى موسى، أو سلهم عن موسـى فيما جرى بينه وبين فرعون وقومه سـؤالَ تقرير. ﴿**إِذْ جَاءَهُمْ**﴾ أي: إذ جاء موسى آباءهم بالوحي من الله، والهاء لبني إسـرائيل على حذف مضاف كما رأيت، وذلك تسـلية لرسول الله ﷺ، وإعلامٌ بأنَّه لو أعطي مـا اقترحوا لم يؤمنوا كما لم يؤمـن قوم فرعون بآيات موسى، وزيادةٌ في قوَّة يقينه بتتابع الآيات.

---

(1) رواه **الترمذيُّ** في كتاب تفسـير القرآن، باب ومن سورة بني إسـرائيل، رقم: 3144. ورواه **النسائيُّ** في كتاب تحريم الدم، باب السحر، رقم: 4010، من حديث صفوان بن عسال.

والمراد بالسؤال كون بني إسرائيل من أهل علمه، لا أن يخبروه.

و«إِذْ» متعلِّق بـ«ءَاتَيْنَا»، واعترض بما بينهما للمسارعة إلى الأمر بالسؤال لتبكيت المشركين، ولِمَا مر من النُّكَت، أو متعلِّق بـ«يخبروا» محذوفًا مجزومًا في جواب الأمر، أي: سلهم يخبروك إذ جاءهم، كذا قيل، [قلت:] وهو غلط؛ لأنَّ مجيء موسى في زمانه، والإخبار في زمان رسول الله صلَّى الله وسلَّم عليهما، أو منصوب بـ«أُذكر» مستأنفًا، أو بلفظ «الحادث»، أي: واذكر الحادث إذ جاءهم.

ويجوز أن يكون «اسأَل» على حذف قولٍ معطوف بالفاء على «آتينا»، أي: فقلنا لموسى: سل بني إسرائيل، ويدلُّ لهذا قراءة ابن عبَّاس: «فسال» بصيغة الماضي، فإنَّ ضميره لموسى، إلَّا أنَّه قَلَبَ الهمزةَ ألفًا، وهو لغة؛ وعلى هذا «سَلْ» بمعنى: اطلبْ فرعونَ أن يعطيك بني إسرائيل، أي: اسأل فرعون بني إسرائيل، وكانوا تحته كالأسرى، أو بمعنى الاستفهام، أي: سل يا موسى بني إسرائيل عن دينهم. و«إِذْ» متعلِّق بـ«قلنا» المقدَّر لا بـ«سلْ»، لأنه قال: ﴿إِذْ جَاءَهُمْ﴾، ولم يقل: إذ جئتهم فقال لك، ويتعلق بـ«سَالَ» في قراءة صيغة الماضي.

﴿**فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لأَظُنُّكَ يَامُوسَىٰ مَسْحُورًا**﴾ فَسدَ عقلُك بسحرِ أحد لك، أو بما تأتينا به من السحر، فصرتَ تأتينا بما لا يليق، أو بمعنى ساحر، كميمون ومشؤوم، على أن «مفعولا» يجيء من المتعدِّي للنَّسب، سمَّاه ساحرًا إذ رأى منه العجائب كالعصا. وعطف «قال» على «جاء».

﴿**قَالَ**﴾ موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿**لَقَدْ عَلِمْتَ**﴾ يا فرعون ﴿**مَآ أَنزَلَ هَؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالَارْضِ**﴾ هؤلاء الآيات التسع أو العشر ﴿**بَصَآئِرَ**﴾ آياتٍ يُعتبر بها، نصَّت الآيات على أنَّ فرعون معتقد في نفسه رسالة موسى ﷺ، وأنَّ الآيات من الله، ولكنَّه أنكر عنادًا بلسانه.

ولعلَّه لا يصحُّ عن علـيٍّ[1] إيجاب ضمِّ تاء «عَلِمْـتَ» كما هو قراءة، وأنَّ فرعون غير عالم بذلك.

[نحو] و«بصائـرَ» حالٌ من «هؤلاء» عند من جـوَّز أن يعمل ما قبلَ «إلَّا» فيما بعدها، ولـو لم يكن مستثنًى أو تابعًا لـه، نحو: ما ضربـت إلَّا عَمْرًا لعصيانه، والمانعون يقدِّرون محذوفًا، أي: ضربته لعصيانه، فيقدَّر هنا: «أنزلها بصائر»، ولو فرضنا أنه لم يَعلَم لصَحَّ أن يُنزَل منزلة من عَلِمَ.

﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَـا فِرْعَـوْنُ مَثْبُورًا﴾ أُوقِـنُ أنَّك مثبـور، أو عبَّر بالظنِّ لمجانسة قول فرعون: «إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْـحُورًا»، وكلا الظنَّين جزمٌ؛ لأنَّ فرعون أيضا جازم لفظًا بأَنَّ موسى كاذب، وعالم بأَنَّه صادق.

[صرف] و«مثبورًا» مهلَكًا ومصروفًا عن الخيـر، يقال: ما ثبرك عن هذا، أي: ما صرفك، وثبَر يتعدَّى كهذا ويلزم، بمعنى: هلك، وقيل: «مثبورًا» مفعولٌ للنَّسـب من اللازم، كما يأتي من المتعدِّي، أي: ذا هلاك، أو ذا نقصان عقل، أو ذا خلاف للحقِّ، والصحيح ما ذكرته أوَّلاً.

﴿فَأَرَادَ﴾ أي فرعون ﴿أَنْ يَّسْتَفِزَّهُمْ﴾ أي موسـى وبني إسرائيل، أو بني إسرائيل، واسـتفزازهم اسـتفزاز له ﴿مِّنَ الَارْضِ﴾ أرض مصر، بالإخراج أو بالقتل لهم كلِّهم، بل القتل ولو بلا دفن إخراج من أرضها، لأنَّ الميِّت بمنزلة المعدوم، إذ لا تُتوقَّع منه مضرَّة.

﴿فَأَغْرَقْنَـاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا﴾ فـي بحر القلزم جزاء وفاقًـا لإرادته، فإنَّ خذلانه باتِّباع موسى إلى جهة البحر وإغراقه فيه استفزازٌ له ولقومه، وإخراجٌ من أرض مصر، إذ لو لم يغرقوا ورجعوا إلى مصـر لكانوا غير مخرجين من أرضها الإخراج المراد.

﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِ﴾ أي من بعد شـأنه، وهو إغراقه وإغراق قومه، أو من بعد

(1) هي قراءة لعلي بن أبي طالب، وهي مخالفة لما قرأ به عامة قراء الأمصار.

إغراقه، فإنَّ إغراقه إغراق للكلِّ لـو لم يغرقوا، لأنَّه ليس فيهـم من يعاند عناده ﴿لِبَنِي إِسْرَآئِيلَ اسْـكُنُواْ الَارْضَ﴾ أرض مصر والشـام، فبعض ذهب إلى الشام وبعض بقي في أرض مصر، أو اسكنوا الأرض إباحة وامتنانا لا إيجابا، فمن شاء ذهب إلى الشام وسكنها، وقيل: لم يدخل موسى وقومه أرض مصر بعد فالمراد أرض الشام، أو مطلق الأرض اختيارا منه لا وجوبا. ولو شاء لسكنها بعد.

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الَاخِرَةِ﴾ أي قيام السـاعة، وَكَأَنَّهُ قيل: وعد الدار الآخرة، أو الحياة الآخرة، أو الساعة الآخرة، كما ذكرت في مواضع، أو الكرَّة الآخرة ﴿جِئْنَا بِكُمْ﴾ الباء للتعديـة، أي جئناكم، أي صيَّرْنَاكـم جَائين أي حاضرين ﴿لَفِيفًا﴾ حال من الكاف، بمعنى مختلطين، ثمَّ نميِّز سـعداءكم وأشقياءكم، سـمِّيت الجماعات لفيفا لأنَّه لفَّ بعضها ببعض، وهو اسم جمع لا واحد له من لفظه، وقيل: اسم مصدر، يقال: لَفَّهُ لفًّا ولفيفا.

﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ﴾ الباء للملابسـة والتقديم للحصر، وهو حال من الهاء أو من «نا» أو متعلِّق بـ«أنزل» ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ هو كالأوَّل، والحقُّ واحد لأنَّه معرفة أعيدت، وهو للأوَّل كالمطاوع، نحو وصلته فاتَّصلَ، كأنَّهُ قيل: توجَّهَتْ إِرَادَتُنَا لِإِنْزَالِهِ فنزل، أو أردنا إنزاله فنزل، وذلك أنَّه قد يريد أحد الشيء ويشرع له ولا يكون، ويعالجه فـلا يتَّفق له، تعالى الله عـن المعالجة، فنفى الله ذلك بقوله: ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾. أو المعنى: ولم يتغيَّر.

والهاء وضمير «نَزَلَ» عائدان إلى القرآن في قولـه: ﴿بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْءَانِ﴾ ولو بَعُدَ، كما جرى في كلام العرب ذكر شيء واستطراد أشياء بعده ثمَّ العود إليه، أو إلى القـرآن المعلوم، كقولـه تعالى: ﴿إِنَّـآ أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَـةِ الْقَدْرِ﴾ [سـورة القدر: 1]، ولو لم يَجْرِ له ذكرٌ قريبًا، ويقوِّيه: ﴿وَمَا أَرْسَـلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ للمؤمنين بالجنَّة ﴿وَنَذِيرًا﴾ للكافرين بالنـار، عليك التبليغ فقط، وما عليك من عنادهم واقتراحهم شيء.

أو المعنى: ما أنزلناه إلَّا بالحكمة المقتضية لإنزاله، وما نزل إلَّا بالحكمة والهداية إلى كلِّ خير، والمعاني التي شملها، فالحقَّان متغايران، كما إذا قلنا: ما أنزلناه من السماء إلَّا محفوظًا بالرصد من الملائكة، وما نزل على الرسول إلَّا محفوظًا بهم من تخليط الشياطين، وكما إذا فسَّرنا الحقَّ الأوَّل بالتوحيد، والثاني بالوعد والوعيد والأمر والنهي.

وأجيز عود الهاء وضمير «نَزَلَ» إلى موسى، كقوله ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ [سورة الحديد: 25]، أو إلى كتابه، أو يقدَّر مضاف، أي: أنزلنا كتابه، أو إلى الوعد أو إلى الآيات التسع؛ وعلى هذا أفرد الضمير مذكَّرًا لأنهنَّ بمعنى الدليل، والعود إلى القرآن أولى، فيعلَّق الكلام إلى قوله: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ...﴾ [سورة الإسراء: 88]، أو إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا...﴾ [سورة الإسراء: 89].

[نحو] ﴿وَقُرْءَانًا﴾ مفعولٌ به لمحذوفٍ حالٍ معطوفٍ على «مُبَشِّرًا»، أي: وقارئا قرآنا، أو تاليا قرآنا، أو وذا قرآن، أو مفعولٌ لـ«آتَيْنَاكَ» محذوفا، كما قال: ﴿ولَقَدَ ـ اتَيْنَا مُوسَى﴾. أو منصوب على الاشتغال، ولو كان نكرة؛ لأنَّ لها مسوِّغا، وهو التعظيم، أي: وفرقنا قرآنا ﴿فَرَقْنَاهُ﴾، وعلى الحاليَّة والمفعوليَّة بـ«آتيناك» محذوفا يكون «فَرَقْنَاهُ» نعتا لـ«قُرْءَانًا».

ومعنى ﴿فَرَقْنَاهُ﴾ أنزلناه شيئا فشيئا، أو ثمَّ شيئا؛ كقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: شيئا بعد شيء ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [سورة الفرقان: 32]، ويدلُّ له قوله ﷻ:

﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾ على مَهْل، ليسهل حفظُه وفهمُ معناه، ولأنَّ نزوله كثيرًا ما يكون بحسب الحوادث كالسؤال، وكبعض السآمة من الناس، كما قال:

﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴾ شيئا بعد شيء، على حسب الحوادث والدواعي، لا إنزالاً بمرَّة كالتوراة وسائر كتب الله، فإنَّها أنزلت مكتوبة بمرَّة. ولو فسَّرنا ﴿فَرَقْنَاهُ﴾

بقولنا: فرقنا الحقَّ والباطل، لم يناسبه قوله: ﴿لِتَقْرَأَهُ...﴾ إلخ مناسبة ظاهرة، مع أنَّه يحتاج اللفظ إلى تقدير الجارِّ، أي: فرقنا فيه، مع أنه ليس من محالِّ تقديره.

فتحصَّلنا على أنَّ تنزيله شيئا بعد شـيء لعلَّة أن يُفهم وأن يسهل حفظه، وأن يوافق حدوثُه حـدوثَ الدواعي، ردًّا على اليهـود إذ قالوا: هلَّا نزل بمرَّة كالتوراة والزبور، إذ نزل في عشرين سـنة أو في ثلاث وعشرين، قيل: أو في خمس وعشرين على الخلاف في سِنِّه ﷺ.

وكان ينزل خمسَ آيات خمسَ آيات، كمـا قال عمر ﵁: «تعلَّموا القرآن خمس آيات خمس آيـات، فإنَّ جبريل كان ينزل به خمسـا خمسًـا»[1] رواه البيهقي. قال أبو نصرة: كان أبو سـعيد الخدريُّ يعلِّمنـا القرآن خمس آيات بالغداة، وخمس آيات بالعشـيِّ، ويخبر أنَّ جبريل ﵇ كان ينزل به خمسـا خمسًـا. قال ابن عسـاكر: قلنا لعلَّ هذا في الغالب، وحيـن كان النزول لغير حادث حدث، وقد صحَّ أنَّه ينزل أقلَّ وأكثر.

و«عَلَـى» في الموضعيـن متعلَّق بـ«تَقْـرأ»، لتخالُفِ معنـاه؛ لأنَّ الأوَّل للاسـتعلاء المجازيِّ، والثاني بمعنى: في، أو يعلَّق الثاني بمحذوفٍ حالٍ من ضمير «تَقْرَأ».

﴿قُلَ﴾ يا محمَّد لهـؤلاء المعاندين المقترحين، إنـكارًا عليهم وتهديدًا: ﴿ـامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُومِنُوا﴾ أمرٌ ونهيٌ للتهديد، وفي ذلك تسلية لرسول الله ﷺ، وأمرٌ بالإعراض عنهم، كأنَّه قيل: دعهم ولا تبـال بهم، فإنَّ إيمانهم به وعدمه لا يزيده ولا ينقصه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ﴾ قبل القرآن، قبل نزوله، وهم مؤمنو أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام، وسلمان الفارسـيِّ، وكعب الأحبار، ممَّن عرف

(1) رواه أبو نعيم في الحلية، ج 9، ص 319، من حديث ابن عمر.

حقيقة الوحي، وأمارات النبـوءة، وتمكَّن من الفرق بيـن الحقِّ والباطل، أو رأَى نعتك في الكتب السـابقة، ولم يغلبه هواه عليـك، وكعب الأحبار ﵁ أدرك النبيء ﷺ وآمن به، إلَّا أنه لم يره فهو من التابعين لا من الصحابة.

وهذا تعليل ﴿ـامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُومِنُوا﴾، كأنه قيل: لا أبالي بكم؛ لأنه قد آمن به مَن هو خير منكم، وهو مِنْ مقول القول، أو مستأنف من الله ﷻ، تسليةً له ﷺ بأن لا يبالي بكفر السفهاء لإيمان العلماء المحقِّقين، فهم عضد لك.

﴿**إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ**﴾ ضمير «يُتلى» للقرآن ﴿**يَخِرُّونَ**﴾ يسرعون بالسجود كسقوط الحجر لا يملك الوقوف في الجوِّ، تعظيما لأمر الله، وشكرًا لإنجاز الله ﷻ، وبُعدًا لفترة ما رغبوا فيه واشـتاقوا إليه من الحقِّ، ووصف محمَّدٍ في الكتب قبله وكتابه. ﴿**لِلاَذْقَانِ**﴾ على الأذقان، أو بالأذقان، متعلِّق بقوله: ﴿**سُجَّدًا**﴾ تعظيما وشكرًا لإظهار الحقِّ بعد خفائه. وقيل: المراد الانقياد لا سـجودًا على الأرض، ويجوز تعليقه بـ«يَخِرُّونَ» كما عُلِّـق به الذي قبله، واختير لفظ اللام تلويحا إلى اختصاص الذقن بالقرب من الأرض قبل سائر الوجه، فإن السـجود بالرجليـن، فالركبتيـن، فاليدين، فالذقـن والأنف، فالجبهة، والرفعُ بالجبهة، فالأنف والذقن، فاليديـن، فالركبتين، **ولا يضرُّ غير ذلـك**. وليس الاختصـاص باللام المذكـورة في النحو حصـرًا بيانيًّا كـ«إلَّا»، و«إنَّمـا». والمراد: علـى وجوههم، وعبَّر عـن الوجه بجزئه وهو الذقن على أنه من الوجـه، أو مجـاورِهِ على أنَّه ليس منـه، وهو مجتمع اللِّحيين أسفل الوجه.

﴿**وَيَقُولُونَ سُـبْحَانَ رَبِّنَا**﴾ عن النقائص كإخلاف الوعـد بمحمَّد وكتابه وإقامة الدين به، ويدلُّ لقصد الوعد قوله تعالـى: ﴿**إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا**﴾ ببعث محمَّد ﷺ وكتابه ﴿**لَمَفْعُولاً**﴾ لا يتخلَّف، و«إن» مخفَّفة، واللام للفرق.

[أصول الدين] ومِنْ وَصْفِهِ بصفـة الخلقِ القولُ بأنَّ صفاته غيره. قال

ابن العربي: نحن لا نقول بالزائد، ولا يخالف كشفنا بأنَّ الصفات الإلهيَّة عين لا غير، فـإنَّ مَن يقول إنَّها غيـره واقع في قياس الحـقِّ تعالى على الخلق في زيادة الصفة على الذات، فما زاد هذا على الذين قالوا: ﴿إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ﴾ [سـورة آل عمران: 181] إلَّا بحسن العبارة فقط، فإنَّه جَعَلَ كمال الذات لا يكـون إلَّا بغيرها، فنعوذ بـالله أن نكون مـن الجاهلين، قالـه في الباب السـبعين بعد أربعمائة من «الفتوحات المكِّيَّة». وقال: إنَّ القول بأَنَّها غيره غلطٌ، وإنَّه جهل عظيم. وقـال: إنَّ جماعة من المتكلِّميـن قالوا بما قلنا: «إنَّها عينه».

وابن العربي هذا رجل مروَّع، وذكر عن نفسـه أنَّ لـه إلهامًا من الله، ولا يقول إلَّا عن كشف.

﴿وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ﴾ يميلون بلا سجود لشـدَّة البكاء، متعلِّق بمحذوف. وقوله: ﴿يَبْكُـونَ﴾ من وعظ القرآن حـال، ويجوز تقدير «سـجَّدًا» كالأوَّل، فيكون كإعراب الأوَّل، وكرَّره لزيادة ذكر البكاء، أو الأوَّل حالَ قراءة القرآن أو سماعه، والثاني في سائر أحوالهم، أو الأوَّل للشكر على إنجاز الوعد، والثاني لتأثير وعظ القرآن فيهم.

وجاء في الحديث إنَّه: «**ما من عمـل إلَّا له وزن، إلَّا الدمعة فتطفئ بحورًا من نار، وتحرِّم جسـدها على النار، وإن فرِّقت على الخدِّ لم يَرهَقْ وجهَهُ قَتَرٌ ولا ذلَّـة**»[(1)]. وإنَّه: «**عينان لا تمسُّـهما النار: عين بكت من خشـية الله تعالى، وعين باتت تحرس في سـبيل الله تعالى**»[(2)]، وإنَّه: «**لا يلـج النارَ رجل بكى**

---

(1) أورده **المنذريُّ** في الترغيب والترهيب، كتاب التوبة والزهـد، باب الترغيب في البكاء من خشية الله، رقم: 5036، من حديث مسلم بن يسار.

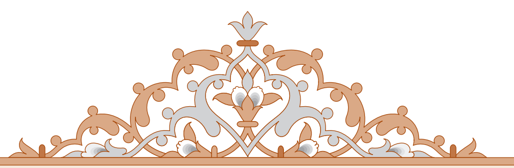
(2) رواه **الترمذيُّ** فـي كتاب فضائل الجهـاد، باب ما جاء فـي فضل الحرس في سـبيل الله، رقم: 1639، من حديث ابن عبَّاس.

خشيةً لله تعالى حتَّى يعود اللبن في الضرع»[1]. وعن عبد الأعلى التيميِّ: «مَن أوتى من العلم ما لا يُبكيه فقد أوتى من العلم ما لا ينفعه، لأنَّ الله تعالى وصف أهل العلم فقال: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلاَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾».

﴿**وَيَزِيدُهُمْ**﴾ يزيدهم القرآن، من الإسناد للسبب ﴿**خُشُوعًا**﴾ لزيادة علمٍ به، ويقينٍ بالله. ويجوز أن يكون السجود عبارةً عن كمال الانقياد على طريق الاستعارة التمثيليَّة.

---

(1) رواه **الترمذيُّ** في كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل الغبار في سبيل الله، رقم: 1633. ورواه **النسائيُّ** في باب فضل من عمل في سبيل الله، رقم: 3108، من حديث أبي سعيد الخدريِّ.



﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿110﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿111﴾﴾

دعاء الله بالأسماء الحسنى

﴿**قُلْ**﴾ يا محمَّد للمشركين ﴿**ادْعُوا**﴾ سَمُّوا واذكروا بنداء ولا نداء ﴿**اللهَ**﴾ لفظ الجلالة ﴿**أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ**﴾ لفظ الرحمن ﴿**أَيًّا مَّا تَدْعُوا**﴾ أيًّا منهما تذكروا ﴿**فَلَهُ**﴾ فللمعنيِّ بهما [وهو الله تعالى]، أي: أصبتم وأحسنتم، وناب عنه التعليل، وهو قوله: ﴿فَلَهُ﴾، ﴿**الأَسْمَآءُ الْحُسْنَى**﴾ أي: أيًّا ما تذكروا أصبتم؛ لأنَّ له الأسماء الحسنى، ومنها الاسمان؛ فالضمير في «لَه» عائدٌ إلى واجب الوجود، وهو الله، لا لقوله: ﴿الله﴾، ولا لقوله: ﴿الرَّحْمَن﴾؛ لأنَّ المراد بهما اللفظ،أو عائد إلى أحدهما على طريق الاستخدام. و«أو» للإباحة لحصول الفضيلة في الجمع بين ذكر الله أو لفظ الرحمن، وإذا لم تحصل الفضيلة في الجمع بين شيئين كانت للتخيير. و«مَا» صلة لتأكيد عموم «أيًّا».

[سبب النزول] قيل: سمع المشركون رسول الله ﷺ يقول: «يا الله، يا رحمن». فقالوا: ينهانا محمَّد أن نعبد إلهين وهو يدعو إلها آخر مع الله، فنزلت الآية. ويروى عن ابن عبَّاس: سجد رسول الله ﷺ ذات ليلة، فجعل يقول في سجوده: «يا الله يا رحمن»، فقال أبو جهل: إنَّ محمَّدًا ينهانا عن آلهتنا وهو يدعو إلهين! فأَنزل الله هذه الآية. وقيل: إنَّ اليهود قالوا: لا يكثر محمَّد ذكر

الرحمن، وهو كثير في التوراة، أي: لمراعاة ما خلق الله تعالى في موسى عليه السلام من الشِّدَّة، فنزلت الآية.

[قلت:] وقدَّم لفظ الجلالة لأنَّه أعظم، ومن قال: «لا إله إلَّا الرحمن محمَّد رسول الله» لم يكفه في التوحيد، وإنَّما يكفي «لا إله إلَّا الله محمَّد رسول الله». وحُسْنُ الأسماء الحسنى: دلالتها على محاسن المعاني، وصفات الجلال، والإحسان إلى الخلق، و«الْحُسْنَى»: اسم تفضيل، كما أنَّ الأحسن اسم تفضيل.

وعن ابن عبَّاس: قراءة ﴿قلُ ادعُوا الله...﴾ الآية حفظٌ للمنزل، قرأها رجل من المهاجرين حين اضطجع، فجمع سارق ما في بيته، فوجد الباب مغلقا، فوضع المتاع فرآه مفتوحا، فجعل يفعل ذلك ثلاثًا، فضحك الرجل وقال: بيتي محصَّن[1]، قال ﷺ: «**ما من مسلم يقرؤها عند منامه بين شياطين وهوامَّ فتضرَّه**».

﴿**وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ**﴾ بقراءة صلاتك فحذف المضاف، أو سمَّاها باسم محلِّها، أو الجزء باسم الكلِّ. ﴿**وَلَا تُخَافِتْ بِهَا**﴾ في الصلاة وغيرها، وكذا غيرها، ففي الجهر يسمع المشركون فيسبُّون القرآن ومنزِّله ومَن يقرؤه، ويصفِّقون، ويرفعون أصواتهم للتخليط عليهم، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْءَانِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [سورة فصّلت: 26]، وفي الخفت به ـ أي: الإسرار، أعني: ضعف الصوت ـ يَفُوتُ سماع الحاضرين معك في الصلاة أو غيرها من المسلمين.

﴿**وَابْتَغِ**﴾ اطلب واقصد ﴿**بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً**﴾ بين المذكورَيْن من الجهر والخفاء، والتوسُّطْ محمود. روى الترمذيُّ أنَّ أبا بكر يخفت ويقول: «أناجي

---

(1) أورده **السيوطي** في الدرّ، ج 4، ص 227. **والآلوسيُّ** في تفسيره، ج 5، ص 195. وقالاَ: أخرجه **البيهقيُّ** في الدلائل، من طريق نهشل بن سعد عن الضحَّاك عن ابن عبَّاس، بدون ذكر الحديث.

ربِّي وقــد علم حاجتــي»، وعمر يجهــر ويقول: «أطــرد الشــيطان، وأوقظ الوسنان»، ويروى أنَّهما كانا كذلك، وسأَلهما ﷺ فقالا ما ذكر. وبلال يقرأ من هذه السورة، ومن هذه، وســأَله فقال: «أخلط طيِّبا بطيِّب»، فقال: «**إِذا دخلت سورة فأتمَّها**» فنزلت الآية، وأمر الصِّدِّيق ببعض الرفع، وعمر ببعض الخفض.

وقيل: لا تجهر بصلاتك كلِّها، ولا تخافت بها كلِّها، بل خافت بها نهارًا، واجهر بها ليلا، وهذا لا يناسبه كلَّ المناســبة قوله: ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾ وأيضا الفجر نهار ولا يخافَتُ فيه.

ونقول: يخافت في الثالثة من المغرب، والأخيرتين من العشاء، ولا يجهر في ركعة فيها الفاتحة وحدهــا إلَّا بالتكبير. والإمام يجهر بـ«ســمع الله لمن حمده» في ذلك، ليؤخذ عنه، والمأموم يســرُّه في ذلــك. وعن ابن عبَّاس: لا تخفض حتَّى لا تُســمع أذنيك. وعن أبي هريرة: لا تُســمع أذنيك في صلاة السرِّ، وأســمعهما في صلاة الجهر. والإمام يُســمع مَن يصلِّي به ما قَدرَ. ولا نسخ في الآية.

﴿**وَقُلِ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ**﴾ أمره الله ﷻ بالحمد له، لتنزُّهه عن صفات النقص، وانفراده بالملك العامِّ، وإنعامه.

والملك: الخلق والــرزق والإبقاء والإحياء والإماتــة، والزيادة والنقص، والعبادة، وكلُّ موجود ســواه فهو ملكه، وليس معنى الملك كونه إلها، إلَّا أن يراد لازم الألوهيَّة، وهو أنه يملك كلَّ شيء من الأجسام والأعراض، ولا ولد له كما زعم اليهود والنصارى في عزير وعيسى، وبعض العرب والنصارى في الملائكة. ولا شريك له كما تقول الثنويَّة وقريش وغيرهم.

﴿**وَلَمْ يَكُن لَّــهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ**﴾ لا وليَّ له يدفع عنــه الذلَّ، لأنَّه عزيز كلَّ العزِّ، بل لا ذُلَّ له فضلا عن أن يكون له أحد يلي أمره من أجل الذُّلِّ. ﴿**وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا**﴾ عن كلِّ نقص، وكلُّ كامل يكون ناقصا بالنسبة إليه.

[أصول الدين] وكلُّ معصية وقعت فبإرادته وعلمه، وخَلْقِه لها، وإلَّا لزم النقصان، بأن وقع في مُلكه ما لم يرده. التقى عبد الجبَّار المعتزليُّ الهمدانيُّ مع القاضي أبى إسحاق الإسفراييني فقال: سبحان من تنزَّه عن الفحشاء، يعيب عليه اعتقاده أنَّ الله خلق المعصية، فأجابه الإسفرايينيُّ فقال: سبحان مَن لا يجري في ملكه إلَّا ما يشاء، ووقع مثل هذا لأبي عبيدة مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ مع بعض المعتزلة أيضا[1].

وكان ﷺ إذا أفصح الغلام من بني عبد المطلب علَّمه هذه الآية. وعن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إذا قال العبد: «الله أكبر» فهو خير له من الدنيا وما فيها». ويقال: افتتحت التوراة بفاتحة سورة الأنعام، واختتمت بخاتمة هذه السورة. وفي مسند أحمد، عن معاذ الجهنيِّ عن رسول الله ﷺ أنَّه كان يقول: «**آية العزِّ**: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا**﴾»[2].

ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله العليِّ العظيم.
وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه.

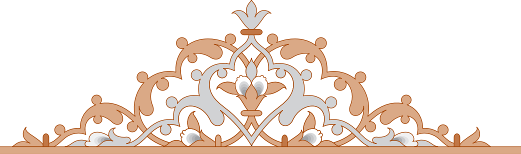


(1) ذكر **الدرجينيُّ** في الطبقات أنَّ المعتزليَّ هو واصل بن عطاء. ج 2، ص 246.
(2) رواه **أحمد** في مسنده، مسند المكِّيين، رقم: 1581، من حديث معاذ الجهني.

18

تفسير سورة الكهف

مكِّيَّة إلَّا الآية 28 ومن 82 إلى 101 فمدنيَّة، وآياتها 110 ـ نزلت بعد سورة الغاشية



﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ۜ (1) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (2) مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (3) وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (4) مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (5) فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (6) إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (7) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (8)﴾

مهامُّ القرآن العظيم والثناء على الله بإنزاله

﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ إخبار بأنَّ الله أهل للحمد، أو المراد: قل على طريق الإنشاء: ﴿الْحَمْدُ للهِ...﴾ أو المراد ذلك كلُّه، جمعا بين الحقيقة والمجاز، وهو ضعيف من جهة هذا الجمع، وفيه زيادة الفائدة، والأوَّلان أولى.

رتَّب الحمد في آخر السورة قبل هذه على الفضائل، لأنَّه الذي يستحقُّه، لكماله قدرة وسلطانا ونزاهة، ورتَّبه أوَّل هذه السورة على الفواضل، وهو

الإنعام بإنزال القرآن الذي تعلَّقت به منافع الدنيا والآخرة كلُّها، وفي تسميته بـ«عَبْدِ» وإضافته لله تشريف له ﷺ، وإيذان بأنَّ شأن الرسول أن يكون عبدا لمرسله لا إلها كما زعمت النصارى في عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ. و«الكِتَاب»: القرآن كلُّه ما أنزل وما سينزل، لأنَّه كحبل ممتدٍّ، أو غلَّب النازل على ما سينزل.

﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾ مَّا من العوج، باختلال في اللفظ وتناف في المعنى وانحراف عن الحقِّ، وهو في المعاني كاللفظ والعرض والدِّين، [والعوج] بالكسر كالعَوج بالفتح في الجسم كالحائط والعود كذا قيل، واعترض بقوله تعالى: ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا﴾ [سورة طه: 107] بالكسر مع أنَّ الأرض جسم، وأجيب بأنَّ المراد هنا ما خفي من الاعوجاج حتَّى احتاج إلى مقياس الحقِّ بما هو عقليٌّ، وردَّ بأنَّ رؤية البصر المجرَّدة تنافي هذا، فقيل: المكسور أعمُّ من المفتوح؛ وقيل: لا فرق بينهما. ﴿قَيِّمًا﴾ مفعول لمحذوف، أي بل جعله قيِّما، أو حال من الهاء، فيكون ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾ معطوفا على جملة الصلة، أو «قيِّمًا» حال من «الْكِتَابَ» على أنَّ الواو في «وَلَمْ يَجْعَل» للحال لا عاطفة لِئَلَّا يلزم الفصل بين أجزاء المعطوف عليه ـ ومنها الحال ـ بأجنبي.

قال بعض المتقدِّمين: أصل الكلام: أنزل على عبده الكتاب قيِّما ولم يجعل له عوجا، وكان حفص يقف وقفة خفيفة على ﴿عِوَجًا﴾ فترحَّم عليه بعض لذلك، لأنَّها لدفع أنَّ «قَيِّمًا» نعت لـ«عِوَجًا».

ومعنى ﴿قَيِّمًا﴾: مستقيم معتدل، لا تشديد فيه ولا ترخيص كلِّي، أو قيِّم بمصالح العباد الدِّينيَّة وَالدُّنيَوِيَّة ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [سورة الأنعام: 38] كقائم الأطفال أو المساجد أو الأموال، فالقرآن كامل في ذاته مكمِّل لغيره، أو قائم على كتب الله المتقدِّمة بالشهادة على ما زيد أو نقص فيها أو غيِّر أو حرِّف؛ أو خاليا عن الرذائل حاليا بالفضائل.

وعلى تفسيره بالاستقامة والاعتدال يكون كالتكرير تأكيدا على عادة كلام العرب، فإنَّ ما لا عوج فيه معتدل مثل قوله تعالى: ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ﴾ [سورة النساء: 25] فإنَّ المحصنات غير مسافحات.

﴿لِّيُنذِرَ﴾ متعلّق بـ«أَنزَلَ». واختلف في أفعال الله هل تعلَّل بالأغراض؟ والمانع لذلك يجعل اللام للعاقبة وهو المذهب. ومفعوله الأوَّل محذوف للعلم به، أي لينذر اللهُ أو عبدُه أو الكتابُ الكفَّار، والثاني قوله: ﴿بَأْسًا﴾ أي ضرًّا أو عذابا، ولا يختصُّ بالشديد، فليس قوله: ﴿شَدِيدًا﴾ نعت تأكيد كما قيل، بل نعت تأسيس، ويجوز أن لا يقدَّر مفعول أوَّل لـ«يُنذِر» بل له واحد، والأوَّل لم يسق له الكلام، بل يكون المراد بالذات أنَّ المنذَر به هو ﴿بَأْسًا شَدِيدًا﴾ كما تقول: زيد يعطي الدنانير، تُبَيِّنُ لمن جهل ما يعطي، أو تردُّ على من قال: الدراهم. ﴿مِّن لَّدُنْهُ﴾ من عنده، وقيل: هو أبلغ من «عندَ» وأخصُّ، متعلِّق بمحذوف وجوبا نعت لـ«بَأْسًا»، أو حال من الضمير في «شَدِيدًا»، أو جوازا، أي صادرا من لدنه.

﴿وَيُبَشِّرَ﴾ قدّم الإنذار على التبشير لأنَّ التخلية قبل التحلية، ولإظهار كمال الترغيب في الزجر عن الكفر ﴿الْمُومِنِينَ الذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ﴾ أي بأنَّ ﴿لَهُمُۥٓ أَجْرًا حَسَنًا﴾ هو الجنَّة لأجل إيمانهم وعملهم.

[نحو] ﴿مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ فيه دليل على جواز أن لا يبرز الضمير في النعت الجاري على ما ليس له، أو الحال الجاري كذلك، ومثلهما الخبر، فـ«مَاكِثِينَ» حال من «أَجْرًا» أو نعته، وإن جعل حالا من المستتر في «لَهُم» فلا دليل فيه، وذلك إذا لم يكن لبس، ومقتضى مذهب البصريِّين إذا جعل نعتا لـ«أَجْرًا» أو حالا منه أن يقال: ماكثا هم، فـ«هم» فاعل «ماكثا». وهاء «فِيهِ» للأجر.

﴿وَيُنذِرَ الذِينَ قَالُواْ اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا﴾ هم الكفرة الذين قالوا: الملائكة بنات الله، والنصارى القائلون: عيسى ابن الله، واليهود القائلون: عزير ابن الله، ولم يذكر المنذَر به وهو البأس لدلالة ما تقدَّم، أي وينذره الذين، الهاء مفعول

ثان مقدَّم، و«الذِينَ» أوَّل، أو لا يقدَّر ثان على أنَّ المراد استعظام القول بالولد كأنَّه قيل: ويل لهم، أو لا تنس سوءهم فإنَّه أعظم ســوء، فلو قيل: إنَّهم أقبح من منكر الله ـ لأنَّ في قلوبهم إنكاره إذ وصفوه بصفة الخلق وزادوا على هذا الإنكار ذلك الوصف ـ لم يَبْعُدْ.

[بلاغة] وليس ذلك عطف خاصٍّ على عامٍّ، لأنَّ الذين كفروا لم يذكروا في قوله: ﴿لِيُنذِرَ﴾، ولا يتعيَّن تقديره، وليس في ذكر الإنذار تأكيد للأوَّل لأنَّه لا يتمُّ الــكلام بلا ذكر له، وأنــت خبير بأنَّه حذف من الإنــذار الأوَّل المنذَر وذكره في الثانــي، ومن الثاني المنــذَر به وذكره فــي الأوَّل، وذلك احتباك. والإشراك أعظم من الإشراك الذي بالتبنِّي، فيعلم بالأولى. وقدَّر بعض: لينذر العالم، وبعضٌ: لينذر العباد، على معنى مجرَّد الإخبار فيعمَّ الموحِّد.

﴿مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ ما لهم علم بالولد، أو باتِّخاذه المأخوذ من «اتَّخَذَ»، أو بالقول المأخوذ من «قَالُوا»، أو بـ«الله» لو علموه ما نســبوا إليه الولد ﴿وَلَا لِأَبَآئِهِــمْ﴾ واحدٍ بعد واحد، بــل قالوه عن جهل مفرط، حيــث لا تحكم به عقولهم، ولا يؤدِّي إليه فكرهم.

أو عن تقليد بعض لبعض من غير علم بالمعنى الذي أراد قائله الأوَّل، وهو التعظيم، فإنَّه أراد بالأب العظمة، كما تقول البربر: «بَابَه رَبِّي» حتَّى إنَّه يروى عن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لا أشرب الخمر حتَّى ألقى أبي فأشــربها في الجنَّة»، وأراد بالأب التعظيم، وكأنَّه لَمَّا قــال ذلك توهَّموا ظاهر كلامــه، أو أراد الأوَّل بالأب المؤثِّر وبالولد الأثر، وكذا العرب تزعم بعض عن بعض أنَّ الملائكة بنات الله عَزَّ وَجَلَّ.

[فقه] وأفــادت الآية أنَّه لا يجــوز التكلُّم بما يوهم الباطــل لئلَّا يعتقد السامع أنَّه حقٌّ إلَّا مع البيان.

﴿كَبُرَتْ﴾ في الزيغ، كالتشــبيه بالخلق في التجســيم، والحاجة إلى ولد يعينه ويخلفه ﴿كَلِمَةً تَخْرُجُ مِــنَ اَفْوَاهِهِمُ﴾ أي كبرت قولتهم أو كلمتهم هذه،

أو «كبرت هي» بمضمر مستتر مفسَّر بتمييز بعده، و«كَلِمَةً» تمييز لأنَّه لَمَّا أضمر الكلمة أو القولة حصل الإبهام، وجملة «تَخْرُجُ» نعت «كَلِمَةً» أو نعت لمخصوص محذوف تقديره: كلمةٌ تخرج بالرفع. والوصف بالخروج من الفم ذمٌّ زائد على الذمِّ بالاعتقاد، لأنَّ الإنسان قد يضمر أمرا قبيحا ولا يبوح به، وهؤلاء باحوا به وأكثروه، ولم يروه عيبا.

[أصول الدين] والخارج من الأفواه الهواء الحامل للحروف، فالكلمة خارجة مع الهواء، فبطل استدلال النظَّام بالآية على أنَّ اللفظ جسم، لوصفه بالخروج الذي هو من خواصِّ الأجسام، وأجيب بأنَّ النظَّام قائل بأنَّ اللفظ هو نفس ذلك الهواء المكيَّف، والأصل في الإسناد الحقيقة.

﴿**إِنْ يَّقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا**﴾ إلَّا كلاما مكذوبا فيه ﴿**فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمِ**﴾ شبَّه الله ﷻ حال رسول الله ﷺ في شدَّة الوجد على إعراضهم عن الإيمان وكمال الحزن عليهم بحال من يتوقَّع منه إهلاك نفسه إثر فوت ما يحبُّه من أهل. والفاء للتفريع على قوله: ﴿إِنْ يَّقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾.

عاتبه الله على شِدَّة حزنه حتَّى كاد يقتل نفسه لقولهم ذلك، مع أنَّه قول كذب، أو على قوله: ﴿كَبُرَتْ...﴾ أو لمجرَّد الترتيب الذكري.

[نحو] ولا يجوز أن تقول: الجملة جواب شرط والفاء رابطة، لأنَّ الصحيح أنَّ جواب الشرط لا يتقدَّم، ولو جاز تقدُّمه لورود: تقم إن قام زيد، بجزم تقمْ، ولعدم وجوب اقتران الجملة التي لا تصحُّ شرطا بالفاء إذا تقدَّمت، نحو: قم إن قام زيد، أو أنا قائم إن قمت، وليست واردة بالفاء إلَّا باعتبار ما قبلها، ولا أقبل قولهم أيضا: الجواب محذوف دلَّ عليه ما قبله في نحو: أقوم إن قام زيد، وإنَّما الصواب أن يقال: لا جواب له، لأنَّه أغنى عنه ما قبله، والمقدَّر في ذلك لا يقصده المتكلِّم فكيف يقدَّر؟.

ومعنى ﴿بَاخِعٌ نَّفْسَكَ﴾: قاتلها، والبخع القتل مطلقا لا ما قيل: إنَّه القتل حزنا، وإنَّه لا يستعمل في القتل بغير الحزن. والآية تسلية لرسول الله ﷺ لاجتماع عتبة بن ربيعة وأخيه شيبة بن ربيعة، وأبي جهل والنضر بن الحارث، وأميَّة بن خلف، والعاص بن وائل، والأسود بن المطَّلب، وأبي البحتري، وأمثالهم من عظماء قريش على تكذيبه.

و«لَعَلَّ» للترحُّم، كما نقول: هي في كلامنا للإشفاق، والحثُّ على ترك التحزُّن، وأجاز الكوفيُّون أن تكون للاستفهام، وهو توبيخ وإنكار، قيل: هي هنا للنهي أي لا تبخع. و«عَلَى» للتعليل. و﴿ءَاثَارِهِمْ﴾: جمع أثر، وهو ما قالوه، كقوله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَارَهُمْ﴾ [سورة يس: 12]؛ أو الكلام استعارة تمثيليَّة، بأن شبَّه ما بداخله من الوجد على كفرهم بمن فارقته أحبَّته، فيتحسَّر بعدهم.

﴿**إِن لَّمْ يُومِنُواْ بِهَذَا الْحَدِيثِ**﴾ القرآن ﴿**أَسَفًا**﴾ تعليل لقوله: ﴿بَاخِعٌ﴾ ولا حاجة إلى جعله حالا لاحتياجه إلى التأويل بآسفا، أو بذا أسف، أو للمبالغة كأنَّه نفس الأسف، وقدَّر بعضٌ: تأسف.

والأسف: الحزن والغضب معا، ويستعمل في أحدهما أيضا وحده، والآية قابلة لذلك، وفسَّرها قتادة بالغضب، وروي عنه بالحزن، وفسَّره البخاري بالندم، ومجاهد بالحزن، ويقال: إذا جاء التفسير عن مجاهد كفى قوَّة، وجُمِعا في قوله تعالى: ﴿غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ [سورة الأعراف: 150 وسورة طه: 86] تأكيدا، أو أسفا بمعنى حزنا، أو غضبان على بعض، أسفا على بعض، ومن قدر على الانتقام غَضِبَ، أو لم يقدر حَزَنَ.

﴿**إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الاَرْضِ**﴾ من الحيوان والنبات والشجر والمعادن والأنهار والبحور، فإنَّها على الأرض، وما يخرج منها من اللؤلؤ والمرجان والسمك، وكالسفن، وكالعلماء والصالحين، الأمراء والرجال والنساء، وأدخل بعض في ذلك نحو الحيَّة والعقرب فإنَّه زينة من حيث دلالتها على الله تعالى.

﴿زِينَةً لَّهَا﴾ ولأهلها، أو يقدَّر مضاف أي زينة لأهلها ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ بالتوحيد والعمل الصالح، والتقوى والشكر، والاستنفاع بذلك قصدا إلى إقامة الدين، ونفع خلق الله به صدقة، وأداء لحقِّه، أو بالزهد فيه، والاقتصار على ما لا بدَّ منه، وبأخذه بوجه حلال، وبعدم الاغترار به، وبعدم الإعجاب به وبصرفه في الطاعة لا في المعصية، أو التضييع وفيما لا يعني، وقومك الكافرون ونحوهم لم يشكروا ذلك الإنعام، وأخذوه بوجه حرام وصرفوه في حرام، فويل لهم وسترى ما يحلُّ بهم!.

[نحو] والجملة استفهاميَّة مفعول لـ«نَبْلُوَ» معلَّقا عنها لتضمُّنه العلم، أو «أَيُّ» بمعنى الذي بدل من الهاء قبله، والتقدير: أيُّهم هو أحسن عملا، وهي مبنيَّة.

وسئل ﷺ عن الأحسن عملا فقال: «**أحسنكم عقلا، وأورع عن محارم الله تعالى، وأسرعكم في طاعته سبحانه**»[1]. وعن الحسن: «أحسنهم عملا: أشدُّهم للدنيا تركا»، وقال غيره: «أحسنهم: من زهد وقنع من الدنيا بزاد المسافر»، [قلت:] ودونه حَسَنٌ وهو من استكثر من حلالها وصرفه في وجوهه، ومَنْ دون ذلك قبيح: من احتطب حلالها وحرامها وأنفقه في شهواته. وهذه تسلية لرسول الله ﷺ، وتعليل للنهي، كأنَّه قيل: لا تحزن فإنِّي منتقم منهم، ولا بدَّ من عقابهم بعد الفناء المذكور بقوله:

﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ تشبيه بليغ كقولك: جعل الله زيدا أسدا، فـ«صَعِيدًا» مفعول لا منصوب على نزع الجارِّ، والصعيد: التراب، ووجه الشبه أنَّه يصيِّره الله كالتراب لا يرغب الناس فيه، وذلك يوم القيامة يوم

(1) أورده **الآلوسيُّ** في تفسيره، ج5، ص207، في تفسيره لهذه الآية، وقال: أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم في التاريخ. وأورده **السيوطي** في الدر: ج4، ص233. من حديث ابن عمر.

لا يرغب الناس في المعادن ولا في غيرها إلَّا في العمل الصالح، ولا يجدونه إلَّا ما قدَّموه في الدنيا، وهو كقوله تعالى: ﴿كلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [سورة الرحمن: 26] وقوله: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [سورة طه: 106ـ107] وذلك تزهيد في الدنيا.

والجرز: الأرض التي قطع نباتها، والجرْز بإسكان الراء: القطع، والمراد مطلق الإذهاب وإزالة النفع بذلك كلِّه، ولا يختصُّ بالنبات، ويقال: الجرز الموضع الذي لا نبات فيه ولا ماء، والصعيد: المستوي من الأرض، ويقال: وجه الأرض مطلقا. وهو نعت «صَعِيدًا» أو مفعول بعد مفعول ثان.

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿9﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ
إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿10﴾ فَضَرَبْنَا
عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿11﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا
لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿12﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى
﴿13﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن
دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿14﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا
يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿15﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ
وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ
أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿16﴾ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت
تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ
وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿17﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ
ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ
مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿18﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ
قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ
فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا
فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿19﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟
عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿20﴾ وَكَذَٰلِكَ

أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿21﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿22﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿23﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿24﴾ وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿25﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿26﴾

قِصَّة أصحاب الكهف

[نحو] ﴿**أَمْ حَسِبْتَ**﴾ «أَمْ» منقطعة، فهي حرف ابتداء مقدَّرة بـ«بل» والهمزةِ الاستفهامية عند الجمهور، وبالهمزة وحدها عند قوم، وبـ«بل» عند قوم، والهمزة المقدَّرة للاستفهام الإنكاريِّ، وفي كلِّ موضع بما يصلح له، وبل للانتقال لا للإبطال ﴿**أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُواْ مِنَ ـ ايَاتِنَا عَجَبًا**﴾ أفرده مع أنَّه خبر «كَانُوا» أو حال، لأنَّه مصدر بمعنى معجوبا بهم.

والمعنى: أتظنُّ أنَّ قصَّتهم عجب، وتغفل عَمَّا هو أعجب كخلق السماوات والأرض وغيرهما، ولم يتَّعظ قومك بهما، ولم يؤمنوا؟ فلهم الويل مِمَّا يصفون، بلغ بهم الإنكار حتَّى بلغوا إلى السؤال عن أصحاب الكهف

تعنُّتا، ولم يعلموا أنَّ جعل ما على الأرض صعيدا بعد تمكُّنه فيها من أعظم الآيات، لا خصوص أصحاب الكهف.

[قلت:] والذي يتبادر لي إثبات أنَّهم عجب، وإخبار به، كما تقول لمن يعلم بقيام زيد: أعلمت أنَّه قام؟ ولا ضعف في هذا كما قيل، فهو تنبيه على قدرته تعالى.

والكهف: هو الغار الواسع في الجبل، وإن لم يتَّسع لم يسمَّ كهفا، وقيل: الغار فيه مطلقا، وقيل: فيه أو في الأرض. و«الرقيم»: اللوح من حجر أو حديد أو رصاص أو ذهب، رقمت فيه أسماؤهم، وقال بعض: رقمت فيه قصَّتهم وأمرهم، وجعل على باب الكهف، وقيل: في تابوت في فم الكهف، وقيل: وضع تحت جدار اليتيمين، وقيل: في سور المدينة، فرقيم بمعنى مرقوم، كقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾ [سورة المطفِّفين: 9]، وقيل: في ذلك اللوح دين عيسى لأنَّهم من الروم أخذوا بدينه، وهو رواية عن ابن عَبَّاس، وقيل: من دِينٍ قَبْلَ عيسى.

وقال قتادة: الرقيم دراهمهم التي معهم، وقيل: اسم الجبل الذي فيه كهفهم، وقيل: اسم الوادي الذي فيه كهفهم، وعليه ابن عَبَّاس، وعنه: واد دون فلسطين قريب من أيلة، وقال كعب الأحبار: إنَّه اسم قريتهم، وقيل: اسم كلبهم قال أميَّة بن أبي الصلت:

وليس بها إلَّا الرقيم مجاورا وصيدهم والقوم في الكهف همَّدًا

أردا بالرقيم الكلب، كما قال الله ﷻ: ﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ [الآية: 18]، وهمَّدا: حال بمعنى نوام، فللعرب معرفة بأصحاب الكهف ولو لم يضبطوا تفصيل قصَّتهم.

وقيل: أصحاب الرقيم قوم آخرون، والرقيم واديهم أو جبلهم، وكهفهم غير ذلك الكهف، والمراد بالكهف الأوَّل. ويقدَّر مضاف، أي: وأصحابَ الرقيم.

[قصَّة أصحاب الرقيم] وذلك أنَّه خرج ثلاثة نفر ينظرون أين النبات والماء

ليرعى أهلوهم عليه مواشيهم، فاشتدَّ عليهم المطر، فدخلوا غارا فسقطت صخرة سدَّت بابه فقال أحدهم: توجَّهوا إلى الله بما عملتم من البرِّ، فقال أحدهم: استعملت أجراء فجاء رجل وسط النهار وعمل في بقيته مثل عملهم، فأعطيته مثل أجرهم، وهو فرق من أرز، فغضب أحدهم وترك أجره جانب البيت، فاشتريت به فصيلة وتجرت له وأنسلت الفصيلة فرجع إليَّ بعد مدَّة شيخا ضعيفا لا أعرفه وقال لي: عندك حقٌّ فذكره فعرفته فأعطيته الجميع، فقال: أتهزأ بي؟ فقلت: لا بل هو حقُّك، اللهمَّ إن كنت فعلت ذلك لأجلك فأفرج عنَّا. فتحرَّكت حتَّى رأينا الضوء.

وقال آخر: كنت غنيًّا وافتقر الناس، فطلبت منِّي امرأة معروفا فأبيت إلَّا بجماعها فرجعت، ثمَّ عادت ثلاثا، وذكرت لزوجها فقال: أغيثي عيالك فلما كشفتها ارتعدت، فقلت: مالك؟ فقالت: أخاف الله، فقلت: خِفْتِه حال الاحتياج، وكيف لا أخافه في الرخاء؟ وتركتها وأعطيتها ما طلبت، فانتقلت الصخرة حتَّى تعارفوا.

وقال الثالث: لي أبوان كبيران جدًّا وكنت أطعمهما وأسقيهما، ثمَّ أرجع إلى غنمي فحبسني المطر يوما، فأتيت أهلي وأخذت محلبي فحلبت لهما، فوجدتهما نائمين، وكرهت إيقاظهما فتوقَّفت جالسا ومَحْلَبِي على يدي حتَّى أيقظهما الصبح، فسقيتهما، اللهمَّ إن فعلت ذلك لوجهك ففرج عنَّا، فتحرَّكت حتَّى خرجوا[1]. وفي رواية: إنَّ صاحب المحلب وقف الليل كلَّه ومحلبه بيده، والبرد شديد حتَّى قطرت يده دما، ويروى أنَّه ينصدع لهم الجبل عن الصخرة. والقصَّة من رواية النعمان بن بشير وابن عَبَّاس وأنس.

﴿إِذَ اَوَى﴾ التجأ ﴿الْفِتْيَةُ﴾ جمع فتى، وهو الشاب من كلِّ حيوان، وهم مرد. وأظهرهم للتنصيص على وصفهم بصغر السنِّ.

---

(1) رواه **البخاري** في كتاب الأدب (5) باب إجابة دعاء من برَّ والديه، رقم 5974. و**مسلم** في كتاب الذكر والدعاء (27) باب قِصَّة أصحاب الغار الثلاثة... رقم 100 (2743).

[قصص] [قلت:] والصحيح أنَّ الكهف في ناحية طرسوس في المشرق لا في الغرب، ففي الشام كهف فيه موتى، يزعم مجاوروه أنَّهم أصحاب الكهف، وعليهم مسجد وبناء يسمَّى الرقيم، ومعهم رمَّة كلب، وقال الإمام أبو حيَّان: في جهة غرناطة قرب «لوشة» كهف فيه موتى ومعهم كلب رمَّة انجرد لحمه وتماسك بعضه، وقد مضت قرون ولم نجد من علم شأنهم، ويزعم ناس أنَّهم أصحاب الكهف، قال أبو حيَّان: قال ابن عطيَّة[1]: دخلت عليهم فرأيتهم سنة أربع وخمسمائة وهم بهذه الحالة، وعليهم مسجد، وقريب منهم بناء رومي يسمَّى الرقيم، كأنَّه قصر مخلق قد بقي بعضه، وهو في فلاة من الأرض خربة، وبأعلى قصر غرناطة مِمَّا يلي القبلة آثار مدينة قديمة، يقال لها: مدينة دقيوس، وجدنا في آثارها غرائب، قال أبو حيَّان: وحين كُنَّا بأندلس كان الناس يزورون هذا الكهف ويذكرون أنَّهم يغلطون في عدَّتهم إذا عدُّوهم، وإنَّ معهم كلبا يرحل الناس إلى لوشة لزيارتهم، قال: وقد مررت مرارا كثيرة على المدينة القديمة العظمى المذكورة، وشاهدت فيها حجارا عظيمة، قال: ويترجَّح كون ذلك بأندلس لكثرة دين النصارى بها، ولأنَّ الأخبار بما هو أقصى من أرض الحجاز أغرب وأبعد أن يعرف إلَّا بوحي من الله ﷻ، [قلت:] وهو مخالف لِمَا يذكر عن معاوية أنَّه مرَّ بالكهف وأراد دخوله فمنعه ابن عَبَّاس[2].

﴿**إِلَى الْكَهْفِ**﴾ «إِذْ» ظرف لـ«عَجَبًا» أو مفعول لـ«اذكر»، لا متعلِّق بـ«حَسِبْتَ»، لأنَّه ليس ﷺ في وقت أَوْيِهم إلى الكهف.

[قصص] وكانوا شبَّانا كما سمَّاهم «فتية»، وهم من أشراف الروم على

---

(1) ابن عطية عبد الحق بن غالب الغرناطي: مفسِّر وقاض عارف بالأحكام والحديث، له شعر، من فقهاء المَالِكِيَّة من أهل غرناطة، توفي سنة 542هـ، له تفسير: «المحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز». **معجم المفسرين**، ج 1، ص 257.

(2) **أبو حيان**: البحر المحيط، دار الفكر، ج 7، ص 143.

سنٍّ واحد أو متقاربون آمنوا بالله وبعيسى عليه السلام، أرادهم دقيانوس على الإشراك وهو ملك الروم، فهربوا إلى الكهف قريبا من بلدهم.

وقيل: كان ذلك قبل عيسى عليه السلام في فترة، فكان إيمانهم عبرة وتفكُّرًا في عظمة ملك الله وقدرته، ولم يأتهم وحي، ولم يقرؤوا كتابا ولم يعلِّمهم أحد، بعثه الله عز وجل وهم في الكهف ورفعه الله بعد ثلاث وثلاثين سنة، ومضى بعد ذلك زمان طويل فبعثهم الله من نومهم، واطَّلع أهل ذلك العصر على حالهم ليعلموا أنَّ الله يبعث الموتى.

تزوَّدوا من بيوت آبائهم وتصدَّقوا وهربوا خوفا من أن يقهروا على عبادة سلطانهم دقيانوس، وهم معه في مدينة أفسوس من مدائن الروم، والعرب تسمِّيها طرسوس، وقيل: كانوا يبعثون واحدا منهم يشتري لهم الطعام من المدينة خيفة، قيل: جلسوا يوما عند الغروب يتحدَّثون فألقى الله عليهم النوم، كما قال الله عز وجل: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ...﴾ الآية.

﴿فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ إنعاما بالمغفرة والرزق والأمن من العدوِّ، والنجاة من الشرك **﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنَ اَمْرِنَا رَشَدًا﴾** يسِّر لنا أو أَحضر لنا صوابا، وأصل التهيئة إحداث هيئة الشيء، واستعمل في مطلق إعداده وإحضاره.

و﴿أَمْرِنَا﴾: الأمر الذي نحن عليه من مفارقة الكُفَّار والأهل والوطن. و«مِنْ» للابتداء أو للسببيَّة. والرَّشَدُ: الصواب بأن تثبِّتنا على الهداية والانقطاع عن الدنيا بعبادتك.

[بلاغة] أو استخرج من أمرنا الذي نحن عليه من الحقِّ رشدا، مبالغة منهم بأن يتولَّد من صوابهم صواب آخر، وذلك من التجريد البديعي الواقع بـ«مِنْ» نحو: رأيت من زيد الأسد، ورأيت منه البحر، في مبالغة وصفه بالشجاعة والجود، ويكون بفي وبغيرها كما ذكرته في بيان البيان[1].

(1) مخطوط للشيخ في علم البلاغة.

[دعاء وتضرُّع]

يا ربِّ هيِّء لنا من أمرنا رشدا واجعل معونتك الحسنى لنا مددا
ولا تكلنا إلى تدبير أنفسنا فالنفس تعجز عن إصلاح ما فسدا
أنت الكريم وقد وجهت يا صمد إلى جنابك وجها سائلا ويدا
وللرجاء ثواب أنت تعلمه فاجعل ثوابي دوام الستر لي أبدا[1]

فأجب دعائي يا جواد كما أجبت دعاءهم في ضمن قولك تباركت وتعاليت: ﴿**فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ**﴾ حجابا مانعا من السمع ﴿**فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا**﴾ أي أنمناهم.

[بلاغة] واستعمل ما وضع لضرب الحجاب على الشيء حتَّى لا يحسَّ في معنى الإنامة، على الاستعارة المكنيَّة والتخييليَّة لجامع إسقاط الإحساس. و«عَدَدًا» نعت سنين وصفها به تقليلا لها، لأنَّ لبثهم كيوم أو بعضه عنده، وهي ثلاثمائة سنين وتسع سنين، وذلك كتقليل الكثير في مقابلة ما لا يحصى كثرة أو تكثُّرا لأنَّها في نفس الأمر عدد كثير، والله قادر على تلك الكثرة.

ومعناه: سنين معدودة، أو ذوات عدد، وقدَّر بعضهم: تعدُّ عددا، والكثرة تناسب كمال القدرة، والقلَّة تناسب نفي كون قصَّتهم عجبا من دون سائر الآيات العجيبة التي كثرت في القرآن. ونصَّ على الآذان لأنَّه يحصل النوم بالضرب عليها، وبالنوم يبطل كلُّ إحساس.

﴿**ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ**﴾ أيقظناهم من نومهم، استعارة على متعارف الشرع في لفظ البعث، وحقيقة لغويَّة ﴿**لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا**﴾ أي ليظهر علمنا خارجا عند الناس، أو لتطابق حالهم علمنا الأزلي.

[أصول الدين] وكلُّ ما حدث فالله عالم بحدوثه علما مطابقا لعلمه الأزلي، ولا يتَّصف بالنسيان ولا بحدوث شيء عليه سبحانه.

---

(1) الأبيات لأبي محمد عمارة بن علي اليمني (ت: 569 هـ). ينظر: برنامج الموسوعة الشعرية.

والحزبان: أصحاب الكهف والملوك الذين على المدينة وغيرهم واحدا بعد واحد، أو هم أصحاب الكهف وأهل المدينة الذين بعثوا على عهدهم، أو طائفة مؤمنة وطائفة كافرة، أو الحزبان: الكافران اليهود والنصارى، وهو قول السدِّيِّ.

[قلت:] وساء أدبا من قال: الحزبان الله تعالى والخلق، كقوله تعالى: ﴿ءَآنتُمُۥٓ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ﴾ [سورة البقرة: 140] أو هم أصحاب الكهف فريق يقول يوما أو بعض يوم، وفريق يقول: ﴿رَبُّكُمُۥٓ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ وفي ذلك كلِّه لا علم لأحد من الملوك ولا أصحاب الكهف بالمدَّة، فإمَّا أَنَّ اللام للتعليل فلم يقع العلم به كقولك: خلق فلانا للعبادة ولم يعبد، وإمَّا للعاقبة أنَّ الله أظهر لنا ثلاثمائة سنين وتسعا. و«أَمَدًا» مفعول، وذلك أنَّ قول بعضهم: «ربُّكم أعلم» ليس معرفة بالعدد بل صواب وتوحيد.

ويجوز أن يكون الاختلاف بين أصحاب الكهف هل طالت المدَّة؟ فمن قائل: يوم أو بعض يوم، ومن قائل: طالت المدَّة وهو القائل: «رَبُّكُمُ أَعْلَمُ»، فجعل الله قوله بالطول علما بها لأنَّها طالت، وليست يوما أو بعضه، وذكر الفرَّاء أنَّ ﴿الْحِزْبَيْنِ﴾ طائفتان من المؤمنين في زمان أصحاب الكهف.

[نحو] و«أَمَدًا» مفعول به لـ«أَحْصَى» واللام متعلِّق بـ«أَحْصَى»، أو بمحذوف حال من «أَمَدًا» و«مَا» مَصدَرِيَّة، أي للبثهم. [قلت:] ولا حاجة إلى جعل «أَحْصَى» اسم تفضيل من الرباعي، بإسقاط همزته لشذوذ مثل هذا، وأجازه بعض قياسا مطلقا وبعض إن كانت الهمزة لغير التعدية، كأصبح وأشرق وأضاء وأشكل وأطعم، ولا إلى جعل اللام زائدة وجعل «ما» اسما موصولا أو نكرة موصوفة مفعولا به لـ«أَحْصَى» و«أَمَدًا» تمييز، ويردُّه أنَّه يكون تمييزا لاسم التفضيل أو فاعلا في المعنى له.

﴿**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ**﴾ يا محمَّد ﴿**نَبَأَهُم**﴾ خبرهم تفصيلا بعد قصِّه إجمالا ﴿**بِالْحَقِّ**﴾ بالصدق، وقد خاض الناس فيه بالباطل ﴿**إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ**﴾ سبعة، وزعم

بعض أنَّهم ثمانية ﴿ـامَنُواْ بِرَبِّهِمْ﴾ الهاء لجماعة أصحاب الكهف، لا لسيِّدنا محمَّد ﷺ، فلا يقال: إنَّه على طريق الالتفات من الخطاب في «عَلَيْكَ» إلى الغيبة في هاء «رَبِّهِمْ»، فلا تهم، وإنَّما الالتفات من تكلُّم ﴿نَحْنُ نَقُصُّ﴾ وما قبله إلى غيبة لفظ «ربّ»، ومقتضى الظاهر: آمنوا بنا ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ بالاطِّلاع على دلائل أخر وبالتثبيت حتَّى إنَّهم لم يكتفوا بإظهار الحقِّ بل زادوا جِدَالاً بالبرهان، فقد قيل: زادهم هدى بإنطاق الكلب أنَّهم على الحقِّ، وقيل: جاءهم ملك فقوَّاهم على الحقِّ، وأخبرهم بالنبيء ﷺ أنَّه سيجيء إلى الناس كلِّهم فآمنوا به، ولا يلزم بذلك أن يكونوا أنبياء وقيل: بعضهم نبيء.

﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمُۥٓ إِذْ قَامُواْ﴾ شددنا الإيمان على قلوبهم، كما يربط شيء على آخر، فاختاروه على الوطن والأهل والمال والأصحاب وعشرة الملك. حَتَّى إنَّهم قاموا بين يدي الملك دقيانوس الرومي في بلدتهم، وهي أفسوس، وقيل: طرسوس، وقيل: بلدة واحدة أفسوس، العرب تسمِّيها طرسوس، وأمرهم بالسجود له أو للصنم، وكان يقتل المسلمين ويعلِّق لحومهم على سور البلد، وأظهروا الحقَّ بين يديه، ولم يخافوه، لجرأة قلوبهم لربط الله عليها فلا يخرج منها الإيمان.

والربط مستعار للشدِّ والتثبيت، تصريحيَّة أو مكنيَّة تخييليَّة. وكانوا قعودا فقاموا لإظهار الدين، وقيل: القيام التثبيت، وقيل: الاجتهاد في دعاء الناس إلى الإسلام ﴿فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالَارْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِ إِلَهًا﴾ لن نعبد غير الله وحده، ولا مع الله.

[قصص] وكان دقيانوس يدعوهم وغيرهم إلى أن يعبدوه، وقيل: يدعو إلى عبادة صنم له كان يعبده، ويذبح له، ويأمر الناس بالذبح له وعبادته، فخيَّرهم بين أن يكونوا كالناس في ذلك وبين أن يقتلهم، فقال أكبرهم: لنا إله يملك السماوات والأرض وكلَّ شيء فاصنع ما بدا لك، فأمر بنزع لباسهم

وما عليهم من السوار والطوق، وكانوا من أهل الملك والشرف معه، وقال: أخَّرتكم لعلَّكم تتفكَّرون لأنَّكم شباب، وسافر إلى نينوى فخافوا قهره إذا رجع، فكانوا يرسلون تمليخا ـ بالمثناة الفوقيَّة وقيل التحتيَّة ـ من الكهف يشتري لهم الطعام بعد انقضاء زادهم مستخفيا، فبينما هو في المدينة سمع برجوعه فأتاهم بطعام وأخبرهم عند الغروب، وزادوا تضرُّعا وذكرًا لله ﷻ على ما هم عليه، فقال لهم: يا إخوتاه كلوا وتوكَّلوا على ربِّكم، وتكلَّموا وتواصوا وأنامهم الله، وأنام كلبهم، فلما رجع فتَّش عليهم فوجدهم وعيونهم شديدة النظر، فقال: إنَّ ربَّهم الذي هربوا إليه يعذِّبهم فسدَّ عليهم باب الكهف ليموتوا جوعا، بإشارة بعض من معه، إنَّك إن قدَّرت عليهم قتلهم فالبناء عليهم قتل لهم، ولا يدري أنَّهم نوَّمٌ وقيل: موتى.

وقيل: هم عظماء المدينة اجتمعوا خارجها بلا ميعاد، وكلٌّ يخفي حاله عن الآخر، فقال أكبرهم: في قلبي أنَّ ربِّي ربُّ السماوات والأرض، فقالوا: كذلك نجد في قلوبنا، فقالوا جميعا: ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِ إِلَهًا﴾.

[قصص] وقيل: جاء حواريٌّ إلى بلدهم فقيل له: لا تدخل إلَّا إن سجدت للصنم عند الباب، فلم يدخل، ودخل حمَّاما عند الباب واستجاره الحمَّامي، رأى منه بركة، وشرط الحواريُّ: أنَّ الليل لي ولا تمنعني من الصلاة، فكان يعلِّم الأولاد توحيد الله فاجتمع له عدد، ودخل ابن الملك الحمَّام مع أجنبيَّة جميلة فوعظه فاستحيى، وعاد ليلا آخر فزجره فلم ينزجر، فدخل وبات معها في الحمَّام فماتا فقيل: إنَّه قتلهما، فخاف فهرب بالأولاد وهم أصحاب الكهف.

﴿**لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا**﴾ إذ عبدنا غير الله، وقلنا إنَّه الله بعد البيان، أو إذ فعلنا ذلك فيما مضى ﴿**شَطَطًا**﴾ قولا ذا شطط أي بُعْدٍ عن الحقِّ، مفرط في الظلم والكذب والجور ﴿**هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا**﴾ خبر أوَّل موطِّئ للثاني وهو قوله: ﴿**اتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ**

ءَالِهَةً﴾ أو هذا خبر و«قَوْمُنَا» بدل أو بيــان، واللفظ إخبار والمعنى إنكار للياقة عبادة غير الله ﷻ، كما يدلُّ له قوله ﷻ: ﴿لَّــوْلَا﴾ تحضيض إنكاريٌّ. واتِّخاذ الآلهة: صنعهــا ونحتها ليعبدوها، والمفعــول واحد وهو «آلِهَــةً»، أو الاتِّخاذ: تصييرها آلهة تعبد، فيكون له مفعولان أحدهما «آلِهَةً» والثاني مقدَّر، أي أربابا لهم، أو «آلِهَةً» ثان والأوَّل محذوف، أي: وَاتَّخَذُوا الأصنام آلهة.

﴿يَاتُونَ عَلَيْهِم﴾ أي لهم، أي لأنفســهم أو لآلهتهم، أو يقدَّر مضاف أي على عبادتهم لغير الله، أو على عبادة الآلهة ﴿بِسُــلْطَان﴾ برهان قويٍّ يتســلَّط على ما هو الحقُّ بالإبطال ﴿بَيِّنٍ﴾ ظاهر **إذ لا تصحُّ الديانة تقليدا بلا دليل.**

﴿فَمَنَ اَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ بعبادة غير الله، وهذا آخر جدالهم للملك، خاطبوه بثلاث جمل آخرهنَّ: «شَــطَطًا»، والثلاث بعــدُ قالوهنَّ فيما بينهم بعد الخروج، آخرهنَّ «كَذِبًا» والجملة ســتٌّ، وقيل: قالوا ذلك بحضرة الملك، وعن ابن عَبَّاس: هذا وما قبله وما بعده إلى «مَرْفِقًا» قالوه فيما بينهم. وكبيرهم «تمليخا»، وقيل: «مكســلمينا»، وكان أحدهم وزيــرا للملك ولعلَّ «تمليخا» كبيرهم سنًّا و«مكسلمينا» كبيرهم شرفا. والفاء لإفادة سَبَبِيَّة ما قبلها بإخبار ما بعدها، والمعنى: إنَّهم أظلم من كلِّ ظالم.

﴿وَإِذِ اِعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ فَأْوُواْ إِلَى الْكَهْفِ يَنشُــرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّــنَ اَمْرِكُم مِّرفِقًا﴾ قال بعضهــم لباقيهم كما يدلُّ له: ﴿فَأْوُواْ إِلَى الْكَهْفِ﴾، فإنَّه ليس من غيرهم «وَإِذِ اِعْتَزَلْتُمُوهُمْ» وأنا معكم في الاعتزال والأَوْيِ إلى الكهــف، وكذا تقول في مثل ذلــك من خطاب بعض جماعة لباقيهم، وكذا لو قال اثنان فصاعدا للباقين.

وعبارة بعض: إنَّ فيه تغليب الخطاب على التكلُّم، كأنَّه قيل: فإذا اعتزلتُ أنا وأنتم، ويعارضه ﴿فَأْوُواْ﴾ فإنَّه يقتضي لام الأمر ومضارع التكلُّم: فلأَوِ أَنَا وأنتم، بأمر المتكلِّم نفسه، وهو قليل كقوله ﷺ: «**قوموا فلأُصلِّ بكم**» مع أنَّه

في رواية: «فلأُصلِّيَ»[1] بالنصــب، ولأنَّ رواة الحديث قد لا يضبطون العَرَبِيَّة إلَّا الصحابة ومثلهم مِمَّن يتقنها.

وجملة ﴿مَا يَعْبُــدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ قيل: معترضة من كلام الله و«مَا» نافية، ولفظ الجلالة منصوب على التفريغ، وواو «يَعْبُدُونَ» لأصحاب الكهف، ولا بأس به.

[نحو] [قلــت:] إلَّا أنَّ مذهبي أنَّ جملة الاعتــراض إن قرنت بواو تكون معطوفة قبــل تمام المعطــوف عليه، ولا أقــول بذلك في غيــر الاعتراض، وحجَّتي في ذلــك أنَّه ليس الاعتــراض ولا الاســتئناف معنى للــواو، لأنَّ الاعتراض معلوم بنفسه، وكذا الاستئناف، ولو صَحَّت واو الاستئناف لجاز أن تقول: وزيد قائم، أو تقول: وقام زيد بالواو بلا تقدُّم شــيء ولا تقدير له، وقد عاب ابن هشــام قول المعرِّبين: إنَّ ألا بالفتح والتخفيف حرف اســتفتاح بأنَّ الاستفتاح موضع لها وإنَّما معناها التنبيه والتوكيد.

[نحو] وإن كانت الجملة من كلام أصحاب الكهف فالواو عاطفة على الهاء، و«ما» نكرة موصوفة واقعة على صنم مثلا، وصفت بجملة «يَعْبُدُونَ» أي يعبدونه، وبقولــه: «إِلَّا اللهُ» كما يقال فــي قوله تعالــى: ﴿لَــوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَــةٌ اِلَّا اللَّهُ﴾ [سورة الأنبياء: 22]، أو موصول اسمي، أي والذي يعبدونه، أو حرفي، أي وعبادتهم.

[نحو] والاستثناء على الوجهين منقطع، أي لَكِنَّ الله هو أهل العبادة، وإن قلنا: هؤلاء يعبدون الله وغيــره، فمتَّصل كما روي عن عطاء الخراســاني[2]، وقيل: يعبدون غير الله فقط. و«إِذْ» متعلِّــق بما بعد الفاء، والفاء صلة للربط أو

---

(1) الروايتان في البخاري وغيره. **البخاري**: كتاب أبــواب الصلاة في الثياب، باب الصلاة على الحصير، رقم: 373. ج 1: ص 149. وكتاب صفة الصلاة، بــاب وضوء الصبيان، رقم: 822، ج 1: ص 294.

(2) عطاء بن مسلم بن ميسرة الخرســاني: مفسّــر ومحدِّث معروف بالفتوى والجهاد من أهل سمرقند سكن الشام ومات بأريحا سنة 135هـ، ودفن ببيت المقدس، من آثاره: تفسير القرآن استخدمه الطبري في تفسيره. **معجم المفسِّرين**، ج 5، ص 346.

رابطة لجواب «إِذْ» على تضمُّن «إِذْ» معنى الشـرط، ولو لم تكن بعدها «مَا»، وأجيز أن تكون تعليليَّة لقوله: ﴿فَأْوُواْ﴾ والتحقيق أنَّ التعليل في «إِذْ» التعليليَّة مستفاد من مدخولها مثل استفادة العلَّة من تعليق الحكم بالمشتقِّ، والمعنى: التجئوا بأبدانكم إلى الكهف كما اعتزلتموهم بدينكم.

[صرف] والماضي أوى، والمضارع يأوي بهمزة ساكنة قبل الواو، ولأنَّ مَادَّة الأوي تصحُّ همزتها، وهو من باب ضـرب يضرب، والأمر «اِأْوِ»، بهمزة وصل مكسورة فهمزة مسكَّنة هي فاء الكلمة فواو مكسورة هي عين الكلمة، فياء محذوفة لشبه الجزم، حذفت همزة الوصل للدرج بالفاء وضمَّت الواو لواو الجماعة بعدها المحذوفة في الخطِّ.

و«يَنشُرْ»: يبسط ويوسِّع، ومفعوله محذوف، أي ينشر لكم ربُّكم الرزق في الدارين، و«مِنْ» للابتداء، والداخلة على «أَمْرِكُمْ» له أو للتبعيض أو للبدل، متعلِّقة بِـ«يُهَيِّئْ»، أو بمحذوف حال من «مَرْفِقًا». والمرفق: ما يرتفق به، أي ينتفع به؛ قالوا ذلك لخلوص يقينهم.

﴿وَتَرَى الشَّمْسَ﴾ يا محمَّد أو يا من يصلح للرؤية لو رأيتهم، أو بمعنى: تعلم على معنى إنشاء العلم من إخباره تعالى ﴿إِذَا طَلَعَت تَّزَّاوَرُ﴾ تميل، تتزاور أبدلت التاء زايا وأدغمت لبعد التاء عن الزاي، ومنه زيارة أحد لأنَّها ميل إليه ﴿عَن كَهْفِهِمْ﴾ لا يقع شعاعها عليهم فيؤذيهم، لأنَّ الكهف ساحته وداخله في جانب الجنوب، فيكون بابه في جانب الشمال ﴿ذَاتَ الْيَمِينِ﴾ أي جهة صاحبة اليمين، ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ﴾ تنقطع بهم، من القرض بمعنى القطع.

[صرف] وقال الفارسي: المعنى تعطيهم بعض الضوء ويزول سريعا، كالقرض يستردُّه صاحبه، ويردُّه أنَّه لم يسمع ثلاثيٌّ لهذا، وإنَّما هو «أقرض» بالهمزة وأما القرض الثلاثيُّ فاسم مصدر.

﴿ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ أي جهة ذات الشمال ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ﴾ في متَّسع

﴿مِّنْـهُ﴾ ينالهم روح الهـواء الطَّيِّب، لا كرب الغار ولا حرَّ الشـمس، فبقيت ألوانهم وثيابهم على حالها كذا زعموا، **وهو غفلة وسـهو**، وإنَّما بقوا بلا تغيُّر بقدرة الله، وإلَّا فطول المـدَّة يغيِّرهم ويغيِّر ثيابهم علـى أي حال كانوا، وقد يقال: ينـاسـب ما ذكروا قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ﴾ بأن أجرى الله الأمر على ما ذكروا، كما أجرى الأمر على التقليب مع أنَّـه قادر على أن لا تأكلهم الأرض بلا تقليب، كما أنَّه تعالى يجري غالب الأشياء على أسباب.

وقد قيل: تدخل عليهم الشمس ولا تضربهم، وذلك ينافي أنَّ الغار قد سدَّ، وما قيل: إنَّه سدَّه ملك مؤمن بجعل حائط مسجد سـدًّا له، والآية بيان لتمايل الشمس عن كهفهم لا بيان لأنَّه فتح ولا تنالهم، ولا لأنَّه لو فتح لنالتهم.

[فلك] وباب الكهف في مقابلة بنات نعش الصغرى، وأقرب المشـارق والمغارب إلى محاذاته مشـرق رأس السـرطان ومغربه، والشـمس إذا كان مدارها مداره تطلع مائلة عنه مقابلة لجانبـه الأيمن، وهو الذي يلي المغرب، وتغرب محاذية لجانبه الأيسر، وإنَّما سُمِّيَ الذي يلي المغرب يمينا لأنَّه يمين المتوجِّه لبابه في داخل الكهف، وإذا غربت كانت على شماله، وعبارة بعضٍ: المراد يمين الداخل وشمال الداخل، وكلُّ نقطة على الأفق تطلع منها الشمس تسمَّى مشرقا، ولَمَّا كان الكهف في جانب شـمال منطقة البروج كان الأقرب إلى محاذاة الكهف مشـرق رأس السـرطان، أي نقطة على الأفق تطلع منها الشمس إذا كانت في رأس السرطان، أي أوَّله لأنَّ مشرق رأس السرطان أقرب إلى القطب من سائر المشارق، فلا بدَّ أن يكون أشدَّ محاذاة للكهف من سائر المشـارق، فإذا طلعت من هذا المشرق يقع شـعاعها في الجانب الغربي من الكهف، وإذا غربت في مغرب رأس السرطان يكون أقرب محاذاة إلى الكهف من سـائر المغارب، لأنَّ هذا المغرب أقرب إلى القطب الشمالي، وكلُّ نقطة تغرب فيها الشمس فهي مغرب.

وقيل: منع الله ﷻ ضوء الشمس عنهم مع أنَّها تقابلهم عند الطلوع والغروب، ولا تغيِّرهم، أو لا تقع عليهم مع مقابلتها لهم، وذلك خرق للعادة إكراما لهم، وعليه الزجَّاج، على أنَّ الباب غير مسدود.

ويناسبه قوله ﷻ: ﴿**ذَٰلِكَ مِنَ ـ ايَاتِ اللهِ**﴾ إذا رددنا الإشارة إلى بقائهم فإنَّه الذي يكون مخالفا للمعتاد لطول الزمان، ويجوز أن تكون الإشارة إلى أَوْيِهم أو إيوائِهم إلى الكهف، أو إخباره ﷺ الناس بقصَّتهم، أو ما ذكر من إزورار الشمس وقرضها.

واستحسن بعض أنَّ الإشارة إلى مجموع هدايتهم إلى التوحيد ومخالفة قومهم، وعدم الاكتراث بهم، وبملكهم وسطوتهم، مع أنَّهم شباب، وإيوائهم إلى الكهف تلك صفته، وعن ابن عَبَّاس: ما أوتي أحد نبوءة ولا علما إلَّا وهو شابٌّ، يعني غالبا، فصاحب الأربعين شابٌّ، لأنَّ صاحب النبوءة يعطاها على أربعين.

﴿**مَنْ يَّهْدِ اللهُ**﴾ هداية توفيق كأصحاب الكهف ﴿**فَهُوَ الْمُهْتَدِي**﴾ أفاد أنَّه لا اهتداء إلَّا بهداه، وكفى بهذا مغايرة بين الشرط والجواب، أو معناه: مصيب الفلاح ﴿**وَمَن يُّضْلِلْ**﴾ يخذل كدقيانوس وقومه، بأن لم يهدهم إلَّا هداية بَيَانٍ ﴿**فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا**﴾ يهديه هداية توفيق.

والآية مدح لأصحاب الكهف في العموم وذمٌّ لدقيانوس وقومه في العموم، وتنبيه **على أنَّ الآيات كثيرة لكن المنتفع بها من وفَّقه الله للاعتبار بها**، وهي متَّصلة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنَ ـ ايَاتِ اللهِ﴾ ومقتضى الظاهر: «فهو الضالُّ»، عبَّر عنه بذلك للفاصلة.

﴿**وَتَحْسِبُهُمُۥٓ أَيْقَاظًا**﴾ جمع يَقِظٍ بكسر القاف كنَكِد وأنكاد، أو بضمِّها كعَضُد وأعضاد ﴿**وَهُمْ رُقُودٌ**﴾ جمع راقد كما نصَّ ابن مالك على صحَّة جمع

فاعل على فُعول، فلا حاجة إلى جعله مصــدرا بمعنى الوصف، أو إلى تقدير مضاف، ومعناه نوَّام، وقيل: موتى، شــبَّه نومهم بالموت، كقوله تعالى: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ [سـورة يس: 52] والأوَّل أولى، والمعنى: إنَّك تظنُّهم لو رأيتهم غير نائمين أو غير موتى، لانفتاح عيونهم وشدَّة نظرها بحسب صورتها، وهم لا ينظرون بها، والنبيء ﷺ لا يظنُّهم أيقاظا مع علمه بأنَّهم رقود، لَكِنَّ المراد أن يراهم بصورة الأيقاظ، أو لو رآهم قبل علمه بعدم يقظهم، أو الخطاب لمن يعلم به لو رآهم ﴿**وَنُقَلِّبُهُــمْ**﴾ وكلبَهم ﴿**ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّــمَالِ**﴾ يقول لتقلُّبهم: «كن» فيكون، أو تقلِّبهم الملائكة.

[قصص] وروي أنَّ أهل تلك الجهــة يقلِّبونهم ويقلِّمون أظفارهم، لو لم يقلِّبهم لأكلتهم الأرض كما قال ابن عَبَّاس.

والله قادر على أن لا تأكلهم بلا تقليب، ولكن يجري الله ﷻ غالب الأمور على أسباب، كما يجمع ﷺ ماء قليلا، أو يأتي بماء قليل أو يجمع طعاما قليلا فيبارك فيه فينمو، ولو شاء الله لخلق له كثيرا بلا جمع.

[قصص] قيل: أو تقليبهم جريا على عادتهم في النوم من التقلُّب عن جنب إلى جنب، وذلك تشــريف لهم، والتقليب مرَّة في كلِّ تمام ستَّة أشهر فيما روي عن ابن عَبَّاس رضي الله عنه ، وقيل: يوم عاشوراء في كلِّ سنة وقيل في تسع سنين[1].

ولا يخفــى أنَّ المضارع للتجــدُّد. و«ذَاتَ» ظرف، أي وقــع التقليب في جهتهم اليمنى إلى اليسرى وفي اليسرى إلى اليمنى. ﴿**وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ**﴾ الواو للحال.

[قصص] واســمه «قطمير»، وعن مجاهد: «قطمور»، وقيل: «ثور» وقيل: كلــب تبعهم، وقيل: «ريــان» وهو أصفر اللــون، وقيل: أســمر، وقيل: كلون

(1) سيقول الشيخ فيما بعد: «لا يصحُّ من ذلك شيء» ص 315.

السماء، وقال رجل من أهل الكوفة: رأيته أحمر كأنَّه ثوب أنبجاني، قال قومنا: إنَّه رجل لا يتَّهم بالكذب، وإنَّ اسمه «عبيد» وقيل: فيه نمرة بيضاء ونمرة سوداء، وهو لواحد منهم، تبعه فطردوه فأنطقه الله: إنِّي مؤمن ومحبٌّ لأحباب الله، وقيل: لراع مرُّوا به مع غنمه فاتَّبعهم الراعي إيمانا بالله إذ أخبروه بقصَّتهم، فتبعه كلبه فطردوه ورفع يديه ودعا فأنطقه الله بذلك، وبأنِّي لا أضرُّ بل أنفعكم إذا رقدتم أحرسكم، ولَمَّا ناموا نام، وَلَمَّا استيقظوا يقظ، ولمَّا ماتوا مات معهم.

ويدخل الجنَّة كناقة صالح وكبش إسماعيل، وهو كلب حاله من أخسِّ الأحوال نال درجة الأبرار لحبِّه إِيَّاهُم وصحبتهم، حتَّى كان يتلى في القرآن في مقام المدح. قال رجل: يا رسول الله متى الساعة؟ فقال: «**ما أعددت لها؟**» فقال: ما أعددت كثير صيام ولا صدقة ولا صلاة، ولكن أحبُّ الله ورسوله، فقال: «**فأنت مع من أحببت**» وقال: «**المرء مع من أحبَّ**» قال أنس: فما فرحنا بعد الإسلام بأشدَّ من قول النبيء ﷺ: «**فأنت مع من أحببت**» قال أنس: فأنا أحبُّ الله ورسوله وأبا بكر وعمر، فأرجو أن أكون معهم ولو لم أعمل بأعمالهم[1].

وقيل: كلبهم راعيهم، فساغ ما قيل: إنَّ أصحاب الكهف ثمانية، ولكن لا يلزم أن يكون منهم، ويناسبه قراءة ﴿وَكَالِبُهُمْ﴾ أي صاحب كلب شبِّه به على أنَّه الباسط للذراع لا كلبه، ووجه الشبه الحفظ. ونَصَبَ «بَاسِطٌ» المفعولَ مع أنَّه للماضي غير مقرون بـ«ال» لجعل الله حالهم الماضية كالحاضرة المشاهدة، لأنَّ المشاهدة تزيد قُوَّة.

---

(1) رواه **مسلم** في كتاب البرِّ والصلة (50) باب المرء مع من أحبَّ، رقم 163، من حديث أنس. ورواه **التبريزي** في كتاب الآداب (16) باب الحبُّ في الله ومن الله، رقم 5008. من حديث ابن مسعود.

و«الوصيد»: الموضع الواسع أمام الكهف، أو هو الباب، أو العتبة، أو التراب، ولا باب ولا عتبة للكهف، فالمراد موضعهما منه لو بُنِيَا، ويحتمل أنَّهما بنيا، وقيل: لا يختصَّان بما بني بل هما ولو للغار.

[قصص] وتقليبهم لئلَّا تأكلهم الأرض، ردٌّ على من قال: إنَّهم في توابيت من ساج، إلَّا أن يقال: نزعوا منها وجعلوا على الأرض أو ما يليهم من التابوت مثل الأرض، كما روي أنَّ ملكا مسلما جعلهم في توابيت من ذهب، فقالوا له في المنام: إنا لم نخلق من الذهب بل من الأرض، وإليها نعود فارددنا في التراب، فجعلهم في توابيت من ساج.

[قصص] ويروى أنَّ مؤمنَيْن من بيت «دقيانوس» كتما إيمانهما كَتَبَا عدَدَهم ودينهم وأحوالهم وأنسابهم وفرارهم من «دقيانوس» في لوحين من رصاص، وجعلاهما في تابوت من نحاس، وجعلا التابوت في البنيان لعلَّ الله يظهرهم لقوم مؤمنين، فيعلموهم، وقيل: كتب ذلك في لوح وجعل في خزانة الملك، وملك المدينة بعده رجل مؤمن اسمه «بيدروس»، وشقَّ عليه قول من يقول: إنَّ الله يبعث الأرواح دون الأجساد، فتضرَّع إلى الله ﷻ فألقى الله في قلب رجل أن يهدم سدَّ الغار، ويجعله حظيرة لغنمه ففتحه وبعثهم الله فرحين لم يتغيَّروا، وبعث كلبهم فأخبر الناس بهم فجاؤوهم.

[قصص] وروي أنَّهم بعد هذا الإحياء أرسلوا «تمليخا» للطعام فوجد المدينة تغيَّرت وغلب عليها أمر الإسلام، فجاؤوا به إلى الملك فأخبره «تمليخا» بشأنهم، فقال: يا قوم لعلَّ هذه آية من الله ﷻ لنا، فانطلقوا بنا ليرينا أصحابه، فانطلق «ربوس» و«أسطيوس» من عظمائهم، وأهل المدينة فدخلا عليهم فوجدا في أثر البناء اللوحين في التابوت، فقرآهما فأرسلوا إلى الملك: أن أعجِل تر آية بعث الله فتية ماتوا أكثر من ثلاثمائة، فأتى وقال: أحمدك يا ربَّ السماوات والأرض تفضَّلت عليَّ، فاعتنقهم، ووقف بين أيديهم وهم

جلوس على الأرض يسبِّحون الله ويحمدونه، فقالوا له: نستودعك الله، والسلام عليك ورحمة الله، حفظك الله وحفظ ملكك، ونعيذك بالله من شرِّ الإنس والجنِّ، فناموا، وتوفَّى الله أنفسهم، فجعل الملك عليهم ثيابهم وجعلهم في توابيت من ذهب على حدِّ ما مرَّ، وسدَّ الغار بحائط مسجد بناه عليهم، وجعل لهم عيدا عظيما في كلِّ سنة.

﴿**لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ**﴾ يا محمَّد أو يا من يصلح، ونظرت إليهم ﴿**لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ**﴾ «مِنْ» للابتداء، أو بمعنى عن ﴿**فِرَارًا**﴾ مفعول مطلق لـ«وَلَّيْتَ» وأجيز الحال والتعليل ﴿**وَلَمُلِّئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا**﴾ خوفا يملأ قلبك، لِمَا ألبسهم الله من الهيبة، أو عظم أجسامهم، أو انفتاح عيونهم وشدَّة صورة نظرها وبريقها، أو وحشة مكانهم، أو كلُّ ذلك، أو منعهم الله بالرعب حتَّى لا يراهم أحد.

[قصص] وعن سعيد بن جبير عن ابن عَبَّاس ﵁: غزونا مع معاوية نحو الروم، فمررنا بالكهف الذي فيه أصحاب الكهف، فقال معاوية: لو كشف لنا عن هؤلاء نظرنا إليهم، فقال ابن عَبَّاس: قد منع من ذلك من هو خير منك ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا...﴾ فقال معاوية: لا أنتهي حتَّى أعلم علمهم، فبعث رجالا فقال: اذهبوا فانظروا، فلمَّا دخلوا الكهف بعث الله عليهم ريحا فأحرقتهم، ويروى: فأخرجتهم.

ظنَّ معاوية أنَّ منعهم عن الرؤية إنَّما هو في زمانه ﷺ، أو ظنَّ أنَّه قد ضعف حالهم بعدُ، أو ظنَّ أنَّه قبل أن يبعثهم الله، أو رجا أنَّ الله قد خلق من لا يرعب، وابن عَبَّاس حمل الرعب على الدوام، وهو الظاهر لأنَّه إذا كان ﷺ يرعب فغيره أولى، أو حمل الخطاب على العموم البدليِّ لكلِّ من يصلح، ودخل رجل شديد عليهم فابيضَّت عيناه وتغيَّر شعره إذ دخل، فكان يصفهم ويقول: هم سبعة وهم باقون إلى الآن بلا تغيير. ولا يصحُّ ما قيل: إنَّه دخل عليهم رجل فوجدهم عظاما. وقيل: الرعب لطول شعورهم وأظفارهم، ويردُّه

قول بعضهم: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا اَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ ولو طالت ذلك الطول المفرط المدَّعى لم يقل: ﴿يَوْمًا اَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ إلَّا أن يقال: قال ذلك قبل النظر إلى أظفارهم وشعورهم، وصحَّح ابن عطيَّة أنَّهم بقوا على حالهم لم تزد شعورهم وأظفارهم وإلَّا كانت أهمَّ لهم، وهم لم ينكروا إلَّا تغيُّر بناء المدينة والإسلام فيها وعلى بابها.

﴿وَكَذَالِكَ﴾ كما أَنَمْنَاهم أو أمتناهم آية لتطاول المدَّة ﴿بَعَثْنَاهُمْ﴾ أيقظناهم أو أحييناهم ﴿لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْ﴾ يديروا السؤال بينهم عن حالهم ومدَّة لبثهم، فيتوصَّلوا إلى ذكر حفظ الله لهم عن «دقيانوس»، وبعد أن يعلموا طول المدَّة يزدادوا شكرا في توفيقهم إلى الحقِّ من البعث، وأنَّ الله هو الربُّ، وأنَّ له القدرة التَّامَّة.

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ «مكسلمينا»، وهو كبيرهم ورئيسهم، ويناسبه عادة أنَّ «تمليخا» دونه ودونهم في الشرف، إذ كانوا يبعثونه لشراء الطعام لكن قد يكون ذلك لأنَّه أعرف بالطرق والإخفاء، وقيل: القائل صاحب نفقتهم «تمليخا».

والمعنى: قال لباقيهم وهو تابع لِمَا قد يصحُّ من قولهم إن قالوا ووافقوا الحقَّ، إلَّا أنَّهم لم يعلموا إلَّا بعد الإكشاف للناس.

﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ يا أصحابي وأنا معكم في الحساب. «كَمْ» ظرف زمان، أي: كم زمانا أو كم مدَّة، أو مفعول مطلق أي: كم لبث لبثتم، وذلك أنَّ الزمان والمدَّة واللبث تطلق على أدقِّ دقيق، وتطلق على قطع من ذلك، أو يقدَّر: كم يوما ﴿قَالُواْ﴾ أي الباقون ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا اَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ «أَوْ» للشكِّ على الصحيح، وتحتمل تنوُّع القول، أي قال بعض: يوما، وقال بعضهم: بعض يوم، وهو ضعيف، وقيل: للإضراب، ومع ضعفه هو أولى من التنويع، وكلاهما لا دليل عليه، ويقال: قالوا: لبثنا يوما لظنِّهم أنَّ الشمس غربت ثمَّ رأوها لم تغرب فقالوا: لبثنا بعض يوم، وفيه تفسير البعض بالأكثر، وذلك

أنَّهم دخلوه عند طلوعها وبعثوا عند غروبها، ثمَّ تأمَّلوا شعورهم وأظفارهم فعرفوا أنَّ المدَّة طالت، ولم يدروا كم هي، فقالوا: كما قال الله ﷻ عنهم وقيل: راعهم ما فاتهم من الصلاة فقالوا ذلك.

﴿**قَالُواْ رَبُّكُمُۥٓ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ**﴾ بلبثكم، أي بمدَّة لبثكم، أو بمدَّة لبثتموها، أو بالمدَّة التي لبثتموها، وقد مرَّ تصحيح أنَّهم لم يتغيَّروا بزيادة ولا نقص، وذلك في حال لم يجعل لهم الله هيبة، فعليه لم تطل شعورهم وأظفارهم، وإن صحَّ أنَّها طالت فلعلَّهم لم ينتبهوا لها عقب إيقاظهم، وانتبهوا لها فقالوا: ﴿قَالُواْ رَبُّكُمُۥٓ أَعْلَمُ...﴾ ومرَّ أنَّه قيل: يُدخل عليهم فتقصُّ شعورهم وأظفارهم، ويقال: يقلَّبون في كلِّ جمعة أو في كلِّ شهر أو في كلِّ عام **ولا يصحُّ من ذلك شيء.**

﴿**فَابْعَثُواْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَـٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرَ اَيُّهَـآ أَزْكَىٰ طَعَامًا**﴾ بعثوا «تمليخا». والورِق: الفضَّة، يؤنَّث كما هنا ويذكَّر، وهي الفضَّة مسكوكة كما هنا، وهي كحافر البغل، أو غير مسكوكة.

[أصول الدين] والكسب لا ينافي التوكُّل لأنَّ المتوكِّل يعتقد أنَّ كسبه لا ينفع ولا يؤثِّر إن لم ينفعه الله به، ولم يؤثِّره.

والمدينة «طرسوس» بفتح الراء من بلاد الروم. و«لِيَنظُرْ» أي أهلها فحذف المضاف ﴿أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ أحلى وأرخص وأكثر، وأحلَّ لأنَّهم نشأوا على ذلك، أو أرادوا الحلَّ فقط لا ربا ولا مغصوبا، ونحوهما من المحرَّمات.

وعن الضحَّاك: كان أكثر مال أهلها غصبا وهم زهَّاد بعد الهروب، أو تحرَّزوا عن الذبائح التي تذبح للأصنام، وعن لحم الخنزير، وقيل: الأزكى الأرز، وقيل: التمر، وقيل: الزبيب، وفي المدينة مؤمنون مستخفون وكافرون فيما قيل حين هربوا، وهو عن ابن عَبَّاس، ويقال: فيها مسلمون مستخفون ومجوس، والإشارة

إلى دراهمهم التي أخذوهــا من بيوت آبائهم حين هربوا، بــل إلى ما بقي منها بعد صرف ما صرفوا، وضعوها عند رؤوسهم فوجدوها حين بعثهم الله.

وقيل: المدينة «أفسوس» بضمِّ الهمزة وإســكان الفاء، وقيل: هما واحدة تسمَّى في الجَاهِلِيَّة «أفسوس» وفي الإسلام أو عند العرب «طرسوس»، وهذا يحتاج إلى نقــل صحيح، والظاهر التغايــر. ومنها خرجوا، وقيــل: غير التي خرجوا، والصحيح الأوَّل. و«أَيُّ» موصولة حذف صدر صلتها، أو اســتفهاميَّة علِّق عنها النظر على أنَّه قلبيٌّ وهو الظاهر.

[بلاغة] والآيــة من باب الأســلوب الحكيم، ويقال: أســلوب الحكم، ويقال: أســلوب الحِكَــم بالإضافة، وفــي الأوَّل تجوُّز في الإســناد، وذلك الأســلوب هو تلقِّي المخاطب بما ليس مناسبا لكلامه، لحمله على وجه آخر لحكمة، ولذلك حصل اتِّصَالها بما قبلها حتَّى فرِّعت بالفاء.

لَمَّا التبس الأمر عليهم في مدَّة اللبث قالوا: خذوا في الأهمِّ، وهو تحصيل المأكول، كما قال الحجَّاج لرجل: لأحملنَّك على الأدهم، يعني الحديد يقيِّده به، فقال الرجل: مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشــهب، والأدهم: الفرس الأسود، ودلَّ له بذكر الأشهب أي الفرس الأبيض.

﴿**فَلْيَاتِكُــم بِرِزْقٍ مِّنْــهُ**﴾ ما تأكلوه، والهــاء للطعام، و«مِــنْ» للابتداء أو للتبعيض، وقيل: الهاء له أو للــورق كما مرَّ أنَّه يذكَّر ويؤنَّــث فـ«مِنْ» للبدل ﴿**وَلْيَتَلَطَّفْ**﴾ يحتل في المعاملة لِئَلَّا يغبــن، وفي التخفِّي لِئَلَّا يعرف فيها، أو في الذهاب أو الرجــوع ﴿**وَلَا يُشْــعِرَنَّ بِكُمُۥٓ أَحَدًا**﴾ تصريحــا ولا كناية، أو تلويحا بما يعرفوننا به، ولا بالتقصير في الإخفاء.

وعلَّلوا ذلك بقولهــم: ﴿**إِنَّهُمُ**﴾ إنَّ أهــل المدينة التي خرجــوا منها ﴿**إِن يَّظْهَرُوا عَلَيْكُمْ**﴾ أي يطَّلعوا عليكم بالمعرفة بعــد الخفاء، أو إن تغلَّبوا عليكم

بالظفر بكــم ﴿يَرْجُمُوكُـمْ﴾ أي بالحجــارة حتَّــى تموتــوا ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ﴾ يصيِّروكــم، أو قال ذلك لأنَّهم كانــوا قبل ذلك فيها، وإن لم يبلغوا فلنشــأتهم معهم ومتابعتهم، ولو كانــوا لا ذنب عليهم ﴿فِي مِلَّتِهِمْ﴾ من الشــرك، بالقهر حتَّى تدخلوها أو تصيروا في تعب شديد من التقيَّة والمداراة، ولم يقولوا: «إلى ملَّتهم» بل «فِي مِلَّتِهِمْ» ذكرا لِمَا هو أشدُّ كراهة منهم له، وهو التمكُّن في الكفر.

﴿وَلَن تُفْلِحُواْ إِذًا﴾ إذ دخلتم، أو إذا دخلتم فيها ﴿اَبَدًا﴾ في الدنيا ولا في الآخرة، ولو كانوا يتَّقون بإظهار الكفر لأنَّ قلب المســلم يأبى من هذا أيضا، وأيضا ربَّما أدَّتهم التقيَّة إلى دخول الكفر إلى القلب، وقيل: التقيَّة بلفظ الكفر لا يجوز لمــن قبلنا، وأيضا قــد لا يكتفون منهم بالقول بــل يجبرونهم على الذبح للأصنام، أو السجود لغير الله.

﴿وَكَذَٰلِـكَ﴾ كما أيقظناهــم أو أحييناهــم، أو كما أنمناهــم وأيقظناهم ﴿أَعْثَرْنَـا عَلَيْهِمْ﴾ أوقفنا الناس أو أهل مدينتهــم عليهم، وعلى حالهم لتزداد بصيرة من قال ببعث الأجســاد والأرواح معا، وليؤمــن بالبعث من أنكره أو شكَّ فيه، وأصل العثور الســقوط مطلقا، وقيل: للوجه، واستعمل في الإطلاع على الشــيء مجازا، وذكر بعض أنَّه حقيقة، وعلى الأوَّل العلاقة السَّبَبِيَّة لأنَّ الساقط ينظر بِأَيِّ سبب سقط.

﴿لِيَعْلَمُواْ﴾ أي ليعلم مــن أعثرنا عليهم ﴿أَنَّ وَعْـدَ اللهِ﴾ ببعث الأرواح والأجساد معا، أو موعود الله وهو البعث، وقيل: المراد كلُّ وعد وكلُّ موعود، فيدخل البعث بالأَولى، وأكَّد ذلك بذكر الســاعة بعــدُ، تخصيصا بعد تعميمٍ ﴿حَقٌّ﴾ فكما قدر على إبقائهم مدَّة طويلة لا تعتاد بلا أكل ولا شــرب نائمين أو موتى، وبعثهم بعدها يقدر على إحياء غيرهم من الموتى.

﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ﴾ يوم القيامة ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ لأنَّ ثلاث مائة سنة وتسعا لا فرق بينها وبين ما هو أكثر ﴿إِذْ﴾ مفعول لمحذوف أي اذكر، أو ظرف متعلِّق

بقول محذوف، أي اذكر قولهم: «إِذْ...»، لا ظرف لـ«أَعْثَرْنَا» لأنَّ التنازع بعد الإعثار لا في حاله إلَّا تجوُّزا للجوار أو توسُّعا في الوقت بأن يعدَّ وقت الإعثار ووقت التنازع واحدا، وقع الإعثار في بعضه والتنازع في بعضه ﴿يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمُۥٓ أَمْرَهُمْ﴾ الضمائر لأهل مدينة أصحاب الكهف، أو للناس المعثَرين. و«أَمْرَهُمْ» مفعول لـ«يَتَنَازَعُونَ» كأنَّه قيل: يقتسمون أمرهم ويتجاذبونه، فبعضهم يقول: تبعث الأرواح وتبقى الأجساد معدومة، وبعضهم يقول: تبعث الأرواح والأجساد؛ أو الضميران الأوَّلان لأهل المدينة، وهاء «أَمْرَهُمْ» لأصحاب الكهف، بعضهم يقول: نبني عليهم بنيان بَيْعَةٍ لأنَّهم على ديننا فنعمل صليبا وناقوسا فيها، وقال المسلمون: نبني عليهم مسجدا يصلِّي فيه الناس بلا كفر، لأنَّهم على ديننا، وقال المشركون: نبني عليهم بنيانا على معتادنا، وقيل: «أمرهم»: مدَّة لبثهم، وقيل: عددهم، وقيل: هو كونهم بعد ذلك الإطلاع عليهم ماتوا أو ناموا كأوَّل مرَّة.

﴿فَقَالُواْ ابْنُواْ عَلَيْهِم﴾ حولهم ﴿بُنْيَانًا﴾ يسترهم، قال ذلك غير المسلمين والبنيان: مسجد، أو مدينة يسكنها الناس. والعطف على «يَتَنَازَعُونَ»، وقيل: على محذوف، أي تحقَّقوا الآية من الله فقالوا: ﴿رَّبُّهُمُۥٓ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ بأبدانهم ونسبهم ومدَّة لبثهم وأحوالهم، هذا من كلام المتنازِعين، وقيل: من كلام الله ﷻ ردًّا على الخائضين فيهم من المتنازعين، أو مِمَّن كان على عهده ﷺ من أهل الكتاب.

﴿قَالَ الذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ﴾ أمر الفتية بِالقُوَّةِ والتمكُّن ونفاذ الكلمة وهم المسلمون، وقيل: أهل أصحاب الكهف، وقيل: أكابر البلد ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ إسلاميًّا يُصلَّى فيه، فبنوه وسدُّوا به باب الكهف كما مرَّ.

[قصص] مرَّت أعوام بعد «دقيانوس» وملك المدينة مؤمن، وفي المدينة قوم ينكرون بعث الأجساد إلَّا الأرواح، فلبس المسوح وقعد على الرماد،

وتضرَّع إلى الله فأعثرهم الله على أصحاب الكهف فآمن كثير ببعث الأجساد، فقيل: علم الناس طول المدَّة بطول الشعور والأظفار طولا غير معتاد، وبقراءة ما في اللوح أو اللوحين المذكورات، ولأنَّهم ذهبوا بدراهم فيها اسم «دقيانوس» فأنكروها، وذهبوا به إلى الملك وهو مؤمن اسمه «بندوسيس»، فتبيَّن أمرهم وزمانهم بإخباره، وقال: أردت شراء التمر لأصحابي المختفين من «دقيانوس»، وقيل: قال: بعت كرمة لي أمس فعلم أنَّه لم يجد كنزا كما اتَّهمه الناس، فأظهر الله أمرهم، فشكر الله، لَمَّا رأى شخصه ودرهمه استنكرهما فقال: لعلَّه من الفتية الهاربين عن «دقيانوس»، فقد كنت أسأل الله أن يرينيهم وسأله، فأخبره فقال لقومه: سيروا معه إلى الكهف لعلَّ الله يرينا آية، ولَمَّا وصلوا قال «تمليخا»: أنا أدخل أوَّلا لئلَّا يرهبوا، فأخبرهم أنَّ الأمَّة مسلمون، فقيل: خرجوا إلى الملك وعظَّموه وعظَّمهم فرجعوا إلى الكهف، وأكثر القول أنَّهم ماتوا حين كلَّمهم «تمليخا» ودفنهم الملك.

[فقه] وليس في ذكر بناء المسجد عليهم ما يبيح بناءه على القبر؛ لأنَّ كهفهم ليس قبرا، ولأنَّ جدار المسجد سدٌّ لباب الكهف، وليس المسجد على الكهف، ولأنَّ الكهف ليس قبرا وليسوا موتى، ولأنَّه تعالى لم يذكره بالجواز، ولصحَّة الحديث في النهي عن البناء على القبر، ففي مسلم بسنده عن أبي الهياج الأسدي قال لي عليٌّ: أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ: «**أن لا تدع تمثالا إلَّا طمسته ولا قبرا مُشْرِفًا إلَّا سوَّيته**»[1]، وقد روي عنه ﷺ: «**لعن الله الذين يتَّخذون المساجد على القبور**»[2].

(1) رواه **مسلم** في كتاب الجنائز (31) باب الأمر بتسوية القبر، رقم 93 (969) من حديث أبي الهياج الأسدي.

(2) رواه **البخاري** في كتاب المساجد (22) باب الصلاة في البيعة، رقم 425 و426... **ومسلم** في كتاب المساجد، باب النهي عن بناء المساجد على القبور، رقم 531. من حديث عائشة وابن عَبَّاس.

﴿سَيَقُولُونَ﴾ الواو هنا وفي الموضعين بعده للناس على عهد رسول ﷺ، أي سيقول بعضهم كذا ويقول بعضهم كذا، وقيل: لليهود الخائضين فيهم على عهد رسول الله، وقيل: الأوَّلان لنصارى نجران، والثالث للمؤمنين. و«نجران» قرية للنصارى بين الشام واليمن والحجاز كذا قيل، وفيه قصور، لتباعد ما بين تلك المواضع.

قيل: سيقولون لك يا محمَّد يخبرونك إذا سألتهم، وذلك أنَّ نصارى نجران عرب، وقيل: الأوَّل لليهود والثاني للنصارى والثالث للمؤمنين، وقيل: الواوات لمن في زمان بعثهم وبعده، لا في زمانه ﷺ، فالاستقبال بالسين لاعتبار ما قبل قولهم، أو السين للتأكيد.

﴿ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ أي أصحاب الكهف ثلاثة رجال معهم كلب، لأحدهم أو للراعي أو تملَّكوا كلبا وصحبوه، وقدَّر بعض: ثلاثة أشخاص واختير لقوله: ﴿رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ لأنَّ الكلب غير رجل بل شخص، ولا يلزم ذلك لجواز استصحاب غير الجنس كأنَّه قال: ثلاثة رجال يربعهم كلب، ولا سيما أنَّه لأجل صحبتهم المباركة يعدُّ كأحدهم، ففيه إغراء على صحبة الأخيار، ولا يضرُّنا أنَّه تخيُّل شعريٌّ، لأنَّ له داعي الإغراء.

ويقال: الملك الذي بعثهم الله في زمانه نصرانيٌّ مؤمن يقول: عيسى رسول الله لا إله ولا ابن إله، لَمَّا جيء إليه بـ«تمليخا» وتكلَّم معه وأخبره، قال هو ومن معه: إنَّ آباءنا أخبرونا أنَّ فتية فرُّوا بدينهم من «دقيانوس» فلعلَّهم هؤلاء، فانطلقوا إليهم وتبعهم أهل المدينة مؤمنهم وكافرهم، ومن ذلك تدَّعي النصارى أنَّ أصحاب الكهف منهم، فقال السَّيِّد: من نصارى نجران على عهد رسول الله ﷺ ثلاثة رابعهم كلبهم، وهو يعقوبيٌّ، ونسب هذا القول إليهم، ويقال: وفد نصارى نجران على النبيء ﷺ فجرى ذكر أصحاب الكهف، فقال اليعقوبيَّة من النصارى:

ثلاثة رابعهم كلبهم، وقال النسطوريَّة: منهم خمسة سادسهم كلبهم، وقال المؤمنون: سبعة وثامنهم كلبهم.

وكان أصحاب الكهف بعد عيسى ﵇، وقيل: قبله، وقيل: قبل موسى ﵇، لأنَّ علم اليهود بهم يوجب أن يذكروا في التوراة لكفر اليهود بالإنجيل، فلا يذكرون ما فيه، وهو قول الحسن وأبي بكر وغيرهما، وصحَّحه بعض، والنسطوريَّة هم القائلون: إنَّ الله ثالث ثلاثة، واليعقوبيَّة هم القائلون: إنَّ الله هو المسيح ابن مريم، والملكانيَّة يقولون: عيسى عبد الله ورسوله.

﴿**وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ**﴾ هم خمسة رجال أو خمسة أشخاص، والعطف على مدخول السين، فيكون حكمهما منسحب على «يَقُولُونَ» كأنَّه قيل: وسيقولون، وكذا في الثالث، ويجوز العطف فيهما على السين ومدخولها، فلا ينسحب حكمها عليهما، فيستفاد الاستقبال من المضارع ﴿**سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ**﴾ هو قول النصارى أو العاقب منهم، وهو من النسطوريَّة، وجملة «رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ» نعت لـ«ثَلَاثَةٌ»، و«سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ» نعت لـ«خَمْسَةٌ»، أو مستأنفتان ﴿**رَجْماَۢ بِالْغَيْبِ**﴾ تعليل لمحذوف، أي يقول أصحاب القولين ذلك رجما بالغيب، أو راجمين بالغيب، أو ذوي رجم، أو يرجمون رجما، فيجوز نصبه على المفعوليَّة المطلقة بـ«يَقُولُونَ». والكلام استعارة له من الرجم بالحجارة. والغيب: الغائب من الإخبار، أو بمعنى المظنون. والباء للتعدية، شبَّه الغائب المظنون بحجر يرمى به ولا يصيب.

﴿**وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ**﴾ مثل ما مرَّ، وهو قول المؤمنين ظنًّا صحَّ أو عن الوحي، بدليل أنَّه لم يقل رجما بالغيب كما قاله في الأوَّلين، فإنَّ قوله: ﴿رَجْماَۢ بِالْغَيْبِ﴾ عائد إلى الأوَّلين جميعا كما رأيت، وعدم إيراد قول رابع في مثل هذا المحلِّ النزاعي دليل على عدمه.

وعن ابن عَبَّاس ﵁: الصحيح أنَّهم سبعة، لأنَّ الله ﷻ قال في أوَّل الآية: ﴿قَالَ قَآئِلٌ﴾ فهذا واحد، وقال: في جواب قول هذا القائل: ﴿قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا اَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ و«قَالُوا»: قول جمع أوَّل وأقلُّه ثلاثة، ثمَّ قال: ﴿قَالُواْ رَبُّكُمُۥٓ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ وهذا قول جمع آخر، خاطب الجمع الأوَّل، فالمجيبون سِتَّة والسائل واحد فذلك سبعة. ﴿**وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ**﴾ هذه الجملة معطوفة على هم سبعة.

[لغة] ولا بأس بتسميتها واو الثمانية على معنى أنَّ العرب إذا وصلوا في العدِّ ثمانية عطفوا بالواو، أو جاءوا بجملة حاليَّة مقرونة بواو الحال مثلا، فإنَّه يَصِحُّ أن تكون الجملة حالا من واو «يَقُولُونَ» ولها معنى هو العطف، أو الحاليَّة مثلا، [قلت:] وإنَّما المحذور أن يقال: هي واو الثمانية زائدة بلا معنى. والسبعة عقد تامٌّ كعقود الشعرة، لاشتمالها على أكثر مراتب أصول الأعداد، ومبالغة العرب بسبعة وبسبعين وبسبعمائة وسبعين ألفا، وكثر ذلك. والثمانية كعقد مستأنف فبينهما اتِّصَال من وجه وانفصال من وجه، فصحَّ العطف، ولا يوجد ذلك بين الستَّة والسبعة، ولا حاجة إلى دعوى أَنها زائد في أوَّل جملة النعت، لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف، والدلالة على أنَّ اتِّصَافه بها أمر ثابت، ولا نسلم أن قوله تعالى: ﴿وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ [سورة الحجر: 4] نعت لـ«قَرْيَةٍ» مقرون بالواو، بل حال والواو حاليَّة، ولو سلَّمنا ذلك لقلنا: لَمَّا كان الثمانية في الصفة جيء بواو الثمانية على معنى تأكيد اللصوق، وجاءت ثامنة في قوله تعالى: ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [سورة التوبة: 112] و﴿وَأَبْكَارًا﴾ [سورة التحريم: 5] و﴿وَفُتِّحَتَ اَبْوَابُهَا﴾ [سورة الزمر: 73] ونحن بعد العرب نعدُّ الأصل عشرة.

﴿**قُل رَّبِّيَ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ**﴾ من الناس.

[قصص] قال ابن عَبَّاس: أنا من القليل، إنَّهم سبعة، وإنَّ أسماءهم: مكشلمينا وتمليخا ومرطوش وينبوش وسارينوش ودونوارش وكفيشططيوش،

وقال علـــي: يمليخا ومكشـــلمينا ومشـــلمينا، وهم أصحاب يميـــن الملك، ومرنوش ودبرنوش وشـــادنوش، وهم أصحاب يســـاره، وكان يستشـــيرهم، والســـابع الراعي واسمه قيل: كفشـــططيوش، وقيل: فليســـتطيونس، وكلبهم قطميـــر، وقيل: حمـــران، وقيل: ريـــان، وقيـــل: إلَّا قليل من أهـــل الكتاب، والصحيح الأوَّل لقول ابن عَبَّاس: أنا منهم، كما مرَّ.

[رقية] [قيل:] ويطفأ الحريق إن شـــاء الله بإلقاء ورقة مكتوب فيها أسماء أهل الكهف، ولتعلُّم الأولاد، وإن كتبت على دار لم تحرق، أو على متاع لم يســـرق، أو على مركب لم يغرق، وتنفع بإذن الله ﷻ للطلب والهرب، وبكاء الأطفال، والحمَّى المثلثة، وللصداع بالشدِّ على العضد الأيمن بها، وللتابعة، ونماء العقل، وحفظ المـــال، ونجاة الآثمين من الســـلطان، والغنى، والجاه، وعسر الولادة بشدِّه على الفخذ الأيسر، **ولا حجَّة لذلك**[1].

﴿**فَلَا تُمَارِ**﴾ تجادل ﴿**فِيهِمْ**﴾ في شـــأنهم، من عدد ووصف ومحلٍّ ونحو ذلـــك ﴿**إِلَّا مِرَآءً ظَاهِرًا**﴾ بأن تقـــصَّ عليهم ما في القرآن مـــن غير تجهيلهم، والردِّ عليهم من غير تعمُّق فيه، وتقول لمـــن ذكر منهم عددا: من أين أخذته؟ وما في القرآن كفى ردًّا وحجَّة.

﴿**وَلَا تَسْـــتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُم**﴾ حال من قوله: ﴿**أَحَـــدًا**﴾. وهاء «مِنْهُمْ» عائد لأهل الكتاب، لعلمه ﷺ بمرجع الضمير.

[فقه] روي أنَّه ســـأل نصارى نجران عنهم فنهاه الله، ولا يحلُّ لمسلم أن يراجع أهل الكتاب في شيء من العلم إذ لا تؤمَنُ خيانتهم وجهلهم.

[سبب النزول] وقد ســـأل أهل مَكَّة اليهود فقالوا: سلوه عن ذي القرنين

---

(1) ولا بدَّ من الاعتقاد أنَّ النافع في ذلك هو الله لا تلك الأسماء على فرض صحة هذه التميمة بغير القرآن ولا أسماء الله الحسنى.

وأصحاب الكهف والروح كما مرَّ فسـألوه، فقال: «**غدا أخبركم**» ولم يقل: إن شـاء الله، فلبث الوحي خمسة عشـر يوما أو غيرها كأربعين وكثلاثة كما مرَّ، تأديبا له فنزل قوله تعالى:

﴿**وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ**﴾ لأجل شيء، أو في شـأن شيء ﴿**إِنِّي فَاعِلٌ ذَالِكَ**﴾ شيئا ما من الأشياء بحسب الأحوال ﴿**غَدًا**﴾ أو بعد غد من المستقبل، وقيل: غدا عبارة عن مطلق المسـتقبل ﴿**إِلَّآ أَنْ يَّشَآءَ اللَّهُ**﴾ الاستثناء منقطع، أي لكن المعتبر مشيئة الله. و«أَنْ» مَصدَرِيَّة أي إلَّا مشيئة، أو مفعول لحال محذوفة أي إلَّا شارطا مشيئة الله، أو إلَّا ذاكرا مشيئة الله، أو إلَّا ملتبسا بـ«إن شاء الله»، أي بذكر مشيئة الله، أو إلَّا مقيّدا بمشيئة الله.

ولا يصـحُّ تقدير: «إلَّا وقت مشـيئته»، لأنَّه ليس المعنـى على أنَّ القول وقت مشيئة الله، لأنَّا لا ندري الوقت الذي أراد الله إيقاع الفعل فيه من الفاعل.

﴿**وَاذْكُر رَّبَّكَ**﴾ بالاسـتثناء إذا ذكرت أنَّك لم تستثن كما قال: ﴿**إِذَا نَسِيتَ**﴾ الاستثناء وهو قولك: «إِن شَاءَ اللَّهُ» حال العقد لشيء أو الحلف، وذلك تدارك من الناسي لِمَا فاته لا إسقاط للحنث إذا فصل، أو لم ينو حال الحلف أن يستثني.

[فقه] وَلَمَّا نزلت الآية قال ﷺ: «**إن شـاء الله**» فالاستثناء لا حدَّ له ولو طالت المدَّة، وكذا من جهل ثمَّ تعلَّم المسـألة، يقول إذا تعلم: «إِنْ شَـاءَ اللَّهُ» ولو طالت المدَّة وذلك كلُّه ما لم يحنث. قال ابن عَبَّاس: يستثني ولو بعد سنة أو أكثر أبدا ما لم يحنث لدليل الآية، وعنه: سنة، وعنه: شـهر، وعن سعيد بن جبير: أربعة أشهر، وعن الحسـن وطاوس وعطاء: ما دام في المجلس، وروي عـن عطاء: حلب ناقة، وعن مجاهد: سنتان، وقيل: ما لم يأخذ في كلام آخر، وذلك على الإطلاق، وقيل: لا يصحُّ الاسـتثناء ولو باتِّصال إلَّا إن نوى أنَّه إذا تمَّ عقده أو يمينه استثنى، وقيل: يجوز في كلام الله فقط الفصل مطلقا لا في كلام غيره، إذ لا يغيب عنه بشيء، فهو مراد له، وقيل: يجوز الفصل للنبيء ﷺ لا لغيره من الناس، بحيث لا يخالف الآية.

[فقه] وخالف الفقهاء ابن عَبَّاس وأهل تلك الأقوال بالانفصال إلَّا بنحو تنفُّس أو سعال، وإلَّا لم ينعقد إقرار ولا طلاق ولا عتاق، ولم يعلم صدق ولا تخلف، وبهذا قال أبو حنيفة فأمر المنصور بإحضــاره لينكر عليه، فقال: هذا يرجع عليه، فإنَّه يبايعك الرجل ويحلف وإذا خرج أو بدا له استثنى وقال: «إن شــاء الله»، أو قال: «إلى وقت كذا»، أو: «إلَّا إن كان أو لم يكن»، واستثنى في قلبه، أو سرًّا كما لا تسمع، فاستحسن كلامه ورضي عنه.

وحجَّة الفقهاء آيات وجوب الوفــاء بالعهد وأحاديثه، وأمَّــا قوله تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ فلا يختصُّ بما قال ابن عَبَّاس، فإنَّه يجوز أن يكون بمعنى إذا نسيت الاستثناء فاستغفر، وهو من باب التغليظ؛ لأنَّ ترك الاستثناء ولو نسيانًا ذنبٌ يجب الاستغفار منه.

ويجوز أن لا يكون راجعا لِمَا قبله بل بمعنــى: اذكر عقاب ربِّك أو ربَّك وعقابه إذا تركت بعض ما أمرك بــه، أو بمعنى: اذكر ربَّك إذا غفلت عن ذكره واعتراك النسيان، والنسيان بمعنى الترك وارد، ولا مفعول للنسيان، ويبعد ما قيل: صلِّ صلاة نسيتها لأنَّ المحلَّ ليس لها.

[قصص] ويــروى أنَّ مغربيًّا عالما أراد معرفة مرتبة علماء بغداد فســافر ودخلها من باب الكرخ، ومشــى خلف رجلين يبيعــان البقل في أطباق على رؤوســهما، وقال أحدهمــا للآخر: يــا فلان كيف أجــاز ابن عَبَّــاس تأخير الاستثناء؟ لو كان كما قال لقال ﷻ لأيُّوب: استثن الآن، ولم يقل له: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ﴾ [سورة ص 44] فرجع للمغرب، فقيل له فقال: رأيت من بائع البقل على رأســه ما ردَّ به على ابن عَبَّــاس، فكيف علماؤهم المتصدُّون للعلم! قال بعض علماء بغداد: **لا يثبت هذا النقل.**

﴿وَقُلْ عَسَــىٰٓ أَنْ يَّهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا﴾ من خبر أهل الكهف في الاحتجاج على رسالتي **﴿رَشَدًا﴾** مفعول ثان لـ«يَهْدِي»، أو مفعول مطلق أي

هداية، أو تمييز. وقد أجاب الله ﷻ دعاءه فآتاه قصص الأنبياء وأممهم وسائر المعجزات والأخبار الغائبة الماضية واللاحقة إلى قيام الساعة.

أو المراد أقرب رشدا مِمَّا نسـيت، وقيل: هذا من جملة ما أمر بأن يقوله إذا نسي، قال بعض الكوفيِّين: إذا تذكَّر أنَّه لم يستثن فتوبته أن يقول: ﴿عَسَىٰٓ أَنْ يَّهْدِيَنِي رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ ولا يدلُّ عليه حديثٌ، ولا الآية، وإنَّما هو استحسان.

﴿**وَلَبِثُـواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِاْئَةٍ سِـنِينَ**﴾ كما اختلـف الناس في عددهم اختلفوا في مدَّة لبثهم، فهذا من جملة كلام الناس في أهل الكهف، قيل: قال بعض اليهود: ثلاثمائة سـنين، وبعض: ثلاثمائة سـنين وتسع، كما قال ﷻ: ﴿**وَازْدَادُواْ تِسْـعًا**﴾ أي أصحاب الكهف لا النـاس، أو أهل الكتاب كما قيل، ولكونه من كلامهم لا من كلام الله ﷻ.

﴿**قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ**﴾ بلبثهم أي بمدَّة لبثهم، فيكون من حيز قوله ﷻ: ﴿سَـيَقُولُونَ...﴾ ويناسـبه قراءة: ﴿وَقَالُواْ لَبِثُواْ﴾، وعلى أنَّه من كلامه تعالى فالمعنـى: إنَّهم لبثوا ثلاثمائة وتسـعا، وهو أعلم به، وهـو الحقُّ لا ما خاض الناس فيه من غير هذا العدد. وواو «ازْدَادُوا» للنـاس، أي ازدادوا في العدِّ، أو لأصحاب الكهف، أي ازدادوا في اللبث، والصحيح أنَّه من كلام الله سبحانه.

لَمَّا نزلت الآية قالت نصارى نجران: أمَّا ثلاثمائة فقد عرفناها، وأمَّا التسع فلا علم لنا بها، فنزل: ﴿قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ﴾ أي لبثوا ثلاثمائة وتسع سنين قمريَّة، أو ثلاثمائة عجميَّة شمسـيَّة، فتكون ثلاثمائة وتسـعا عربيَّة قمريَّة كما روي عـن عليٍّ، ولذلك البيان وللـردِّ على من خالف قال مـا نزل ولم يقل: ثلاثمائة سنين وتسعا ونسب ذلك لأهل الكتاب.

[فلك] وقيل عن الحساب والمنجِّمين: السـنة الشمسيَّة ثلاثمائة وخمس وَسِـتُّونَ يوما وخمس سـاعات وتسـع وأربعون دقيقة، والقمريَّة ثلاث مائة

وأربعة وخمسون يوما وثمان ســاعات وثمان وأربعون دقيقة، والتفاوت بين الحسابين قليل، وقيل: قال بعض أهل الكتاب: ثلاثمائة، وقال بعض: ثلاثمائة وتسع، ومعدود تسعٍ «ســنون» كما هي المذكورة قبل، ولو أريد تسع ساعات أو ليال جمع ليلة أو تسع جُمَعٍ لذكر ذلك، ولو أريد تسعة أيَّام أو أشهر لقرن بالتاء على الأفصح، ولذكرت الأيَّام أو الأشهر إذ لا دليل عليها.

ومنتهى ذلك العدد وقت نزول القرآن فيهم عند مجاهد، ووقت موتهم عند الضحَّاك، ووقت تغيُّرهم بالبلاء فــي قول، ووقت إطلاع الناس عليهم في آخر. ويروى أنَّ ابن عَبَّاس مرَّ في غزوة بالكهف فوجــد هو ومن معه عظاما، فقالوا: هي عظام أهل الكهف، فقال: أولئك قــوم فقدوا مدَّة طويلة وفنوا، فقال راهب: ما كنت أحسب أنَّ أحدا من العرب يعرف ذلك، فقيل له: هو ابن عمِّ نبيئنا ﷺ .

[قيل:] وعنه ﷺ : «**ليحجَّنَّ عيسى وأصحاب الكهف ويعتمرون، ويمرُّون بالروحاء، وهــم حينئذ حواريُّون، ويتــزوَّج ويولد لــه، ويزورني في قبري، ويموتون عند رفع القرآن والكعبة**»[1] والله أعلم بصحَّة هذا.

و«سِــنِينَ» عطف بيان بالنكرة أو بدل، ولو كان لا يصحُّ في المعنى جعله في مقام المبدل منه على أن يراد بقولهم: في نية طرح المبدل منه أنَّ المقصود بالذات البدل. وعن الضحَّاك نزل: ﴿ثَلَاثَ مِائَةٍ﴾ فقيل: يا رســول الله أيَّامًا أم أشهرًا أم سنين؟ فأنزل الله: ﴿سِنِينَ﴾.

﴿**لَهُ**﴾ لا لغيره ﴿**غَيْبُ**﴾ علم غائب ﴿**السَّــمَاوَاتِ وَالَارْضِ**﴾ أي ما غاب عنكم فيهما، فهو العالم بأصحاب الكهف وشأنهم كلِّه على الحقيقة.

[نحو] ﴿**أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ**﴾ أي به، حذف لشبه الفضلة لفظا كأمرر بزيد، وإلَّا فالهاء فاعل والفاعل لا يحذف إلَّا للضرورة أو للســاكن صارت هنا ضمير رفع،

(1) لم نقف على تخريجه.

والباء صلة وأساغ ذلك دخول الباء فكانت على أصلها من أنَّها ضمير، إمَّا للجرِّ أو للنصب، وذلك أنَّ «أبصر» و«أسمع» فعل ماض على صورة الأمر جاءت الباء لكونه على صورة الأمر، ولأنَّها لا تدخل على المستتر فبرز لتدخل عليه، وذلك عكس ما شهر من مجيء الماضي بمعنى الأمر أو الدعاء، وبهذا ضَعُفَ هذا القول وهو لسيبويه، وضعَّفه بعض أيضا بأنَّ زيادة الباء في الفاعل قليلة نحو: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [سورة الفتح: 28]، وأنَّ من المطَّرد زيادتها في المفعول.

[نحو] ومذهب سيبويه مبنيٌّ على أنَّ «مَا أَفعَلَهُ» و«أَفْعِلْ» بمعنى صار ذا كذا، ولا نسلِّم أنَّ زيادة الباء مطَّردة في المفعول. وقال الأخفش: فعلُ أمرٍ خطابًا لكلِّ أحدٍ على البدليَّة لا الشمول، فالباء زائدة في لفظ يقال له مفعول به إن كانت همزة «أَفْعِلْ» للتعدية، وإن كانت للصيرورة فالباء للتعدية، وقد علمت أنَّا لا نسلِّم زيادة الباء في المفعول اطِّرادا، وهمزة التعدية أكثر من همزة الصيرورة كـ«أحسن» بمعنى صار ذا حسن مقيسة دون همزة الصيرورة، لا كما قيل: كلتاهما غير مقيسة، ويجوز أن تكون الهمزة معدِّية ويقدَّر المفعول أي أبصر الناس بدينه وأسمعهم به، ومعنى أحسن بزيد على مذهب الأخفش الأمر لكلِّ أحد أن يصفه بالحسن، أي صِفْهُ بالحسن كيف شئت فإنَّه أهل لأن يوصف بكلِّ خير لأنَّه جَمَع الخيور، وهذا المعنى أظهر في التعجُّب، والمعنى عند سيبويه: صار ذا كذا ثمَّ نقل إلى التعجُّب، ثمَّ نقل إلى صيغة الأمر بمعنى الإنشاء الذي في مثل قولك في الدعاء: «رحمه الله» و«رضي عنه» لا الذي هو معنى فعل الأمر نحو: «قم».

والآية تعجيب لعلم الله الأشياء المبصرة بالعين كلِّها، وعلمه الأصوات كلَّها لا يخفى عنه شيء من ذلك، وإن دقَّ. وعلمه بكلِّ شيء من السياق من قوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالَارْضِ﴾ [سورة هود: 123] ومن غير الآية، أو ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ عبارة بالكناية عن كلِّ شيء ولو كان مِمَّا لا يسمع ولا يبصر كالاعتقادات.

﴿مَا لَهُم﴾ لأهل السماوات والأرض المدلول عليهم بذكر السماوات والأرض، ودخل فيهم أصحاب الكهف ومن اختلفوا في عددهم دخولا أوَّليًّا، لأنَّ الآية في شأنهم، لا كما قال ابن عطيَّة: الهاء لكفَّار عصر رسول الله ﷺ، ولا لمؤمني السماوات والأرض كما أجيز، ولا للمختلفين في مدَّة لبث أصحاب الكهف، كما قيل. ﴿مِن دُونِهِ مِنْ وَّلِيٍّ﴾ يتولَّى أمرهم، من خير أو شرٍّ أو غيرهما ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ﴾ في قضائه، أو في أمره الشامل للفعل، لا يشاركه أحد في قول أو فعل، ولا يعاونه ولا يشاوره ﴿أَحَدًا﴾ من خلقه.

﴿وَاتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿27﴾ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿28﴾ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَآءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿29﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿30﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَآئِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿31﴾﴾

توجيهات للنبيء ﷺ وللمؤمنين

﴿**وَاتْلُ**﴾ على الناس أو على أصحابك، أي اقـرأ؛ ويجوز أن يكون اتَّبعْ بالعمل ﴿**مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ**﴾ القرآن، ليستقرَّ في ذهنك ما فيه من شأن أهل الكهف وسائر الأخبار، والفرائض وغيرها، وتطَّلع على ما لم يطَّلع عليه أهل الكتاب، وتردَّ عليهم وتُتَبَّـع على ذلك، ولا تكترث بقولهم: ﴿ايتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا﴾ [سورة يونس: 15]. و«مِنْ» للتبعيض لأنَّه يوحى شيء فشيء، أو للبيان، أو للابتداء ﴿**لَا مُبَـدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ**﴾ لا يُهِمُّـك مخالفة أهل الكتاب لك وإنكارهم، ولا قول قومك: ﴿ايتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ فإنَّه حقٌّ يجب الوفاق فيه، لا يبدِّلـه الله، ولا يغيره أحد بنسـخ ولا إبطال. والنسـخ بالغير



تبديل، والنسخ لا إلى شيء تغيير شبيه بالتبديل، فيجمع بين الحقيقة والمجاز، أو يراد مطلق التغيير، ولا قدرة لأحد على ذلك لأنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ حفظه، وهو مستمرٌّ مخبر بالغيوب، كما أخبرك عن شأن أهل الكهف. والآية أمر للنبيء ﷺ بالبقاء على ما هو عليه، وتهييج على زيادة التمكُّن فيه.

﴿**وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ**﴾ من دون الكتاب أو من دون الله ﴿**مُلْتَحَدًا**﴾ موضع ميل تميل إليه عنه، لو هممت به، لكنَّك لا تهتمُّ به.

﴿**وَاصْبِرْ**﴾ احبس ﴿**نَفْسَكَ**﴾ ولو أبت ﴿**مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم**﴾ يعبدونه مطلقا، أو يسألونه حوائجهم، أو يصلُّون الخمس، أو يقرؤون القرآن، أو يذكرون الحلال والحرام، روايات عن السلف، وأضعفها الأخير، و**الصحيح الأوَّل**. ﴿**بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ**﴾ عبارة عن إكثار الدعاء لا خصوص الوقتين، أو الغداة من الفجر إلى الزوال تسميةً للكلِّ باسم الجزء، والعشيُّ: بمعنى المساء، أو الغداة صلاة الفجر يصلُّونها، والعشيُّ: وقت الظهر والعصر يصلُّونهما، ويستثنى بِالسُّنَّةِ الصلاة عند الغروبِ والتوسُّطِ والطلوعِ فيعبدون فيهنَّ بغير الصلاة، أو يَسألون حوائجهم.

﴿**يُرِيدُونَ وَجْهَهُ**﴾ يريدون الله، أو الوجه بمعنى الرضا والطاعة، لأنَّ من رضيت عنه تُقْبِل إليه بوجهك، وقيل: بمعنى التوجُّه، أي التوجُّه إليه، وعلى كُلٍّ لا رياء.

[أصول الدين] وسلف قومنا يجعلونه وجها حقيقيًّا بلا كيف فضلُّوا، ولم تغنهم البَلْكَفة، وبعض سلفهم توقَّف.

﴿**وَلَا تَعْدُ**﴾ عدا يعدو يتعدَّى بنفسه، وعدَّاه بـ«عَنْ» لتضمُّنِ نَبَتْ عينُهُ عنه تَنبُو بمعنى: احتقره ولو جالسه، فاختار لفظ «تَعْدُ» ليفيد أيضا معنى المباعدة مع الاحتقار. ويجوز كونه من المتعدِّي فيقدَّر المفعول به، أي: لا تصرف

عيناك عنهم النظر ﴿عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ نهى الله ﷻ النبيء ﷺ عن مجاوزتهم، والإعراض عنهم بتركهم، بلا بدل أو ببدل.

[سبب النزول] والمراد نهيه هو عن أن يحتقر فقراء المسلمين كعمَّار وسلمان وصهيب وابن مسعود وبلال لفقرهم، ورثَّة ثيابهم ونحو ذلك من أمور الدنيا، التي لا تقدح في الدين. كما روي أنَّ أميَّة بن خلف ونحوه من كبار قريش، وعيينة والأقرع من المؤلَّفة قالوا: اطرُدْ هؤلاء الفقراء لضعفهم، واتِّساخ ثيابهم نجالسْكَ، وننقُلْ عنك، فنزلت الآية، لكنَّ أميَّة في مَكَّة والمؤلَّفة في المدينة، والصحيح أنَّ السورة مَكِّيَّة، وقيل: إلَّا هذه الآية، وقيل: السورة مَدَنِيَّة، وقيل: مَكِّيَّة إلَّا أوَّلها إلى ﴿جُرُزًا﴾ [من الآية 1 إلى الآية 8].

وَلَمَّا نزلت الآية قام رسول الله ﷺ يلتمسهم فوجدهم في مؤخَّر المسجد يذكرون الله تعالى، فقال: «**الحمد لله الذي لم يُمتني حتَّى أمرني أن أَصْبِرَ نفسي مع رجال من أمَّتي، معكم المحيا والممات**»(1) وهذا دليل على أنَّها نزلت في المدينة.

﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ أي زينتها الموجودة عند كُفَّار رؤساء قومك، وما وُجِدَ في المسلمين منها فجالِسْهُ لله ﷻ لا لها. والجملة حالٌ من الكاف المضاف إليها؛ لأنَّ المضاف جزء من المضاف إليه هنا، ولأنَّه يقوم مقامه، كما تقول: لا تعد، أي أنت، وهذه الحال جاءت على مقتضى طبع النفس بمعنى: إنَّه لو عَدَتْهُم عيناك لكان ذلك لحالهم الرثَّة، وذلك مقتضى المقام، والقصد: أن لا تعدو عنهم مطلقا، تريد زينة الحياة الدنيا أو لم تردها، إلَّا أنَّ قومه قالوا له: اطرد الفقراء عنك ومن لا شأن له نؤمن بك ونجالسك نحن،

(1) أورده **أبو نعيم** في الحلية: ج 1، ص 345. في حديث طويل أوَّله قوله: «جاءت المؤلَّفة قلوبهم إلى رسول الله ﷺ عيينة بن حصين والأقرع بن حابس، وذووهم...». و**القرطبي** في تفسيره: ج 10، ص 391. من حديث سلمان الفارسي.

زيادة على شـــرطهم الأوَّل، وهو إن أخبرهم بقصَّة أهل الكهف، وذي القرنين آمنوا، فنزل: ﴿وَاتْــلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِــن كِتَابِ رَبِّكَ... ﴾ إلــى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا﴾ [الآيات: 27 ـ 29] فقام ﷺ يلتمســـهم فوجدهم في مؤخَّر المسجد يذكرون الله تعالى، فالتلاوة: القراءة المستلزمة للعمل بما تضمَّنته.

﴿**وَلَا تُطِعْ مَنَ اَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَــا**﴾ جعلنا قلبه غافلا، كأميَّة بن خلف من جملة من دعاك إلى طرد الفقراء المسلمين، ومن لا يعبأ به من المسلمين، والآية صرَّحت بغباوتهم لانهماكهم في المحسوسات الظاهرة وإعراضهم عَمَّا به الشرف الدائم دنيا وأخرى، وهو زينة الدين.

[أصول الدين] والآية نصَّت على أنَّ الله خلق المعصية كما خلق الطاعة، والجهلَ كما خلق العلم، وإذا قلنا: أغفلنا قلبه بالخذلان فالمراد نفي الإجبار، لا الهروب عــن خلق الله للمعصيــة، ومنعت المعتزلة ذلــك، فقالوا: المعنى وجدنا قلبه غافلا، أو نسبنا الغفلة إلى قلبه فرارا منهم عن نسبة القبيح إلى الله ســبحانه، كأجبنه بمعنى وجده جبانا، وأبخله بمعنى وجــده بخيلا، وأقحمه بمعنى وجده مقتحما، أو نسبه لذلك، كقول معدي كرب لبني سليم: «قاتلناكم فما أجبنَّاكم، وســألناكم فما أبخلناكم، وهجوناكم فما أقحمناكم» وفيه نسبة المصادفة إلى الله تعالى، وهي ممنوعة للزوم تقدُّم الجهل عنها، فالمعتزلة بل بعضهم يقولون: لا يعلم الله فعلا حتَّى يكون، وهو في معنى الإشراك.

أو أهملناه ولم نوفِّقه، وبــه قال الرماني من المعتزلــة، كقولهم: أغفل إبلــه، إذا تركها بلا وســم، عكس الذين كتــب في قلوبهــم الإيمان، قال الكميت وهو من الشيعة:

وطائفة قد كفَّروني بحبِّكــم ... وطائفــة قالوا مســيء ومذنب

أي نســبوني إلى الكفر، وذلك منهم خطأ فإنَّ الله هو القادر متأثِّر القدر لا قبح له في خلقه وهو خالقهم، وإنَّما القبح هو قولهم: إنَّه يقع في ملك الله ما لم

يرده، وهو خلق العبد ما هو قبيح إذ نسبوا الخلق في ذلك إلى الفاعل، وليس في مذهبنا سوى أنَّ الله نهى عن القبيح وقد خلقه، فعصى عصيانا قارنه خذلان.

[أصول الدين] ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاٰهُ﴾ استدلَّ به المعتزلة على مذهبهم في تفسير «أَغْفَلْنَا»، إذ لو كان المعنى كما قلنا: صيَّرنا قلبه غافلا، لقال: فاتَّبع هواه بالفاء التفريعيَّة، والتسبُّب على تصييرها غافلة، فلم يسند الاتبّاع إلى مشيئته تعالى، بل إلى شهواتهم، [قلت:] ويجاب بأنَّ القدرة المؤثِّرة ليست إلَّا لله، كما قال: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللهِ﴾ [سورة النساء: 78] وللعبد قدرة كاسبة يصحُّ إسناد أفعاله الاختياريَّة إليه بسببها، وفعل العبد يكون بكسبه وبفعل الله، والإسناد إلى الكاسب حقيقة وإلى الخالق تعالى مجاز فيما هو كسب، وأيضا ليس النصُّ على التفريع وإنَّما هو بحسب القصد، فإنَّ المراد هنا الإخبار بوقوع شيئين: الإغفال واتِّباعهم الهوى كما تقول: جاء زيد وأكرمته، إذا أردت الإخبار بأنَّه جاء وأنَّك أكرمته هكذا، وإن أردت التصريح بما هو سبب قلت: فأكرمته بالفاء، ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ تقدُّما على الحقِّ بحيث يكون خلفهم منبوذا.

[لغة] والمادَّة منبِّئة عن العجلة، كما يقال: فرط منه قول قبيح أي سبق، وفرس فرط: يسبق الخيل، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّا نَخَافُ أَنْ يَّفْرُطَ عَلَيْنَا﴾ [سورة طه: 45] وفرطت القوم: سبقتهم إلى الماء، وفارط الغنم: متقدِّماتها إلى الوادي والماء، وفي الحديث: «**أنا فرطكم على الحوض**»[1]. وأفرط: جاوز الحدَّ. و«فُرُطًا» في الآية بمعنى: فارطا، أو مسرفا، أو مضيِّعا، أو مفروطا فيه.

[قلت:] ولا يقال: لِمَ لا يطردهم جلبا للكثير والكبراء ليقوى الإسلام؟ لأنَّا نقول: في ذلك إهانة للإسلام وللسابق إليه، وكسر لقلبه وتنفير عنه، وتقليل لمن يدخل فيه، وتسبُّب في ردَّة من أسلم، وإساءة ظنٍّ بتفضيل أهل

(1) رواه **البخاري** في كتاب الرقاق، باب في الحوض، رقم 6205، من حديث ابن مسعد. ورواه **مسلم** في كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبيئنا ﷺ وصفاته، رقم 2289، من حديث جندب.

الدنيـا، وأكثر الناس ليسـوا بأصحاب مـال ومرتبة، **وإنَّما الإسـلام المرتبة العظيمة**، فمن سبق إليها فهو الفائز، والإسـلام غير محتاج إلى شرف الناس، بل من أعرض عنه كُبَّ، ففي ذلك بيان من الله لهؤلاء الأشراف أنَّ نحو سلمان وعمَّار هو الشريف، وهكذا قل، ولا تحتاج أن تقول: إنَّ الله عالم بأنَّ هؤلاء لا يؤمنون، أو يؤمنون إيمانا ضعيفا.

ويدلُّ لِمَا قلت قوله تعالى: ﴿**وَقُلِ**﴾ لهؤلاء الـذي أغفلنا قلوبهم ﴿**الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ**﴾ مبتدأ وخبـر، أي الحقُّ آت أو ثابت من ربِّكم، لكن إذا قدرنا آت فالخبـر «آت» لا «مِن رَّبِّكُمْ»، **ومـا أتى من غير الله مِمَّا لم يـأذن به الله ليس بِحَقٍّ، بل مجرَّد هوى.** أو «الْحَقُّ» خبر لمحذوف و«مِن رَّبِّكُمْ» حال مؤكِّدة، أو خبر ثان، أي ذلكم الحقُّ من ربِّكم، أو هذا الحقُّ، أو الذي آتيتكم به، والمراد ما مرَّ من أوَّل السورة أو كلُّ ما أوحي إليه.

﴿**فَمَن شَآءَ فَلْيُومِنْ**﴾ بهذا الحقِّ المذكور، أو بالنبيء أو بالقرآن، وهذا من مقول القول، أو من الله تعالى ﴿**وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ**﴾ لا أبالي بإيمانكم وكفركم، فإنِّـي مثاب على تبليغـي ولو لم تعملوا بـه، ولا يضرُّني كفركـم ولا أطرد الفقراء، آمنتم أو كفرتم؛ أو اسـتعارة للخذلان بتشـبيه مـن هو كذلك بحال المأمور بالكفر، والجامع عدم المبالاة.

[أصول الدين] والآية لا تقتضي استقلال العبد بفعله لأنَّ مشيئته الإيمان أو الكفر لا تكون إلَّا بمشـيئة الله ﷻ، ولا ينفذِّهـا إلَّا بإنفاذه تعالـى، فإنَّه خالق لمشـيئة العبد وإنفاذه لها ومشـيئة العبد غير مؤثِّرة، وأيضا قـال الله ﷻ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّا أَنْ يَّشَـآءَ اللهُ﴾ [سورة الإنسـان: 30] والشـرط لا يلزم أن يكون علَّة تَامَّة للجزاء، بل يكفي أن يكون سببا في الجملة، كما في «المطوَّل»، ولو كانت مشيئة العبد مؤثِّرة لاحتاجت إلى تقدُّم مشـيئة لها عليها، فيتسلسل، بخلاف مشيئة الله لمشيئة العبد فإنَّها تقطع التسلسل، والآيات دالَّة على اختصاص الخلق بالله.

[قلت:] وأيضا كيف يكون العبد خالقا لفعله مع جهله بأجزاء فعله وغفلته وحاله وكيفيَّتــه؟ وأيضا قد يفعل بلا عمــد كيف يخلق بلا عمــد؟ ومذهبنا ومذهب الأَشعَرِيَّة واحد، وزعم أبو منصور الماتردي[1] أنَّ مشيئة العبد ليست بمشيئة الله بل مستقلَّة.

ومجموع الأمرين تهديد ويكفــي، ولو اقتصر على الثاني لكفى تهديدا لا على الأوَّل. ﴿**إِنَّآ أَعْتَدْنَا**﴾ هيَّأنا ﴿**لِلظَّالِمِينَ**﴾ أنفسهم بالإشراك، ويلتحق بهم الفسَّاق ﴿**نَارًا اَحَاطَ بِهِمْ**﴾ يحيط بهم ﴿**سُرَادِقُهَا**﴾ فسطاطها.

والإضافــة بمعنى «مــن» التبعيضية، فهم على بعضهــا وتحت بعض هو ســرادقها، ولو كانت كلُّها ســرادق، والإضافة للبيان، وإلَّا لزم أن يكونوا في أرض غير النار والنار سرادق عليها، نعم يجوز أن تكون السرادق من غير النار وهم في النار. وأضافها إلى النار لأنَّها في النار، وهي ســرابيل من قطران غير النار، بل خلقة من الله، أو لباســهم وطعامهم وشرابهم المحرَّمة التي يتمتعون بها صيرت لهم سرادقًا.

ويجوز أن تكــون الإضافة مــن إضافة المشــبَّه به إلى المشــبَّه. وقيل: السرادق جدار دائر بهم عرضه مســيرة أربعين عاما، وفي الحديث: «**سرادق النار أربعة جدر، كلُّ جدار مســيرة أربعين ســنة**»[2] والمراد أنَّ هذه الجدر محيطة بهم كلِّهم.

وقيل: ﴿سُرَادِقُهَا﴾: دخانهما الشبيه بالســرادق على ما مرَّ من الاستعارة وبيان الإضافة والتشــبيه الإضافي؛ وقيل: هــذا الدخان هو المــراد في قوله

(1) هو محمَّد بن محمود الماتردي، نســبة إلى «ماتريد» محلَّة بسمرقند شــمال إيران، من أَيمَّة المتكلِّمين، وهــو أصوليٌّ. من تصانيفــه: «كتاب التوحيــد» و«مآخذ الشــرائع» في الفقه، و«الجدل» في أصول الفقه. الموسوعة الكويتية، ج 1، ص 368.

(2) أورده **القرطبي** في تفسيره: ج 15، ص 157. و**البغوي** في كتاب شرح السنَّة: ج 15، ص 145.

تعالى: ﴿اِنطَلِقُواْ إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ [سورة المرسلات: 30] وإنَّه قبل دخول النار، وعن ابن عَبَّاس: حائط من نار، وعن الكلبي: عنق يخرج ويحيط بهم في المحشر، وزعم بعض أنَّ البحر المحيط يكون عليهم نارا، وزعم أنَّه ﷺ قال: «**البحر من جهنَّم**» وتلا الآية.

﴿وَإِنْ يَّسْتَغِيثُواْ﴾ من العطش ﴿يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ [المهل:] ما أذيب من حديد أو نحاس أو ذهب أو فضَّة أو رصاص ونحو ذلك، حتَّى صار في السيلان كالماء، وقيل: كدردي الزيت، ويقال: قيح ودم أسود، ويقال: ضرب من القطران بالغ في الحرارة.

[بلاغة] وذلك تهكُّم وتحقير حيث أجيبوا بضدِّ مطلوبهم، طلبوا ماء فأوتوا بعذاب.

إذا قرب من وجوههم سقطت لحومها، وإذا شربوه قهرا خرجت أمعاؤهم من أدبارهم، ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [سورة محمد: 15] ثمَّ يعادون كما قال [في آية 56 من سورة النساء]. ﴿بِيسَ الشَّرَابُ﴾ ذلك الماء.

[نحو] جملة «بِيسَ» مستأنفة، ولا يبعد أن تكون مقولا لنعت محذوف، أي مقول فيه: «بِيسَ الشَّرَابُ»، وهذا النعت كالنعت قبله، وهو «يَشْوِي» منعوته «مَاءً»، وكذا «كَالْمُهْلِ» نعت لـ«مَاءً»، أي ثابت كالمهل. أو النعت الكاف على أنَّها اسم مضاف لِمَا بعدُ، قيل: فيستتر فيه الضمير، لأنَّه بمعنى مشابه. وأجيز أن يكون «يَشْوِي» حالا من المستتر في الكاف، أو من ضمير الاستقرار، على أنَّ الكاف حرف، أو حال من «الْمُهْلِ» لأنَّ المهل ولو سيق للتشبيه لكن نعته بـ«يَشْوِي» تكميل لوصف الماء، فيكون كإيراد الشيء مع دليله.

﴿وَسَآءَتْ﴾ بيست النار ﴿مُرْتَفَقًا﴾ متَّكئا، وهو اسم مكان بمعنى موضع ارتفاق، أي اتِّكاء على مرفق اليد، أو هو مصدر ميميٌّ، أي ساء ارتفاقها، أي الارتفاق فيها، وعن ابن عَبَّاس: منزلا، وهذا مقابل لقوله: ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾

وقوله: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا...﴾ جيء على التهكُّم، فإنَّــه لا اتِّكاء لأهل النار فيها كما تهكَّم بقوله: ﴿يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَالْمُهْلِ﴾ كقوله: «تحيَّة بينهم ضرب وجيع»، وأمَّا قوله:

غضبت تميــم أن يقتَّــل عامر   يــوم النثار فأعتبــوا بالصَّيْلم[1]

أي بالداهية، والنثار: ماء لتميم، فلا يلزم أن يكون تهكُّما لجواز أن يكون معناه: اصبروا للصيلم ولا تجزعــوا، وذلك على صيغة الأمــر لَمَّا كان مبنيا للمفعول فتهكّم.

[نحو] ﴿إِنَّ الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ﴾ وقوله: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنَ اَحْسَــنَ عَمَلاً﴾ خبر لـ«إِنَّ» الأولى والرابط «مَن» فهــو من وضع الظاهر موضع المضمر، علــى أنَّ المــراد بـ﴿مَنَ اَحْسَــنَ عَمَلاً﴾ هــم الذين آمنــوا وعملوا الصالحات، ولا يمنع هنا تنكير العمل، فإنَّه للتعظيم. اعتبر وضع الظاهر موضعه على وجه التعظيم، وإن أريد بــالأوَّل الخصوص وبالثاني العمــوم كان الرابط العموم، أو بالعكس فالرابط محذوف، أي من أحسن منهم عملا، أو هذه الجملة معترضه، فيكون خبر «إنَّ» الأولى قوله: ﴿أُوْلَئِــكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ وإذا جعلنا الخبر هو: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ﴾ كانت هذه مستأنفة، أو خبرا ثانيا لـ«إنَّ» الأولى.

والعدن: الإقامة، ومنه المعدن لإقامة الجواهــر فيه. والعمل الصالح: هو إحسان العمل، وإحســان العمل قيد في العمل الصالح، لأنَّ الإنسان قد يعمل صالحا ولا يحســنه، وعلى وضع الظاهر موضع المضمر، فالإحسان مراد في ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ﴾ وعلى غيره يكون الإحسان قيدا مخرجا لمن لم يتمَّ عمله، ولمن رَاءَى به، ولمن عمل محبطا، أو يراد الإحسان الذي هو: «**أن تعبد الله كأنَّك تراه**»[2] فتكون الآية في نوع من المؤمنين.

---

(1) البيت لبشر بن أبي حازم. لسان العرب، ج 9، ص 30، مَادَّة «عتب».

(2) تَقَدَّمَ تخريجه، انظر: ج 3، ص 8.

[نحو] ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْاَنْهَارُ﴾ خبر ثالث أو مستأنف أو نعت «جَنَّاتُ» أي من تحت غرفهم كما قال ﷻ: ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ﴾ [سورة سبأ: 37] ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنَ اَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ خبر رابع أو مستأنف أو نعت «جَنَّاتُ»، والمفعول الثاني محذوف منعوت بـ«مِنَ اَسَاوِرَ»، أي يحلَّون فِيهَا حُلِيًّا مِن أسَاوِرَ، و«مِنْ» هذه للتبعيض من هذا المحذوف، أو بيان له، ويجوز أن يكون متعدِّيا لواحد فقط بمعنى يُعطَوْن حليًّا، فتكون «مِنْ» للابتداء، و«مِن ذَهَبٍ» نعت لـ«أَسَاوِرَ»، و«مِن ذَهَبٍ» بيان لـ«أَسَاوِرَ»، أو تبعيض له يتعلَّق بمحذوف نعت «أَسَاوِرَ».

[صرف] والمفرد: إسورة وأسورة جمع سوار، وقال أبو عبيدة: جمع أسور بحذف الألف بعد الواو، ولو اعتبرت لقيل أساوير بالياء، أو حذفت من أساوير الياء، وقال أبو عمرو بن العلاء: إسوار مفرد لا جمع، وجمعه أساور بحذف ألف المفرد وكذا قال قطرب[1] وأبو عبيدة.

وتنكير «أَسَاوِرَ» و«ذَهَبٍ» للتعظيم، والسوار: حلقة تلبس في اليد وفي الزند.

وكانت الملوك يزيَّنون في أيديهم ويتوَّجون في رؤوسهم في الدنيا، وتزيَّن بها الأطفال الذكور أيضا، فلا عيب في لبس أهل الجَنَّة لها بل جعلها الله لهم زينة يحبُّونها، ولو كانوا لا يحبُّونها في الدنيا طبعا، ولكلِّ واحد من أهل الجنَّة ثلاثة أسورة واحد من ذهب كما في هذه الآية، والثاني من فِضَّة لقوله تعالى: ﴿وَحُلُّواْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ [سورة الإنسان: 21] والثالث من اللؤلؤ لقوله تعالى: ﴿وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [سورة الحج: 23] أو لبعض من ذهب ولبعض من فِضَّة ولبعضهم من اللؤلؤ بحسب أعمالهم، وأكثر التسوير في الدنيا للنساء، ويشترك فيه النساء والرجال في الآخرة.

---

(1) هو محمَّد بن المستنير بن أحمد أبو علي المشهور بقطرب، من أهل البصرة من الموالي، أخذ النحو عن سيبويه، وكان يرى رأي المعتزلة النظَّاميَّة. من تصانيفه: «معاني القرآن» و«متشابه القرآن». توفِّي سنة 206هـ. معجم المفسِّرين، ج 2، ص 636.

[لغة] والأصل دِسْتَاوِره، لفظ عجميٌّ تصرَّفت فيه العرب، فقالوا: سورت الجارية، وقالوا: سِوَار بحذف ألف «دست» وهاؤه وتاؤه وداله، **والصحيح أنَّه عربيٌّ**. وقيل: معرَّب «دسواره».

قال عكرمة: إسورتهم ذهب وفضَّة ولؤلؤ أخفُّ عليهم من كلِّ شيء، إنَّما هي نور، وعن أبي هريرة عنه ﷺ: «**تبلغ الحلية حيث يبلغ الوضوء**»[1]، وعن كعب الأحبار: لله تعالى ملك يصوغ حليَّ أهل الجَنَّة من يوم خلق إلى يوم قيام الساعة، لو بدا واحد لأزال ضوء الشمس.

﴿**وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا**﴾ لأنَّ للخضرة طراوة زائدة على حسن الزرقة والسواد والبياض والحمرة والصفرة، ويتقوَّى بها نور البصر، ولا سواد في الجنَّة، والأخبار لا تخلو عن إثباته إلَّا أنَّا لا ندري صحَّتها، كما يقال: لهارون لحية تضرب إلى سرَّته فنظنَّ أنَّها سوداء، وكما يقال: يفرق سواد بلال رضي الله عنه نقطا في خدود نساء الجنَّة.

[بلاغة] [قلت:] وإنَّما بنيت الحلية للمفعول واللباس للفاعل لأنَّه لعملهم الصالح الذي تناولوه هم، ولأنَّ المعتاد أن يلي الإنسان لباس نفسه ولا سيما إذا كان فيه ستر العورة أو مسُّها، والحليُّ أعطوه وهو زيادة من الله والملوك تُلبِسهم الحليَّ ونحوَهُ الخدمُ.

[لغة] ﴿**مِن سُندُسٍ**﴾ ما رقَّ من الحرير، وأصله فارسيٌّ أو هنديٌّ، قولان، وأصله بالهنديَّة: «سندون»، وغيَّرته الروم إلى «سندوس» والعرب إلى «سندس» ﴿**وَإِسْتَبْرَقٍ**﴾ ما غلظ منه، وقيل: حرير منسوج بالذهب، فارسيٌّ عرِّب، وأصله: استبر بلا هاء، أو رومي أصله استبره بالهاء، أو استبره بالباء

---

(1) رواه **مسلم** في كتاب الطهارة (13) باب تبلغ الحلية حيث يبلغ الوضوء، رقم 40 (250) من حديث أبي هريرة.

الفارسية بعد التاء وبالهاء، وقيل: هو عربيٌّ من البريق، وهو استفعل كاستخرج جعلوه اسم جمع.

لهم ذلك لأنَّ لهم فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذُّ العين وكلٌّ قد يشتهي لغرض، وفي قوله تعالى: ﴿مَا تَشْتَهِيهِ الَانفُسُ﴾ [سورة الزخرف: 71] تلويح بِأَنَّ في الجَنَّة غير الخضرة، لأنَّ الحرير أبيض ما لم يصبغ، وفي الجَنَّة خلقه الله أخضر بلا صبغ، قيل: يا رسول الله ثياب الجنَّة منسوجة أو مخلوقة؟ قال ﷺ: «**تنشقُّ عنها ثمار الجنَّة**»(1) وعن أبي الخير مرثد بن عبد الله(2): «**في الجَنَّة شجرة تنبت السندس ثيابا لأهل الجنَّة**»(3) وعن سليم بن عامر: «**إنَّ الرجل يكسى في الساعة الواحدة سبعين ثوبا وإنَّ أدناها كشقائق النعمان**»(4) وعن كعب: «**لو أنَّ ثوبا من الجنَّة بدا لصعق أهل الدنيا وما حملته أبصارهم**»(5).

﴿**مُتَّكِئِينَ**﴾ حال من واو «يَلْبَسُونَ» ﴿**فِيهَا عَلَى الَارَآئِكِ**﴾ السرر في الحجلات(6) بهيئة المتنعِّمين من الاتِّكاء، قال ﷺ: «**يمكث الرجل في متَّكاه أربعين سنة ما يملُّه**»(7) عن ابن عَبَّاس: «**الأرائك فرش منضودة في السماء مقدار فرسخ**»(8). وأصله من الأراك وهو شجر، أو من الأروكة وهي الإقامة

(1) أورده **السيوطي** في الدر: ج 4، ص 244، وقال: أخرجه الطيالسي والبخاري في تاريخه والنسائي والبزار وابن مردويه والبيهقي في البعث، عن ابن عمر.

(2) أبو الخير مرثد بن عبد الله اليرني المصري، عالم الديار المصرية ومفتيها، حدَّث عن أبي أَيُّوب الأنصاري وغيره. تُوُفِّيَ سنة 90هـ. تهذيب سير أعلام النبلاء، ج 1، ص 146.

(3) أورده **السيوطي** في الدر: ج 4، ص 244. وقال: أخرجه البيهقي عن أبي الخير مرثد بن عبد الله.

(4) أورده **السيوطي** في الدر: ج 4، ص 244. وقال: أخرجه ابن أبي حاتم عن سليم بن عامر.

(5) أورده **السيوطي** في الدر: ج 4، ص 244. وقال: أخرجه ابن أبي حاتم عن كعب.

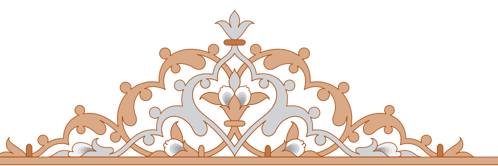
(6) جمع حجلة، وهو بيت يزين للعروس بجميع أنواع الزينة.

(7) أورده **السيوطي** في الدر: ج 4، ص 244. وقال: أخرجه ابن أبي حاتم عن الهيثم بن مالك الطائي.

(8) أورده **السيوطي** في الدر: ج 4، ص 244. وقال: أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عَبَّاس.

على رعي الأراك، وهو عربيٌّ ﴿**نِعْمَ الثَّوَابُ**﴾ الجنَّة وما فيها ﴿**وَحَسُنَتْ**﴾ أرائكهم ﴿**مُرْتَفَقًا**﴾ موضعَ اتِّكاءٍ وهو حال، أو اتِّكاءً وهو تمييز، ولو كان معناه من المتَّكئين لا من السرر.

وَلَمَّا ذكر الله ﷻ جزاء الظالمين أصحاب الأموال المحتقرين للمسلمين الفقراء الناهين، ذكر مثل ذلك بضرب المثل برجل مشرك متعظِّم بماله على رجل مسلم ينهاه فقال:



﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ﴿32﴾ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ﴿33﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ﴿34﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ﴿35﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ﴿36﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا ﴿37﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴿38﴾ وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا ﴿39﴾ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ﴿40﴾ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ﴿41﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴿42﴾ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿43﴾ هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا ﴿44﴾﴾

صاحب الجنتين

مثل الغنيِّ المغترِّ بماله والفقير المعتزِّ بعقيدته

﴿**وَاضْرِبْ لَهُم**﴾ للمشركين ﴿**مَثَلاً رَّجُلَيْنِ**﴾ للكافرين والمؤمنين ضعفاء المؤمنين، وصناديد المشركين الطالبين لطردهم عن مجلسه ﷺ، أو مطلق المؤمن والكافر، فيدخل هؤلاء دخولا أوّليًا، أو لا يلزم أن يكون المشبَّه به محقَّقا، بل يجوز أن يكون مقدَّرا مفروضا.

[قصص] والصحيح أنَّهما كانا رجلين موجودين، فقيل: كانا أخوين إسرائيليَّين، كافر اسمه «قُرطوس» بقاف مضمومة، وقيل: بفاء مضمومة، وقيل: «قطفير»، ومؤمن اسمه «يهوذا» ورثا من أبيهما ثمانية آلاف أنصافا، فاشترى الكافر بسهمه ضياعا وعقارا، وجعل المؤمن سهمه في وجوه الخير، وقيل: كانا حدَّادين جمعا مالا، ويروى أنَّ الكافر اشترى أرضا بألف فتصدَّق المؤمن بألف لأرض في الجَنَّة، أو دارا بألف فتصدَّق المؤمن بألف لدار في الجنَّة، أو تزوَّج امرأة بألف فتصدَّق المؤمن بألف للحور، أو اشترى خدما بألف، فتصدَّق المؤمن بألف لولدان الجنَّة، وفي كلِّ ذلك يقول: «لك يا الله»، وافتقر، وتعرَّض لأخيه في طريقه، فمرَّ به مع حشمه فوبَّخه على تصدُّقه ولم يعطه.

وقيل: الرجلان أخوان من بني مخزوم بطن من قريش، وقوله تعالى: ﴿لِصَاحِبِهِ﴾ لا ينافي الأخوَّة، كافر وهو الأسود بن عبد الأشد، بالشين المعجمة، وبعض ضبطه بالمهملة، ومؤمن وهو أبو سَلَمة عبد الله زوج أمِّ سَلَمة قبل النبيء ﷺ، بفتح سين سَلَمة ولامه في أبي سَلَمة وفي أمِّ سَلَمة، وهي من أُمَّهَات المؤمنين.

﴿جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنَ اَعْنَابٍ﴾ مستأنف تفسيرا للمثل، أو نعت لـ«رَجُلَيْنِ» مفيد للتمثيل، والمعنى: بستانان من شجر الأعناب على تقدير مضاف، والأعناب: شجر العنب مجاز أو يقدَّر مضاف، أي من شجر أعناب ﴿وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ﴾ جعلنا النخل حافَّة بهما، أي محيطة، والجنَّة عبارة عن شجرها فبيَّنها بقوله: ﴿مِنَ اعْنَابٍ﴾ و«مِنْ» للبيان، أو يقدَّر: شجرها من أعناب، والنخل مقوٍّ لها، فالعنب أشرف من التمر، والتمر أشرف من غيره، والنخل خارج عن الجنَّتين لأنَّهما جنَّتان بالعنب، والنخل أحاط بهما.

[لغة] ويقال حفَّه القوم أحاطوا به، وحففته بالقوم جعلتهم حافِّين، فالباء للتعدية إلى مفعول ثان كهمزة التعدية، كأنَّك قلت: أحففتهم إيَّاهُ، أي جعلتهم

حافِّينه بنصب محلِّ الهاء على المفعوليَّة، وتعديتــه بالباء أولى منها بالهمزة. والمراد: كلُّ جنَّة منهما مدوَّر عليها بنخل على حدة.

﴿**وَجَعَلْنَــا بَيْنَهُمَا**﴾ بيــن كلِّ جنَّة ونخيلها والأخــرى ونخيلها ﴿**زَرْعًا**﴾ فيحصل من ذلك القوت العظيم والبقول، كلُّ وقت بما ناسبه من المحروث، ولا يحتاج مالكهما إلى غيرهمــا، لأنَّ ذلك بُرٌّ أو شــعير أو نحوهما وفواكه وعنب، ولا يختصُّ الزرع بنحو البرِّ، بل يصدق أيضــا بنحو البطيخ. والزرع بمعنى المصدَرِيَّة أي قبول الحــرث، أو مفعول أي ننبت بينهما ما يحرث، أو يقدَّر: أرض زرع.

﴿**كِلْتَا الْجَنَّتَيْــنِ ءَاتَتْ اكْلَهَا**﴾ مأكولها، أي ما يــؤكل مِمَّا فيها، ولم يقل: آتتا، لأنَّ المعنى: كلُّ واحدة آتت أكلهــا، وتقول: كلٌّ من المرأتين قامت، ولا تقول: قامتــا إلَّا بنظر للمعنى، وهو ضعيف، ويناســب ما ذكر قــراءة: ﴿كُلَّ الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَى أُكْلَهُ﴾.

[صرف] و«كِلْتَا» مفرد اللفظ مثنَّى المعنى عند البصريِّين، وهو المشهور، ومثنًّى لفظا ومعنى عند البغداديِّين، وتاؤه عند البصريِّين بدل من واوه، وأصله كلوى، وهو قول ســيبويه، وألفه للتأنيث، وتاء التأنيث لا تكون وســطا، وما قبلها لا يكون ســاكنا صحيحا، فيعرب بحركة على الألــف، رفعا وعلى الياء جرًّا ونصبا. وقال الجرمي[1] منهم: تاؤه زائدة وألفه بدل عن واو.

﴿**وَلَمْ تَظْلِم**﴾ لم تنقص ﴿**مِنْهُ**﴾ من أكلها ﴿**شَــيْئًا**﴾ من شأنه أن يؤتى به، أو شيئا يعهد في سائر البساتين، والثمار عادة تارة تتِمُّ وتارة تنقص، هذا تفسير ابن عَبَّاس ﵁، وهو تفسير باللازم على أنَّ أصل الظلم التعدِّي في حقِّ الغير

(1) الجَرْمي إمام العَرَبِيَّة صالح بن إسحاق البصري، صاحب التصانيف، كان صادقا ورعا خيِّرا أخذ العَرَبِيَّة عن الأخفش وغيره، له كتاب «غريب ســيبويه»، وكتاب «العروض». توفي سنة 225هـ. تهذيب سير أعلام النبلاء، ج 1، ص 394.

وهو نقص، فـإن كان بمعنى النقص اللازم فـ«شَـيْئًا» مفعـول مطلق، أي لم تنقص منه نقصا، أو من النقص المتعـدِّي فمفعول به، وهو المتبادر من قوله: ﴿مِنْهُ﴾، والمعنى: لم تترك من أكلها شـيئا؛ وإسـناد عدم التـرك إليها مجاز عقليٌّ، والواضح أنَّ الظلـم أصله النقص وهو حقيقة فيـه مجاز في التعدِّي، فظلمه بمعنى نقصه واحتقره.

﴿**وَفَجَّرْنَا**﴾ أنبعنا بتوسـيع ﴿**خِلَالَهُمَا**﴾ وسط كلِّ واحدة ليدوم شربهما وبهاؤهما ﴿**نَهَرًا**﴾ فذلك نهران اثنـان، أو ﴿خِلَالَهُمَا﴾: بينهما، كالزرع، أو من جانب إحداهما، أو بإزاء الزرع، فهو نهر واحد تسـقيان منه، ويدخلهما ماؤه فكأنَّه مفجَّر فـي داخلهما، وليس ضمير التثنية فـي «خِلَالَهُمَا» مراعاة لمعنى «كِلْتَا» بل للجنَّتين. ويقال: ذلك في الرملـة من أعمال مصر القاهرة يسمَّى نهر «أبي فرطس».

﴿**وَكَانَ لَهُ**﴾ للأحد ﴿**ثُمُرٌ**﴾ أنواع من المال غيـر الجنَّتين والزرع والنهر، من الذهب والفضَّة والدوابِّ والمتاع وغير ذلك، هذا مقتضى كلام ابن عبَّاس.

[لغة] مـن ثَمُرَ مالـه إذا كثر، أي ثمر كثيـرة، فالكثرة مـن المَادَّة ومن التنكير، وقـال مجاهد: الذهب والفضَّـة، وقيل: المال والولـد، جمع ثمار، وثمار جمع ثمر فجمع الجمع علـى وِزَانِ جمع المفـرد ككتاب وكتب، أو جمع ثَمَر بفتحتين كخشب وخشب.

﴿**فَقَالَ**﴾ الرجل الكافر ﴿**لِصَاحِبِهِ**﴾ هو الرجل الآخر المؤمن، عبَّر عنهما بعنوان الصحبة والاقتران وذلك لا ينافي الأخـوَّة ﴿**وَهُوَ**﴾ أي الرجل الكافر صاحب الجنَّتين، أو المؤمن الصاحب وكذا يجوز فيما بعد، والأَولى أنَّ «هُوَ» هنا للكافر وهناك للصاحب المؤمن. والواو للحـال، وصاحب الحال ضمير «قَالَ» أو «صَاحِـبُ» ﴿**يُحَاوِرُهُ**﴾ يراجعه في الـكلام، الكافر يرغب في الدنيا ويصوِّب رغبته، ويتكلَّم بشأنها ويفخر، والمؤمن ينهاه عن ذلك ويعظه.



﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ رجالا، من العشـيرة وأولاده وحشـمه، وكلُّ من ينفر معه في شـدَّة ويذبُّون عنه، وعشـيرتهم واحـدة، وللكافر منها أعوان دون المؤمن، فلا دليل على أنَّهما من عشـيرتين بـلا أخوَّة، أو بأخوَّة مفترقتين، وإنَّما ذلك لو فسَّـرنا النفر بنفس العشـيرة، لا برجال منها، وقيل: النفر الأولاد، ويدلُّ له قول الآخر: ﴿أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا﴾.

﴿وَدَخَلَ﴾ مع صاحبه المؤمن آخذا بيده ليريه بهجة الجنَّة وحسنها، ويدلُّ لدخوله معه إشـارة الحضور في قوله: ﴿هَذِهِ﴾ وهو الطالب لدخول الصاحب ﴿جَنَّتَـهُ﴾ حقيقة الجنَّة لتشـمل الجنَّتيـن، أو الإضافة للاسـتغراق، أو أفرد لاتِّصال الجنَّتين فكأنَّهما واحدة، أو تكلَّم على التي دخل أوَّلا ويدخل به بعد ذلك الأخرى فنعلمه بالقياس.

أو أفرد على معنى أنَّ لصاحبه المسـلم ومثله جنَّة الآخرة ولذلك الكافر جنَّته في الدنيا، وهي الجنَّتـان، لا جنَّة له في الآخـرة، ولا يأبى عن هذا أنَّه دخل كما قيـل، لأنَّ المعنى دخل فيما هو عوض عن حظِّـه في جنَّة الآخرة، وعلى هذا فالعهد المفاد بالإضافة معتبر بعلم الله جنَّة الآخرة.

﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ بشركه وعُجْبِهِ الذي أفضى به إلى السوء، وفسَّر هذا الظلم بقوله: ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ﴾ تنقطع ﴿هَذِهِ أَبَدًا﴾ إلى قوله: ﴿مُنقَلَبًا﴾، أدَّاه عجبه ومبالغته فيه إلى أن ذهب حسُّـه عَمَّا شاهده من فناء الشجر وغيره، فلم يَظُنَّ أن تبيد وظنَّ أن تدوم أبدا.

ويحتمل أن يريد بالأبد مدَّة حياته، أو مع حياة أولاده بعده إن حيوا بعده، والإشـارة إلى الجنَّة المذكورة بأوجهها آنفا، وقيل: الإشـارة إلى السماوات والأرض وأنواع الخلق أو إلى الدنيا.

﴿وَمَآ أَظُنُّ السَّـاعَةَ﴾ المعهودة عندك أَيُّهَا المؤمـن وعند مثلك ﴿قَآئِمَةً﴾ ثابتـة ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَـىٰ رَبِّي﴾ بالبعث كمـا تزعم أَيُّهَـا الصاحب المؤمن

وأمثالك ﴿**لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهُمَا**﴾ من الجنَّة، إمَّا أن يضمر لصاحبه بضمير الجنَّتين لحضورهما وعلم صاحبه بهما، وإمَّا أن يجريَ كلام بينهما في شأنهما معا فردَّ الضمير إليهما له، وإمَّا أن يذكرهما لصاحبه بلفظ الجنَّتين، فذكرهما الله سبحانه بالمعنى، وهو ضميرهما، والذي هو خير منهما جنَّتان أفضل منهما في الآخرة أو جنَّات أفضل أيضا.

﴿**مُنقَلَبًا**﴾ موضع انقلاب أَنْقَلِبُ إليه ويدوم لي، على تقدير صحَّة أنَّ الساعة ستقوم، موضع ما يعطى في الآخرة، والموضع الجنَّة فيها خير من موضع جنَّتيه وهو الدنيا، أو معناه: انقلابا، ونسبة الانقلاب لأنَّ الانقلاب إلى ما يعطاه في الآخرة خير من الانقلاب من داره مثلا في الدنيا إلى جنَّتيه فيها، وإلَّا فليس الانقلاب فعلا لهما ولا لِمَا في الآخرة له لو كان، بل اتَّصَفَ ذلك بالانقلاب إليه، ظنَّ لعنه الله أنَّ الله أعطاه الجنَّتين في الدنيا مع ما معهما لتأهُّله لذلك، وأنَّه يستحقُّ ذلك بعد موته أيضا ويتأهَّل له، ولم يدر أنَّ فتح باب من أبواب الدنيا قد يكون استدراجا لصاحبه.

[أصول الدين] أمَّا كفره بقوله: ﴿وَمَآ أَظُنُّ السَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ فواضح وهو كفر شرك، وأمَّا كفره بقوله: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ فقد قيل به، **وفيه نظر إلَّا** إن أريد بدوامها أنَّه لا قيامة فهو إنكار للساعة كقوله: ﴿وَمَآ أَظُنُّ السَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾، والواجب الجزم بها، والظانُّ بها والشاكُّ والمرجِّح لعدمها كالمنكر لها، وأمَّا قوله: ﴿لَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي﴾ فإشراك باقتصاره على الشكِّ ولم يجزم بالبعث، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيَ إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [سورة فصّلت: 50] وأمَّا دخول الجنَّة إن اعتقده مع شرك فإشراك، أو مع توحيد وفسق فنفاق.

﴿**قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ**﴾ أخوه المؤمن ﴿**وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ**﴾ بخلق أبيك آدم منه والمخلوق مِمَّن خلق من تراب مخلوق من التراب، أو بخلقك من طعام أصله من الأرض.

[أصول الدين] وجعل عدم الإيمان بالبعث شــركا مــن طريق أنَّه من لم يستكمل خصال التوحيد فهو مشرك هكذا، كخطاب الوضع، ويجوز أن يكون من طريق أنَّه شبَّه الله بخلقه، في عجزه عن البعث، فكأنَّه جعل لله شريكا وهو خلقه، إذ اشــتركا في العجز عن البعث، تعالى الله عن العجز عن البعث، وهو قادر عليه وفاعل له.

[أصول الدين] والأوَّل شامل لمن أنكر البعث لعدم إمكانه في زعمه. وعدم تعلُّق القدرة بالممتنع حقٌّ، فإنَّ مــن أنكره بهذه الطريقة أولم يجزم به مشــرك أيضا، ويدلُّ على أنَّ هذا الكفر إشــراك تعريض صاحبه بقوله: ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّيَ أَحَدًا﴾. أو يقال: المراد أكفرت مثــل كفران قدرته العليَّة على كلِّ ممكن؟! ومن جملته القــدرة على الإعادة، فيكون منكرا للواجب تعالــى، لأنَّ واجب الوجود من له قدرة كاملة، وإنكار القدرة الكاملة إنكار لواجب الوجود وهو إشراك.

[أصول الدين] وكذا تقول في سائر الصفات، واجب الوجود: من له علم محيط بكلِّ شيء، وواجب الوجود: من لا أوَّل له، وكذا أفعاله، مثل أن تقول: واجب الوجود هو الخالق، وكلُّ واحد من الشــكِّ في قــدرة الله على البعث، والشــكِّ في إخباره ﷻ بالصدق، والشــكِّ في أنَّ البعث لحكمةٍ شركٌ. وقد قيل: إنَّه مشرك قبل قوله ذلك، ألا ترى إلى تعريض صاحبه بالشرك له إذ قال: ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّيَ أَحَدًا﴾ ونفس قوله: ﴿يَا لَيْتَنِي لَمُ اشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾.

والاســتفهام توبيخ وإنكار، وعلَّق الحكم بالخلق لمزيد القبح في إنكاره مَن هو خالق لــه، والتلويح بأنَّه كما قدر على خلقك قــدر على بعثك، وهذا أهون في بادئ الرأي، كيف لا يقدر على خلقه من يخلق الشيء إذا شاء لا من شــيء؟!. ومعنى خلقه من تراب: خلق أصله البعيد من تــراب، وهو آدم أو أصله القريب وهو مأكوله المتولِّــد من النبات المتولِّد مــن التراب، أو الدم المتولِّد من المأكول المتولِّد من النبات المتولِّد من التراب.

﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ متولِّدة من الدم المتولِّد مِمَّا ذكر ﴿ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾ أي ثمَّ سوَّاك فعدَّلك كما في سورة الانفطار [آية 7] إلى أن صرت رجلا، فإنَّ التسوية جعل الأعضاء سليمة مسوَّاة معدَّة لمنافعها، والتعديل: جعل البنية معتدلة متناسبة الأعضاء، ولعلَّ التسوية هنا تعمُّ التعديل إذ لم يذكره، أو لم يذكره هنا لذكره في سورة أخرى [الانفطار]. و«رَجُلاً» مفعول ثان لأنَّ التسوية جعل، وقيل: حال، وفي كونه رجلا زيادة دلالة على القدرة، وامتنان بالرجوليَّة.

[صرف] ﴿لَّكِنَّاْ﴾ نقلت فتحة همزة «أنا» إلى نون «لكن»، فحذفت الهمزة فالتقت النونان فأدغمت الأولى بعد إسكانها في الثانية، كما سكِّنت نون «مَكَّنَ» المفتوحة فأدغمت في نون الوقاية في قوله تعالى: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ [سورة الكهف: 95] وذلك أنَّ الهمزة تحذف بعد نقل حركتها.

فلا يقال هذه الدعوى كاللعب، هلَّا حذفت الهمزة متحرِّكة وتبقى النون على سكونها فتدغمها، ومن شأن الهمز الحذف بعد نقل حركتها، فالقاعدة حذفها بعد نقل حركتها، لا حذفها مع حركتها مرَّة واحدة، وعبارة بعض: حذفت بعد نقل حركتها ليمكن الإدغام.

[قراءات] وألف «أنا» بعد النون لا ينطق بها لعدم الهمزة المضمومة أو المفتوحة بعدها. قال بعضهم: الأصل إثبات ألف في «أنا» في الوقف وحذفها في الوصل. وفي رواية عن نافع إثباتها وقفا ووصلا، وذلك لغة تميم، وغيرهم لا يثبتها في الوصل إلَّا ضرورة، وقيل: إثباتها في الوصل غير فصيح، وإنَّه إنَّما أثبتها بعض القرَّاء هنا لشبهه بألف «نا»، ولأنَّ الألف عوض عن الهمزة المحذوفة، وقيل: إجراء للوصل مجرى الوقف، ولدفع اللبس بلكنَّ المشدَّدة، وأبو جعفر يحذفها وصلا ووقفا.

[نحو] ﴿هُوَ﴾ ضمير الشأن، وجملة قوله ﷻ: ﴿اللهُ رَبِّي﴾ خبر «هو»، والمجموع خبر المبتدأ الأوَّل، وهو «أنا»، أو هو عائد إلى «الذِي خَلَقَكَ»،

و«اللهُ رَبِّي» خبران له، أو «اللهُ» بدل من «هو» العائد إلى «الذِي خَلَقَكَ» و«رَبِّي» خبر «هُوَ»، والمجموع خبر «أنا».

ووجه الاستدراك أنَّ كون ذلك الكافر أخاه وصاحبه، وأنَّه ذو مال وشأن يوهم أنَّه يتبعه في كفره المعلوم من قوله: ﴿أَكَفَرْتَ﴾.

﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّيَ أَحَدًا﴾ العطف على قوله: ﴿اللهُ رَبِّي﴾ أو على ﴿هُوَ اللهُ رَبِّي﴾ ذلك الكافر لم يجعل أحدا شريكا لله يعبده لكن هذا المسلم رَحِمَهُ اللهُ زاد التصريح بنفيه المعلوم من الحصر في الجملة قبل هذه، أو راعى أنَّ منكر البعث بل الشاكّ فيه سوَّى بين الله وغيره في العجز، فالله شريك لغيره في العجز، وغيره شريك له فيه في زعم ذلك الكافر، وراعى جانب مشاركة أحد له فنفاها، لكن المتبادر العكس وإلَّا أوهم أنَّ الله أصل في العجز وذلك كلُّه باطل وضلال لا يعتقد.

﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ اللهُ﴾ الخبر محذوف أي ما شاء الله كائن أو يكون.

[نحو] أو حذف المبتدأ أي الأمر ما شاء الله، أو «مَا» فاعلٌ لمحذوف، أي: يكون ما شاء الله، و«مَا» موصولة، وإن جعلت شرطية قدِّر: ما شاء الله يكن، أو فهو واقع. و«لَوْلَا» تحضيض، كذا قيل، وفيه أنَّ التحضيض لِمَا يستقبل، والدخول هنا ماض، فإنَّ «إِذْ» للزمان الماضي، و«دَخَلْتَ» للماضي، إلَّا إن أوِّل ذلك بالاستقبال ـ وهو خلاف الأصل ـ فهي للتوبيخ على ما مضى لا للتحضيض. و«إِذْ» متعلِّق بـ«قُلْتَ».

[أصول الدين] والآية صرَّحت أنَّ ما أراد الله من عصيان عاص أو طاعة مطيع واقع لا كما قالت المعتزلة: إنَّ الله لا يريد المعصية. والمراد ما شاء الله من إبقاء جنَّتك والتنعيم بها وعدم ذلك، وقدَّر القفَّال[1] كذلك ـ وهو من

(1) محمَّد بن علي بن إسماعيل الشاشي المعروف بالقفَّال الكبير، إمام عصره بما وراء النهر، محدِّث مفسِّر أصوليٌّ لغويٌّ أديب. من تصانيفه: «تفسير القرآن». توفي سنة 365هـ. معجم المُفَسِّرِين، ج 2، ص 576.

المعتزلة ـ: هذا ما شـــاء الله، يعني مـــا في الجنَّتين من الثمـــار، وقال الكعبي والجبَّائي ـ وكلاهما منهم ـ: الإشـــارة إلى ما تَوَلَّىَ الله فعله، وكلٌّ ذلك معنى واحد هربوا به من أن يشاء الله عصيان العاصي، زعموا أنَّه يجوز أن يكون في ملكه ما لا يشـــاء كما يكون فيه ما نهى عنه، ويتخلَّف فيه مـــا أمر به، **وذلك باطل لأنَّ مشيئته قضاء وهو لا يتخلَّف.**

﴿**لَا قُوَّةَ**﴾ لي على التمتُّـــع بها ﴿**إِلَّا بِاللَّهِ**﴾ فإن شـــاء أثبتها وقوَّاني على التمتُّع بها، وليس كما تقول: «مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ» فإن شـــاء الله أبادها، وإن شاء أبقاها ولا تتمتَّع بها لمرض أو غصب أو موت عاجل.

قال ﷺ: «**من أعطي خيرا من أهل أو مال فقال عند ذلك: ما شاء الله لا قُوَّة إلَّا بالله لم ير فيه مكروها**»[1] ولفظ القرطبي عن أنس: «لم يضرَّه» أي لم يضرَّه الإعجاب، أي لا يصيبه عين الإعجاب. قالت أســـماء بنـــت عميس: علَّمني رسول الله ﷺ كلمات أقولهنَّ عند الكرب: «**الله ربِّي لا أشرك به شيئا**». قال أبو هريرة قال لـــي رســـول الله ﷺ: «**ألا أدلُّك على كنـــز من كنـــوز الجَنَّة تحت العرش؟**» قلت: نعم، قال: «**أن تقول: لا قُوَّة إلَّا بالله**»[2]، قال عمر بن قرَّة: من أفضل الدعاء قولك: «ما شـــاء الله»، وعن أنس عن رسول الله ﷺ: «**ما أنعم الله على عبد نعمة في أهل أو مال أو ولد، فيقول: «ما شاء الله لا قُوَّة إلَّا بالله»، إلَّا دفع الله عنه كلَّ آفة حتَّى يموت**»[3] وقرأ الآية. وعن أنس عنه ﷺ: «**من رأى ما أعجبه من ماله فقال: «ما شـــاء الله لا قوة إلَّا بالله» لم تصب ذلك المال آفة**»[4]

(1) أورده **السـيوطي** في الدر: ج 4، ص 244. وقال: أخرجه أبو يعلى وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن أنس.
(2) أورده **السـيوطي** في الدر: ج 4، ص 246. وقال: أخرجه أبو يعلى وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن أنس.
(3) أورده **السيوطي** في الدر: ج 4، ص 245. وقال: أخرجه ابن أبي شيبة وأحمد عن أبي ذر.
(4) أورده **السيوطي** في الدر: ج 4، ص 246. وقال: أخرجه ابن أبي حاتم عن أنس.



وقرأ الآية. وجاء الأثر أنَّه يقال ذلك عند رؤية ما يعجبه في بدنه أو ماله أو ولده أو فيما لغيره حفظا عن العين.

﴿إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ استدلَّ بعض بذكر الولد هنا على أنَّ النفر هنالك الأولاد. والرؤية بصريَّة و«أَنَا» توكيد لياء المتكلِّم المدلول عليها بنون الوقاية، و«أَقَلَّ» حال، أو عِلمِيَّة و«أَنَا» توكيد كذلك، أو فصل و«أَقَلَّ» مفعول ثان.

[نحو] وضمير الفصل حرف لا محلَّ له من الإعراب وسمِّي ضميرا باعتبار أصله وكونه ضميرا تأكيدًا أوْلَى، لأنَّ ضمير الفصل يستعمل في الحصر، ومعنى الحصر هنا بعيد، إذ معناه: إن ترن أنا أقلَّ مالا لا أنت أقلَّ مالا. ووجهه كونها بصريَّة مع أنَّ القلَّة لا تُبصَر اعتبارُ متعلَّقها وهي الأولاد والأموال، لأنَّهم يبصَرون.

﴿فَعَسَىٰ رَبِّيَ أَنْ يُّوتِيَنِي﴾ في الدنيا والآخرة، وقيل: في الدنيا وهو الظاهر، والجملة جواب الشرط، والمعنى: فأنا أرجو أن يقلب حالك للفقر وحالي للغنى لإيماني وكفرك، وقدَّر بعض: فلا بأس، أو لم يضرَّني قلَّة المال والولد ﴿خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ المراد: جنَّتان على حدِّ ما مرَّ، واقتصر على ذكر الجنَّة لأنَّها أعزُّ أموال ذلك المفتخر، أو المراد بالجنَّة مطلق ما يتمتَّع به، فيتناول الأموال كلَّها والأولاد، ولم يذكر الأولاد اكتفاء مع إرادتها، أو لكون الافتخار بالمال أكثر، وإمَّا لأنَّه لا قصد له في الأولاد، وإمَّا لأنَّ له من الأولاد ما يكفيه، أو لأنَّ المراد بالخير الأولاد والجنَّة فهما معا خير من جنَّة الكافر، **وهو وجه ضعيف**، أو لأنَّه أراد الآخرة ولا ولادة فيها، ويبحث بأنَّه جاء أنَّه من طلبها في الجنَّة كانت له.

﴿وَيُرْسِلَ﴾ لكفرك ﴿عَلَيْهَا﴾ أي على جنَّتك، المراد بها جنَّتان على حدِّ ما مرَّ ﴿حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَآءِ﴾ مرامي، جمع حسبانة، أو اسم جمع، وهي

الصواعق التي هي قطع من النار، أو أصله سهام صغار ترمى في القسي الفارسية، سمِّيت حسبانا لكونها تعدُّ ويرمى بها جملة، وكذلك الصواعق تعدُّ وتحسب لأهلها، وقال أبو بكر الأصم[1]: عذابا على حساب ما عملوا. ويقال: أصاب الأرض حسبان أي جراد، أو شبَّه الصواعق بتلك السهام أو الجراد تشبيه الأعلى بالأدنى اعتبارا لتقريب الإفهام.

أو الحسبان: مصدر كالغفران والبطلان، إمَّا على معنى مفعول، أي شيئا مِمَّا يعدُّ من العذاب المترتِّب على الكفر، أو على معنى أنَّا لم نهملها عن حسابه عليها، وكأنَّه قيل: أنزلنا عليها مقتضى الحساب الأزلي، وهو تخريبها، أو على معنى الحساب على الأعمال بقدرها، ثمَّ إنَّه لا يخفى أنَّ التخريب لازم للحساب ومسبّب له في الجملة. والمرامي: جمع مرماة، وهي ما يرمى به.

وهذا المؤمن دعا على صاحبه بزوال جنَّتيه بالصواعق دفعة، أو بزوالهما تدريجا بإذهاب النهر المفجَّر بينهما، ودعا أن يعطيه الله أفضل مِمَّا أعطاه. ﴿**فَتُصْبِحَ**﴾ العطف على «يُوتِيَنِي». والحسبان: ما يترتَّب عليه الزلق والغور كالحكم الإلهي بالتخريب، وليس كلُّ ما يترتَّب عليه الزلق يترتَّب عليه الغور، أو العطف على «يُرْسِلَ»، فيجوز عليه أن يفسَّر الحسبان بكلِّ ما أمكن من الأوجه، أي تصير، أو يرسل عليها ذلك ليلة فتصبح في يومها، وقد قيل: إنَّ الآفات السماويَّة أكثرها يطرق ليلا ﴿**صَعِيدًا**﴾ ترابا أو أرضا ﴿**زَلَقًا**﴾ يزلق عليها لا يجد ما يتعلَّق به من شجر ونخل لانحطاطها إلى الأرض فوق عروشه، والزلق مصدر وصف به للمبالغة، أو لتأويله بمفعول، أي: مزلوقا فيه، بمعنى: من شأنه أن يزلق فيه.

---

(1) هو يوسف بن محمَّد الكردي المتوفَّى سنة 1002هـ الشهير بالأصم، فقيه شافعيٌّ مفسِّر، له «منقول التفاسير» في تفسير القرآن. معجم المفسِّرين، ج 2، ص 749.

﴿**أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا**﴾ مصدر أخبر به عن الذات وهي الماء مبالغة، كأنَّه نفس الغور، وهو ذهاب الماء إلى داخل الأرض، أو يقدَّر بغائر أو بذا غور، أو يصبح شأن مائها غورا، وإن لم نجعل لـ«يُصْبِحَ» خبرا فيكن المنصوب حالا فكذلك لأنَّ الحال خبر معنوي عن صاحبه. ﴿**فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا**﴾ أي يذهب على وجه لا قدرة لك معه على ردِّه، وقيل: الهاء لمطلق الماء الذي لا بدَّ للجنَّة منه وإلَّا ضاعت، فيكون ذلك استخداما، ومعنى نفي استطاعة طلب الماء نفي استطاعة الوصول إليه، فإنَّ ما لا يستطاع لا يطلب، وغير الممكن لا يطلب.

وهنا تمَّ كلام الصاحب المؤمن، وأخبرنا الله لاستجابة دعائه في قوله: ﴿**وَأُحِيطَ بِثُمُرِهِ فَأَصْبَحَ**﴾ بعد الليل أو صار ﴿**يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا**﴾ إلَّا أنَّه تعالى لم يخبرنا أنَّه أهلكها بالحسبان، أو بإغارة الماء، ويتبادر أنَّه أهلكها بالصاعقة لقوله: ﴿**وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا**﴾ أي ساقطة على عروشها الساقطة على الأرض بأن تسقط عروشها أوَّلا، فتسقط ثانيا عليها؛ أو «على» بمعنى «مع». والعروش: ما يجعل للشجر يعمد عليه، وخصَّ الأعناب بالذكر لأنَّها أعظم عنده من التمر والزرع، ولأنَّه بحسب الظاهر إذا سقطت ولها معتمد فأولى أن يسقط ما لا عريش له، أو لأنَّ الإنفاق عليها أعظم من الإنفاق على الزرع والنخل.

[بلاغة] وتقليب الكفَّين كناية عن الندم؛ لأنَّ النادم يفعل ذلك تحسُّرا، يكرِّر جعل ما بطن من يده إلى جهة الأرض ثمَّ إلى جهة السماء، أو يضع باطن إحداهما على ظهر الأخرى ويعكس. والتكرير مأخوذ من التشديد، وهو يفيد المبالغة أيضا، ولو في مرَّة، ومأخوذ من حال النادم، كما تقول: الإنسان يأكل ويشرب. و«عَلَى» لتضمُّن التقليب معنى الندم، أو للتعليل، أي لأجل ما أنفق عليها بالشراء وبالإصلاح بعد الشراء، وما تقوم به.

[بلاغة] ومعنــى الإحاطة بثمره إهلاك ثماره التي فــي الجنَّة، أو إهلاك أمواله، وفي «أُحِيطَ بِثُمُرِهِ» استعارة تمثيليَّة بأن شــبَّه هيئة توجُّه الإهلاك إلى أمواله واستئصالها به من حيث لا يدري بهيئة توجُّه العدوّ على غفلة إلى قوم مــن كلِّ جهة والإيقاع بهم واســتئصالهم، وذلــك هو ما حــذَّره منه صاحبه المؤمن، ولم يلق له بالا، أو ذلك على الاستعارة التبعيَّة أو الكنائيَّة.

و«مَا» اســم موصول، أو نكرة موصوفة، أي على ما أنفقه في شــأنها، أو مَصدَريَّة، أي على إنفاقه في عمارتها. ووجه ندمه على ما أنفق أو على الإنفاق أنَّ الندم على الفعــل الاختياريِّ لا على ذات الشــيء، وأنَّــه أنفق طمعا في بقائها، ولو علم أنَّها لا تبقى لادَّخَر ما صرف فيها، وقوله: «أَصْبَحَ» يناسب أنَّ الإهلاك بمرَّة، بآفة سماويَّة أو أرضيَّة لا بتدريج كتيبُّس شيئا فشيئا.

[نحو] ﴿**وَيَقُولُ**﴾ عطــف على «يُقَلِّبُ»، ولا حاجــة إلى جعله حالا من ضميــر «يُقَلِّبُ» لاحتياجه إلى الحمــل على القلَّة من مجــيء المضارع حالا مقرونا بالــواو مثبَتا، أو بناء على القول بقياســه، أو تقديــر مبتدأ يكون معه حالا، أي: وهو يقول.

﴿**يَا لَيْتَنِي**﴾ تنبيه، أو يا صاحبي ليتني ﴿**لَمُ اشْــرِكْ بِرَبِّيَ أَحَدًا**﴾ علم أنَّه أُتي من شركه، يحتمل التوبة النصوح إذ لا يمنع قبول التوبة عند مشاهدة شدَّة دُنيَوِيَّة، ويحتمل توبة غير خالصة، أو مجرَّد ندم لِمَا شاهد من الشدَّة المترتِّبة على شركه.

ولا شــكَّ أنَّ قوله: «لو لم أشــرك بربِّي أحدا لم تهلك جنَّتــي يا ليتني لم أشــرك فتبقى» ليس إســلاما، فقد يقول: أمَا إذ هلكت ففاتت فــلا حاجة إلى توحيد مع ذهابها فيصرُّ مغاضبــة لله ﷻ، فذلك كقوله ﷻ: ﴿فَــإِذَا رَكِبُواْ فِي الْفُلْكِ دَعَوُاْ اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [سورة العنكبوت: 65] وقصَّة سورة «نون» أقرب إلى التوبة إذ قالوا: ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَآ﴾ [سورة القلم: 29] وَقَالُواْ: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ [سورة القلم: 32] **وليس قوله ذلك ندما عن المعصية بل لأجل ما أصابه بها.**

وأمَّا قوم يونس فالعقوبة الآتية لهم لا تردُّ عن مثلهم؛ لأنَّها إهلاك أبدانهم، فهي أخرويَّة كمشاهدة الموت، وخصُّوا بقبول التوبة، وقيل: قوله: ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ اشْرِكْ بِرَبِّيَ أَحَدًا﴾ حكاية لِمَا يقول الكافر يوم القيامة.

﴿**وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا**﴾ لا طائفة تنصره بدفع إهلاك جنَّته أو بردِّها بعد هلاكها، أو بتعويض مثلها، ولا قدرة له على الانتصار لنفسه بشيء من ذلك، لا يقدر على ذلك إلَّا الله، والله لا يريد فعل ذلك له فلا ينال ذلك.

﴿**هُنَالِكَ**﴾ أي في مقام إعزاز وليِّ الله وإذلال عدوِّه، وهو خبر لقوله: ﴿**الْوَلَايَةُ**﴾ أي النصرة، أو التولِّي للأمر والغلبة ﴿**لِلهِ الْحَقِّ**﴾ حال من المستتر في «هُنَالِكَ» ينصر الله من قضى بنصره ويذلُّ من قضى بذلِّه ولا يتخلَّف ذلك ﴿**هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا**﴾ على الأعمال الصالحة في الآخرة ﴿**وَخَيْرٌ عُقُبًا**﴾ يعقب الإنسان في الدنيا بما فاته بردِّه أو بمثله، أو ثوابا في الدنيا وعقبى في الآخرة.

ويبعد أن تكون الإشارة للآخرة إذ لم يجر لها ذكر، وذكر بعض أنَّه يناسبها قوله تعالى: ﴿خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقُبًا﴾ وأنَّه كقوله تعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلهِ الوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [سورة غافر: 16]. وجاز تعليق «هُنَالِكَ» بـ«مُنتَصِرًا» فيكون الإشارة لذلك المقام ويكون «الْوَلَايَةُ» مبتدأ و«لِلهِ» خبره.

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿45﴾ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿46﴾﴾

ضرب مثل للحياة الدنيا

﴿**وَاضْرِبْ لَهُم**﴾ أي للمشركين المتكبِّرين القائلين: اطرد المؤمنين الفقراء نجالسك نحن ﴿**مَثَلَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا**﴾ أي اذكر لهم ما تشبهه الدنيا كلُّها، وذلك تشبيه لها ببعضها في السرعة وزوال زينتها كما قال: ﴿**كَمَآءٍ اَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الَارْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ**﴾ خبر لمحذوف تقديره: ذلك الذي أشبهته كماء... إلخ.

ودخل بالكاف غير ذلك من الأمثلة، مثل أن تقول: كريح أو كظلٍّ أو كسحابة. أو «اضْرِبْ»: بمعنى صيِّر، فيكون «كَمَاءٍ» مفعولا ثانيا، ويكون المراد: اضرب مثلا في الغرابة. والباء للسببيَّة، أي اتَّصَلَ النبات بعضه ببعض لسبب الماء إذ نما به، وازداد كلُّ نبات إلى جهة الآخر.

أو المعنى: اختلط الماء بنبات الأرض ونفذ فيه فازداد نضارة، فتكون الباء للتعدية، لكن عكست العبارة لأنَّ كلًّا من المختلطين يصدق عليه أنَّه مختلط بالآخر، وذلك مبالغة، كأنَّه جاء النبات إلى الماء، لأنَّ المتعارف دخول الباء على الكثير غير الطارئ، كما إذا كان الماء كثيرا وخلطت إليه شيئا من اللبن، تقول خلط اللبن بالماء، وفي العكس خلطت الماء باللبن.

[بلاغة] وهناك حذف تقديره: «فمضت مدَّة فَأَصْبَحَ هَشِيمًا»، أي فصار في أيِّ وقت ـ لا خصوص الصباح ـ يابسا مهشوما مكسورا تطيِّره الرياح، والمشبَّه به ليس الماء ولا حاله بل كَيفِيَّة منتزعة من المشبَّه والمشبَّه به، فالمشبَّه الكَيفِيَّة التي انتزعت من أمور الدنيا وهي حالها، والمشبَّه به الكيفيَّة المنتزعة من النبات وأحواله.

والمراد: تشبيه حال الدنيا في نضرتها وما يعقبها من الفناء بحال النبات الحاصل من الماء، يكون شديد الخضرة يتعجَّب منه الناظرون، ثمَّ يصير حطاما كأن لم يغن بالأمس، [قلت:] وقد تقرَّر أنَّه يجوز التشبيه بمفروض غير واقع فيجوز أن يكون المعنى: تشبيه حال الحياة الدنيا بحال نبات أخضر بماء، فييبس من حينه بلا مضيٍّ مدَّة فلا يقدَّر قولك: ومضت مدَّة، ويجوز أن يكون في «اخْتَلَطَ» ضمير الماء أي كثر وعمَّ فـ«بِهِ» خبر و«نَبَاتُ» مبتدأ ﴿**وَكَانَ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا**﴾ قديرا جدًّا أي كامل القدرة[1].

﴿**الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا**﴾ يتزيَّن الإنسان فيها بالمال والبنين، ويقربهم الزوال، وذلك كما افتخر صاحب الجنَّتين، وقدَّم المال مع كون الأولاد أعزَّ ـ قيل عند أكثر الناس ـ لعراقته في الزينة والإمداد وغير ذلك، ولعمومه في الأوقات وفي الآباء والأولاد، وليس كلُّ أحد يتمنَّى الولد ولأنَّ الحاجة إليه أمسُّ منها إليهم، ولأنَّه أقدم منهم وجودا، ولأنَّه زينة مع عدمهم أيضا، ولا زينة بهم مع الفقر، وَلَكِنَّ أكثر الناس لو خيِّروا بين سلامة أولادٍ وُجِدُوا ومالٍ لاختاروا سلامتهم وفقْدَ المال، عافانا الله ﷻ.

﴿**وَالْبَاقِيَاتُ**﴾ الأعمال الدائمة الثواب ﴿**الصَّالِحَاتُ**﴾ كالصلوات الخمس والحجِّ والعمرة وصوم رمضان وطلب العلم والتعليم، ونحو ذلك **وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلَّا الله والله أكبر ولا حول ولا قُوَّة إلَّا بالله**

(1) وذلك لأنَّ من معاني صيغة افتعل المبالغة في المعنى، كاكتسب أي بالغ في الكسب.

العليِّ العظيم وسائر الأذكار، والكلام الطيِّب وسائر الحسنات ولا سيما ما يستمرُّ **كالصدقة الجارية والتعليم**، قال ﷺ لجلسائه: «**خذوا جُنَّتكم**» قالوا: أحَضَر عدوٌّ؟ قال: «**جُنَّتكم من النار قولوا:** «**سبحان الله والحمد لله ولا إله إلَّا الله والله أكبر ولا حول ولا قُوَّة إلَّا بالله العليِّ العظيم**» **فإنَّهنَّ المقدِّمات وهنَّ المعقِّبات، وهنَّ الباقيات الصالحات**»[1] رواه أنس. قال ﷺ: «**إن عجزتم عن الليل أن تكابدوه، وعن العدوِّ أن تجاهدوه، فلا تعجزوا عن قول:** «**سبحان الله والحمد لله ولا إله إلَّا الله والله أكبر**»**، فقولها فإنَّها الباقيات الصالحات**»[2] وكذلك روى أبو سعيد الخدري، وأبو الدرداء عنه ﷺ: «**إنَّ الباقيات الصالحات سبحان الله...**»[3]. زاد أبو الدرداء مرفوعا قوله: «**وهنَّ يحططن الخطايا كما تحطُّ الشجرة ورقها، وهنَّ من كنوز الجنَّة**»[4]، وكذا روى ابن عَبَّاس بدون: «ولا حول ولا قُوَّة»، وعنه: الصلوات الخمس، وعنه: **جميع الأعمال الصالحات**، وعن قتادة: كلُّ ما أريد به وجه الله تعالى، وعن الحسن: النيات الصالحات.

﴿**خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ**﴾ من المال والبنين والجاه وسائر منافع الدنيا، ومعنى ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ في حكمه، أو في الآخرة ﴿**ثَوَابًا**﴾ أجرا ﴿**وَخَيْرٌ اَمَلاً**﴾ لأنَّ صاحبها يأمل بها خير الدنيا وخير الآخرة، وكرَّر لفظ «خَيْرٌ» للمبالغة ولاختلاف جهتي الخير.

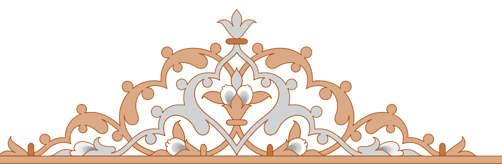
---

(1) رواه **الحاكم** في مستدركه، كتاب الدعاء: ج 1، ص 725، رقم 195 (185). ورواه **المنذري** في الترغيب في التسبيح والتكبير: ج 2، ص 432، رقم 33. من حديث أبي هريرة.

(2) أورده **السيوطي** في الدر: ج 4، ص 284. وقال: أخرجه ابن مردويه عن أبي هريرة.

(3) أورده **السيوطي** في الدر: ج 4، ص 247. وقال: أخرجه ابن أبي شيبة وابن المنذر عن ابن عبَّاس.

(4) أورده **السيوطي** في الدر: ج 4، ص 247. وقال: أخرجه الطبراني وابن شاهين في الترغيب في الذكر وابن مردويه عن أبي الدرداء.



﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿47﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿48﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿49﴾﴾

بعض أهوال يوم القيامة وحال المجرمين فيها

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ﴾ ظرف لـ«نقول» محذوفا ناصبا لقوله: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ أو مفعول لـ«اذكر» محذوفا، أو معطوف على «عِندَ» أي خير عند ربِّك في الدنيا يثيبك عليها في الدنيا بما هو دنيوي وزيادة ما هو ديني.

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ﴾ أي يوم القيامة، وتسيير الجبال إمرارها كإمرار السحاب إلى حيث شاء الله بعد جعلها كالرمل الهائل، وفي الخفَّة كالصوف المندوف، أو في لون ما صبغ فإن كانت تغيب في الأرض قلعت وفعل بها ذلك؛ أو تسييرها: تفريقها بعد ذلك كالهباء، وعبارة بعض: إنَّها تنفصل أوَّلاً عن الأرض وتسير في الجوِّ ثمَّ تسقط وتصير ﴿كَثِيبًا مَّهِيلاً﴾ [سورة المزمل: 14] ثمَّ ﴿هَبَآءً مُّنبَثًّا﴾ [سورة الواقعة: 6].

﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ ظاهرة من تحت الجبال ومن كلِّ ما يستر بعضها من كدية أو جبل أو بناء أو شجر أو بحار أو غيرها، وتسويتها كالصفحة البيضاء المنبسطة ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ﴾ إلى الموقف، وصيغة الماضي لتحقُّق الوقوع، وكذلك يتحقَّق التسيير ورؤية الأرض بارزة، لَكِنَّ الحشر أحقُّ بذلك لأنَّه أكثر ذكرا في

إنكار المشـــركين؛ أو صيغـــة الماضي للدلالة على أنَّ الحشـــر قبل التســـيير، ليشـــاهدوا ما وعد لهم من التســـيير للجبـــال وظهور الأرض وغيـــر ذلك من الأهوال، على أنَّ الواو للحال قبل «قدْ» المقدَّرة؛ وقيل: ذلك قبل البعث، وقيل: التسيير والبروز عند النفخة الأولى وفساد العالم، والحشر عند الثانية.

﴿**فَلَمْ نُغَادِرْ**﴾ نترك، ومنه الغدر بمعنى ترك الوفاء بما وعد به، أو ترك الوفاء بما اعتيد، ومنه غدير الماء لذهاب الســـيل عنه ﴿**مِنْهُمْ أَحَدًا**﴾ أي من المشركين المنكرين للبعث وفيهم الكلام، كما قال: ﴿بَـلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ ولو كان البعث لكلِّ ذي روح: الملائكة والجنِّ والإنس وسائر ما فيه الروح.

﴿**وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا**﴾ ليحاســـبهم ويأمر فيهـــم وهو عالم بهم ولا يتخلَّف أحد عنه، ولا عن البعث بل حتَّى الســـقط، كمـــا يعرض الجند على الملك ليعرفهم أو يأمر فيهم؛ وقيل: اســـتعارة تمثيليَّة. والماضي هنا وفي «لَمْ نُغَادِرْ» كالماضي في «حَشَـــرْنَاهُمْ». و«صَفًّا» حال، وهـــو مصدر مبالغة، وهو مصدر كأنَّهم نفس الاصطفاف، أو مصدر يستعمل من يصطف، أو ذوي صفٍّ أي اصطفاف، أو صافِّين أو مصفوفين، وهو حال من واو «عُرِضُوا».

والمراد: صفوف لا صفٌّ واحد، كما قال ﷺ: «**يجمع الله الأوَّلين والآخرين في صعيد واحد صفوفا**»[1] وقال ﷺ: «**أهل الجنَّة مائة وعشـــرون صفًّا أنتم منها ثمانون صفًّا**»[2] وعن معاذ بن جبل أنَّ النبيء ﷺ قال: «**إنَّ الله تعالى ينادي يوم القيامة: يا عبادي أنا الله لا إله إلَّا أنا، أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين وأسرع الحاســـبين، أحضروا حجَّتكم ويسِّـــروا جوابا فإنَّكم مســـئولون محاســـبون، يا ملائكتي أقيموا عبادي صفوفا على أطراف أنامل أقدامهم للحساب**»[3].

(1) أورده **القاضي عياض** في كتاب الشفا: ج 1، ص 324. و**أبو عوانة** في مسنده، ج 1، ص 172.
(2) رواه **أحمد** في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، رقم 40100، من حديث ابن مسعود.
(3) أورده **السيوطي** في الدر: ج 4، ص 249، وقال: أخرجه ابن منده في التوحيد عن معاذ بن جبل.

وقيل: تقام كلُّ أمَّة صفًّا، وقيل: الخلائق صفٌّ واحد، وهو أبلغ في القدرة، وعليه فتارة يكونون صفًّا كظاهر الآية وتارة صفوفا، وقيل: معنى الصفِّ هنا القيام، كقوله تعالى: ﴿فاذْكُرُواْ اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ﴾ [سورة الحج: 36].

﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ جئتم إلى محلٍّ لا حكم فيه لغيرنا، والخطاب للكفَّار ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ مقول لقول مقدَّر مستأنف، أي نقول: «لَقَدْ جِئْتُمُونَا»، أو مقول لقول مقدَّر قبل ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ﴾ كَمَا مَرَّ، أو حال من واو «عُرِضُوا» وقد قيل لهم: «لَقَدْ جِئْتُمُونَا». والمعنى: كما خلقناكم أوَّل مرَّة بلا لباس ولا مال ولا ولد ولا ناصر، كما قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُم...﴾ [سورة الأنعام: 94] وأحياء بعد عدم حياة، وبلا نقص واحد منكم عن البعث.

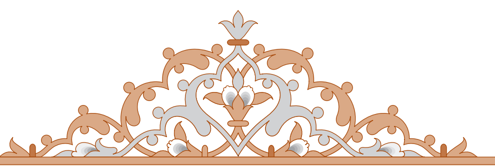
[قلت:] والتحقيق أنَّ الكاف توصل الحدث إلى مدخولها فهي متعلِّقة، لا كما قيل: إنَّها لا تتعلَّق كالحرف الزائد، فهي متعلِّقة بـ«جِئْتُمُونَا» أو بمحذوف نعت لمفعول مطلق، أي مجيئا ثابتا كخَلْقِنا لكم.

﴿بَلْ﴾ للإضراب الانتقالي من قصَّة إلى أخرى هي أهمُّ منها، وهي تقريع الكُفَّار بتصديق الرسول ﷺ ﴿زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ وقت وعد للبعث فيه لا نخلفه، أو وعد البعث لا يخلفه بل جعلناه لكم كما أخبركم الرسول ﷺ وهو صادق سيظهر لكم صدقه، و«أَنْ» مخفَّفة واسمها ضمير الشأن، أو يقدَّر: إنَّا لن نجعل، أو إنَّكم، وكذا غيركم لن نجعل لهم.

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ «ال» للحقيقة، فيصدق بالكتب، أو للاستغراق على إرادة التقريع بأن كتبكم كلّها تحضر فتحاسبون بما فيها لا يفوتنا كتاب أحد، وذلك كتب الأعمال توضع في الأيمان للسعداء وفي الشمائل للأشقياء، أو تكتب الأعمال كلُّها في كتاب واحد ولكلِّ أحد كتاب مفرد أيضا، أو ذلك كناية عن وضع الحساب.

﴿**فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ**﴾ المعاندين لـك، أو مطلق المجرمين، فيدخل هؤلاء بالأولى ﴿**مُشْفِقِينَ**﴾ مضطرِّين خائفين ﴿**مِمَّا فِيهِ**﴾ من الذنـوب ﴿**وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا**﴾ يا هلكتنـا، اللفظ لفظ نـداء هلكتهم لتحضر لوقتهـا الحاضر، والمراد: التفجُّع، شُبِّهت بإنسـان يطلب إقباله ورمز بلازمه وهو النداء، فذلك استعارة مكنيَّة تخييليَّة، وقيل: المنادى محذوف، أي: يا من بحضرتنا. و«ويل» مفعول مطلق لمحذوف أي هلكنا، ﴿وَيْلَتَنَا﴾: أي هَلْكَتَنَا. ﴿**مَالِ هَذَا الْكِتَابِ**﴾ كلُّ أحد يقول في شـأن هلاكـه بالذنوب التـي رآها في كتابه وشـأن كتابه: ﴿يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ﴾ وفصلت اللام في الخطِّ إشارة إلى أنَّ المجرمين لشـدَّة الكرب يقفون على بعض الكلمة بل على كلمة لا تتـمُّ إلَّا بما بعدها. والاسـتفهام تعجيبيٌّ ﴿**لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً**﴾ فعلة صغيرة مـن الذنوب ﴿**وَلَا كَبِيرَةً**﴾ فعلة كبيرة منها، والفعلة تشمل الاعتقاد وترك الواجب. قيل: الصغيرة كالمـسِّ، والكبيرة كالزنـى، وقيـل: الصغيرة كالتبسُّـم عنـد المعصية، أو بالاستهزاء بالمسـلم، والكبيرة كالضحك، **والمسُّ عندنا كبيرة**، ولا إثم على من تبسَّم أو ضحك ضرورة ﴿**إِلَّا أَحْصَاهَا**﴾ عدَّها وأحاط بها، سرَّها في الدنيا أو أعلنها، في حقِّ الله أو في حقِّ المخلوق، من الفروع أو الأصول.

﴿**وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ**﴾ من الذنـوب أو جزاء ما عملوا ﴿**حَاضِرًا**﴾ لم يغب منه شيء، كلُّه مكتوب، ولم يجدوا حسنة من حسناتهم لأنَّها أحبطت بالشرك ﴿**وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا**﴾ لا يتعدَّى فيه بزيادة شـيء من الذنوب لم يفعله، أو بزيادة على عذاب يستحقُّه، وإحباط حسناته إنَّما هو بإشراكه في الدنيا.



﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ اِسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ اَلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنَ اَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِيسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا (50) مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ اَلسَّمَٰوَٰتِ وَالَارْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ اَلْمُضِلِّينَ عَضُدًا (51) وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ اَلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا (52) وَرَءَا اَلْمُجْرِمُونَ اَلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا (53)﴾

النهي عن اتباع إبليس وأعوانه

﴿**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَآئِكَةِ**﴾ كلِّهم، وقيل: ملائكة الأرض، وقيل: الملائكة غير المهمِّين ﴿**اسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُواْ**﴾ كلُّهم ﴿**إِلَّآ إِبْلِيسَ**﴾ السجود لآدم خضوع له وتعظيم، أو كسجود الصلاة لله تعالى لكن إلى جهة آدم وهو قبلة لهم، وفيه تعظيم له أيضا.

واستثناء إبليس متَّصل، لأنَّه قيل: إمَّا ملك خلق من نار ثمَّ نسخ إلى صورته الجنِّيَّة وعقب، ولو نسخ بخلاف سائر ما نسخ فإنَّه لا يعقب، بل يخلق الله ﷻ مثله، وهذا القول ضعيف، وإمَّا لأنَّه ولو لم يكن منهم إلَّا أنَّه نشأ فيهم وكساه كسوتهم، كأنَّه واحد منهم.

وهو أوَّل الجنِّ وأبوهم وقيل: كان الجنُّ قبله وولد منهم، عصوا الله بعد العبادة فأمر الله الملائكة فقاتلوهم وطردوهم إلى البحور والشعاب، وقيل: كان مع الملائكة وكان رئيسهم لاجتهاده في العبادة أكثر منهم، وما ترك موضع شبر في السماوات والأرض إلَّا سجد فيه، والواضح أنَّ الاستثناء منقطع.

وكرِّرت قصَّة أمره بالسجود لآدم في مواضع بحسب ما يناسب كلَّ موضع، فهنا ذكر ليشير إلى أنَّ صاحب الجنَّتين متَّبع لإبليس في تكبُّره وكفره ورغبته في الدنيا، وأنَّ صاحبه المؤمن متَّبع لآدم والملائكة في طاعة الله والاتِّضاع والزهد، وهكذا سائر ما يُكرَّر في القرآن، وفي تكرير قصَّة السجود تذكيرٌ لنا بعدوِّنا القديم لئلَّا نغفل.

[أصول الدين] والملائكة كلُّهم معصومون، وزعم بعض أنَّ ملائكة الأرض غير معصومين وأنَّ إبليس منهم.

﴿**كَانَ مِنَ الْجِنِّ**﴾ حال بإضمار «قد»، أو استئناف لبيان أنَّه ليس من الملائكة وأنَّه لو كان منهم لم يعص لأنَّهم معصومون، وقيل: الجنُّ نوع من الملائكة يمكن منهم العصيان، وهو قول باطل، وزعم بعض أنَّ الجنَّ في الآية ملائكة يصوغون الحليَّ لأهل الجنَّة.

﴿**فَفَسَقَ**﴾ بسبب كونه من الجنِّ لأنَّ العطف على «كَانَ...»، وقيل: الفاء تعليل لقوله: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ وعندي يجوز كون الفاء سببيَّةً ولو بلا عطف، وإباؤه من السجود يعتبر سببا لاتِّصافه باسم الفسق، أو هو سبب لِسَائِرِ فسقه بعدُ ﴿**عَنَ اَمْرِ رَبِّهِ**﴾ خرج عنه لأنَّه غير ملك كما يعصي الآدمي، وكما يعصي الجنُّ بل يعصي جلُّهم، وأُمِرَ بالسجود في جملة الملائكة فلم يسجد، وأَمْرُ الملائكة ونهيهم أَمْرٌ له ونهيٌ له إذ كان مغمورا فيهم. و«عَنْ» للمجاوزة على أصلها، لأنَّ المعنى: مائل عن أمر ربِّه ومعرض عنه، ولا حاجة إلى جعلها سَبَبِيَّة، وإلى أنَّ الأمر بمعنى المشيئة، لأنَّ المشيئة لله لَا تتخلَّف وكذا إرادته، والتحقيق أنَّه تخلَّف عَمَّا أُمِرَ به وعصى.

فـ«أَمْرِ رَبِّهِ» بمعنى ما أُمِرَ به من السجود، نعم يجوز على خلاف الأصل أنَّها سببيَّة، وأنَّ مشيئته التي فسَّرنا بها أمر ربِّه مشيئته التي بمعنى القضاء، وهي التي ذكرت أنَّها لا تتخلَّف، أي فسق بسبب قضاء الله ﷻ عليه بالخذلان.

﴿**أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ**﴾ أي المشركين منهم، وأمَّا المؤمنون فليسوا في هذا المقام، ولا يدعون إلى عبادة غير الله، ومن عبده فقد ضلَّ وحده ﴿**أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي**﴾ أتجهلون عداوته فتتَّخذونه؟ أو أتكفرون نِعَمِي فتتَّخذونه وذرِّيَّته أولياء بدلا منِّي؟ وتطيعونهم بدل طاعتي؟ أو الذرِّيَّة: أتباعه مطلقا من الجنِّ والإنس تسميةً للكلِّ باسم البعض.

قيل: إبليس لم يتزوَّج ولم يلد وإنَّما الجنُّ والشياطين مِمَّن قبله، وقيل: كان ملكا وَلَمَّا عصى مسخ وجعل يتزوَّج، وقيل: يُدخل ذنبه في دبره فيلد فيبيض وتفلق البيضة عن شياطين[1]، وهو قوله تعالى: ﴿وَذُرِّيَّتَهُ﴾ وهو الصحيح، والمانع يقول: **ذرِّيته أتباعه كما يقال للأتباع الإخوان**، ولا يولد آدميٌّ إلَّا ولد معه شيطان يقرن به.

[قصص] ويقال: ولد خمسة: «تبر» وهو صاحب المصائب، و«الأعور» وهو صاحب الزنى، و«راسم» يدخل مع الرجل الذي يدخل بيته ولم يسلم ويأكل معه إذا لم يسمِّ، و«مسوط» وهو صاحب الصخب، وقيل: صاحب أخبار الكذب يلقيها على أفواه الناس، و«زلينور» وهو الذي يفرِّق بين الناس ويبصر الرجل عيوب أهله، وقيل: صاحب الأسواق. ويقال: إنَّ جميع ذرِّيَّته من خمس بيضات، ويجتمع على المؤمن الواحد أكثر من ربيعة ومضر.

ويجوز أن يراد بالذرِّيَّة أولاده وأتباعه جمعا بين الحقيقة والمجاز أو حملا على عموم المجاز.

﴿**وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ**﴾ في الدين والدنيا، والمعنى: والحال أنَّهم أعداء لكم كما أنَّهم أعداء لله، وذلك كفر لنعمة الله وصداقة لأعدائه ﴿**بِيسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً**﴾ من الله، والمخصوص بالذمِّ محذوف تقديره: إبليس وذرِّيَّته، وهم

---

(1) ذكر الشيخ هذه القصص بلفظ «قيل» «ويقال». ولا حاجة إلى التذكير بأنه لا يجب اعتقاد شيء غيبي بلا نص يقيني. والفقرات الثلاث ليست موجودة في مسودة المؤلف.

مخلوقون خلقهم الله وليسوا خالقين للسماوات والأرض ولا لأنفسهم، فكيف يستحقُّون العبادة؟ وعرَّض لذلك بقوله:

﴿**مَآ أَشْهَدتُّهُمْ**﴾ ما أحضرتهم، أي إبليس وذرِّيَّته ﴿**خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالَارْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ**﴾ حين خلقت ذلك فاللفظ لنفي إحضارهم، والمعنى: لكون الله الخالق لا هم، فكيف يعبدون؟ أو ليسوا مِمَّن يبالَى بهم فكيف أحضرهم عند خلق السماوات والأرض وخلق أنفسهم؟ فهذا تعريض بحقارتهم هم لا يعتبرون إلَّا بالانتقام منهم ولا يتقوَّى بهم، والله كامل القُوَّة لا يتقوَّى بهم ولا بغيرهم.

وإن قلت: حضور الشيء لنفسه قبل وجوده محال فكيف قال: ولا خلق أنفسهم؟ قلت: المعنى ولا أشهدت بعضا منهم موجودا لخلق بعض منهم غير موجود، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ﴾ [سورة النساء: 29]، أو ما أحضرت بعضا خلق بَقِيَّة جسده.

﴿**وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا**﴾ كعضد اليد أتقوَّى به، يقال: عَضَدَهُ قوَّاه، و﴿الْمُضِلِّينَ﴾: إبليس وذرِّيته، من وضع الظاهر موضع المضمر ليعيب عليهم بذكر الإضلال، فهم سفهاء مناقضون لِمَا دعوا إليه من الحكمة، والحكيم لا يتَّخذ السفيه عضدا، فكيف أحكم الحكماء بأسفه السفهاء؟!.

قال النسفي: قال لي رجل: هل لإبليس زوجة؟ فقلت: ذلك العرس ما شهدته، أراد نفي الزوجة، فتذكَّرت قوله تعالى: ﴿وَذُرِّيَّتَهُ﴾ والذرِّيَّة لا تكون إلَّا من زوجة فقلت: نعم له زوجة، وهذا أظهر.

[قلت:] ومن جملة ذرِّيَّته أولاد الزنى والأولاد الذين من أموال حرام، والولد من جماع استحضر الرجل عند جماعه امرأة غير زوجه أو سريَّته في قلبه، **ولا يحسن استحضارهما.**

ويجوز على تفكيك الضمائر أن يكون قوله ﷻ: ﴿مَآ أَشْهَدتُّهُمْ﴾ لمشركي قريش على عهد رسول الله ﷺ على ما مرَّ من وضع المضلِّين موضع

الضمير، ومرَّ التعريض بحقارتهم وانتفاء صلوحهم للتقوية بهم، ولا تطمع في أنَّهم لو آمنوا لآمن الناس كما يزعمون، وكما تظنُّ. وأفرد العضد لأنَّه يعمُّ بسياق النفي إذ هو نكرة واختار ذلك للفاصلة، ولأنَّ الجمع في حكم الواحد في عدم الصلوح للاعتضاد.

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ﴾ الله لِلْكُفَّارِ، والعطف على «يَوْمَ» والقول [يكون] بخلق الكلام حيث شاء كالجوِّ أو بواسطة ملك ﴿نَادُواْ﴾ للإغاثة ﴿شُرَكَآئِيَ الذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ زعمتموهم شركاء كقوله:

زعمتني شيخا [ولست بشيخ إنَّما الشيخ من يدبُّ دبيبا][1]

أو زعمتم أنَّهم شركائي وهو الكثير الوارد في القرآن، والمعنى: شركائي في الأُلوهِيَّة والعبادة، ويجوز أن يكون شركاء بمعنى شفعاء، سمَّاهم شركاء لمعنى أنَّهم يسعون فيما لم يرد الله، وهذا إشراك، وهو دعوى أنَّهم يمنعونهم من عذاب الله الموجَّه إليهم، وأضافهم لنفسه على زعمهم للتوبيخ، والمراد: كلُّ ما أشركوا، أو إبليس وذرِّيَّته.

﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ نادوهم ليغيثوهم بالتنجية من العذاب، ولا يظهر أنَّهم نادوا الأصنام لمعرفتهم بأنَّها لا تجيبهم ولو دخلت في أمر الله لهم بالدعاء لِمَا عبدوا تبكيتا لهم، بل دعوا من عبدوا من الجنِّ أو الإنس أو الملائكة ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾ لم يغيثوهم إذ قالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلَ اَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ﴾ [سورة إبراهيم: 21] أو أنجونا البتَّة لأَنَّا عبدناكم جدًّا، وعدم الاستجابة ظاهر ومع ذلك ذكره الله ﷻ تهكُّما بهم، وإيذانا بحمقهم حتَّى إنَّهم لا يَفهمون إلَّا التصريح.

---

(1) نَسبه محقق شرح ابن عقيل لألفية ابن مالك إلى أبي أمية أوس الحنفي. ينظر هامش ج 2، ص 36، لمحمد محيي الدين عبد الحميد.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ جعلنا بين الكُفَّار وآلهتهم موضع وبق، أي موضع هلاك يشتركون فيه وهو النار، فمعنى البينيَّة الاشتراك، و﴿مَوْبِقًا﴾: اسم مكان، وقيل: الموبق واد في جهنَّم يجري بالدم والصديد، وعن عكرمة: «نهر في النار يسيل نارا على حافَتيه حيَّات كالبغال الدهم إذا ثارت إليهم التجؤُوا إلى الوقوع في النار منها» وقيل: الموبق المحبس، أو المعنى: حاجزًا بينهم وبين نفع ما عبدوه من دون الله عز وجل لهم.

أو جعلنا بين فريقين: الفريق الأوَّل: عيسى والملائكة المعبودون، ويكونون في الجنَّة، والفريق الثاني: المشركون وأصنامهم ويكونون في النار، وهي موبق بين الفريقين.

أو ﴿مَوْبِقًا﴾: مصدر ميميٌّ بمعنى عداوة، عبَّر عنها بالهلاك لأنَّها سببه وملزومه، أو لأنَّها تؤول إليه كما يقال: لا يكن بغضك تلفا، بمعنى لا تشتدَّ فيه حتَّى يجرَّ إلى التلف، كما قال عمر رضي الله عنه: «لا يكن حبُّك كلفا ولا بغضك تلفا».

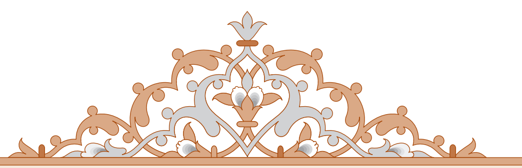
[نحو] و«بَيْنَ» ظرف مفعول ثان و«مَوْبِقًا» أوَّل، أو متعلِّق بـ«جَعَلْنَا» بمعنى خلقنا و«مَوْبِقًا» مفعول به له، ويجوز أن يكون البين بمعنى الوصل من الأضداد، بمعنى: جعلنا تواصلهم في الدنيا هلاكا يوم القيامة أو عداوة، فيكون «بَيْنَهُمْ» غير ظرف مفعولا أوَّلاً و«مَوْبِقًا» ثانيا.

﴿وَرَءَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ﴾ بأبصارهم قال صلى الله عليه وسلم: «**يرى الكافر النار من مسيرة أربعين سنة**»[1] ﴿فَظَنُّواْ﴾ رجَّحوا ولم يجزموا، لظنِّهم أنَّ ما يعبدون من دون الله ينجِّيهم منها، أو لم ييأسوا من رحمة الله عز وجل، أو «ظنُّوا» بمعنى علموا

(1) رواه **ابن حبَّان** في صحيحه، في ذكر الأخبار عن وصف المسافة التي يرى الكافر في القيامة نار جَهَنَّم منها: ج 9، ص 223، رقم 7308، من حديث أبي هريرة. ورواه **الحاكم** في كتاب الأهوال: ج 4، ص 639، رقم 91/8766، من حديث أبي سعيد، وهذا الأخير بدون ذكر: «مسيرة أربعين سنة». وأوَّل الحديث: «ينصب للكافر يوم القيامة مقدار خمسين ألف سنة...».

﴿أَنَّهُـــم مُّوَاقِعُوهَا﴾ واقعــون فيها وقوعا عظيمـــا، لأنَّ من معانـــي المفاعلة المبالغة، أو مخالطوها لأنَّ شـــدَّة المجاورة للشـــيء تؤدِّي إلى الدخول فيه، ويقال لها مواقعة، أو علموا جزما بدخولها وظنُّوا أنَّها تخطفهم في الحال ولم تخطفهم في الحال.

﴿وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا﴾ عطف على محذوف، أي فدخلوها ولم يجدوا عنها ﴿مَصْرِفًا﴾ صرفا من أحد يصرفهـــم عنها، فهو مصدر علـــى أنَّ مصدر يفعِل بالكســـر قد يجيء على مَفعِل بالكســـر، وهو ضعيف؛ أو بابًا موضعَ صرفٍ يخرجون عنها منه، فهو اسم مكان؛ أو هو اسم مصدر، أي انصرافا؛ أو المراد: موضع انصراف، قيل: أو مكانا ينصرفون إليـــه. أو يدومون فيها أبدا، لا وقت لصرفهم عنها، فهو اسم زمان ميمي.



﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا (54) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُومِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَاتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَاتِيَهُمُ الْعَذَابُ قِبَلًا (55) وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا ءَايَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُؤًا (56) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا (57) وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُوَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا (58) وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمُهْلَكِهِم مَّوْعِدًا (59)﴾

بيان القرآن ومهمَّة الرسل وظلم المعرض عن الإيمان وسبب تأخير العذاب لموعد معيَّن

﴿**وَلَقَدْ صَرَّفْنَا**﴾ كرَّرنا أو بيَّنَّا ﴿**فِي هَذَا الْقُرْءَانِ**﴾ أي في هذا الكتاب المقروء؛ لأنَّ اسم الإشارة ينعت باسم الجنس، ولو جعلناه عَلَما لهذا الكتاب كان بدلا أو بيانا، ولم يجز أن يكون نعتا ﴿**لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ**﴾ من كلِّ جنس يحتاجون إليه. ومفعول «صَرَّفْنَا» محذوف منعوت بقوله: ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾، أي نوعا ثابتا من كلِّ مثل، ولا نقدِّر: معنى ثابتا من كلِّ مثل، لأنَّ لفظ المعنى لم يستعمله العرب كما نستعمله، وذلك كما يقال: العرب لا تعرف المعنى. ومن أجاز زيادة «مِنْ» في الإثبات أجاز كون «كُلِّ» مفعولا لـ«صَرَّفْنَا».

[لغة] والمثل في العرف كلام شُبِّهَ مضربه بمورده، أي بالمعنى الذي ورد فيه أوَّلاً، والمضرب ما يشبَّه بذلك الوارد أوَّلاً، ويستعمل مجازا بمعنى ما يستغرب، كما شبَّه الله ﷻ تقرير دلائل الوَحْدَانِيَّة والنبوءة والبعث والوعد والوعيد والقصص بالمثل السائر، لأنَّها أمور مهمَّة يحتاج إليها.

﴿**وَكَانَ الاِنسَانُ**﴾ الجنس، وقيل: النضر بن الحارث، وقيل: ابن الزبعري، وقيل: أُبي بن خلف لعنه الله أتى بعظم رمَّ وفتَّه بيده وقال: أيقدر الله تعالى على بعث هذا؟ وَيَدُلُّ على الجنس ما في البخاري عن عليٍّ أنَّ رسول الله ﷺ جاءه وفاطمة ليلا، فقال: «**ألا تصلِّيان؟**» فقلت: يا رسول الله إنَّما أنفسنا بيد الله تعالى إن شاء أن يبعثنا بعثنا، فانصرف وضرب فخذه وقال: ﴿وَكَانَ الاِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾، قلت: كأنَّه ﷺ يريد منه أن يقول: قصَّرنا يا رسول الله ادع الله لنا، أو نحو ذلك، وذلك هو المتبادر، ومن الجائز ـ على بُعدٍ ـ أن يمثِّل بالآية لهما مع أنَّها في نحو «أُبيٍّ» حاشاهما عنه فيكون ذكرها تعجُّبا من سرعة جوابه لا تشبيها له به حاشاه، فلعلَّه عذره في هذا الجواب.

﴿**أَكْثَرَ شَيْءٍ**﴾ يمكن منه الجدل ﴿**جَدَلاً**﴾ تمييز، أي جدله أكثر من جدل كلِّ شيء سواه، كما يقال: تمييز اسم التفضيل محوَّل عن المبتدأ، فقولك: زيد أفضل منك أبا، بمعنى أبو زيد أفضل من أبيك. ومن جدال الإنسان بالباطل قوله للأنبياء: ﴿مَآ أَنتُمُۥٓ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [سورة يس: 15] وقوله: ﴿مَآ أَنزَلَ اللهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [سورة الأنعام: 91]. ومن ذلك قوله في الناسخ والمنسوخ والمتشابه بما لا يجوز أن يقال، وقوله بقدم القرآن، ولو قبل الحقَّ لامتلأ نورا.

[لغة] واسم التفضيل المضاف إلى النكرة يكون موصوفه داخلا في معناها، فالإنسان داخل في جملة الأشياء المجادلة. والجدال: شدَّة الخصام بحقٍّ أو باطل، ولا تختصُّ بالباطل بل أكثر استعمالها فيه، وهي من الإلقاء

على الجدالة أي الأرض بالشدَّة، ويقال: المجادلة المقاتلة في الأصل، وقيل: الملاواة، فكلٌّ خصم يلتوي على خصمه.

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُّومِنُواْ﴾ من أن يؤمنوا، أي من الإيمان أو إيمانا، فلا تقدَّر «مِن» فإنَّه يقال: منعه من طعام ومنعه طعاما ﴿إِذْ جَآءَهُمُ الْهُدىٰ﴾ البيان على لسان الرسول ﷺ من القرآن وسائر الوحي، ولا داعي إلى جعل الهدى بمعنى القرآن، كما قيل: إنَّه القرآن، وكما قيل: إنَّه رسول الله ﷺ مبالغة ﴿وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ﴾ أي يطلبوا المغفرة من ربِّهم لذنوبهم، وهي عدم العقاب عليها حتَّى كأنَّها الشيء المستور، أي من أن يستغفروا، أو استغفارَ ربِّهم على حدِّ ما مرَّ في ﴿أَنْ يُّومِنُواْ﴾. والمراد بالناس الكُفَّار على عهد رسول الله ﷺ القائلين بتلك الأباطيل، أو ما يعمُّهم وغيرهم لا ما يعمُّ مَن قبلَهُ لذكر مَن قبلَهُ في قوله:

﴿إِلَّآ أَن تَاتِيَهُمْ سُنَّةُ الاَوَّلِينَ﴾ وهو فاعل «مَنَعَ»، أي: ما منعهم إلَّا إتيان مثل سنَّة الأوَّلين، و﴿سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾: إهلاك الأوَّلين المصرِّين على الكفر، والمعنى: سنَّة الله فيهم، وأضافها إليهم لوقوعها فيهم.

والمراد: إلَّا طلب إتيان سنَّة الأوَّلين، أو انتظار إتيان سنَّة الأوَّلين، أو تقدير إتيان سنة الأوَّلين، ومع ذلك ليسوا بطالبين إتيانها ولا منتظرينه، ولا مُرْتَقِبِينَهُ إلَّا مجازا تشبيهيًّا. وحقيقة الآية أنَّ إصرارهم على الكفر يوجب لهم سنَّة الأوَّلين، إلَّا أنَّ الله ﷻ أخَّرها عنهم، ثمَّ إنَّه إذا جاءتهم السنَّة لم يمكنهم الإيمان، فالمراد استفراغ ما قبل الإتيان بالكفر.

ويجوز أن يكون المراد: إلَّا تقدير ربِّهم وقضاءه أن لا يؤمنوا حتَّى يستأصلهم بمثل سنَّة الأوَّلين، وهو عذاب بدر، وقدَّر بعض إلَّا تقدير الله عذابهم كالأوَّلين، وفسَّره بعذاب بدر وأُحد.

والمراد: الذنوب مطلقا لا خصوص الشرك، فالآية دليل على خطاب المشركين بالفروع، واستدلَّ بعضهم بها على أنَّ الإيمان بدون استغفار لا

يَجُبُّ ما قبله، والظاهر غير ذلك، لكن ذكر الله ﷻ ما هو أحسن إشارة إلى أنَّ الإيمان النافع ما يصاحب صاحبه الاستغفار.

﴿أَوْ يَاتِيَهُمُ الْعَذَابُ قِبَلاً﴾ حال من «الْعَذَابُ» أي مواجها، أو من الهاء أي مواجهين له، وهو عذاب الآخرة، مصدر بمعنى الوصف، أو يقدَّر مضاف أي ذا قِبَلٍ أو ذوي قِبَلٍ، أو مفعول مطلق على تضمين «يأتي» معنى يقابل، أو منصوب بمقابل أو مقابلين مقدَّرا. والحصر إضافيٌّ لقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُومِنُواْ إِذْ جَآءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّآ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَّسُولاً﴾ [سورة الإسراء: 94] فإنَّ المانع هنا إرادة الله تعالى وهي الحقيقة بالمنع، وفي الآية الأخرى مانع عادي وهو استغراب بعث البشر رسولا.

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ للمؤمنين بالجنَّة والسعادة ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ للمشركين والفسَّاق بالنار والشقاوة، وذلك خطاب على الإجمال، وليس [الرسول] يقول لأحد أنت سعيد أو أنت شقي إلَّا قليلا أوحى الله إليه به.

﴿وَيُجَادِلُ الذِينَ كَفَرُواْ﴾ رسول الله والمؤمنين ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ بالجدال الباطل كجدالهم باقتراح الآيات كتسيير الجبال عن مَكَّة، وتفجير العيون، وتكليم الموتى، وكالسؤال عن أصحاب الكهف والروح وذي القرنين تعنُّتا، وقولهم: ﴿وَلَوْ شَآءَ اللهُ لأَنزَلَ مَلَآئِكَةً﴾ [سورة المؤمنون: 24] و﴿مَآ أَنتُمُۥ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [سورة يس: 15] ﴿لِيُدْحِضُواْ بِهِ الْحَقَّ﴾ الذي جاءت به الرسل ليقطعوه البتَّة، ويزيلوه أو ليخفوه عن الظهور.

﴿وَاتَّخَذُواْ﴾ صيَّرُواْ ﴿ءَايَاتِي﴾ القرآن، قيل: وما كان فعلا من الآيات التكوينيَّة ﴿وَمَآ أُنذِرُواْ﴾ «ما» اسم والرابط محذوف منصوب أي: وأشياء أنذروها، أو الأشياء التي أنذروها، بالتعدِّي لمفعولين، كقوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا﴾ [سورة الليل: 14].

ولا يحسن تقدير: «وما أنذروا به» لعدم وجود شرط الحذف الرابط المجرور، نعم لم يشترط بعض إلَّا ظهور المعنى، أو حرف مصدر، أي وإنذارهم أي إنذاريهم ﴿**هُزُوًا**﴾ نفس الهزؤ، أو ذا هزؤ، أي شيئا يُستهزأ به.

والاستهزاء من جانبهم، ولا يبعد عن المشركين أن يقولوا: كلام الله ورسوله استهزاء من الله ورسوله، حاشى الله ورسوله عن ذلك، والآيات: ألفاظ القرآن، وما أنذروا به: معانيه المنذِرة لهم، وما يقوله رسول الله ﷺ من سائر الوحي وما يلتحق به، والأسواء التي أنذروا بها كالنار.

﴿**وَمَنَ اظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِئَايَاتِ رَبِّهِ**﴾ القرآن أو جنس الآيات. قال بعضهم: «العاصي ظالم لنفسه ولغيره، ضالٌّ مضلٌّ، ولو كانت المعصية في نفسه لأنَّه يجسِّر الناس على المعاصي» ﴿**فَأَعْرَضَ عَنْهَا**﴾ لم يتفكَّر فيها احتقارا لها فلم يتذكَّر بها، والمراد: هؤلاء المعاندون المعهودون، أو أعمُّ، أو من علم الله تعالى أنَّه يموت بلا إيمان ﴿**وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ**﴾ من المعاصي مطلقا، **لا أظلم منه لأنه ظلم نفسه والنبيء ﷺ والمؤمنين، وأعان على كلِّ كفر وإشراك وكلِّ معصية.**

﴿**إِنَّا جَعَلْنَا**﴾ وضعنا ﴿**عَلَىٰ قُلُوبِهِمُۥٓ أَكِنَّةً**﴾ جمع كنان أي أثبتنا على قلوبهم أغطية باختيارهم، لا بإجبارهم لأنَّهم قادرون على التوحيد والإسلام، والجملة تعليل للإعراض والنسيان ﴿**اَنْ يَّفْقَهُوهُ**﴾ أي عن أن يفقهوه، أو كراهة أن يفقهوه، أو لِئَلَّا يفقهوه. أفرد ضمير الآيات لأنَّها بمعنى القرآن، أو عاد الضمير إليه لظهور المراد. وجُمِعَ ضمير «مَنْ» نظرا إلى معناها بعد أن أُفرِدَ نظرا إلى لفظها، وكذا ضمائر الجمع بعد.

ويجوز جعل قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا...﴾ على نسق قوله: ﴿وَيُجَادِلُ الذِينَ كَفَرُواْ...﴾ لا على قوله: ﴿وَمَنَ اظْلَمُ...﴾ فلا يكون قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا﴾ تعليلا للإعراض والنسيان بل هذا أولى لأنَّ قوله: ﴿وَمَنَ اظْلَمُ﴾ إلى قوله: ﴿يَدَاهُ﴾ سيق معترضا للتوبيخ ﴿**وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا**﴾ ثقل سَمْع شُبِّهَ عدمُ انتفاعهم بما

يسمعون بعدم السمع لجامع عدم تولُّد شـيء، وقوله: ﴿فِي ءَاذَانِهِمْ﴾ عطف على قوله: ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، وقوله: ﴿وَقْرًا﴾ عطـف على قوله: ﴿أَكِنَّةً﴾ ولو اختلف الحرفان: «على» و«في»، ويجوز جعل «في» بمعنى على.

﴿**وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُـدَىٰ**﴾ إلى الاهتداء، أو إلى ما بـه الاهتداء ﴿**فَلَنْ يَّهْتَدُواْ إِذًا اَبَـدًا**﴾ إدراكا للحجَّـة وعملا بها ولا تقليدا. كان رسـول الله ﷺ حريصا علـى إيمانهم كمـا قـال الله ﷻ: ﴿فَلَعَلَّـكَ بَاخِـعٌ نَّفْسَـكَ عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِم...﴾ [سورة الكهف: 6] وكأنَّه قال: لا أترك دعاءهم إلى الإسلام ولو جعل على قلوبهم أكنَّة وفي آذانهم وقرا، ومن شـأني الدعاء فلا أتركه ما لم ينهني الله ﷻ، فأجابه الله ﷻ بقوله: ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ...﴾ من غير منع عن الدعاء، فـ«إذًا» حرف جواب وجزاء، فإنَّ الجواب اشـتمل على الشرط الذي هو سبب فكان ما بعد «إذًا» جزاءً مسبَّبا عنه.

﴿**وَرَبُّكَ الْغَفُورُ**﴾ لكلِّ ذنـبٍ مَا لم يصرَّ عليـه، لا يعاظمه ذنب. وصفة المبالغة لعظم غفرانه وكثرته، كما تقول: زيد ضروب أي ضربه عظيم شـديد غليظ، ومن يضربه كثير ﴿**ذُو الرَّحْمَةِ**﴾ ذو الإنعام، أو منتفي القسـوة، كالحيِّ بمعنى انتفاء الاتِّصاف بالمـوت، لا حقيقة الحياة ولا حقيقـة ما يقبل اللين والقسـوة، تعالى الله عن ذلك. وقُـدِّم الغفران عن الرحمة لأنَّـه تخلية وهي تحلية، و«ال» في «الرَّحْمَةِ» للكمال، أو لعهد الرحمة التي وسـعت كلَّ شيء، و«ذو فعل كذا» أبلغ مـن «فاعل كذا»، لأنَّه أدلُّ على الرسـوخ، كأنَّه قيل: ذو ماهية كذا، فـ«ذُو الرَّحْمَةِ» أبلغ من «الغَفُورُ».

﴿**لَوْ يُوَاخِذُهُـم بِمَا كَسَـبُواْ**﴾ من الذنوب خصوصا السـعي في الجدل والإعراض والاقتراح، وإطفاء نور الله ﷻ، والإفراط في عداوة رسول الله ﷺ، والمراد: بما كسبوه، أو بأشياء كسبوها، أو بكسبهم، وهكذا قل في نحو الآية واغن عن التكرير.

﴿لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ لكن قضى الله تأخيره، ورحمتُه سبقت غضبه فأمهل لهم ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ﴾ زمان وعد مستقبل، والوعد سابق في الأزل، ولو حدث كتبه في اللوح المحفوظ وذلك الزمان يوم بدر، وليس المراد يوم القيامة، كما ذكر إهلاك القرى بوقت في الدنيا بعد، وقيل: المراد يوم القيامة، وأجيز أن يكون اسم مكان هو جهنَّم أو أرض بدر ﴿لَنْ يَّجِدُواْ مِن دُونِهِ مَوْئِلاً﴾ موضع رجوع يرجعون إليه قبل مجيئه، أو عند مجيئه، أو زمان رجوع أو رجوعا. والهاء للموعد، وقيل: للعذاب، فلا تكون الجملة حينئذ نعتا لـ«مَوْعِدٌ» وهو أبلغ، لأنَّ مَنْ ملجَأُه العذاب لا يتصوَّر أن ينجو مع أنَّ نفس ملجئه هو العذاب، وقيل: الضمير في ﴿مِن دُونِهِ﴾ لله سبحانه وتعالى.

﴿وَتِلْكَ﴾ مبتدأ على حذف مضاف، أي وأهل تلك ﴿الْقُرَىٰٓ﴾ أي وأهل تلك القرى عاد وثمود وقوم لوط ونحوهم، وخبر المبتدأ قوله: ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ والإشارة للقرى المعهودة لقريش، ويجوز أن تكون للأقوام المذكورين.

[نحو] فالقرى خبر المبتدأ على حذف مضاف، أي وتلك الأقوام أصحاب القرى، فـ«أَهْلَكْنَاهُمْ» خبر ثان؛ أو «أصحاب» المقدَّر بدل ناب عنه «الْقُرَى» و«أَهْلَكْنَاهُمْ» خبر، أي وأصحاب تلك القرى أهلكناهم؛ أو القرى اسم لأهلها. والإشارة تنزيل للمشار إليه منزلة المحسوس.

﴿لَمَّا ظَلَمُواْ﴾ كظلم قريش بالإشراك وغيره ﴿وَجَعَلْنَا لِمُهْلَكِهِم﴾ زمان إهلاكهم ﴿مَّوْعِدًا﴾ وعدا، أو مهلك بمعنى الإهلاك، و﴿مَوْعِدًا﴾: زمان وعد، فلا يغترَّ قريش فقد يهلكون كما أهلك مَن قبلهم، فـ«مُهْلَك» اسم زمان، أو مصدر ميميٌّ من الرباعي بالزيادة، وكذا «مَوْعِد» من الثلاثي.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا (60) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا (61) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا (62) قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا (63) قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا (64) فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (65) قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (66) قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا (67) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا (68) قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا (69) قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (70) فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا (71) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا (72) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا (73) فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا (74) قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا (75) قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا (76)﴾

قصَّة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع الخضر

(1)

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ هو ابن عمران، وكذَّب ابن عَبَّاس نوفًا البكَّالي[1] إذ قال: إنَّه غيره، كما قال في البخاري ومسلم والترمذي والنسائي[2]، وكذا زعم بعض المحدِّثين والمؤرِّخين أَنَّه موسى بن ميشا بن يوسف بن يعقوب، وقيل: موسى بن إفرائيم بن يوسف، وكذا قال اليهود: أنكروا أن يأخذ عن نبيء وأن يكون الخضر أعلم من موسى بن عمران، وان يكون خرج من التيه.

قلت: لا مانع من تعلُّم نبيء من نبيء، ومن تعلُّم نبيء مِمَّن هو دونه، كما قيل: إنَّ الخضر ليس نبيئا، وإنَّه لا مانع من خروجه ثمَّ رجوعه إلى التيه، وإنَّه لا مانع من التقائه مع الخضر قبل التيه، وقد يخرج ولا يخبرهم، أو يقول لهم أخرج إلى عبادة وأرجع. و«إِذْ» عطف على «إِذْ» الأولى، فـ«اذكر» المقدَّر هنالك مسلَّط عليه، كأنَّه قيل: واذكر إذ قال موسى.

﴿لِفَتَاهُ﴾ هو يوشع بن نون بن إفرائيم بن يوسف فإنَّه كان يخدمه ويتبعه، فسمِّي فتاه، وهذا هو المشهور، والعرب تسمِّي الخادم فتى؛ لأنَّ الخدم أكثر ما تكون في سنِّ الفتوَّة، وقيل: هو ابن أخت موسى، وقيل: هو أخو يوشع، أنكر اليهود أن يكون له أخ، وقيل: فتاه عبده، قال ﷺ: «**ليقل أحدكم فتاي وفتاتي، ولا يقل عبدي وأمتي**»[3] وهذا خلاف الأولى لا محرَّم ولا مكروه، وقيل: القول بأنَّه عبده باطل.

---

(1) نوف البكالي بن فضالة سامي، ذكره ابن حبَّان في الثقات، وإنَّما كذَّب ابن عَبَّاس ما رواه عن أهل الكتاب، توفي بعد 90هـ. ابن حجر: تقريب التهذيب، ج 2، ص 314.

(2) رواه **البخاري** في كتاب التفسير (215) باب ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ...﴾ رقم 4448، ورواه **مسلم** في كتاب الفضائل، باب فضائل الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ، رقم 2380. ورواه **الترمذي** في كتاب التفسير (19) باب ومن سورة الكهف، رقم 3149. من حديث أُبي بن كعب.

(3) تَقَدَّمَ تخريجه، انظر: ج 7، ص 112.

[وكأنَّه قال:] اذكر يا محمَّــد لهؤلاء المتكبِّرين على الفقــراء الذين آمنوا قصَّة موســى وتواضعه للخضر في تعلُّمه منه، وفيها تلويــح بمدح المؤمنين على تواضعهم للنبيء ﷺ، وتقريع لأهل الكتاب والمشركين على عدم التعلُّم من النبيء ﷺ، كما ارتحل موسى إلى التعلُّم.

﴿لَآ أَبْرَحُ﴾ لا أزال، والخبر محذوف تقديره: لا أبرح ســائرا، أو لا أبرح أسير، ولا خبر له، بمعنى: لا أنتقل عن السير والطلب، أي لا أتركهما، ويدلُّ على تقدير السير الحالُ وهي أنَّه في الســفر، واللفظُ وهو قوله: ﴿حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ ولا مانع من حذف خبر بــاب «كان» لدليلٍ، مثل أن يقال: من كان بوَّابا؟ فتقول: كان عمــرو، أي كان عمرو بوَّابا. و﴿مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾: هو الموعود له من الله ﷻ: بحر الروم الجاري على الجزائر وأعمالها وأندلس والبحر المحيط،، وعليه سبتة، ومجمعهما: ما بين سبتة وطنجة من البحر، إذ قيل: فتح ذو القرنين ذلك الموضع، وكان غير بحر والبحر المحيط، أو فتحه إلى المحيط، فاتَّصل البحران.

ودع عنك التفســير ببحر الروم وبحر فارس الذي في المشرق كما روي عن مجاهد وقتادة، وعليه فما معنى التقائهما وأين يلتقيان؟ فيتكلَّف له أنَّهما في موضع يقرب التقاؤهما وإلَّا فلا يلتقيــان إلَّا في المحيط، بخلاف ما بين طنجة وسبتة فإنَّه كان برًّا فاشتكى أهل أندلس من أهل السوس فحجز بينهما ذو القرنين بخلط البحرين، وبهذا قال محمَّد بن كعب القرظي.

وقيل: بحر مالح وبحــر عذب، وملتاقاهمــا في الجزيــرة الخضراء في الأندلس، قلت: لا نعرف بحرا عذبا في ذلك إلَّا أن يراد به نهر عظيم جار فلا بأس، وقيل: الكروالرس بأرمينية[1]، وقيل: بحــر القلزم وبحر الأزرق، وقيل بإفريقيَّــة، قلت: لا نعــرف هــذا إلَّا أن يراد ما يشــمل طنجة أو ما يشــمل

(1) لَعَلَّهُ هو البحر الأسود كان يعرف بهذا الاسم.

الإسكندريَّة، فالنيل ينصبُّ في البحر المالح، وهذا المجمع جار أيضا على أندلس لأنَّ جزيرة أندلس طويلة مِمَّا قبل مِمَّا يلي سبتة من تلك العدوة إلى مرسية، والذي يليها جبل طارق من تلك العدوة.

وسبتة من عدوتنا وبقي مسيرة ثلاثة أيَّام أو خمسة لم يغلقه الماء يخرج منها إلى البرِّ الكبير وهو برٌّ وراء بحر الجزائر هذا، وفي عدوته من تلك الجهة باريز ويقال: «بريش» وهو الأصل وحرِّف. ودع عنك ـ لمخالفة الظاهر ـ تفسير البحرين بموسى والخضر ولو كان كالبحر في علم الباطن وموسى كالبحر في علم الظاهر.

﴿**أَوَ اَمْضِيَ**﴾ أسير ﴿**حُقُبًا**﴾ مفرد لا جمع، أي دهرا طويلا، أو ثمانين سنة أو سبعين أو سنة ولم أبلغه وأيستُ فأرجعُ أو عجزت، ولا بدَّ من هذا التقدير أو نحوه على أنَّ العطف على «أَبْلُغَ»، ويجوز أن تكون «أَوْ» بمعنى إلَّا أو إلى، أي ليكوننَّ منِّي بلوغ مجمع البحرين أو أمضي حقبا في سيري أعجز بها أو آيس، ومعنى كون «أَوْ» بمعنى إلى أنِّي لا أزال أسير حتَّى أبلغ المجمع، أو إلى أن يحصل لي زمان عجز عن السير فيه.

[قصص] خطب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في مصر بعد غرق فرعون خطبة عجيبة مشتملة على علوم كثيرة، وأعجب بها، فقيل له: هل تعلم أحدا أعلم منك؟ قال: لا، فأوحى الله عَزَّ وَجَلَّ إليه: عبدي الخضر أعلم منك وهو بمجمع البحرين، ومعنى كون الخضر أعلم من موسى أنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ أعطاه علم ما لم يعط موسى من الغيوب، فهو أعلم من موسى بالباطن، وموسى أعلم منه بالظاهر؛ أو لَمَّا كان أصل العلم إدراك ما غاب أطلق أنَّه أعلم منه، ولموسى طرف من الباطن وللخضر طرف من الظاهر، بل ورد التفضيل باعتبارين ولو لم يشترك الطرفان، نحو: الخلُّ في حموضته أشدُّ من العسل في حلاوته.

ويلزم في الرسول أن يكون أعلم أمَّته في أمر الشـــرع، والخضر من أمَّته وهـــو أعلم منه فيـــه، وقيل: هو نبـــيء مســـتقلٌّ، وقيل: غير نبـــيء، وهل هو إسرائيليٌّ؟ قولان.

[قصص] وقيل: ســأل ربَّه: أيُّ عبادك أحبُّ إليــك؟ قال: «الذي يذكرني ولا ينســاني» قال: فأيُّ عبادك أقضى؟ قــال: «الذي يقضي بالحــقِّ ولا يتَّبع الهوى» قال: فأيُّ عبادك أعلم؟ قال: «الذي يبتغي علم الناس إلى علمه، عسى أن يصيب كلمة تدلُّه إلى هدى أو تردُّه عن ردى» قال: إن كان في عبادك أعلم منِّــي فادللني عليه، قــال: أعلم منك الخضــر، قال: فأين أطلبــه؟ قال: على الساحل عند الصخرة، قال: كيف لي به قال: تأخذ حوتا ملحا مشويا في مكتل فحيث فقدته تجده، فقال لفتاه: إذا فقدت الحوت فأخبرني ولا أكلِّفك ســوى هذا، قال: ما كلَّفتني كثيرا، فذهبا يمشيان حتَّى بلغا مجمع بينهما فرقد موسى للعياء فاضطرب الحوت وهو مشــويٌّ عنــد الصخرة فاضطــرب إلى البحر، ويقال: توضَّأ يوشــع في ذلك المكان من عين تســمَّى مــاء الحياة لا يصيب ماؤها شــيئا إلَّا حيي، فأصاب الماء الحوت فحيي فاضطــرب إلى البحر من المكتل، وقيل: انفجر هنالك عين من الجنَّــة ووصلته قطرات فحيي، ووثب إلى البحــر، وكان الخضر في أَيَّام أفريــذون، [قيل:] وكان علــى مقدِّمة ذي القرنين الأكبر وبقي إلى أَيَّام موســى، ويحيى إلى أن يرفــع القرآن والكعبة، وهو نبيء على الصحيح غير رســول وعليه الجمهور، وقيل: رسول وهو من ولد ســام بن نوح لقي إبراهيم ﵇ وطاف ذو القرنيــن الدنيا والخضر على مقدِّمته وسدَّ على ياجوج ماجوج وبنى الإسكندرية.

[قصص] وأمَّا ذو القرنين الأصغر فهو الإســكندر بن فيلبوس اليوناني، الذي قتل دارى وســلب ملكه وتزوَّج بنته، واجتمع له ملــك الروم وفارس، وطاف الدنيا وبلغ الظلمات وبلغ المغرب ـ كما ذكر الله ﷻ بعد ـ والمشرق،

وأقصى الشمال لأنَّ فيه السدَّ، وفي داخله الروم. لَمَّا مات أبوه فيلبوس جمع ملوك الروم بعد أن كانوا طغاة، ثمَّ جميع ملوك العرب وقهرهم، وأمعن حتَّى انتهى إلى البحر الأخضر، ثمَّ عاد إلى مصر وبنى الإسكندريَّة، وسمَّاها باسم نفسه وهو إسكندر، فكان الناس ينسبونها إليه وتركوا كونه اسما لها، ثمَّ دخل الشام وقصد بني إسـرائيل وورد بيت المقدس وذبح في مذابحهم، وانعطف إلى أرمينية، وباب الأبواب، ودان له أهل العـراق والبربر والقبط، توجَّه إلى دار ابن دارى وهزمه مرارا حتَّى قتله صاحب حرسه، فاستولى الإسكندر على ممالك الفرس، وقصد اليمن والهند، وغزا الأمم البعيدة ورجع إلى خراسان، وبنى مدائن كثيرة، ورجع إلى العراق ومرض في شَـهْرَزُورَ ومات فيها، وكان تلميذا لأرسطاليس الكافر، بعد أن أسلم على يد الخضر.

﴿**فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ**﴾ موضع الجمـع ﴿**بَيْنِهِمَا**﴾ بيـن البحرين، وأصل المجمع أن يضاف إلى البحرين لا إلى «بين»، لكن أضيف إلى «بين» توسُّعا، أو تقول: «بين» بمعنى الوصل. وكنت أقول: الهاء عائدة إلى موسـى والخضر ثمَّ تذكَّرت أنَّه لم يجـر للخضر ذكر؛ أو عائدة إلى موسـى وفتاه، أي موضع اجتماعهما مع غيرهمـا وهو الخضر ولم يذكر غيرهمـا، وذلك على الوجوه كلِّها هو الموضـع الذي قضى الله أن يجتمعا فيه مع الخضر عليهما السلام، سـكن فيه الخضر أو في قريب منه.

﴿**نَسِيَا حُوتَهُمَا**﴾ نسي موسـى أن يطلبه من فتاه أن يحضره له، ونسي أن يأكل منه ويتعرَّف حاله، ونسـي يوشـع أن يذكر له حياته ووقوعه في البحر وارتحلا على ذلك النسـيان، وحاصل ذلك أنهما نسيا شأن الحوت كلُّ واحد نسي ما من شأنه أن يذكره.

ووجه قريب أنَّ موسـى عليه السلام أخبر فتاه بما قال لـه الله عز وجل في الحوت، ونسـي يوشـع أن يخبره، وقد قيل: إنَّه قال: لا أذكر له حتَّى يسـتيقظ، وما

استيقظ إلَّا وقد نســـي، وذلك كلُّه أولى من أن يقال: النسيان لموسى وجمع الله معه فتاه حكما على المجموع، وأولى من تقدير مضاف أي نسي أحدهما وهو موسى.

﴿فَاتَّخَذَ﴾ أي الحوت ﴿سَــبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ﴾ متعلِّــق بـ«اتَّخَذَ» وحال من «سَبِيل» أو من قوله: ﴿سَرَبًا﴾ مسلكا، صار الماء له جدارًا وسقفا كما فعل الله لموســى عَلَيْهِ السَّلَامُ في البحر حين اتَّبَعَه فرعون، إلَّا أنَّه لم يسقف على موسى بل بدا طريقه للسماء، كما ســئل عليٌّ: على أيِّ موضع طلعت عليه الشمس مرَّة واحدة؟ فأجاب: بطريق موسى وبني إسرائيل في بحر القلزم.

روى الطبري وابــن أبي حاتم[1] من طريق العوفــي عن ابن عَبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: جعل الحوت لا يَمَسُّ شــيئا من البحر إلَّا يبس حتَّى كان صخرة، وكذا روى البخاري ومسلم والترمذي والنسائي أنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ أمسك جرية الماء عن الحوت فصار عليه مثل الطاق أي القوس، قال أبو حامد الأندلسي رأيت سمكة بقرب مدينة سبتة من نسل الحوت الذي تزوَّده موســى وفتاه عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وأكلا منه، وهي ســمكة طولها أكثر من ذراع وعرضها شــبر وأحد جنبيها شوك وعظام وجلد رقيق على أحشــائها، ولها عين واحدة ونصف رأس مــن ورائها من جانب، استقذرها وحســبها مأكولة، ومن جانب آخر صحيحة، يتبرك بها وتهدى إلى المواضع، وقال أبو شجاع في كتاب الطبري: أتاني به رجل فرأيته فإذا هو شقُّ حوت وليس له إلَّا عين واحدة، قال ابن عطية: وأنا رأيته وعلى شــقِّه قشــرة رقيقة ليس تحتها شوكة.

---

(1) ابن أبي حاتم عبد الرحمٰن بن محمَّد التميمي الحنظلي الرازي أحد مشــاهير المحدِّثين في عصره، مفسّــر عالم بالفقه والقراءات، قال أبو يعلى: «كان بحرا في العلوم ومعرفة الرجال» وهو صاحب كتاب «الجرح والتعديل»، تُوُفِّيَ سنة 327 هـ. عادل نويهض: معجم المُفَسِّرِين، ج 1، ص 271.

[قلت]: لعلَّ بعضا كما قال أبو حامد، وبعضا كما قال ابن عطيَّة ولعلَّ ذلك انقطع بعد، أو غفل الناس ولم يتعرَّفوا ذلك، ونصَّ محمَّد بن كعب القرظي كما مرَّ على أن البحرين بحر طنجة التقى هناك المحيط مع البحر الآخر المذكور، ويقوِّي ذلك مدينة الجدار في الغرب، وأيضا لا مجمع بين بحري فارس والروم ولو تقاربا إلَّا في المحيط أعني أنَّه أصلهما.

﴿**فَلَمَّا جَاوَزَا**﴾ مجمع البحرين وهو واسع مختلف الوسع، وكذا ساحله ولا ترى عدوة من أخرى، لكن الله ﷻ بيَّن له الموضع بشأن الحوت، وصخرة إذا وصلها ينام من عياء ويتوسَّدها ﴿**قَالَ لِفَتَاهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا**﴾ ما نأكل صباحا قبل الزوال أو بعده قبل العصر ﴿**لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا**﴾ عطف بيان لـ«سَفَر» أو بدل، أو ضُمِّنَ معنى الحاضر فيكون نعتا ﴿**نَصَبًا**﴾ مفعول «لَقِينَا» أي تعبا.

[قصص] ويروى أنَّ موسى عليه السلام لم ينصب حتَّى جاوز الموعد الذي حدَّه الله تعالى، وسار الليلة والغد إلى الظهر، فلعلَّه تكون الإشارة إلى مسيره من محلِّ الصخرة، وأبعاض السفر كلُّها سفر، وهذا المسير أشدُّ إتعابا له مِمَّا قبله، وذلك أنَّ رجاء المطلوب يقرِّب البعيد، والخيبة تبعد القريب كذا قيل، وفيه أنَّ هذا يثبت لو كان له شعور بالخيبة عن القصد.

﴿**قَالَ أَرَآيْتَ إِذَ اَوَيْنَآ**﴾ أخبرني ما دهاني إذا أوينا ﴿**إِلَى الصَّخْرَةِ**﴾ هي التي رقد عندها موسى، وهذا عند بحر طنجة، ألا ترى قصَّة وجود حوت كالمأكول في بحرها، وألا ترى أنَّ في ذلك المغرب مدينة يقال لها مدينة الجدار، وغير ذلك مِمَّا تذكره المغاربة. وشهر أنَّ ذلك عند بحر الشام، ويقال: إنَّ الصخرة هي التي دون نهر الزيت سمِّي لكثرة أشجار الزيت على شاطئه.

ويروى أنَّهما خرجا من الشام إلى جهة أرمينية فانتهيا إلى الصخرة التي قال الله لموسى: إنَّك تجد عندها العبد الصالح الذي تطلبه، وَلَمَّا انتهيا إليها

توسَّدها ونام، فاضطرب الحوت بمسّ ماء الحياة فدخل البحر بمرأى فتاه، وشفق أن يوقظه ونسي بعد يقظه ولم يشتدَّ حفظه لكثرة ما عاهد عند موسى من أمثال ذلك.

﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ﴾ إذ أوينا إلى الصخرة أي نسيت شأن الحوت الذي جعل لي علامة ﴿وَمَآ أَنسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾ وقوله: ﴿أَنَ اذْكُرَهُ﴾ بدل اشتمال من الهاء، والمُنْسي هو الله جَلَّالَهُ، وإنَّما نسب الإنساء إلى الشيطان هضما لنفسه كأنَّه قصَّر فخدعه الشيطان مع أنَّه مستغرق القلب في أمر الله، ولم يتحمَّل هذا الاستغراق مع مراعاة شأن الحوت لنقصان البشر طبعا.

﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ والحقُّ أنَّ هذا من كلام الله، وفاعل «اتَّخَذَ» ضمير موسى، والهاء له أو للحوت أو كلاهما للحوت، سبيلا عجبا كأنَّه نفس العجب، أو معجوبا به، وهاء «سَبِيلَهُ» للحوت ويجوز عوده لموسى.

[نحو] و«فِي الْبَحْرِ» متعلِّق بـ«اتَّخَذَ» و«سَبِيلَ» مفعول أوَّل و«عَجَبًا» ثان، أو «اتَّخَذَ» له مفعول واحد، أو ثانيه «فِي الْبَحْرِ» و«عَجَبًا» حال أو مفعول مطلق، أي اتِّخَاذًا عجبا.

﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِي﴾ ذلك الذي ذكرت من أمر الحوت هو الذي كُنَّا نطلبه. ﴿فَارْتَدَّا﴾ رجعا ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا﴾ مواضع أقدامهما التي جاءَا منها ﴿قَصَصًا﴾ مفعول مطلق لحال محذوفة، أي يقصَّانها قصصا، أو قاصِّين لها قصصا، أو حال أي قاصِّين ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا﴾ عند الصخرة، وقيل: في مدخل الحوت إلى البحر ﴿ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ ينبغي لمن قرأ هذه الآية أن يقول: «اللهمَّ آتنا رحمة من عندك، وعلِّمنا من لدنك علما».

[قصص] والعبد المذكور هو الخَضِر، بفتح الخاء وكسر الضاد، أو إسكانها أو بكسرهما أو بكسرها وإسكان الضاد، أو أبو العَبَّاس بَلْيَا بفتح

فإسكان وقصر أو مدٍّ، وقيل: إبليا، وقيل: اسمه عامر، ويضعف القول إنَّه أحمد بأنَّه لم يسمَّ أحد بأحمد قبل سيِّدنا محمَّد ﷺ، وعن الضحَّاك: إنَّ الخضر ابن آدم، وعن سعيد بن المسيِّب إنَّ أمَّه رومية وأباه فارسيٌّ، وقيل: إنَّه ابن فرعون موسى، وهو ضعيف، وعن كعب الأحبار: إنَّه ابن عاميل، وقيل: ابن العيص، وقيل: ابن كليان بفتح الكاف وإسكان اللام، وعن وهب بن منبِّه: إنَّه ابن ملكان ـ بذاك الوزن ـ بن فالغ بن عامر بن شالخ بن أرفخشد، بن سام بن نوح، [قلت:] **ولا أعرف صحَّة شيء من هذه الأقوال**، وصحَّح النووي فيما يظهر من عبارته أنَّه بليا بن ملكا ونسب للجمهور وشهر أنَّه موسى.

وزعم بعض أنَّه إلياس، وبعض أنَّه اليسع، وبعض أنَّه ملك، ولقِّب بالخضر، لِمَا روي عن رسول الله ﷺ: **أنَّه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتزُّ من خلفه خضراء**[1]، وعن مجاهد: لأنَّه إذا صلى اخضرَّ ما حوله، وعن عكرمة: لأنَّه إذا جلس في مكان اخضرَّ ما حوله، ولأنَّه كانت ثيابه خضرا، وعن السدِّي: لأنَّه إذا أقام بمكان نبت العشب تحت رجليه حتَّى يغطِّي قدميه، وقيل: لإشراقه وحسنه، والصحيح الأوَّل للحديث.

وصحَّ من حديث البخاري وغيره: أنَّهما رجعا إلى الصخرة، وإذا رجل مسجَّى بثوب ـ أي مغطًّى ـ جعل طرفه تحت رأسه، وطرفه تحت قدميه. وفي مسلم: أتيا جزيرة فوجدا الخضر قائما يصلِّي على طنفسة خضراء على كبد البحر أي خالص الماء، وذكر الثعلبي أنَّهما انتهيا إليه وهو نائم على طنفسة خضراء على وجه الماء مسجَّى بثوب أخضر، وقيل: إنَّ سبيل الحوت عاد حجرا فلمَّا جاءا إليه مشيا عليه حتَّى وصلا إلى جزيرة فيها الخضر.

---

(1) أخرجه **البخاري** في كتاب أحاديث الأنبياء (27) باب حديث الخضر مع موسى عليه السلام، رقم 3421. و**الترمذي** في كتاب التفسير (19) باب ومن سورة الكهف، رقم 3151. من حديث أبي هريرة.

وصحَّ أنَّه سلَّم عليه موســى حين انتهيا إليه، فقال الخضر: وأنَّى بأرضك السلام؟ فقال: أنا موسى فقال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، ورويَ أنَّه لَمَّا سلَّم عليه وهو مسجًّى عرف أنَّه موسى فجلس، وقال: وعليك السلام يا نبيء بني إسرائيل، فقال موسى: وما أدراك بي ومن أخبرك؟ فقال: الذي أعلمك بي أما يكفيك أنَّ التوراة بيدك، وأنَّ الوحي يأتيك؟ فقال: إنَّ ربِّي أرســلني إليك لأتَّبعك وأتعلَّم من عندك.

ونكَّر «عَبْدًا» و«رَحْمَةً» و«عِلْمًــا» للتعظيم، والرحمة: الوحي والنبوءة عند الجمهور على أنَّه نبيء، وقيل: رســول، وقيل: وليٌّ، وقيل: الرزق الواســع، وقيل: العزلة عن الناس وعدم الحاجة إليهــم، وقيل: طول الحياة مع الصِّحَّة، والعلم: علم الغيب بتكليم الملَك، أو بإشارته المعبَّر عنها بالنفث، كقوله ﷺ: «**إنَّ روح القــدس نفث في روعي أنَّــه لن تموت نفس حتَّى تســتكمل رزقها فاتَّقــوا الله وأجملوا في الطلــب**»[1] والإلهام من هذا، وملــك الإلهام للأنبياء وغيرهم، أو بتعليم الله بلا واسطة بل يلقي في قلبه.

وعلم الخضر بإيحاء الله على لسان الملك، أو بإشارة الملك من الله دون النطق، والأوَّل هو الوحي الظاهر، والثاني يســمَّى نفثــا، أو بالإلهام، وقيل: الإلهام من الثاني وله ملك يسمَّى ملك الإلهام ولا يختصُّ بالأنبياء.

وكلُّ ذلك غير علم الحروف. ويجوز تعاطي غيــر الوحي مِمَّا لا يخالف الشــرع، وقد ندم ابن عَبَّاس عن تركه علم التنجيم الذي لا يخالف الشــرع، وقال: إنَّ الناس عطَّلوني بالمنع عنه.

وكأنَّه قيــل: ما جــرى بينهما؟ فقــال الله ﷻ: ﴿**قَــالَ لَهُ مُوسَــى هَلَ اَتَّبِعُكَ**﴾... إلخ استفهم مع أنَّ الله ﷻ أرســله إليه للتعلُّم، بل طلب التعلُّم

(1) روى **ابن ماجه** مــا يقاربه لفظا في كتــاب التجارات، بــاب الاقتصاد في طلب المعيشــة رقم 2144، من حديث جابر بن عبد الله.

منه فأجابه، فجرى على سنن مريد التعلُّم من الطلب والخضوع، أي هل تبيح لي أن أتَّبعك.

[لغة] ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ قال الأصوليُّون: تأتي «عَلَى» للشرط كما هنا، قيل: وفي قوله تعالى: ﴿يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ﴾ [سورة الممتحنة: 12] وفي قوله: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي﴾ [سورة القصص: 27] وهو حقيقة عند الفقهاء، وتردَّد السبكي في وقوعه في كلام العرب، والصحيح وقوعه، قيل: ولم يذكره النحاة وهو في آية هذه السورة، قلت: هو داخل في الاستعلاء المجازي، وليس معنى حقيقيًّا لها، وزعم السرخسي أنَّه حقيقة وليس كذلك، كأنَّه قيل: هل أتبعك بانيا على أن تعلِّمني مِمَّا علِّمت رشدا؟ أي علما ذا رشد، وهو إصابة الخير.

[نحو] وهو مفعول ثان، وثاني «عُلِّمْتَ» محذوف أي عُلِّمْتَهُ، ويجوز أن يكون الثاني محذوفا منعوتا بقوله: ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ﴾ أي بعضا ممَّا علِّمت، فـ«رُشْدًا» بدل من البعض، أو مفعول مطلق لمحذوف مستأنف، أي أرشد رشدا، أو مفعول لأجله لـ«أَتَّبِعُكَ» أي لأكون رشيدا.

ولا إشكال في تعلُّم موسى مع كثرة علمه بالتوراة وغيرها من الخضر الذي هو دونه، لأنَّ أعلم الناس من يجمع علم غيره إليه، ولاختلاف العلمين. روى البخاري ومسلم والترمذي والنسائي، عن ابن عَبَّاس عن رسول الله ﷺ: «**إنَّ الخضر قال: يا موسى إنِّي على علم من الله تعالى علَّمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من الله تعالى علَّمكه الله سبحانه لا أعلمه**»[1] ومعنى قوله تعالى: «لي عبد أعلم منك» أنَّ الخضر أعلم من موسى بعلم الحقيقة،

(1) رواه **البخاري** في كتاب العلم، باب ما يستحبُّ للعالم إذا سئل... رقم 122. ورواه **مسلم** في كتاب الفضائل، باب فضائل الخضر عليه السلام، رقم 2380. ورواه **الترمذي** في كتاب تفسير القرآن باب ومن سورة الكهف، رقم 3149. من حديث ابن عَبَّاس.

ولموســى علم بعض الحقيقة، كما أنَّ للخضر ما يكفي من علم الشريعة، قال السيوطي: ما جمعت الشــريعة والحقيقة إلَّا لنبيئنا ﷺ، ولم يكن للأنبياء إلَّا أحدهما، على معنى: ما جمعــت على الوجه الأكمــل إلَّا له ﷺ، ولا يخفى تبليغه الشريعة، وأمَّا تبليغه الحقيقة فقد يكون منه لبعض المستعدِّين، تأمَّل.

[قلت:] ويظهر لي وجه آخر هــو أنَّ المراد بكون الخضــر أعلم أنَّ علم الحقيقة أدخل في حقيقــة العلم من غيره، فيتمُّ الكلام ولو لم يكن لموســى شيء من علم الحقيقة البتَّة.

﴿**قَالَ**﴾ له الخضر ﴿**إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْرًا**﴾ مَّا، وهو نكرة في سياق النفي تَعُمُّ ﴿**وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَــمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا**﴾ أكَّد نفي الصبر بالجملة الِاســمِيَّة و«إنَّ» وبإيقاعه بـ«لَنْ» فإنَّ نفيها أكيد، وبنفي الاستطاعة للصبر فإنَّه أوكد مــن نفي الصبر، كما ينهى عن القرب إلى الشــيء فــي مقام النهي عن الشــيء، فإنَّ القرب والاســتطاعة مِمَّا يتوقَّف عليه الفعل، فنفيهما أوكد من نفيه، وتنكير الصبر لئلَّا يبقى شيء مَّا منه.

[أصول الدين] والآية دليل على أنَّ الاســتطاعة مع الفعل لا قبله كما هو مذهبنا ومذهب ســلف قومنا، كما أشــار إليه إبراهيم الكورانــي[1]، وقالت المعتزلة: إنَّ الاســتطاعة قبل الفعل لا معــه، وكذا قال الأَشــعَرِيَّة وكما قال الفخر، إذ لو كانــت قبله لكان نفيها كذبا، وأنا أقــول: تطلق معه وتطلق أيضا قبله، كما يقال لفلان طاقة على كذا ولو قبل فعله، وكما وردت في الحج قبله ولا فرق، وكيف يتخلَّف الأمر بين الحجِّ وغيره؟.

---

(1) إبراهيم بن الحسن الشــهرزوري الكوراني، برهان الدين أبو إسحاق، فقيه شافعيٌّ محدِّث، ولد بشهراز، رحل في طلب الحديث فسمع بالشام ومصر والحجاز وسكن المدينة، وتوفي بها سنة 1101هـ. قيل: له نيِّف وثمانون مؤلَّفا، منها: «تفســير القرآن الكريم» وغيرها. عادل نويهض: معجم المفسِّرين، ج 1، ص 11.

وحاصل ذلك أنَّها بمعنى: يثقل الصبر على موسى كما يقال: لا يستطيع أن يرى فلانا، وليس هذا خروجا عن الظاهر كما يتوهَّم، وذكر بعض أنَّه لا دليل في الآية، إذ ليس المراد إلَّا نفي للصبر بنفي الاستطاعة التي يتوقَّف هو عليها، وهذا موجود حصلت قبله أو معه.

و«خُبْرًا» مفعول به لـ«تُحِطْ» لأنَّه في معنى تدرك، أو مفعول مطلق لتضمُّن «تُحِطْ» معنى المعرفة، أو تمييز للهاء، أي ما لم تحط بخبره، أو لم يحط به خبرك، لأن معتادك علم الظاهر وهو حالك، وهو مناف لظاهر علم الحقيقة، فتنسبني إلى السفه والمنكر، [قلت:] فإنَّ **شأن الصالح أن يشتدَّ إذا رأى ما خالف الحقَّ ولا يملك نفسه** ولا سيما نبيء شريعة، ولا سيما مع حدَّتك بالطبع حتَّى جررت إليك أخاك بلحيته ورأسه. وهذا إن علم الخضر بأنَّه فعل ذلك، أو علم أنَّه سيفعله وذلك في الأوَّلين، وأمَّا الثالث فلا إنكار شرعي فيه، لأنَّ ترك أخذ الأجرة مباح لا معصية بل طاعة لمن نواها. وذُكر في الأخبار أنَّ موسى جرَّ الخضر برجله ليلقيه في البحر فتذكَّر وندم.

﴿**قَالَ**﴾ موسى ﴿**سَتَجِدُنِيَ إِن شَآءَ اللَّهُ صَابِرًا**﴾ على ما أرى منك مخالفا لمعتادي، ولا أتعرَّض لك ﴿**وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا**﴾ عطف على «صَابِرًا»، لأنَّ المعنى: ستجدني صابرا وتجدني لا أعصي لك أمرا، أو على «سَتَجِدُنِي...» فالمعنى قال: «سَتَجِدُنِي...» وقال: «لَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا»، ولا تنسحب عليه المشيئة في هذا الوجه، وعلى كلٍّ يكون «لَكَ» حالا من «أَمْرًا»، وَالأوَّل أولى لأنَّه أوثق لقلب الخضر، ولأنَّ المشيئة مسلَّطة فيه على الصبر وعدم العصيان، فَلِذَلك قدَّمها على «صَابِرًا» ولم يعقِّبه بها، إذ لو أعقبها به لَتُوُهِّمَ أنَّها مسلطة على الصبر فقط، ولا يخفى أنَّ المشيئة تقييد، فلو شاء الله لم يصبر وعصى لا تبرُّكٌ، إذ هو في الآية غير متبادر منه، ولا يلزم الكذب على التقييد، لأنَّ المعنى: إن شاء الله صبرت ولم أعص لك أمرا، وإن شاء الله لم أصبر ولم أعص

بلا عمد بل نسيانا، وليس كما قيل: إنَّ الثانية والثالثة عمد فإنَّه خطأ حاشاه، بل غلب عليه حال الظاهر، فكان ينسى، والنسيان في الأخيرتين عند بعض.

وقال ابن حجر: الأولى نسيان والثانية شرط والثالثة عمد، وقيل: الثانية عمد والثالثة فراق، والحقُّ أنَّ الكلَّ نسيان. والمراد بالأمر: واحد الأمور، أو طلب الفعل وطلب الترك، فشمل النهي لأنَّه طلب الترك.

﴿**قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْئَلْنِّي عَن شَيْءٍ**﴾ فعلته أو تركته ﴿**حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا**﴾ عطف بالفاء على كلام موسى تفريعا عليه، أكَّد عليه في ترك السؤال مطلقا ولو عن حكمة فعل أو ترك، فكيف بمعارضة أو مناقشة، ومعنى ﴿أُحْدِثَ...﴾: أبتدئك ببيانه، أي لا تنكر عليَّ بلسانك ولو أنكر قلبك، أو توقَّف عن الإنكار لعلمك أنَّ ما أفعله حقٌّ، فقبل أن أحدِّثك تسكتُ، وبعد التحديث لا وجه للسؤال بعد البيان.

﴿**فَانطَلَقَا**﴾ موسى والخضر، ولم يذكر يوشع لأنَّه تابع لموسى، وقيل: ردَّه موسى إلى بني إسرائيل. قال البخاري ومسلم وغيرهما: إنَّهما مشيا على الساحل فطلبا أهل سفينة مرَّت عليهما أن يحملوهما فعرفوا الخضر فحملوهما بلا كراء، وذكر ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس أنَّهم ظنُّوا أنَّهما لصوص، وكان الموضع مخوفا، فأبوا فقال كبيرهم: أرى رجالا عليهم النور لأحملنَّهم فحملهم.

﴿**حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا**﴾ «ال» للحقيقة إذ لا عهد بها، ولا يصحُّ الاستغراق، وهي سفينة جديدة قَوِيَّة أحسن ما يكون، ويقال: كانت صغيرة تحمل من عدوة إلى عدوة، وهو مناسب لأن تكون في بحر طنجة فهي تحمل من عدوتنا هذه إلى عدوة أندلس. [قلت:] وكنت أقول «الأندلس» بـ«ال» ثمَّ تذكَّرت أنه لا وجه لـ«ال» لأنَّه عَلَم، فلا وجه لـ«ال» إلَّا تكلُّف تضمّن معنى جزيرة. والمشارقة يقولون: في بحر الشام، وأنَّها تحمل إلى أيلة. وَلَمَّا طلعا فيها جاء عصفور حتَّى وقع على حرف السفينة ونقر في البحر وقال له الخضر: ما نقص

علمي وعلمك من علم الله تعالى إلَّا مثل ما نقص هذا العصفور من البحر، وهذا تمثيل إذ لا ينقص من علم الله تعالى شيء والبحور تنفد، وعلم الله لا ينفد.

وعدَّى «رَكِبَا» بـ«فِـي» لتضمُّن الركوب معنى الدخـول، وانظر هل ذكرت شيئا في قوله تعالى و ﷻ: ﴿وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا﴾ [سورة هود: 41][1]. وخرقها بقلع لوح منها بالقـادوم، وقيل: لوحين مِمَّـا يلي الماء، وقيل وتـد فيها وتدا أيضا، ويروى أنَّها لَمَّا صارت في لجِّ الماء أخذ منقابـا له فنقبها وأخذ لوحا وأصلحها به، وقيل: حين شارفت الأرض، ويُجمَع بأنَّه عزم في اللجَّة أو ابتدأ فيها ولم يتمَّ حتَّى شارفت أرض العدوة أو أرض جزيرة نزلوها أو لم ينزلوها، ومعنى ما يلي الماء: ما يقرب منه بحيث يدخلها ويُقدَر على علاجه، أمَّا في أسـفلها فلا يُقدَر على إصلاحهـا إلَّا بقدرة من الله لـه، أو بكفِّهِ الماء له. وعلـى كلٍّ حال قال له موسى عليه السلام: قوم حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها! ﴿**قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَـا**﴾ وذُكر أنَّه خرقها وأهلها فيها، وذكر بعـضٌ أنَّهم خرجوا فتخلَّف فيها ليخرقها ومعه موسـى. ومعنى الإغراق مع هذا أنَّهم إذا ركبوا فيها غرقوا إذ كانت بخرقه، ولو أصلحها يدخلها الماء قليلا شـيئا فشيئا، وإن خرقها وهم فيها فهم لم يشعروا بأنَّه يخرقها بأن خرقها في موضع لا يرونه وليسوا فيها.

[قصص] وروى عبد بن حميد ومسـلم وابن مردويه حديثا أنَّه خرج من كان فيها وتخلَّف ليخرقها، فقال له موسـى: تخرقها لتغرق أهلها؟ والمضارع في عبارة موسـى لاسـتحضار الصورة، أو عـزم على الخرق فلامه موسـى بالمضارع، وَلَمَّا خرق لامه بالماضي، وقد يمكن أنَّه حين الشروع في الخرق لم يروه ولا رأوا خرقه على أنَّه كالجنِّـيِّ يظهر إذا أراد ويختفي إذا أراد بإقدار الله ﷻ له على ذلـك، فلم يره إلَّا موسـى. ولفظ أبي العاليـة عن حمَّاد عن شعيب: إنَّ الخضر عبد لا تراه إلَّا عين من أراد الله تعالى أن يريه إِيَّاهُ.

---

(1) انظر: تيسير التفسير، ج 6، ص 398.

واللام للعاقبة لا للتعليل لأنَّه يحسن الظنَّ بالخضر، وهو ولو غضب يستحضر أنَّ الخضر وليٌّ لله أعلم منه.

ومعنى ﴿نُكُرًا﴾ تنكره العقول ولم أهتد إلى وجهه، ويجوز التعليل بأن نسي ولايته وأعلميَّته لشدَّة ما حدث عليه مِمَّا يخالف ظاهره علم الأحكام.

[قصص] واشتدَّ غضبه وشدَّ عليه ثيابه حتَّى نسبه لقصد الإغراق والمنكر، وحتَّى قيل: جرَّ الخضر ليلقيه في البحر، وقال: أردت أن تهلكهم فستعلم أنَّك أوَّل هالك، وكلَّما ازداد غضبا استعرَّ البحر، وكلَّما سكن كان البحر كالدهن، ويوشع يقول له: ألا تذكر العهد الذي جعلت على نفسك؟

﴿**لَقَدْ جِئْتَ**﴾ أتيت وفعلت ﴿**شَيْئًا اِمْرًا**﴾ بكسر الهمز كسرا نقل إلى تنوين «شَيْئًا»، بمعنى أمرا عظيما غير مألوف ﴿**قَالَ**﴾ له الخضر ﴿**أَلَمَ اَقُلِ اِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا**﴾؟ توبيخ لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فرجع إليه حلمه واعتذر كما قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**قَالَ لَا تُوَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ**﴾ بنسياني لوصيَّتك أن لا أسألك حتَّى تحدث لي ذكرا، كأنَّه تحقَّق عنده أنَّ نسيانه أمر محقَّق عند الخضر، وإلَّا قال: إنِّي نسيت فلا تؤاخذني بنسياني، أو اختصر له ذلك فعبَّر له بعبارة واحدة.

والنسيان ضروريٌّ لا اختياريٌّ، والباء للتعدية وإنَّما المؤاخذة على ما يوصل إليه من ترك التشمُّر، وموسى متشمِّر لكنَّه غلبه تشمُّرٌ معتادٌ له قديم في أمر الشرع، ويجوز أن تكون سببيَّة مراعى فيها السبب البعيد وهو ترك التشمُّر، ولولاه لم يكن النسيان، ويجوز تعلُّقها بالنهي كأنَّه قال: اترك المؤاخذة لنسياني، والنهي أمر بالترك، كما يجوز تعليق الباء في حرف النفي في قوله: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [سورة القلم: 2] أي انتفى بنعمة ربِّك الجنون عنك. و«مَا» مَصدَرِيَّة كما رأيت، ويجوز أن تكون اسما، أي بشيء نسيته، أو بالذي نسيته وهو الوصية، فيقدَّر مضاف أي: بترك ما نسيته، لأنَّ

المؤاخذة بترك الوَصِيَّــة لا بها، وقد لا يقدَّر لأنَّ الوصية ســبب للمؤاخذة إذ لولاها لم تكن المؤاخذة، أو لأنَّ النسيان بمعنى الترك.

﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنَ اَمْرِي عُسْرًا﴾ مفعول ثان، أي: لا تدخل عليَّ أمرا عسرا وهــو الصعوبة، ومعنى «أَمْــرِي» متابعتي لــك فإنِّي أحبُّ اتِّبَاعك وتيســيره بالمسامحة وترك المناقشة، أو «اَمْرِي»: نسياني.

﴿فَانطَلَقَا﴾ فقبل عذره وخرجا من السفينة فانطلقا يمشيان على الساحل، وهنا يبعد أن يكون البحر بحر طنجــة لأنَّهما إذا جاوزاه عرضا وقعا في أرض أندلس، فلا تكون القرية تلمســان أو مثلها من مغربنا، هذا ولا جدار فيها أو في مثلها في هذه الأرض إلَّا بأن يرجعا في سفينة إلى هذه الأرض، وهو غير مذكور في الكتب وبعيد فيكون الغلام والقرية فــي غير هذه الأرض. بل في أندلس أو بعدهــا، ولكن هذا أيضــا بعيد؛ لأنه من خرج مــن مضيق أندلس يدخل البرَّ الكبير مثل هذا البرِّ، أو أكبر أو أصغــر، وهو برُّ الأمم الكبيرة من العجم وأصحاب اللغات المختلفة، ولا يجد مسلكًا إلى برِّ الشام، لأن البحر يعارضه، إلاَّ أن يكون بحر الشــام غير موصول بآخر يومئذ، فيبعُدُ الأمر جدًّا، فيمشي من وراء القسطنطينية الكبرى إلى أعلى بحر الشام، فيدخل الشام، ثم وصل بحر الشــام، فنختار بحر طنجة ونقول: سارت الســفينة على طوله من ساحل في عدوتها إلى ساحل آخر فيها لا على عرضه، فلا يدخلان أندلس.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا﴾ مع عشرة غلمان يلعبون وهو أحسنهم وأنظفهم، اســمه كما قال البخاري «جيســور» بالجيــم، وروي بالحــاء المهملة، أو «جنبتور»، غير بالغ عند الجمهور لقول موسى: ﴿نَفْسًا زاكِيَةً﴾ وقيل: بالغ، ســنُّه عشــرون ســنة كما أخرجه ابن أبي حاتم عن ســعيد بن عبد العزيز، والشابُّ يسمَّى غلاما ولو كان ابن عشــرين، بل قيل: أصله بعد البلوغ لأنَّه من الغلمة، وذلك يتمُّ بعد البلوغ فيكون تســمية من لــم يبلغ غلاما مجازًا

لعلاقة الأَوْل بمعنى أنَّه يؤول، ومن قال بالغا قال: إنَّ زكاته أنَّه بريء من قتل نفس يقتل بها ﴿فَقَتَلَهُ﴾ [قيل:] بأن قلع رأسه بيده من أعلاه أو أضجعه فذبحه أو ضرب رأسه بالجدار، أو رضَّه بحجر أو ضربه برجله أو أدخل إصبعه في سرَّته فاقتلعها ومات في ذلك كلِّه، ويبعد الجمع بأنَّه فعل ذلك كلَّه لأنَّه زيادة تعذيب، أو إحداث بالميِّت إلَّا أن يقال: فعل ذلك تعجيلا عن تعذيبه في الموت ﴿قَالَ﴾ له موسى ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَاكِيَةً﴾ عن الذنوب إذ لم تبلغ، كما فسَّر ابن عَبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الزكاة بصغر السنِّ تفسيرا باللازم، أو لم تحدث موجب قتل، واستدلَّ بعض على بلوغه بقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ لأنَّ الطفل لا يقتل بمن قتل بل الدية على عاقلته، وإن أُمِر فعلى آمره، وأجاب الجمهور بأنَّ المراد ذكر غير نفس توجب القصاص، والصبيُّ كذلك لا نفس توجب قتله بقتلها.

وإنَّما ذكر القصاص لأنَّه أنسب بالمقام، أو أنَّ شرعهم قتل الصبيِّ القاتل ولا سيما إن كان مراهقا.

[فقه] وقد اختلف أصحابنا في أحكام المراهق، المختار: أنَّها أحكام الصبيِّ، وذكر البيهقيُّ أنَّه كان في شرعنا قتل الصبيِّ القاتل قبل الهجرة، وقال السبكي: قبل أُحُد ثمَّ نسخ، وهكذا كما قيل: إنَّ التكليف كان بالتمييز ثمَّ نسخ بالاحتلام، كما قال ﷺ لعليٍّ وهو ابن ثمان سنين «**أسلم**» فقيل: تكليفا بالتمييز، أو أمر باعتقاد الإسلام والعمل به.

﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ تنكره العقول والشرع، وهو أشدُّ من خرق السفينة لأنَّه قتل حاضر باشره، وخرق السفينة تحتمل معه السلامة ولم يباشر فيه قتلا. وزعم بعض أنَّ الإمر ـ بكسر الهمزة ـ أشدُّ من النكر، فلعلَّ وجهه أن قتل نفوس كثيرة بالإغراق أشدُّ من قتل واحدة، اعتبر المآل ولو احتمل السلامة، وفي هذا القول تنزُّل من الأقوى وهو الإمر إلى القويِّ وهو

النكر، ثمَّ الضعيف وهو ترك الأجرة، والتنزُّل غير لازم، بل الآية على ترتيب الوجود لا تنزُّل فيه ولا ترقِّي. وَمِمَّا زاد موسى شدَّة الإنكار أنَّ الخضر لَمَّا رأى الغلام قتله ولم يمهله، ولو مضت مدَّة لاحتمل له موسى أنَّه رأى منه الخضر ما لم يره هو.

﴿**قَالَ**﴾ الخضر ﴿**أَلَمَ اَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْرًا**﴾؟ زاد «لَكَ» زيادة في التوبيخ على السؤال قبل أن يحدث له ذكرا.

﴿**قَالَ**﴾ موسى ﴿**إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ**﴾ مِمَّا تفعله ﴿**بَعْدَهَا**﴾ بعد هذه القتلة أو المرَّة أو المسألة ﴿**فَلَا تُصَاحِبْنِي**﴾ لا تكن صاحبي بل اتركني، وعلَّل ذلك بقوله: ﴿**قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا**﴾ وجدت لنفسك عذرا في هجرتي من جهتي، والعتاب متوجِّه عليَّ لا عليك إذ خالفتك مرَّة بعد أخرى، قال رسول الله ﷺ: «**رحم الله أخي موسى لو صبر لرأى العجائب**»[1] ويروى: «**رحمة الله علينا وعلى موسى لو صبر على صاحبه لرأى العجب لكن أخذته من صاحبه ذمامة فقال ذلك**»[2].

---

(1) أورده **الزبيدي** في الإتحاف: ج 1، ص 317. **والعراقي** في المغني: ج 4، ص 28.

(2) رواه **مسلم** في كتاب الفضائل (46) باب ما جاء في فضائل الخضر عليه السلام، رقم 172. ورواه **الحاكم** في مستدركه، كتاب تواريخ المتقدِّمين من الأنبياء والمرسلين، رقم 105/4096. من حديث أُبي بن كعب بنفس المعنى.

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿77﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿78﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿79﴾ وَأَمَّا الْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿80﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿81﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿82﴾﴾

تتمَّة قصَّة موسى مع الخضر

(2)

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ قيل: تلمسان، وقيل: قرية في الجزيرة الخضراء من أندلس، روى القولين بعض المشارقة، ولعلَّ المراد أنَّها قرية في أرض هذه العدوة تقابل الجزيرة الخضراء من عدوة أندلس، وقال الجمهور: القرية أنطاكية، وهو مرويٌّ عن ابن عبَّاس رضي الله عنه، وروى ابن أبي حاتم من طريق قتادة أنَّها برقة وهي على المشهور في المغرب الأدنى إلى المشرق، وقيل: قرية بأرض الروم وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه أنَّها بأجروان، فاختار بعض أنَّها بنواحي أرمينية، وأخرج ابن أبي حاتم عن محمَّد بن سيرين

أنَّها أبُلَّة بشــدِّ اللام، وقيل: ناصرة على الساحل تنســب إليها النصارى، **ولا يوثق بشيء من ذلك**، قال رسول الله ﷺ: «**أتيا أهل قرية لئاما**».

﴿**اسْــتَطْعَمَآ أَهْلَهَا**﴾ نعت «قَرْيَةٍ» وجواب «إِذَا»: ﴿قَالَ لَوْ شِــئْتَ لَتَّخَذتَّ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾، وقال أبو البقاء وغيره: جواب «إِذَا» هو قوله: ﴿اسْتَطْعَمَآ﴾ وقوله: ﴿قَالَ لَوْ شِــئْتَ لَتَّخَذتَّ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ مســتأنف، والمختار أنَّه نعت وجواب «إِذَا»: ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ...﴾. ولم يقل: استضافا لأنَّهما أرادا مطلق الإطعام وبما أمكن لا خصوص الإضافة والميل إلى بيت أحد.

ورأيت منذ خمسين عاما في زمان الشبيبة أبياتا للصلاح الصفدي[1] يسأل فيها السبكي[2] وهي في شــرح الدماميني[3] على المغني الذي ألَّفه في الهند الذي يقول فيه قال: أقول أبياتا في الســؤال عن تكرير ذكر «أهل» إذ لم يقل: فانطلقا حتَّى إذا أتيا أهل قرية استطعماهم، ونصُّها:

أَسَــيِّدنا قاضي القضاة ومن إذا ... بدا وجهه اســتحى له القمران

ومن كفُّــه يوم النــدى ويراعه ... علــى طرســه بحــران يلتقيان

ومن إن دَجَت في المشكلات مسائل ... جلَّاهــا بفكــرٍ دائــم اللمعان

رأيت كتــاب الله أفضل معجز ... لأفضــل من يهدي بــه الثقلان

ومن جملة الإعجاز كون اختصاره ... بإيجــاز ألفــاظ وبســط معان

ولكنَّني في الكهف أبصرت آية ... بها الفكر في طول الزمان عناني

وما هي إلَّا «استطعما أهلها» فقد ... نرى اســتطعماهم مثلــه ببيان

---

(1) صلاح الدين الصفدي خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي، كثير التصانيف الممتعة، ولد في صفد بفلسطين وإليها ينسب، تعلَّم بدمشــق فعانى صناعة الرسم فمهر بها، ثمَّ ولع بالأدب وتراجم الأعيان، له زهاء مائتي مؤلَّف، توفي سنة 764هـ. الأعلام للزركلي، ج 2، ص 315.

(2) الســبكي هو محمَّد بن عبد البر بن يحيى، قاض، عالم بِالعَرَبِيَّةِ والأدب، مفسِّــر من فقهاء الشَّــافِعِيَّة من أهل مصر، عاش في مصر والشــام وتولَّى فيهما مناصب رفيعة. توفي ســنة 777هـ. معجم المفسِّرين، ج 2، ص 544.

(3) انظر ترجمته في: ج 2، ص 239.

فما الحكمة الغرَّاء في وضع ظاهر مكان ضمير إنَّ ذاك لَشَانِي
فأَرْشِد على عادات فضْلِكَ حيرتي فما لي لها عند البيان يَدان

فأجابه السبكي بأنَّ استطعما أهلها نعت لـ«قَرْيَة» لا جواب لـ«إِذَا»؛ لأنَّ كونه جوابا لـ«إِذَا» يوهم أنَّ قصدهما كلَّه أو معظمه الأكل، وليس كذلك بل قصدهما كلُّه إظهار عجائب إعظاما لله ﷻ، ولا نعت لـ«أهل» لأنَّه يوهم أنَّ القصد بيان حال الأهل من حيث هم هم، ولا يكون للقرية أثر في ذلك، وليس كذلك، فَإِنَّا نجد بَقِيَّة الكلام مشيرا إليها نفسها.

قلت: وفي هذا التعليل نظر لأنَّ أهلها جرى لهم ذكر في قوله: ﴿اسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا﴾، وفي قوله: ﴿فَأَبَوْاْ اَنْ يُّضَيِّفُوهُمَا﴾، بل وفي قوله: ﴿لَتَّخَذتَّ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾؛ لأنَّ أخذ الأجر عنهم لا عن قريتهم، ولا فرق بين جريان الذكر للقرية ولهم في أنَّ ذكر أحدهما بالذات والآخر بالعرض، وأجاز الأوجه الثلاثة، واختار نعت القرية وأجاز كون الأهل الثاني غير الأوَّل، أو بعض من الأوَّل وبعض من غيره، فكان الإظهار، فإنَّ من أتى قرية يلتقي أوَّلا ببعضهم ثمَّ بالبعض الآخر، فقد تشير الآية إلى أنَّهما استقصياهم أو جلَّهم فأبوا، **وللبقاع تأثير في الطباع**.

ويجوز أن تكون نكتة التكرار التحقير لهم بذكرهم باسم الأهل مرَّتين، مع وصفهم بالإباء، إذا أردت تقبيح عمرو بتأكيد قلت: عمرو بخيل عمرو جبان، وكون المعرفة عين الأولى هو الأصل والكثير لا واجب، ولذا صحَّ أن يكون الثاني غير الأوَّل، أو يقال: الأهل الأوَّل البعض والثاني أعمُّ، إذ في ابتداء دخول القرية لا يمكن إتيان أهلها، ولا سيما أنَّه روي أنَّهما دخلاها عند غروب الشمس فذلك مرور على بعض، والأكثر صبحا.

روي أنَّهما يمشيان على مجالسهم يستطعمانهم، ولو جيء بالضمير لفهم أنَّهما استطعما البعض، وقيل: الأهل الأوَّل الجميع، وإتيانهم الوصول إليهم والحلول فيهم، والثاني البعض وسؤالهم كلِّهم متعذِّر، والظاهر أنَّهما سألا بعض الرجال.

وعن أبي هريرة: أطعمتهم امرأة من بربر إذ امتنع الرجال فلعنا رجالهم ودعوا لنسائهم، والله أعلم بصحَّة ذلك. واختار بعض أنَّهما استطعما الرجال المعتبرين بظاهر حالهم فأبوا، وغيرهم أولى بالإباء بحسب المعتاد، والأهلان واحد.

وذكر بعض أنَّه أعيد الظاهر لئلَّا يلتقي ضميران، وهذا مِمَّا يُذْكَرُ لِيُرَدَّ، لكثرة ذلك في القرآن وغيره، ومن ذلك: ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ [سورة الكهف: 52] وقوله: ﴿فَأَبَوْاْ اَنْ يُّضَيِّفُوهُمَا﴾، ولا مانع من أن يكون «اسْتَطْعَمَا» جواب «إِذَا» بأن ذكر الله واقعتهما على ترتيبها في الوجود، ويعلم من خارج أنَّ مقصودهما بالذات ليس الطعام، مع أنَّه جرى ذكر الأهل أكثر مِمَّا جرى ذكر القرية، فانظر قوله: ﴿فَأَبَواْ﴾، وقوله: ﴿يُضَيِّفُوهُمَا﴾، وقوله: ﴿لَتَّخَذتَّ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾، فبان الأخذ عنهم لا عنها، وقوله: ﴿لِغُلَامَيْنِ﴾، وقوله: ﴿لَهُمَا﴾، وقوله: ﴿أَبُوهُمَا﴾، وقوله: ﴿أَشُدَّهُمَا﴾، وقوله: ﴿يَسْتَخْرِجَا﴾، وَقوله: ﴿كَنزَهُمَا﴾، وَقَوله: ﴿رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ﴾، فإنَّ الرحمة للناس لا للقرية، ألا ترى أنَّه يبعد معنىً: «حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذتَّ عَلَيْهِ أَجْرًا»، ولو اعتبر ما بينهما واعتبر أنَّ المقصود بالذات قوله: ﴿لَتَّخَذتَّ﴾ لأنَّه كالسؤال الذي نهاه عنه، واعتبار هذا الأخير هو العمدة في جواب السبكي، بل جعْلُه نعتا ضعيف، لأنَّ الأصل في النكرة لمن علم وجود مضمونها وخفي عنه تمييزه، فتقيَّد له بالنعت، والمخاطب بالآية لا معرفة له بها البتَّة ﷺ، ثمَّ بعد مضيِّ نحو خمسين عاما وجدت جوابا لبعضهم هكذا:

لأسرار آيات الكتاب معاني ... تدقُّ فلا تبدو لِكُلِّ معاني
وفيها لمرتاض اللبيب عجائب ... سنا برقها يعنو له القمران
إذا بارق منها لقلبي قد بدا ... هممت قرير العين بالطيران
سرورا وإبهاجا وصولا على العدا ... كأنِّي على فوق السماك مكاني
فما الملك والأكوان ما البيض ما القنا ... وعندي وجوه أسفرت بتهاني
وهاتيك منها قد أبحتك سرَّها ... فشكرا لمن أولاك حسن بياني
أرى «استطعما» وصفا على «قرية» جرى ... وليس على «أهل» فذاك وزاني

صناعتنا تقضي بأن استتار ما يعود إليه ماله من مكان
ويضعف أنَّه جواب وأوّل الثلا ثة هذه بحسن سباني
ورضت به فكري إلى أن تمخضت به زبدة الأحقاب منذ زمان
وإنَّ حياتي في تموج أبحر من العلم في قلبي يمدُّ لساني

وأجاب بعض نظما بقوله:

سألت لماذا «استطعما أهلها» أتى عن «استطعماهم» إن ذاك لشأني
وفيه اختصار ليس ثمَّ ولم تقف على سبب الرجحان منذ زمان
فهاك جوابا رافعا لنقابه يصير به المعنى كرأي عيان
إذا ما استوى الحالان في الحكم رجِّح الضمير وَأَمَّا حين يختلفان
فقد كان في التصريح إظهار حكمة كرفعة شأن أو حقارة جاني
كمثل أمير المؤمنين يقول ذا وما نحن فيه صرَّحوا بأمان
وهذا على الإيجاز والبسط جاء في جوابي منثورا بحسن بيان[1]

﴿فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ أن ينزلوهما ويميلوهما إليهم من ضاف السهم عن الهدف مال عنه إلى جانب، وضافت الشمس مالت إلى الغروب، والإباء أشدُّ الامتناع ولذلك لم يستغن عنه بقولك: فلم يضيِّفوهما، ولا يخفى أنَّ الاستطعام طلب الطعام على وجه الضيافة، مثل أن يقولا: إنَّا غريبان فأطعمونا، والغريب يُضيَّف، أو أن يقولا: إنَّا غريبان فضيِّفونا، ولذلك قال: ﴿فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ ولو كان طلبهما بلا ذكر ضيافة أو تلويح إليها لقال: فأبوا أن يطعموهما، ومع ذلك لم يقل الله عنهما: استضافا، ولو قال: أضيفونا، وإن لم يذكر الضيافة علموا أنَّهما ضيفان، بل قال: ﴿ٱسۡتَطۡعَمَآ﴾ لأنَّ مقصودهما الطعام فقط، لا الإيواء إلى بيت أو دار.

---

(1) أورد **الآلوسي** هذه الأبيات والتي قبلها، في روح المعاني، ج 16، ص 3 ـ 4. ونسب الأبيات الأخيرة لعز الدين علي الموصلي.

وفي «أَبَوَا اَنْ يُّضَيِّفُوهُمَا» تشنيع ليس في «أبوا أن يطعموهما» لأنَّ الكريم قد يغفل عن السائل أو يردُّه ولا يعاب عليه، مثل ما يعاب عليه إذا ردَّ الوارد ضيفا، ولا يردُّ الضيف إلَّا اللئيم، ومن أعظم ما تهجو به العرب البخيل قولهم: فلان يطرد الضيف، ودونه يحرم الضيف، وشرُّ القرى التي لا يضاف فيها الضيف، ولا يعرف فيها لابن السبيل حقُّه.

وذكر بعض أنَّ أهل تلك القرية لَمَّا سمعوا نزول الآية أتوا إلى النبيء ﷺ بحمل من ذهب، وقالوا: «خذه، وقل أَتوا أن يضيِّفوهما»، بالمثناة الفوقية بدل المحوَّدة، وقيل: أتوا في زمان عليٍّ، **ولم يصحَّ شيء من ذلك**، ولو صحَّ لكان أخبث لهم من الشحِّ إذ طمعوا أن يبدِّل النبيء ﷺ أو عليٌّ القرآن، ولو بالدنيا وبإسلام أهلها كلِّهم.

وعطف على «أَتَيَا» بقوله: ﴿**فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا**﴾ على الشارع بأن التجآ إليه في ليلة باردة إذ لم يجدا مأوى.

[قصص] [قيل:] طوله إلى السماء مائة ذراع عن وهب بن منبه، ومائتا ذراع عن الثعلبي، وعلى الأرض خمسمائة ذراع، وعرضه خمسون يمرُّون تحته خائفين.

﴿**يُرِيدُ أَنْ يَّنقَضَّ**﴾ ينفعل من القضِّ بمعنى الكسر، والمراد: السقوط بسرعة، والسقوط من لازم الانكسار، أو من القَضَّة وهي الحصى الصغار يقال طعام قضض إذا كان فيه الحصى، والمعنى: يريد أن يكون حصى بالتفتُّت ومن لازم ذلك أن يسقط، أو أفعلَّ بشدِّ اللام من النقض، وفيه أنَّ اِفْعَلَّ بشدِّها في الألوان والعيوب كـ«اِحْولَّ» بشدِّها، ويضعف أن يقال: الانقضاض ملحق بالعيوب لأنَّه ليس موضوعا بالذات للعيب.

[بلاغة] ونسبة الإرادة إلى الجدار وإسناد الإرادة إلى الجدار مجاز عقليٌّ، لأنَّ إرادة الشيء سبب لقربه وملزوم لقربه، فالمراد: قرب وقوع الجدار، أو استعارة، بأن شبَّه قرب السقوط بالإرادة لجامع الميل، أو شبَّه الجدار بالإنسان أو الحيوان الآخر ورمز إلى التشبيه بلازم الحيوان أو الإنسان وهو الإرادة.

وفي أصول الفقه أنَّ محمَّد بن داود الأصبهاني[1] منع المجاز في القرآن فردَّ الضمير إلى الخضر، أو موسى أو الجدار على أنَّ الله خلق فيه الإرادة **وذلك تكلُّف**، وقال أبو حيَّان: لا يصحُّ عنه إنكار المجاز ولو صحَّ عن أحد إنكار المجاز في القرآن لقلنا: إنَّه أهل لأن يكون للحوافر والأظلاف مجازًا. وينافي إرادتهما أن ينقضَّ قوله تعالى:

﴿**فَأَقَامَهُ**﴾ إلَّا أن يُتكلَّف أنَّ الخضر أراد هدمه ثمَّ ظهر له أن يصلحه، وأمَّا موسى فلا وجه لإرادته أن ينقضَّ، وعن أُبيِّ بن كعب أنَّه قرأ رسول الله ﷺ: «يريد أن ينقضَّ فهدَّمه ثمَّ قعد يبنيه». وعن ابن عبَّاس وابن جبير: أقامه بمسحه بيده، وقيل: أقامه بعمود عمَّده، وقال مقاتل سوَّاه بالشيد.

﴿**قَالَ**﴾ موسى ﴿**لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذتَّ عَلَيْهِ**﴾ أي على إقامته بالمسح أو بالتعميد، أو بالبناء بعد الهدم، أو بالتجصيص ﴿**أَجْرًا**﴾ لا يقال هذا مانع من كون الإقامة بالمسح إذ لا تستحقُّ الأجرة لسهولتها، ولا سيما أن يكون الطالب نبيئا لأنَّا نقول: يحلُّ طلب الأجرة ولو كثيرة على عمل ولو يسيرا، ولو كان يسره بقدرة إلهيَّة غير جارية على المعتاد. والمتبادر أنَّ قُوَّة نفس موسى ضعفت فلم يبق له السؤال إلَّا بهذه العبارة.

[صرف] واتَّخَذَ: افتعل، من تَخِذَ أدغمت تاء تخذ في تاء افتعل، وقيل: افتعل من أخذ أبدلت همزته تاء وأدغمت في تاء افتعل.

حثَّه موسى عليه السلام على أخذ الأجرة لأنَّ إقامته عمل كبير، وهما محتاجان ولا سيما قد حرموهما من الإطعام، حتَّى كأنَّه سأله لِمَ لَمْ تأخذ الأجر؟ وقد شرط أن لا يسأله حتَّى يحدثه ذكرا، وقد شرط على نفسه إن سأله ثالثة أن لا يصاحبه، فقال له الخضر ما ذُكر في قوله تعالى:

---

(1) هو محمَّد بن داود بن علي الظاهري صاحب المذهب، العلَّامة البارع ذو التصانيف أبو بكر، فكان أحد من يضرب به المثل بذكائه، وكان يجتهد ولا يقلِّد أحدا، مات سنة 297هـ. تهذيب سير أعلام النبلاء، ج 1، ص 509.

﴿**قَالَ**﴾ له الخضر ﴿**هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ**﴾ وذلك أنَّ قوله: ﴿لَوْ شِئْتَ...﴾ الخ بمعنى: إنِّي عالم بأنَّك أهل للأجر على عملك فلم لا تأخذها؟ فهو لازم الفائدة لا مجرد إخبار بأنَّه لو شاء لأخذ الأجر إذ لا فائدة في هذا، ويبعد ما قيل: إنَّه قال ذلك للخضر تعريضا بِأَنَّ إقامته فضول بما لم يطلب منه، مع احتياجهما وحرمانهم.

وإنَّما فارقه الخضر على هذه الثلاثة ولم يصبر له لثقل الاعتراض عليه، مع أنَّ موسى عقد على نفسه الفرقة عليها، ولأنَّ هذه غير منكر لأنَّ ترك الأجرة إحسان بخلاف الأُولَيين فظاهرهما منكر، ولأنَّ الثالثة طلب لنفسه والأوليين لله كما روي عن ابن عَبَّاس، ولو قيل: إنَّ هذا لا يصحُّ عنه لجلالتهما عن تمحُّض طلب الدنيا.

والإشارة إلى الفراق المذكور في قوله: ﴿فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾ أي هذا فراق في ذهني موافق للذي ذكرت، أو إلى الزمان الحاضر، أي هذا الوقت وقت فراق، أو الاعتراض أي سبب فراق بيني وبينك. وإعادة الجارِّ في العطف على المجرور المتَّصل هي الفصحى، وإجراء الكلام عليها للتأكيد، إذ لو قال: هذا فراق بيننا لصحَّ، وذلك من إضافة المصدر إلى الظرف اتِّساعا وقرَّرها ابن الحاجب(1) بفي.

ويقال بالمعنى لا بالوقوع تحقيقا أن يقال له حين أنكر خرق السفينة: أين تدبيرك وأنت في التابوت ملقى في البحر؟ وكسرت ألواح التوراة بإلقائها؟ وحين أنكر قتل الغلام: قد قتلت القبطي بوكزة، وحين أنكر إقامة الجدار بلا أجر: قد رفعت الحجر عن البئر وسقيت لبنتي شعيب بدون أجر، وقد قيل: إنَّه خاطب موسى بذلك مرَّة عند إرادة الفراق، [قلت:] ولا يصحُّ ذلك، قيل: إلَّا إن قيل: قال بالمعنى.

(1) هو الإمام العلَّامة المقرئ الأصوليُّ الفقيه النحوي أبو عمرو عثمان بن عمر بن أبي بكر الكردي المالكي صاحب التصانيف، ولد سنة 570هـ، درَّس بجامع دمشق وتخرَّج به الأصحاب توفي سنة 644هـ. تهذيب سير أعلام النبلاء، ج 3، ص 261.

[وصية الخضر لموسى] وَلَمَّـا أراد الفراق قـال للخضر: أوصني، فقال: «كن نفَّاعا لا ضرَّارا، وبشَّاشـا لا غضبان، ودع اللجاجـة، ولا تمش في غير حاجة، ولا تعيِّر امرءًا بخطيئته، وتعلَّـم العلم للعمل به لا للتحدُّث به» وقال: ادع لي، فقال: «يسَّر الله عليك طاعته».

﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَاوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ التأويل: ردُّ الشيء إلى مآله، والمراد هنا المؤول إليه وهو العاقبة، والمآل، و«عَلَيْـهِ» متعلِّق بـ«صَبْرًا» قدِّم عليه ـ ولو كان معمول المصدر لا يتقدَّمه ـ للفاصلة.

[بلاغة] وفي التعبير بـ«مَا لَمْ تَسْـتَطِعْ» دون «مـا فعلت» أو «ما رأيت» تعريض بعتاب موسـى، وللتنبيه على أن يتقوَّى لِمَا يلقى إليـه من التأويل، وذلك بلا طلب من موسى لكن ليزول همُّ موسـى وليحسن الظنَّ بالخضر، وقيل: أمسكه بثيابه وقال: لا أفارقك أو تخبرني بما فعلت من الخرق والقتل والإقامة، فقال: ﴿سَأُنَبِّئُكَ...﴾ الخ.

﴿اَمَّا السَّفِينَةُ﴾ التي خرقت ﴿فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ﴾ عشرة ضعفاء في النفس، لا يردُّون ظالما عنهم، وخمسـة منهم ضعاف بدنا بالمرض اللازم لهم سواء كانوا ذوي مال أم لم يكونوا.

[فقه] فلا حجَّة في الآية لمن يقول: إنَّ المسـكين من له شيء لا يكفيه، ولا على من يقول: إنَّ المسـكين لا يملك شيئا أصلا، لأنَّ هذه السفينة عارية في أيديهم، أو يعملون فيها بأجرة، لَكِنَّ الظاهر أنَّها لهم فالمسـكين من له ما لا يكفيه ويمكن أن ينزلوا منزلة ما لا شيء له أصلا.

﴿يَعْمَلُونَ﴾ بها ﴿فِي الْبَحْرِ﴾ لمعيشـتهم، وإسـناد العمل إليهم حكم على المجموع لأنَّ العمل للخمسـة الأصحَّاء فقط، لا للخمسـة الزمنى أيضا، أو لأنَّ عملهم عمل للزمنى أيضا لشركتهم ﴿فَأَرَدتُّ أَنَ اَعِيبَهَا﴾ بالخرق فقط لِئَلَّا يرغب فيها الملك المتغلِّب عليهم فيأخذها، لأنَّه لا يأخـذ المعيبة، ولم أرد إغراق من

فيها كما توهَّمت أو تخوَّفت، وذلك لغلبة القيام بالحكم الظاهر عليه، ولذلك لم يقل: فأعبتها، وهذا على أنَّ اللام في ﴿لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ تعليل، وعلى أنَّها للعاقبة يكون المعنى: أردت أن أعيبها فقط ولم أرد وجها يوصل إلى الإغراق بعد.

[لغة] ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ معنى الوراء هنا التغلُّب هكذا، لا خلف ولا قدَّام، كما تقول: كيف أقيل ومن روائي مسير نصف يوم إلى البلد الذي توجَّهتُ إليه؟ تريد الشدَّة لا قدَّام ولا خلف، وقيل: بمعنى أمام، كما قرأ به ابن عَبَّاس تلاوة وتفسيرا، أو «وَرَاءَ» اسم للجهة التي يوارى بها الشخص من خلف أو قدَّام، وقيل: هو مصدر إذا أضيف إلى الفاعل أريد به المستور، وإذا أضيف إلى المفعول أريد به الساتر، ويردُّه ﴿ارْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ﴾ [سورة الحديد: 13] فإنَّه أضيف إلى المفعول والمراد به الخلف وهو المستور.

[قصص] وقيل: الملك خلفهم يدركهم ويمرُّ بهم، أو يكون رجوعهم عليه، واسمه هدد بن بدد، وقيل: جلندى بن كرك ملك غسان، وقيل: مفواد بن الجلندىٰ بن سعيد الأزدي، وكان بأندلس، وفيه أنَّ هذا في عُمان لا في المغرب إلَّا إن ملكها في الجَاهِلِيَّة.

﴿يَاخُذُ﴾ لنفسه تملُّكا، وقيل: يستعملها ويردُّها ﴿كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ صالحة ولو كان يأخذ المعيبة أيضا لم يخرقها الخضر، وإنَّما خرقها لئلَّا يأخذها. وقرأ أُبيٌّ: «كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ» تلاوة أو تفسيرا.

[نحو] ﴿غَصْبًا﴾ مفعول مطلق نوعي لـ«يَاخُذُ» بتضمُّن معنى يغصب، والغصب نوع من الأخذ، أو مفعول مطلق لـ«يغصب» محذوفا، أي يأخذ كلَّ سفينة غاصبا لها غصبا، أو «غَصْبًا» حال بمعنى غاصب، ومصاحب غصب، فـ«غَصْبًا» مفعول مطلق مؤكِّد.

وعن الربيع بن أنس[1] أَنَّ الخضر بعد أن سلمت من الملك الكافر قال

(1) هو الربيع بن أنس البكري البصري ثمَّ الخراساني، محدِّث مفسِّر، من أهل البصرة، هرب =

لأصحابها: أردت لكم الخير وإن كان بكسر، فشكروه وأصلحها لهم كما كانت، وموسى حاضر للقول والإصلاح، والله أعلم بصحَّة ذلك.

وقدَّم ﴿فَأَرَدتُّ أَنَ اَعِيبَهَا﴾ على ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ...﴾ إلخ لِئَلَّا يتوهَّم أنَّ ضمير النصب في «أَعِيبَهَا» لكلِّ سفينة لقربه لكن توهُّما ضعيفا، ولأنَّ اعتراض موسى في خرقها الذي يعيبها، وللإيذان بأنَّ السبب الأقوى في عيبها بالخرق هو المسكنة لا الغصب، فإنَّه ليس يمنع عن الملك السفن مطلقا، والله أعلم.

﴿**وَأَمَّا اَلْغُلَامُ**﴾ الذي قتلت ﴿**فَكَانَ أَبَوَاهُ**﴾ [قيل:] أبوه كازير وأمه سهوى ﴿**مُومِنَيْنِ**﴾ وهو كافر، على أنَّ التكليف متعلِّق بالتمييز وهو مميِّز ثمَّ نسخ إلى الحلم، فيكون معنى قول موسى: «نَفْسًا زَاكِيَةً» أنَّه لم تقتل نفسا ولا فَعَلَتْ موجب قتل، وكذا يكون المعنى على أنَّه بالغ إذ لم ير منه موجبا إلَّا أنَّه من أين رأى براءته البتَّة، لعلَّ الخضر رأى منه الموجب.

ثُمَّ إنَّه إن كان غير بالغ أو غير مميِّز فمعناه أنَّه إن بلغ كفر أو إن ميَّز، وفي صحيح مسلم: «**إنَّ الغلام طبع يوم طبع كافرا**»[1]، وجاء الحديث «**إنَّ أطفال المشركين والمنافقين في الجنَّة**»[2]، فما حال الصبيِّ؟ فأجيب بأنَّهم في الجنَّة إلَّا من استثناه الوحي.

وأولى من هذا أن يجاب بأنَّه لم يجئ النصُّ أنَّه في النار، بل جاء الطبع على الكفر، ففي قتله النجاة منها إذ لم يبلغ أو لم يميِّز، ومعنى أنَّه كافر أنَّه إن بلغ كفر.

﴿**فَخَشِينَآ أَنْ يُّرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا**﴾ الخشية أشدُّ الخوف، وإرهاقه

= منها إلى مرو خوفا من الحجَّاج، روى عن أنس والحسن وغيرهما، توفي سنة 139هـ. معجم المفسِّرين، ج 1، ص 189.

(1) رواه **مسلم** في كتاب القدر (6) باب معنى «كلُّ مولود يولد على الفطرة...»، رقم 29(2661) من حديث أُبي بن كعب.

(2) انظر الأحاديث التي وردت في هذا الموضوع في هذا الجزء في تفسير الآية رقم 15 من سورة الإسراء، ص 146.

إِيَّاهُمَا: الطغيان والكفر وإدخال ذلك عليهما، أو الخشية العلم، والطغيان ظلم العباد، والكفر الإشراك، أي خشيت أن لا ينصفا منه لمظلومه ولا منه لإشراكه لشدَّة حبِّهماه، وأن يتَّبعاه على طغيانه وشركه، وأن يدنِّس إيمانهما.

وفي شرح البخاري: الخشية العلم، أي علمنا أنَّه لو بلغ لدعاهما إلى الكفر فيجيبانه لفرط حبِّهماه؛ أو خشينا أن يربِّياه ويحسنا إليه مع كفره بعد بلوغه، أو أن يدخل عليهما ضمان أموال ورقاب، كما روي أنَّه كان يفسد، وروي أنَّه يقطع الطريق ويحلف لهما أنَّه ما فعل فيحميانه عن طالبه.

وأجاز الزمخشريُّ أن يكون ذلك من كلام الله، فيكون «خَشِينَا» بمعنى كرهنا، كما ثبت في مصحف ابن مسعود، وقراءة أبي «فَخَافَ رَبُّكَ» فيقدَّر فقال الله: خشينا، فالفاء من الحكاية، وفي هذا ضعف مع ضعف أنَّه ليس من جواب الخضر على تعرُّض موسى له.

﴿فَأَرَدْنَآ أَنْ يُّبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ﴾ أي طلبنا أن يبدِّل. وإرادة الشيء سبب لطلبه وملزوم له، والمراد: تعويض الله لهما عنه ولدا خيرا منه ﴿زَكَوٰةً﴾ طهارة من الذنوب والأخلاق الرديئة، ولزم من ذلك أن يكون «خَيْرًا»: دينا، كما فسَّر ابن عَبَّاس رضي الله عنه زكاة بدينًا، تفسيرا باللازم. و«مِنْ» ليست تفضيليَّة لأنَّ الغلام لا حسن فيه فضلا عن أن يكون هذا أحسن منه، بل متعلِّقة بمحذوف نعتا لـ«خَيْرًا». وخير: اسم تفضيل خارج عن التفضيل، أو بمعنى ضدِّ الخبث، أو تعلَّق بـ«يُبَدِّل»، أو يبقى على التفضيل على فرض أنَّ فيه حسنا مَّا، أو يدَّعيان فيه حسنا، أو فيه حسن الطهارة من الذنوب لطفوليَّته، والبراءة بحسب الظاهر مِمَّا يعاب إن كان بالغا، فزكاة من هو زكيٌّ في الحال والمآل والظاهر والباطن أولى.

﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ رحمةً، خارجٌ عن التفضيل أيضا، إذ لا رحمة في الغلام، فمعناه قريب الرحمة، أو باق عليه على فرض أنَّ فيه رحمة، أو يدَّعيانها فيه.

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عَبَّاس أنَّهما أبدلا جارية ولدت

نبيئا، وقال الثعلبي: أدركت يونس بن متَّى فتزوَّجها نبيء فولدت نبيئا هدى الله به أمَّة، وفي رواية ابن المنذر عن يوسف بن عمر أنَّها ولدت نبيئين، وعن ابن عَبَّاس وجعفر الصادق: ولدت سبعين نبيئا، واستبعده ابن عطيَّة بِأَنَّ كثرة الأنبياء لا تعرف إلَّا في بني إسرائيل، وهذه ليست منهم، وفيه أنَّها لَعَلَّهَا منهم، وإنَّه إذا صحَّت الرواية لم يعتبر الاستبعاد، وفي العادة أنَّ الجارية أبرُّ وأرحم بأبويها من الغلام، وقيل: أبدلهما غلاما مؤمنا.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وَابن أبي حاتم عن عطيَّة أنَّ المعنى: هما به أرحم منهما بالغلام، أي أحبُّ إليهما لزيادة حسن خلقه وخَلقه، أو زيادة أحدهما، [قلت:] وهذا القول لا يناسب التعرُّض على الخضر في قتله مع براءته من موجبه.

﴿**وَأَمَّا الْجِدَارُ**﴾ الذي أقمت ﴿**فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ**﴾ أصرم وصريم ﴿**يَتِيمَيْنِ**﴾ مات أبوهما وهما غير بالغين، ويتم الآدميِّ بموت الأب وابن أمِّه والحيوان بموتها، والطير بموتهما، وفي الحديث: «**لا يُتم بعد بلوغ**»[1]. ولا دليل على أنَّهما بالغان وأنَّهما سمِّيا يتيمين باعتبار ما مضى. ﴿**فِي الْمَدِينَةِ**﴾ هي القرية المذكورة فيما مرَّ، ذكرت هنا بلفظ المدينة إظهارا للاعتداد بها لصلاح أبويهما وليتمهما ﴿**وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا**﴾ تحت أساسه بني عليه، وذلك أحفظ له، وحقيقة للتحتية، وأمَّا جانبه مِمَّا يليه فدون ذلك في الحفظ ومجاز. وهو مال مدفون من ذهب وفضَّة كما في البخاري في التاريخ، والترمذي والحاكم وصحَّحه من حديث أبي الدرداء، وبه قال عكرمة وقتادة.

[فقه] وأصل «كنز» مصدر استعمل بمعنى مكنوز، ولا يخفى أنَّه حلَّ لمن تقدَّم [من الأقدمين] الكنز وأنَّه حرِّم علينا، وهو من حلال لأنَّ أباهما كما

---

(1) رواه **أبو داود** في كتاب الوصايا، باب ما جاء في متى ينقطع اليتم، رقم 2873، بلفظ «احتلام» بدل «بلوغ». من حديث علي بن أبي طالب.

وصفه الله صالح، والمذموم من كنوز مـــا لم تؤَدِّ منه الحقوق، وقد قيل: إنَّه لا يقال لِمَا أدَّيت منه كنز شـــرعا، قال ﷺ: «**كلُّ مال لا تؤدَّى زكاته فهو كنز**»[1] فنقول: المراد فهو الكنز المذموم في [ســـورة] براءة [آيـــة 34]، وما أدّيت منه فليس كنزا مذموما بل كنز حلال، ومن قـــال الكنز حرام مطلقا قال: إنَّه حلال لمن قبلنا إن كان تؤدَّى حقوقه.

روى الطبراني عن أبـــي الدرداء: «أحلَّـــت لهم الكنـــوز وحرِّمت عليهم الغنائم، وأحلَّت لنـــا الغنائم وحرِّمت علينا الكنوز» ومثلـــه لعبد الرزَّاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة، فلا يعجبنَّ الرجل فيقول: ما شأن الكنز حلَّ لمن قبلنا وحرِّم علينا فإنَّ الله تعالى يحلُّ من أمره ما يشـــاء ويحرِّم ما يشـــاء، وهي السنن والفرائض تحلُّ لأمَّة وتحرَّم على أخرى.

وأخرج الحاكـــم وصحَّحه عن ابن عَبَّاس: أَنَّهُ مـــا كان من ذهب ولا فضَّة ولكنَّه كان صحف علم. وروى هذا أيضا عن ابـــن جبير، وأخرج ابن مردويه من حديث عليٍّ عن رســـول الله ﷺ والبزار عن أبي ذرٍّ كذلك، والخرائطي[2] عن ابن عَبَّاس موقوفا: «إنَّه كان لوحا من ذهب مكتوبا فيه: عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن؟ وعجبت لمن يؤمن بالـــرزق كيف يتعب؟ وعجبت لمن يؤمن بالمـــوت كيف يفـــرح؟ وعجبت لمـــن يؤمن بالحســـاب كيف يغفل؟ وعجبت لمن يعـــرف الدنيا وتقلُّبها كيف يطمئنُّ إليهـــا؟، لا إله إلَّا الله محمَّد رسول الله ﷺ».

---

(1) رواه **البيهقـــي** فـــي الشـــعب: ج 4، ص 82. وأورده **الهنـــدي** فـــي الكنـــز، ج 8، ص 294، رقم 15764. من حديث ابن عمر.

(2) هو الحافظ المصنِّف أبو بكر محمَّد بن جعفر الســـامرَّاتي الخرائطـــي صاحب كتاب «مكارم الأخلاق» وكتاب «مســـاوئ الأخلاق» وكتـــاب «اعتلال القلوب». قال الخطيب: كان حســـن الأخبار مليح التصانيف، قيل: مات بيافا سنة 327هـ. تهذيب سير أعلام النبلاء، ج 2، ص 85.

وعن عطاء عن ابن عَبَّاس: أَنَّه مكتوب في وجه منه: «بسم الله الرحمن الرحيم عجبت...» الخ وفي وجه: «أنا الله لا إله إلَّا أنا وحدي لا شريك لي خلقت الخير والشرَّ فطوبى لمن خلقته للخير وأجريته على يديه، وويل لمن خلقته للشرِّ وأجريته على يديه» ولا يجمع بأنَّ الكنز كان ذلك كلَّه لأنَّه خلاف الظاهر، ولأنَّ ابن عَبَّاس قال: «ما هو من ذهب ولا فضَّة».

﴿**وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا**﴾ اسمه كاشح وأمُّهما دهنا، وقيل: ليس بالأب الأدنى بل العاشر، وعن جعفر الصادق: الأب السابع.

[فقه] وأفادت الآية على الأقوال أنَّ صلاح الآباء يفيد العناية بالأبناء، وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد وابن أبي حاتم عن خيثمة أنَّه قال عيسى عليه السلام: «**طوبى لذرِّيَّة المؤمن ثمَّ طوبى لهم كيف يحفظون من بعده**» وتلا خيثمة هذه الآية. وعن وهب: إنَّ الله تعالى ليحفظ بالعبد الصالح القبيل من الناس. ويروى أَنَّ من صلاحه السياحة ووضع الناس أمانتهم عنده فيردُّهما كما هي، وغير ذلك من أعمال الصلاح.

﴿**فَأَرَادَ رَبُّكَ**﴾ مالكك ومدبِّرك، نبَّهه على وجوب الانقياد وعدم المناقشة في أمر الله، وعاتبه على ذلك ولذلك لم يقل فأراد ربُّنا ﴿**أَنْ يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا**﴾ قوَّتهما بالبلوغ وكمال العقل، وهو ما بين ثماني عشرة وثلاثين، وهو مفرد بوزن الجمع مثل آنك، ولا ثالث لهما، وإن شئت فقل: جمع لا واحد له من لفظه بمعنى قوَّاتهما.

[صرف] ومعنى قول سيبويه: جمع شدَّة أنَّه بمعنى قُوَّة، يقال: بلغ الغلام شدَّته أي قوَّته، فمراده أنَّه جمع على غير قياس، لأنَّ «فعلة» لا يجمع على «أفعل»، وقيل: جمع شد ككلب وأكلب، والمراد: أنَّ القياس ذلك، ولم يرد أنَّ شدًّا ورد بمعنى القُوَّة، كما يقال: أبابيل جمع أبول، أو أبيل، أو أبال، مع أنَّه لم تسمع هذه المفردات، والمراد: إنَّ القياس أن يكون مفردات له.

﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾ من تحت الجدار ولو انقضَّ قبل ذلك لظهر الكنز وأخذه غير أهله قهرا أو سرقة، ولو أخذه اليتيمان قبل بلوغ أشدِّهما لضيَّعاه وكان وصيُّهما عالما به لكنَّه غاب، وهذا ردٌّ على موسى إذ قال: إقامة هذا الجدار بدون أن تطلب إليها فضول وتبرُّع على من حرمونا.

[نحو] ﴿رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ﴾ النصب على التعليل لـ«أَرَادَ» لا لـ«يَسْتَخْرِجَا» لعدم اتِّحاد الفاعل لأنَّ الراحم الله والمستخرجين غيره، إلَّا عند من لم يشترط الاتِّحاد. أو «رَحْمَةً» من المبنيِّ للمفعول فيكون الاتِّحاد بين النائب والألف إذ هما لهما، لأنَّهما المستخرجان المرحومان أيضا، وأجيز أن يكون حالا من ألف «يَسْتَخْرِجَا» بتأويل: مرحومين، أو تعليلا لمحذوف على حذف مضاف، أي فعلت ذلك إرادة رحمة من ربِّك، أو رجاء رحمة من ربِّك.

﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنَ اَمْرِي﴾ أي عن رأيي، وقد يدلُّ على أنَّه نبيء، أي ما فعلته عن أمري بل عن وحي ﴿ذَالِكَ﴾ أي ما ذكر من العواقب، أو من البيان، ولعظمها أشار بالبعد ﴿تَاوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ تستطع حذفت التاء تخفيفا بحذف إحدى المتقاربين التاء والطاء في آخر الكلام، كما أنَّ العياء قد لحقهما بالعتاب، وكما أنَّ موسى يفارق الخضر وبقي الخضر منفردا كما بقيت الطاء، ولم يكن ذلك في الأوَّل لعدم موجب التخفيف وهو العياء، وإنَّما حصل التكرير بالأخير فخفِّف.

[بلاغة] ولا يخفَّف لفظ «ذَلِكَ» عن هذا فيقال ذاك كما خفِّف استطاع بحذف التاء تلويحا بأنَّ موسى قد خفَّ ما ثقل عليه ببيان الخضر، أو حذفت كما يصغَّر الاسم أو يرخَّم للترحُّم، ولعظمها أشار بالبعد، وهنا أنجز الموعود، وفذلكة لِمَا مرَّ قيل: أضمر في «خَشِينَا» لِمَا فَوْقَ الواحد تلويحا أو تحقيقا بأنَّ الأبوين كرها معه، أو جمع نفسه مع الله بمعنى كرهنا، أو مع الله والوالدين.

[فقه] وفي ذلك جمع الله وغيره في ضمير، وهـو لا يجوز، فإنَّه لَمَّا قال الخطيب من العرب بين يديه ﷺ: «من يطع الله ورسوله ﷺ فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى» قال ﷺ: «**بئس الخطيب أنت**»[1] أي لجمع الله تعالى ورسوله في ضمير يعصهما، ويقال: قد ورد في القرآن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ [سورة الأحزاب: 56] ويحتمل الحذف، أي: إنَّ الله يصلِّي وملائكته يصلُّون، وفي قوله ﷺ في الإيمان: «**أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مِمَّا سواهما**»[2] بجمع «الله ورسوله» في المستتر في «أحبَّ» وفي الهاء من «سواهما»، [قلت:] فالجمع جائز لوروده.

وقيل: لعلَّه قال: «بئس...» لوقفه على «يعصهما»، ويردُّه لفظ مسلم وأبي داود والنسائي عن عديٍّ بن حاتم رضي الله عنه: «**بئس خطيب القوم أنت، قل: ومن يعص الله ورسوله**» وقال الخطابي: يكره الجمع ولا يحرم.

[فقه] وكلام الغزالي يشير إلى التحريم وعلى الكراهة فقد تكره في مقام تلك الخطبة المذكورة لأنَّها بحضرة المشركين، والإسلام غضٌّ طريٌّ، ولا تكره في مقام حيث لا محذور ككلام الخضر، وخصَّ بعضهم الكراهة بغير النبيء ﷺ، فتجوز في القرآن بالأولى، وفي شروح البخاري **جوازه في كلام الله ورسوله وكراهته في غيره في مقام دون مقام**، والله أعلم، وهذا هو المختار.

---

(1) تَقَدَّمَ تخريجه، انظر: ج 5، ص 315.

(2) رواه **البخاري** في كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، رقم 16. ورواه **مسلم** في كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتَّصَفَ بهنَّ وجد حلاوة الإيمان، رقم 43. من حديث أنس.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلْقَرْنَيْنِۖ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿83﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٖ سَبَبٗا ﴿84﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿85﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٖ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمٗاۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنٗا ﴿86﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكْرٗا ﴿87﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرٗا ﴿88﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿89﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٖ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرٗا ﴿90﴾ كَذَٰلِكَۖ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرٗا ﴿91﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿92﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمٗا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلٗا ﴿93﴾ قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّٗا ﴿94﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿95﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرٗا ﴿96﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبٗا ﴿97﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّٗا ﴿98﴾﴾

قصَّة ذي القرنين وياجوج وماجوج

﴿**وَيَسْئَلُونَكَ**﴾ يا محمَّد سؤال امتحان ﴿**عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ**﴾ أي عن شأنه، كما يدلُّ له الجواب في الآية. السائلون قريش بتلقين اليهود، وقيل: اليهود كما روي عن السدِّيِّ، وأكثر الآثار يدلُّ على أنَّ الآية نزلت بعد سؤالهم، فالمضارع لتنزيل الماضي منزلة الحاضر، لأنَّ في سؤالهم إِيَّاهُ مع ما شاهدوا من أمره ﷺ نوع غرابة، أو للاستمرار على السؤال إلى أن أجابهم.



عن عقبة بن عامر[1]: جاء نفر من أهل الكتاب بالصحف أو الكتب فقالوا: استأذن لنا على رسول الله ﷺ لندخل، ففعلت فقال ﷺ: «**ما لهم يسألوني عَمَّا لا أعلم؟ لا أعلم إلَّا ما علَّمني ربِّي**» ثمَّ قال: «**إيتوني بوَضوء**» فتوضأ فركع في مصلَّاه من بيته ركعتين فسرَّ وجهه، وقال: «**أدخلهم ومن بالباب من أصحابي**» فأدخلتهم فقال ﷺ: «**إن شئتم أخبرتكم بما جئتم للسؤال عنه**».

[قصص] [قلت:] ولا يصحُّ ما قيل: إنَّ ذا القرنين مَلَك، وإنَّ عمر سمع في منى قائلا: يا ذا القرنين، فقال: ما لكم وأسماء الملائكة؟ وإن صحَّ فالمراد أَنَّ هذا الاسم من أسماء الملائكة لا تسمُّوا به ولو سُمِّيَ به مَن قبلكم، وقيل: رجل صالح عالم حكيم مهيب ملَّكه الله الأرض ولا يدرى من هو. وعن علي: لقِّب بذلك، دعا إلى الله، فضُربَ على قرنه الأَيمن فمات، فبعثه الله، وضُرب على الأيسَرِ ومات وبعثه الله. وقيل: لأنَّه انقرض في عمره قرنان من الناس. وعن وهب ابن منبه: لأن صفحتَيْ رأسه من نحاس. وعن عبيد بن يعلى: لأنَّ في رأسه قرنين كالظلفين. وهو أوَّل من لبس العمامة لبسها ليسترهما، وقيل: لأنَّ لتاجه قرنين.

وعنه ﷺ: «**إنَّه طاف قرني الدنيا غربها وشرقها**»[2]. وعن قتادة ويونس بن عبيد: لأنَّ له غديرتين، وقيل: لأنَّه سخِّر له النور والظلمة يهديه النور قدَّامه إذا سرى وتمتدُّ الظلمة وراءه، وقيل: لأنَّه دخل النور والظلمة، وقيل: لأنَّه رأى في نومه كأنَّه صعد وأخذ بقرني الشمس، وقيل: لأنَّه لشجاعته ينطح أقرانه.

[قصص] وقيل: هو فريدون بن أثقيان وهو مسلم يؤيَّد بالوحي أعطى ابنه أبرج العراق والهند والحجاز وأعطاه التاج، وابنه سلم الروم وديارَ مصر والمغرب،

(1) عقبة بن عامر الجهني أبو عبس المصري، كان عالما مقرئا فصيحا شاعرا كبير الشأن، شارك في فتح دمشق وشهد فتح مصر ووليها لمعاوية مات سنة 58هـ وقبر بالمقطم. تهذيب سير أعلام النبلاء، ج 1، ص 730.

(2) لم نقف على تخريجه، وقد أورده **الآلوسي** وقال: «روي ذلك مرفوعًا». روح المعاني، ج 16، ص 24.

وابنه ثور الصين والترك والمشرق، ووضع لكلٍّ قانونا يحكم به وسمِّيت قوانينهم سياسة بمعنى سي إيسا أي ثلاثة قوانين، وسلطنته خمسمائة عام.

ويردُّ هذا أنَّ الله ﷻ أخبرنا بسفر ذي القرنين أنَّه سافر وذاك لم يسافر بإجماع أهل التاريخ، وإنَّما مهَّد له الأرض كاوهُ الأصبهاني الحداد الذي مزَّق به الله ملك الضحاك، إلَّا أن يثبت له ما يذكر للإسكندر، ولا يبالى بعدم ذكر المؤرِّخين.

[قصص] وقيل: هو إسكندر اليوناني بن فيلسوف، وقيل: قلفيص، وقيل: قليص، وقال ابن كثير: هو ابن فيليس بن مصريم بن هرمسا بن ميطون بن رومي بن ليطى بن يونان بن يافت بن نونه بن شرخون بن نونط بن يوفل بن رومي بن الأصغر بن العزيز بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل. وسرير ملكه مقدونيا غرب القسطنطينية المحمية، بينهما خمسة عشر يوما، وهو الذي غلب دارا الأصغر واستولى على الفرس وكان مولده في السنة الثالثة عشرة من ملك دارا الأكبر، وزعم بعض أنَّه أبوه.

وروي أنَّ أباه جمع له ملوك الروم والمغرب وقهرهم وانتهى إلى المحيط وعاد إلى مصر وبنى الإسكندرية والمدن الكثيرة، ودخل الشام وقصد بني إسرائيل وقصد بيت المقدس وذبح فيه، وملك الدنيا ومات بشهرزور من العراق، وقيل: مات بِرومية المدائن، وحملوه في تابوت من ذهب إلى الإسكندرية وعمره اثنان وثلاثون سنة، ومدَّة ملكه اثنتا عشرة سنة، وقيل: عمره ستٌّ وثلاثون ومدَّة ملكه ست عشرة.

فالمراد بذي القرنين الإسكندر، **وهو الصحيح** كما ذكره الله ﷻ بالتمكين، ولا ينافي ذلك أنَّه تلميذ أرسطو الحكيم خمس سنين بأمر أبيه، لأنَّه تعلَّم منه ما يجوز ولم يتَّبعه على كفره، كما تلمذ الشافعي وأحمد على أبي حنيفة وخالفاه، وتلمذ الشافعي على مالك وخالفه وتلمذ أحمد وأبو حنيفة على مالك أيضا والأشعري على المعتزلة وخالفهم، ورئيس المعتزلة [واصل بن عطاء] على الحسن البصري وخالفه، وأرسطو على أفلاطون وخالفه.

وذَبْحُه في بيت المقدس دليل على إقراره بالله، بل قال له الحكماء: نسجد لك، فقال: لا يجوز السجود لغير بارئ الكلِّ.

وقيل: هو الإسكندر الرومي وهو متقدِّم على اليوناني بكثير، ويقال له: ذو القرنين الأكبر، واسمه مرزبان بن مرديه من ولد يافت بن نوح، وكان أسود. وقيل: اسمه عبد الله بن الضحاك، وقيل: مصعب بن عبد الله بن قينان بن منصور بن عبد الله، وذكر بعض المحقِّقين أنَّ الإسكندر الرومي والإسكندر اليوناني يطلقان على غالب دارا الأصغر.

والذي عليه الكثير أنَّ المسمَّى بالإسكندر عند الملوك اثنان بينهما نحو ألفي سنة، وأَنَّ أوَّلهما هو المراد بذي القرنين، ويسمِّيه بعضهم: الرومي، وبعضهم: اليوناني، عمره ألف سنة وستمائة، وقيل: ألفا سنة، وقيل: ثلاثة آلاف، **ولا يَصِحُّ من ذلك شيء.**

[قصص] وقيل: ذو القرنين هو أبو كرب بن عمير بن أفريقس الحميري، وهو الذي افتخر به تُبَّعٌ اليمني إذ قال:

قد كان ذو القرنين جدِّي مسلما	ملكا علا في الأرض غير مفنَّد
بلغ المغارب والمشارق يبتغي	أسباب ملك من حكيم مرشد
فرأى مغيب الشمس عند غروبها	في عين ذي خُلُبٍ وثَأْطٍ حَرْمَدِ[1]

واختاره بعض، لأنَّ الأذواء كانوا من اليمن كذي المنار وذي نواس وذي رعين وذي يزن وذي جدن.

[قصص] ويقال: اجتمع مع إبراهيم خليل الله في مَكَّة المشرَّفة وتعانقا. وروي أنَّه أسلم على يده وطاف معه بالكعبة وثالثهما إسماعيل عليه السلام. وروي أنَّه حجَّ ماشيا فلمَّا سمع إبراهيم عليه السلام به تلقَّاه وأوصاه بوصايا. وروي أنَّه أتي بفرس

---

(1) أوردها **السيوطي** في الدر المنثور، ج5، ص450 ـ 451. وقال: أخرجها عبد الرزاق وسعيد ابن منصور... وفيها: الخُلُبُ: الطين، والثأط: الحمأة، والحرمد: الأسود.

فقال: لا أركب في بلد فيه خليل الله. فسخَّر الله له الأسباب والسحاب وبشَّره إبراهيم بذلك، فكانت له السحابة تحمله وعساكره وآلاتهم إذا أراد الغزو.

[قصص] وذكر بعض أنَّ ذا القرنين هو شُمَّر بن فرقس ويقال: شمريرعش لارتعاش فيه، فقيل: إنَّ أباه أفريقس غزا نحو المغرب في أرض البربر حتَّى أتى طنجة ونقل البربر من فلسطين ومصر والساحل إلى مساكنهم في المغرب، وبنى إفِرِيقيَّة وعمره مائة وأربع وستون سنة، ودخل العراق والصين وقلع سمرقند وهو معرب شمركند، وقال ابن قتيبة: عمره مائة وسبع وثلاثون، وقال المسعودي: ثلاث وخمسون، وقيل: سبع وثمانون، وقيل: هذا المكنى أبا كرب تُبَّع الأوسط الذي قال:

شهدت على أحمد أنَّه ... نبيء من الله باري النسم

فلو مدَّ عمري إلى عمره ... لكنت وزيرا له وابن عم

وكان كثير الغزو فأغروا ابنه حسانا فقتله.

واختار بعض المتأخِّرين أنَّ ذا القرنين الإسكندر بن فيلسوف غالب دارا ويقال له اليوناني والرومي، وشهر بالحكمة دون النبوءة، وفي بعض الأعصار السابقة يسمَّى النبيء حكيما، وقد قيل: إنَّ الخضر نبيء وإنَّه وزير ذي القرنين، ومعنى كونه وزيرا له أنَّه مدبِّر أمره.

[سبب النزول] وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي أنَّ اليهود قالوا للنبيء ﷺ: إنَّما تذكر إبراهيم وإسماعيل وعيسى والنبيئين لأنَّك سمعتهم مِنَّا فأخبرنا عن نبيء لم يذكره الله في التوراة إلَّا في مكان واحد، قال: ومن هو؟ قالوا: ذو القرنين، فنزل قوله تعالى:

﴿**قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا**﴾ و«مِنْ» للابتداء، أو للتبعيض والمراد: من أخباره، والتبعيض أولى، وإن أرجعنا الضمير إلى الله تعيَّن الابتداء، وتعلَّقت بـ«أَتْلُو»، ويجوز تعليقها بمحذوف حال من «ذِكْرًا»، كما إذا جعلت للتبعيض وردَّت الهاء لـ«ذِي الْقَرْنَيْنِ»، والسين للتأكيد والتحتم كأنَّه قال: لا أترك التلاوة كقوله:

سأشكر عمرا إن تراخت منيَّتي أيادِيَ لم تُمْنَنْ وإن هي جَلَّتِ[1]

لا للاستقبال لأنَّه ذكر عقب ذلك بقوله:

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الَارْضِ﴾ جعلنا له قدرة وَقُوَّة على التصرُّف في الأرض من حيث التدبير والجنود والهيبة والوقار، ومكَّنه بلا لام: جعله قادرا، وقيل: مكَّنا له النبوءة، وقد روى أبو الورقاء عن علي أنَّه نبيء، وعليه مقاتل والضحاك، وسأل ابن الكواء عليًّا فقال: ليس نبيئا بل عبد صالح أحبَّ اللهَ فأحبَّه، ونصح له فنصحه، وهو مذهب الجمهور، وتوقَّف بعضهم.

روى عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم وصحَّحه عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «**ما أدري أتُبَّع كان لعينا أم لا، وما أدري أذو القرنين كان نبيئا أم لا، وما أدري الحدود كَفَّارَة لأهلها أم لا**»[2] فلعلَّه ﷺ علم بعد ذلك أنَّه نبيء أو غير نبيء كما في رواية، [قلت:] وأمَّا تُبَّع فعلم بعد ذلك أنَّه مؤمن ونهى عن سبِّه، وأنَّ الحدود كفَّارة لمن تاب.

﴿وَءَاتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ يحتاج إليه في سلطنته وغيرها ﴿سَبَبًا﴾ طريقا يوصله إليه من علم وقدرة وآلة، و«مِنْ» للبيان والمبيَّن «سَبَبًا» ويقدَّر مضاف أي: من أسباب كلِّ شيء، أو للابتداء أو للتعليل فلا يقدَّر مضاف ﴿فَاتَّبَعَ﴾ فأراد بلوغ المغرب فاتَّبع ﴿سَبَبًا﴾ يصله به ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾ منتهى الأرض من جهة المغرب ساحل البحر المحيط الغربي، وفيه الجزائر الخالدات ينبت فيها الزعفران وغيره بلا حرث، ومنها يؤخذ الأطوال والأعراض.

وهل المغرب أفضل من المشرق، ولذلك ابتدأ به ذو القرنين؟ ولقربه منه، وللحركة الشمسية وذلك قول المغاربة، وقال المشارقة: المشرق أفضل

---

(1) وردت نسبة البيت لعدَّة شعراء، منهم: أبو الأسود الدؤلي. ينظر: الآمل والمأمول المنسوب **للجاحظ**، ص 5. (ترقيم الشاملة).

(2) رواه **الحاكم** في «مستدركه» كتاب الإيمان: ج 1، ص 92، رقم 104/104. من حديث أبي هريرة.

قال السيوطي: لا قطع بتفضيل إحدى الجهتين على الأخرى لتعارض الأدلَّة، والخلاف في غير مَكَّة والمدينة وبيت المقدس فالثلاثة أفضل إجماعا.

﴿**وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ**﴾ ذات حمأة وهي الطين الأسود، يقال: حمئت البئر تحمأ إذا كثر حمأتها. سأل معاوية كعب الأحبار: أين تجد الشمس تغرب في التوراة؟ فقال: سل أهل العزيمة فإنَّهم أعلم بها، وأمَّا أنا فإنِّي أجدها تغرب في التوراة في ماء وطين، وأشار بيده نحو المغرب، فقال ابن حاضر: عندي ما يؤيِّدك، فقال ابن عَبَّاس: وما هو؟ قال: قول تُبَّع في ذي القرنين:

فرأى مغيب الشمس عند غروبها   في عين ذي خلب وثَأْطٍ حَرْمَدِ

قال ابن عَبَّاس: ما الخلب؟ قال: الطين، قال: فما الثأط؟ قال: الحمأة، قال: ما الحرمد؟ قال: الأسود، فأحضر ابن عَبَّاس غلاما يكتب ذلك.(1)

ومعنى غروبها في عين حمئة أنَّها تغرب عندها في رأي العين، أو تغرب فيها بالتوهُّم كما ترى تطلع من البحر أو الأرض، وتغرب في أحدهما، والعين الحمئة: البحر، فإنَّه عند الله كالقطرة.

[فلك] وزعم بعض أنَّها تغرب من الماء شتاء في الليل فيكون سخنا لطول اللبث بخلاف ليل الصيف، والحقُّ أنَّها لا تزال في السماء تغيب عن موضع وتطلع على موضع، ومعنى سجودها عند العرش في الحديث سجودها وهي جارية في موضع مخصوص تحت موضع مخصوص من العرش، لأنَّ العرش محيط بالأرض كلِّها، وهي أبدا تحته، أو شبَّه غاية انحطاطها كلَّ ليلة بالسجود وذلك الانحطاط هو مستقرُّها.

[قلت:] ولا يصح ما قيل: إِنَّهَا تسجد تحت العرش فوق السماوات السبع تسرع سرعة الملائكة، وترجع إلى موضعها في وقت الفجر لأنَّ العيان ينكر ذلك، **ومعاينة شأنها صريح في بطلان ذلك كما يأتي قريبا بعض ذلك**، بل

(1) تقدم تخريجه في ص 419.

الخليل رصدها في منارة الإسكندرية فرأى الشفق الأبيض ينتقل من حيث غربت من موضع إلى موضع في المغرب والشمال والمشرق حتَّى طلعت من المشرق، والله قادر.

[فلك] ومعنى مسيرها تحت الأرض أنَّ الأرض حالت بينها وبين أصحاب كُلِّ ليل وسترتها، وهي أكبر من الأرض بأضعاف فيما قيل، وفي بعض الآفاق تبقى الشمس ظاهرة ستَّة أشهر وتغرب عنها ستَّة أشهر كما في أفق عرض تسعين، وتغيب مقدار ساعة ويظهر نورها من قبل الشرق في بعض العروض كما في بلغار، وذكر ابن عساكر أنَّه ﷺ قال: «**سخونة الماء شتاء لطول مكث الشمس في الأرض في الليل، وإذا كان الصيف أسرعت فيبرد الماء**» والله أعلم بصحَّة الحديث في هذا.

﴿**وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا**﴾ عند تلك العين على ساحل البحر، لباسهم جلود السباع وطعامهم ما يلقيه البحر وهم ناس لا يحصيهم إلَّا الله، أو قوم من ثمود يسكنون جابرسا وبالسريانية جرجيا[1]، والجمهور على أنَّهم كافرون، وقيل: بعضهم مؤمنون.

﴿**قُلْنَا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ**﴾ أي تعذِّبهم بالقتل من أوَّل الأمر ﴿**وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا**﴾ أمرا ذا حسن أو أمرا حَسَناً (بفتح السين) أو نفس الحُسْن (بالإسكان)، وهو أن لا تقتلهم حتَّى تدعوهم إلى الله ﷻ فيأبوا. واستُدِلَّ بالآية على أنَّه نبيء، وأجيب بأنَّ القول بواسطة ملك أو نبيء ذلك العصر، أو بإلهام، واعترض بأنَّه لا يجترئ على القتل بالإلهام، قلت: بلى لأنَّ صاحبه يتوثَّق به، وأمَّا أن يستدلَّ على الجواز بذبح إبراهيم ولده فلا، لأنَّ رؤيا الأنبياء وحي. ولم يقل: «وإمَّا أن تدعوهم» تلويحا بتفضيل الدعاء إلى الله على القتل أوَّل مرَّة بأن ذكره بلفظ الحسن.

---

(1) لا تنس أنَّ الشيخ يعتمد كثيرا فيما يذكر على الأقدمين فيما مضى وما يأتي مِمَّا هو بعيد.

﴿**قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ**﴾ نفسه بالإشـراك بعد دعوتي ﴿**فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ**﴾ بالقتل بنحو السيف، ويبعد ما قيل: بجعلهم في قدر نحاس ويوقد تحتها، إلَّا أنَّ قوله «نعذِّب» يناسبه لأنَّ القتل المنجز لا تعذيب فيه، والنون له ولمن معه وليس يعظِّم نفسه، مع أنَّه يبعد أن يباشر ذلك كلَّه بنفسه، أو الحكم على المجموع لأنَّهم القاتلون دونه، لا له ولله، لأنَّه لا يُجمع اللهُ وغيرُه في ضمير على ما مرَّ قريبا. ﴿**ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكُرًا**﴾ بالنار في الآخرة، ويبعد أن ينازع في ﴿عَذَابًا نُّكُرًا﴾ «نُعَذِّبُهُ» و«يُعَذِّبُهُ» حذف ضميره من الأوَّل المهمل، والمعنى: نعذِّبه عذابا نكرا بجعله في قدر نحاس ويعذِّبه الله عذابا نكرا بالنار. وفي قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِ﴾ دون إليك ما يقوِّي أنَّه ليس ذلك إيحاء إليه بل كلام جرى بينه وبين مخلوق كنبيء أو بعض قومه، وقد زعم بعض أنَّ التقدير: «قلنا: يا محمَّد، قال جنده: يا ذا القرنين إمَّا أن تعذِّب...»، فحذف ذلك لظهور أنَّه ليس نبيئا، وزعم بعض أنَّ القائل علماؤه ونسب القول إلى الله مجازا، وكلا القولين تكلُّف بلا داع.

﴿**وَأَمَّا مَنَ ـ امَنَ**﴾ بالله وحده ﴿**وَعَمِلَ صَالِحًا**﴾ عملا صالحا تبعا لدعوتي ولم يصرَّ على كفره ﴿**فَلَهُ جَزَآءُ الْحُسْنَىٰ**﴾ في الدارين على إيمانه وعمله الصالح، والمقصود: المثوبة الحسنى، أو الفعلة الحسنى، أو الجنَّة الحسنى، أو الدرجة الحسنى. والإضافة للبيان، أي جزاء هو الحسنى، أو يقدَّر: جزاء الأفعال الحسنى التي فعلها، أو جزاء مثل ما يستحقُّه من عمل عمله.

﴿**وَسَنَقُولُ لَهُ مِنَ اَمْرِنَا**﴾ والضميران لذي القرنين ومن معه من المسلمين، لا له ولله على ما مرَّ، والمعنى: مِمَّا نأمر به ﴿**يُسْرًا**﴾ قولا ذا يسر، أو نفس اليسر مبالغة، وهو أن يكلَّف بما لا صعوبة فيه. وقيل: المراد بالتعذيب القتل وبالإحسان الأسر، فمن أصرَّ على كفره بعد دعوته فإن شاء أحسن إليه بالأسر وأبقاه حيًّا، فيكون ذو القرنين قد زاد في الجواب قوله: ﴿وَأَمَّا منَ ـ امَنَ...﴾.

[قلت:] ويظهر لي على أنَّ فيهم مؤمنيــن أن يكون المعنى: إمَّا أن تعذِّب من تجده منهم كافرا وإمَّا أن تتَّخذ فيهم حسنا بإبقاء من تجده مؤمنا وتحسن إليه، ولذلك لم يقل: إمَّا أن تعذِّبهم.

﴿**ثُمَّ اَتَّبَعَ سَــبَبًا**﴾ طريقا من المغرب إلى المشــرق راجعا ﴿**حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّــمْسِ**﴾ أي موضع طلوعها من أوَّل معمــور الأرض، بلغه في مدَّة يسيرة تسهيلا من الله، كما قال الله ﷻ: ﴿وَءَاتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾، وزعم بعض أنَّه بلغه في اثني عشرة سنة.

[قلت:] والآن بدا لي أن أقول مُعَمِّيًا[1] وعلم الغيب لله:

لَويل مضاب عن ثمــان بأربع سوى فرحة من مؤمن وجحود
كذا لاح لــي والله بالغيب أعلم فــذا ســاحل لمؤمــن وكنود

ومضى من ذلك مقدار وبقي نحو عشرين.

﴿**وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِــتْرًا**﴾ قال رســول الله ﷺ: «﴿**سِتْرًا**﴾: **بناءً، لم يبن فيها قطُّ، كانوا إذا طلعت الشــمس دخلوا سربا لهم حتَّى تزول الشمس**»[2] رواه الحسن عن سمرة بن جندب، وعنه عن سمرة بن جندب عن رسول الله ﷺ: «**إنَّ أرضهم لا تحمل البناء فإذا طلعت الشــمس تغوَّروا في المياه، وإذا غابت خرجوا يتراعون كما تراعى البهائم**»[3] وقيل: الســتر اللباس، وهم قوم من الزنج عراة، وقيل: مــن الهند. وعن مجاهد: من لا يلبس الثياب من الســودان عند مطلع الشمس أكثر من أهل الأرض. وعن وهب بن منبه: إنَّهم منسك.

(1) التعْمِيَة: الإيمــاء إلى البعيد «يقــال: عَمَّيْتُ البيتَ تَعْمِيــةً إذَا أخفيتــه». أبو البقاء **الكفوي**: الكليات، ص 476.

(2) أورده **الســيوطي** في الدر: ج 4، ص 273. وقــال: أخرجه ابن المنذر وابــن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة، عن ابن جريج.

(3) أورده **الســيوطي** في الدر: ج 4، ص 273. وقال: أخرجه الطيالســي والبــزار في أماليه وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن.

قلت: ظاهر الآية العموم فلا بناء يسترهم ولا لباس، فيكون قوله ﷺ: «بنَاءً» تمثيلا لا حصرا، ولا نسلِّم أنَّ السـرب والبناء ليسا من الستر المتعارف، وقول ابن عطية: الظاهر أنَّ المراد في الآية إثبات تأثير الشمس فيهم غير متبادر.

﴿**كَذَٰلِكَ**﴾ أمـر ذي القرنين المفصَّل في الآيات من شـأن أهل المغرب وأهل المشرق كذلك، ووجه التشـبيه أنَّ الإخبار كالعيان، وقيل: الكاف زائدة وفائدة لفظ «ذَلِكَ» تعظيم الأمـر، أو أمره في أهل مطلع الشـمس مثل ذلك الأمر الصادر منه في أهـل المغرب من التخيير والاختيـار، أو وجدها تطلع وجدانا ثابتا كذلك الوجدان الذي وجدها به حين تغرب في عين حمئة، أو لم نجعل لهم سـترا جعلا ثابتا كذلك الجعل الذي تفضَّلنا به عليكم من اللباس والبناء الفاخرين، أو سترا ثابتا كسـتركم، وكلاهما لا يتبادر، أو وجدها تطلع على قوم ثابت مثل ذلـك القبيل الذي تغرب عليهم فـي الكفر والحكم، أو حتَّى إذا بلغ مطلعها مثل ذلك البلوغ الذي بلغ مغربها.

﴿**وَقَدَ اَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ**﴾ من الجنود والآلات والأسباب وما لاقى وقاسى في أثناء السـير إلى أن بلغ، فالأمر أكثرُ وأعظمُ مِمَّا ذكرنا لكم، ولا يحيط به إلَّا الله، فهذا تعظيـم بعد التعظيم بقولـه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أو هذا تعظيم للسـبب الموصل إلى مطلع الشمس ﴿**خُبْرًا**﴾ علما بظاهر ذلك وباطنه الخفي.

﴿**ثُمَّ اَتَّبَعَ سَـبَبًا**﴾ معترضا بين المغرب والمشرق من مطلع الشمس إلى الشمال ﴿**حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السُّـدَّيْنِ**﴾ الجبلين، يسمَّى الجبل والحاجز سدًّا لأنَّه سدَّ فجًّا من الأرض أو سمِّيا سدَّين لأنَّهما جاورا السدَّ الذي بناه فباعتبار ذلك بعد بنائه على ظاهره، وباعتباره قبل بنائه من مجاز الأَوْل.

[لغة] والسُّـدُّ بالضمِّ: الشـيء الحاجز، وهو قول الخليل وسيبويه: إنَّه الاسم، وقول ابن إسـحاق: إنَّه ما رأته عيناك، وقول عكرمة وأبي عمرو بن العلاء وأبي عبيدة: إنَّه ما كان من خلق الله، والمفتوح عمل السُّـدِّ، وهو قول

الخليل وسيبويه: إنَّه المصدر، وقول ابن إسحاق: إنَّه ما لا تراه عيناك لأنَّ العمل لا يرى وإنَّما يرى العامل، وقول عكرمة وأبي عمرو وأبي عبيدة: إنَّه عمل البشر، وأجاز الكسائي الفتح في الحاجز كما تدلُّ له قراءة الفتح.

و«بَيْنَ» مفعول لـ«بَلَغَ»، أو يقدَّر: بلغ ما أراده بين السُّدَّين.

[قصص] وهما فيما يقرب من عرض تسعين في منتهى الشمال، وقد وصل إليهما رجل بأمر الواثق بزاد، وأمر بمراعاة من يصلهم من أهل الممالك إِيَّاهُ حتَّى يصله، وأعانه في ذلك صاحب السرير وهو سلطان المسقو [أي الإسكيمو]، وجرى في أرض منتنة وأنفذوا معه رائحة لا بدَّ منها لداخل تلك الأرض، ووصل ووجد عنده قوما يقرؤون القرآن ولغتهم عَرَبِيَّة، ووجد هناك بَقِيَّة ما يبنى به من لبن الصخر المنجور والحديد وراءه طرائق، [قلت:] ولا بأس بذلك، وثقاة المؤرِّخين ضعَّفوه وكذَّبه بعض المحقِّقين.

وروى ابن جرير وابن مردويه عن أبي بكرة الثقفي[1] أنَّ رجلا قال: يَا رسول الله قد رأيت سدَّ ياجوج وماجوج، قال: انعته لي، قال: كالبرد المَحَبَّر طريقة حمراء وطريقة سوداء، قال: قد رأيته، والظاهر أنَّه رآه في اليقظة لا النوم، وقولهم: إنَّهم يقرؤون القرآن وإنَّ لغتهم عَرَبِيَّة لا يردُّه قوله تعالى:

﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً﴾ لأنَّ الذين لغتهم ذلك بعد رسول الله ﷺ بعد بناء السدِّ وما ذكره الله قبل بنائه لا يكادون يفقهون

(1) أبو بكرة الثقفي الطائفي مولى النبيء ﷺ اسمه نفيع بن الحارث، تدلَّى في حصار الطائف ببكرة وفرَّ إلى النبيء ﷺ وأسلم على يده وأعلمه أنَّه عبد فأعتقه. سكن البصرة وكان من فقهاء الصحابة، وأمُّه سميَّة فهو أخو زياد بن أبيه لأمِّه. مات سنة 51هـ. تهذيب سير أعلام النبلاء، ج 1، ص 81.

قولا من لغة ذي القرنين وجنوده لغرابة لغتهم. وأجاز بعض أن يكون القول الفهم مطلقا ولو بالإشارة أو ما من شأنه أن يقال، ليشمل الإشارة ونحوها.

[لغة] ونفي «كاد» كغيرها، فمعنى «كاد يفعل»: قرب أن يفعل، ومعنى «ما كاد يفعل»: ما قرب أن يفعل، وقد يفعل بعد قربه، وقد لا يفعل.

و﴿دُونِهِمَا﴾: ما يلي غير أرض ياجوج وماجوج. والقوم: الترك أو غيرهم، قيل: سمِّي الترك لأنَّهم من داخل ما سَدَّ، غابوا فسدَّ المحلَّ عنهم لا قوم من الجنِّ كما قيل، والمراد على كلِّ حال بكونهم لا يكادون يفقهون تعسُّر فهمهم جدًّا لا امتناعه بالكلِّية لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ﴾ أي ولو بإشارة، ويحتمل أنَّهم قالوا بواسطة مترجمهم مِمَّن جاورهم، ويقرِّب له الفهم عنهم على التجوُّز في الإسناد، ويدلُّ له أنَّ في مصحف ابن مسعود: «وقال الذين من دونهم»، أو أفهمه الله ﷻ كلامهم فيكون ذلك من الأسباب التي هيَّأها الله له.

[قصص] ﴿يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ﴾ من ولد يافت بن نوح، عند وهب بن منبه وغيره، وكثير من المتأخِّرين، وقيل: سار يافت إلى المشرق فولد له جومر وينرش وأشار وإسقويل ومياشح، فمن جومر السقالبة والروم وأجناسهم، ومن مياشح العجم، ومن أشار ياجوج وماجوج، فجاء ذو القرنين فبنى السدَّ وبقوا خارجين. وروى عبد الرزاق عن قتادة أنَّ ياجوج وماجوج اثنان وعشرون قبيلة، بنى ذو القرنين السدَّ على إحدى وعشرين، وكانت واحدة خارجة للغزو فبقيت خارج السدِّ، وسمِّيت الترك، وقيل: ياجوج من الترك وماجوج من الديلم، وقيل: من الجيل.

[قصص] وعن كعب الأحبار: احتلم آدم فاختلطت نطفته بالأرض، فتولَّد منها ياجوج وماجوج، ونُسب للجمهور، واعترض بأن الأنبياء لا تحتلم، وأجيبَ بأنه احتلم بزوجه، وهذا جائز عليهم، ويجوز أنه احتلم من

غير أن يرى أنه يجامع كما يقع لذريته، ويعترض أيضًا بأنه يلزم أن يكونوا قبل الطوفان ولم يهلكوا بالطوفان، وأجيب بأن عموم الطوفان غير متفق عليه[1].

وجاء الحديث أنَّهم من ولد نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ. وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «**ولد لنوح ثلاثة: سام وحام ويافث، ولد لسام العرب وفارس والروم، وولد لحام القبط والبربر والسودان، وولد ليافث ياجوج وماجوج والترك والصقالبة**»، وفي السفر العاشر من السفر الأوَّل من التوراة أنَّ ياجوج من ولد يافث.

[لغة] واللفظان عجميَّان مُنِعَا الصرفَ للعلميَّة والعجمة، وقيل: عربيَّان فَمَنْعُهُمَا للعلميَّة وتأنيث القبيلة، وياجوج يفعول وماجوج مفعول، وألفهما عن همز كما هَمَزَهُما عاصم والأعمش ويعقوب، وهو لغة أسد، من أجيج النار أو من الأجَّة وهو الاختلاف أو شدَّة الملوحة، أو من أجَّ الظليم إذا أسرع، وقيل: الألف زائدة من يَجَجْتُ ومَجَجْتُ، قال قطرب: ياجوج فاعول من أليج وماجوج فاعول من المجِّ.

﴿**مُفْسِدُونَ فِي الَارْضِ**﴾ بأنواع الفساد كالقتل والتخريب وأخذ الأقوات، يخرجون أيَّام الربيع فلا يدعون رطبا إلَّا أكلوه ولا يابسا إلَّا حملوه، ﴿**فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا**﴾ بسبب إفسادهم، كما دلَّت عليه الفاء.

[لغة] والخرْج: الجعل، وأصله مصدر، يطلق على ما يعطى على الرؤوس أو الأرض كالخراج، وقيل: الخرج على الرؤوس والخراج على الأرض والشجر والبناء، وقيل: الخرج ما تبرَّعت به والخراج ما لزم، وقيل: الخرج ما يخرج مرَّة والخراج ما يتكرَّر.

---

(1) رحم الله الشيخ فقد انساق وراء ما ذكره بعض المفسرين كالقرطبي والشوكاني، واهتم بمناقشة تفاصيل رواية إسرائيلية لا تتوافق مع سنن الله الثابتة في خلق الإنسان، بينما كان الأنسب أن لا يوردها أصلا، أو أن يردها جملة وتفصيلا. (المراجع).

﴿**عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سُدًّا**﴾ يمنعهم عن الوصول إلينا، ﴿**قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي**﴾ مكَّنني فأدغمت نون مكَّن في نون الوقاية، أي: ما جعلني فيه ربِّي قَوِيًّا من الملك والمال والأسباب ﴿**خَيْرٌ**﴾ من الخرج الذي تريدون جعله لي.

﴿**فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ**﴾ كالعمل والبناء والحمل على الظهور والدوابِّ، قيل: وكالآلات وزُبر الحديد، وقد يدخل هذا في المال. والتسبُّب بالفاء عائد إلى عدم قبوله خرجهم، المعنى: أعينوني بِقُوَّةٍ فقط لأنَّ مالي أعظم، أو إلى خيريَّة ما مكَّنه الله فيه.

﴿**اَجْعَلْ بَيْنَكُمْ**﴾ قدَّمه على قوله: ﴿**وَبَيْنَهُمْ**﴾ مطابقة لقولهم: ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ﴾، ومراعاة لإظهار كمال العناية بمصالحهم، كما راعوها في قولهم: ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ﴾، ولإظهار كمالها كرَّر الظرف إذ لو قال بينكم ردما بخطابهم وخطاب ياجوج وماجوج بالكاف تغليبا للمخاطب على الغائب لجاز ﴿**رَدْمًا**﴾ سدًّا حاجزا قَوِيًّا جدًّا وهو أوثق من مطلق السدِّ كما قال ابن عَبَّاس: هو كأشدِّ الحجاب، فقد وفَّى لهم بأفضل ما طلبوا وكذا شأن الملوك، وأصله سدُّ الخلل مطلقا، وقيل: سدُّ الثلمة بالحجارة.

﴿**اتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ**﴾ قطع الحديد، جمع زبرة، كغرفة وغرف، وذلك مِنْ: زبرت الكتاب: جمعت حروفه، وزبرة الحديد جمعت فيها أجزاء منه. وطلب إيتاء الزبر لا ينافي أنَّه لم يقبل منهم شيئا لأنَّه أراد آتوني بزبر الحديد أشترها منكم، أو أراد ناولوها إيَّاي، وهي من مالي ومال الله فهذا من الإعانة بِالقُوَّةِ، وَأَمَّا أن تقول: الإيتاء بزبر الحديد عَلَى طريق العارية فلا يجزئ في الجواب، لأَنَّ ذَلِكَ إعانة بالمال لا بِالقُوَّةِ وحدها. ولا يقال: أراد بالخرج المال الكثير المقاوم أو المقارب لِمَا يعمل لهم من النفع وَأَمَّا ما قلَّ فلا بأس به ودخل في «قُوَّةٍ» وأراده فيها، لأَنَّا نقول: الزُّبَر غير قليل، لأَنَّهَا أعظم ما يحتاج إِلَيْهِ السدُّ

وأغلى، وَلِذَلِكَ لم يذكر الصخر والحطب، وقد يكون زبر الحديد مرادا عملها له من ماله ومال الله، وقد تكون مستثناة كأنَّه قال: لا أحتاج إلى مالكم إلَّا زبر الحديد وقوَّتكم، وقد يكونون أرادوا بالخرج ما يستمرُّ على الدوام كالخراج المضروب على الناس، أو على أرضهم مثلا لا ما ينقطع كالزبر.

وهنا حَذْفٌ تقديره: فآتوها إِيَّاهُ فجعل يبني ﴿**حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ**﴾ حتَّى صار ما بين الجبلين من بنائه مساويا لهما في العلوِّ. وضمير «سَاوَىٰ» للسدِّ المفهوم أي ساوى السدُّ الهواء المقابل للجبلين بينهما من الأرض إلى فوق، فلزم مساواة الجبلين ولو كان لذي القرنين لقال: «سوَّى» بشدِّ الواو، وأجازه بعضٌ، والمشهور أنَّ الصدف الجانب من الجبل.

﴿**قَالَ**﴾ ذو القرنين للعملة ﴿**انفُخُواْ**﴾ بالكيران في زبر الحديد المسطرة مع الصخر بين الجبلين، وهنا حذف تقديره: فجعلوا ينفخون ﴿**حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُ**﴾ صيَّره ﴿**نَارًا**﴾ كنار في الحرارة واللون، والضمير في «جَعَلَ» لذي القرنين مجازا، لأنَّ الجاعل العملة، وأسند الجعل إليه لأنَّه العمدة والآمر، أو يقدَّر مضاف، أي: جعل عملته، والهاء للمنفوخ فيه.

﴿**قَالَ**﴾ للذين يتولَّون أمر النحاس وإذابته أو للنافخين ﴿**ءَاتُونِي**﴾ أعطوني من المتولِّين أمر النحاس، أي: صيِّروا القطر آتيا أي حاضرا ﴿**أُفْرِغْ عَلَيْهِ**﴾ أي على المنفوخ فيه ﴿**قِطْرًا**﴾ نحاسا مذابا عند الجمهور، أو رصاصا مذابا أو حديدا مذابا.

[نحو] ومفعول «ءَاتُونِي» محذوف، أي آتونيه بردِّ الهاء للقطر بجواز عود الضمير للمتأخِّر في التنازع، و«قِطْرًا» مفعول «أُفْرِغْ»، ولو كان هو المفعول لـ«ءَاتُونِي» لقيل: أفرغه، ولا مانع من جعله مفعولا به لـ«ءَاتُونِي» وحذف ضميره من «أُفْرِغْ» وإسناد قول «ءَاتُونِي» والإفراغ إلى ذي القرنين كإسناد الجعل إليه.

وهنا حذف تقديره: فآتوه القطر فأفرغه عليه، والتصق بعض ببعض، فصار جبلا صلدا، فجاء ياجوج وماجوج وقصدوا أن يعلوه أو ينقبوه أو امتثلوا أمره ﴿**فَمَا اسْطَاعُواْ**﴾ ما اســتطاعوا فحذفت التاء تخفيفا عن ملاقاة متقاربين ﴿**أَنْ يَّظْهَرُوهُ**﴾ أي أن يعلوه لملاسته ولعلوّ مائتي ذراع أو ألفا وثمانمائة ذراع ﴿**وَمَا اسْتَطَاعُواْ لَهُ نَقْبًا**﴾ لصلابته وتغلُّظه، حتَّى قيل إنَّه قدر خمسين ذراعا، وأساسه بلغ الماء ومن صفاته ما قيل: إنَّ امتداده على الأرض مائة فرسخ.

وتمام ذلك الغلظ والطول وســلامة النافخين والعاملين مع ذلك مع كثرة النار وتقاربها بالقدرة الإلهِيَّة أو بآلات يسّرت له لا يتفطَّن لها اليوم كما نرى الآن أعمالا عجيبة لا طاقة لنا بها. و«لَهُ» حال من «نَقْبًا» أو مفعول به لـ«نَقْبًا» بلام التقوية، قدِّم للفاصلة. ثبت التاء لأنَّ النقب أشدُّ من الظهور، ولأنَّه يتكرَّر بخلاف الظهور فإنَّه يوئس منه بلا تجريب، والله أعلم.

ولعلَّ وراء الجبلين بحرًا ولا ســفن لهم، أو الجبلان أملســان طويلان لا ينقبان ولا يظهران كالسدِّ.

[قصص] ويروى أنَّهم ينقبون كلَّ يوم منه فيجدونه صبحا مردودا فيه إلَّا قليلا يبقى، وإذا حضر الأجل للخروج ألقى الله على لسان أحدهم: إن شاء الله تعالى نفذناه فيجدونه غير مردود فينفذونه فيخرجون.

﴿**قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِن رَّبِّي**﴾ شكر الله في قلبه على هذه النعمة، أو خاطب به الحاضرين مِمَّن كان ياجوج وماجــوج يضرُّونهم ومن غيرهم، وهذا أولى، لأنَّ فيه الدعاء إلى الله، ولأنَّ فيه تحبيب الله إلى خلقه.

والإشــارة إنَّما هي إلى الســدِّ لحضوره، ولقوله: ﴿جَعَلَهُ دَكًّا﴾ فإنَّ هاءه للسدِّ، فهو أولى من كونها للتمكين من بنائه ومن تقدير مضاف أي بناء هذا، ومن كون الإشارة إلى السدِّ بمعناه المصدري. ومعنى كون ذلك رحمة أنَّه أثر رحمة، وبالغ بجعله نفــس الرحمة، وذلــك رحمة لمجاوريه وســائر العباد

ومجاوروه أعظم رحمة به وإذا جعلت الإشــارة للتمكُّن فكون التمكُّن رحمة باعتبار أنَّه ســبب، وفي الإخبار بأنَّه «رَحْمَةٌ مِن رَّبِّي» تلويح بأنَّه إحسان إلهيٌّ لا طاقة للبشر عليه عادة. وفي ذكر الربِّ تربية معنى الرحمة.

﴿**فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي**﴾ أي وقت وعده، وإسناد المجيء إلى الوعد مجازٌ، وإســناده إلى وقته حقيقةٌ، أو الوعد بمعنى الموعود وهو وقته، أو وقوعه فلا حذف مضاف ولا مجاز في الإســناد، والمراد بوقت ذلك يوم القيامة، وقيل: وقت خروج ياجوج وماجوج، عَلِمَهُ من نبيءٍ أو غيرِه أو إلهامٍ، ولا يســاعده كلام الله. والمــراد: مجيئه مع ما معه من خروج ياجــوج وماجوج، والدجَّال، ونزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وطلوع الشمس من مغربها، لا وقوعه فقط.

﴿**جَعَلَهُ**﴾ ربِّــي ﴿**دَكًّا**﴾ صيَّره دكًّا أي مدكوكا مســوًّى بالأرض أو نفس الدكِّ مبالغة. وعلم ذي القرنيــن بهذا الجعل من تمام علمه بمجيء الســاعة بإخبار نبيء أو غيره، أو إلهام، أو من كتاب حزقيال، إذ من مبادئها دكُّ الجبال الشامخة. أو ﴿دَكًّا﴾: كالشــيء المدقوق كالمطحون، وفي الكلام حذف أي: يستمرُّ إلى آخر الزمان فإذا جاء وعد ربِّي جعله دكًّا.

﴿**وَكَانَ وَعْــدُ رَبِّي حَقًّا**﴾ ثابتــا لا محالة، أي وعده المعهــود، أو كلُّ ما وعد، فيدخل ذلك المعهــود أوَّلاً. وهذا آخر كلام ذي القرنيــن ذيَّل به قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ مؤكِّدا له.

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (99) وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا (100) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (101) أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا (102) قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (104) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (105) ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا (106)﴾

حالة الخلائق بعد انهدام السدِّ
وعاقبة الكفّار يوم القيامة

﴿**وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ**﴾... إلخ من كلام الله صدَّق به كلام ذي القرنين، كما إذا أمر سلطان رجلا بذكر شيء للناس فذكره وصدَّقه السلطان بكلام يعقبه ويؤكِّده.

والترك بمعنى الجعل، والهاء للخلق، والعطف على «جَعَلَهُ دَكًّا»، و«يَوْمَئِذٍ»: يوم إذ جاء الوعد بمجيء بعض مبادئه، والموج: الاضطراب شبِّه بموج البحر حتَّى إنَّه يختلط الجنُّ والإنس والوحش من شدَّة الهول، ولأنَّ الجنَّ تعرف أنَّ الإنس أعرف منهم فيطلبون منهم معرفة ما شأن هذا الهول، والوحش مع نفرتها ترى الإنسان أولى بأن تلتجئ إليهم من ذلك الهول.

أو الهاء للناس خَاصَّةً، يمــوج بعضهم في بعض بخروج ياجوج وماجوج فزعا، ويجوز أن يكون هذا أيضا من كلام ذي القرنين أي صيَّرنا الناس يموج بعض في بعض حين تمَّ الســدُّ تعجُّبا منه، أو صيَّرنــا ياجوج وماجوج يموج بعض في بعض داخل السدِّ لا مخرج لهم منه.

ويجوز على أنَّه من كلام الله ﷻ أن تكون الهــاء لياجوج وماجوج يموج بعض في بعض عند خروجهم مزدحمين في البلاد، واختاره أبو حيَّان.

[قصص] ومن حديث النَّواس بن سمعان: «ثمَّ يأتي عيسى عليه السلام قوما قد عصمهم الله من الدجَّال، فيمســح وجوههم ويحدِّثهم بدرجتهــم في الجنَّة، فبينما هم كذلك أوحى الله ﷻ إليه: إنِّي قــد أخرجت عبادا لي لا يُدان لأحد أن يقاتلهم، فاخرج بعبادي إلى الطور، فيخرج ياجوج وماجوج فينشفون الماء ويتحصَّن الناس عنهم في بيوتهم، ويضمُّون إليهم مواشــيهم، فيشــربون ماء العيون كلِّها، فيمرُّ آخرهم فيقول: كان هنــا ماء، ورأس الثور أو الحمار يومئذ خير من مائة دينــار، ويقولون: فرغنا مــن أهل الأرض فلنقاتل أهل الســماء فترجع نشابهم بالدم، فيرغب عيسى والمؤمنون في إهلاكهم فيصبحون موتى بدودة في أعناقهم موت نفس واحدة، بلا حسٍّ يســمع، ويطلب المســلمون رجلا يخرج ليخبرهم فيخرج مسلم وطَّن نفســه على الموت فيبشِّرهم أنَّ الله أهلك عدوَّهم، فيخرجون بدوابِّهم وتســمن من لحمهم، ويعمُّ الأرض نتنهم وزهمهم، ويعمُّ أهل الأرض دخان من السماء، أو ريح من اليمن تشبهه ثلاثة أَيَّام، ويرســل الله طيرا كالبخــت تلقيهم في البحر ويغســل الله الأرض بمطر كالزلفــة، وتُنبت الأرض ما لم تُنبت حتَّى تُشــبع العصابة رمانة ويســتظلُّون بقشرها، وترويهم اللقحة ويوقدون من سلاحهم سبع سنين».

﴿**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ**﴾ نفخة البعث لأنَّها وعيد لِلكُفَّارِ، ولقوله: ﴿**فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًــا وَعَرَضْنَا جَهَنَّــمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِيــنَ عَرْضًا**﴾ والصور قــرن قيل: دارته

السماوات والأرض، كلُّ روح في ثقبة، قال أبو سعيد الخدري: قال رسول الله ﷺ: «**كيف أنعم وقد التقم صاحب القرنِ القرنَ وحَنَى جبينه وأصغى سمعه ينتظر أن يؤمر فينفخ**»[1].

وقيل: الصور جمع صورة أو اسم جمعها، قال القرطبي: من أنكر الصور كمن أنكر العرش، وأجمعوا أنَّ النافخ إسرافيل، وذكر القرطبي أنَّ معه ملكا آخر نافخا. والهاء للخلق يجمعهم ـ بعد فنائهم وتفتُّتهم ـ في أرض واحدة للحساب. وتنكير «جَمْعًا» و«عَرْضًا» للتعظيم، وعرْضُ جهنَّمَ: إظهارها بحيث يراها الكافر ويسمع حسَّها وزفيرها، وخصَّهم بالذكر لأنَّهم المعاقبون بها. و﴿يَوْمَئِذٍ﴾: يوم إذ جمعنا الخلائق.

﴿**الذِينَ كَانَتَ اَعْيُنُهُمْ**﴾ بصائر قلوبهم وهم في الدنيا ﴿**فِي غِطَآءٍ**﴾ في خذلان أو قساوة شبيه بالجسم الغليظ الذي يغطِّي ﴿**عَن ذِكْرِي**﴾ آياتي المؤدِّية لأولى الأبصار المتدبِّرين فيها إلى ذكري بالتوحيد والطاعة والنفور عن المعصية، وذلك إطلاق للمسبَّب وإرادة السبب، ومن لم يتذكَّر بالآيات فكأنَّه أعمى، أو الذكر: ما أنزل على الأنبياء، أو القرآن.

﴿**وَكَانُواْ**﴾ مع ذلك ﴿**لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا**﴾ إذعانا للحقِّ، وذلك تشبيه لهم حيث لا ينتفعون بما سمعوا من الشرع بمن هو أصمُّ، ويجوز أن يقدَّر: سمعا لذكري المذكور أوَّلاً بنفسه، وأمَّا أن يقدَّر هنا: لذكري ويراد به ما لم يُرَدْ أوَّلا فلا يجوز، إذ لا دليل عليه، مثل أن يراد أَوَّلاً الموعظة وهنا القرآن كما قال ابن هشام في المغني: «الدليل اللفظي لا بدَّ من مطابقته للمحذوف معنى، فلا يصحُّ أن يقال زيد ضارب وعمرو أي وعمرو ضارب على أنَّ الضرب الأوَّل بالمعنى المعروف والثاني بمعنى مسافر».

---

(1) رواه **الترمذي** في كتاب صفة القيامة (8) باب ما جاء في شأن الصور، رقم 2431. و**أبو نعيم** في الحلية: ج 3، ص 189. من حديث أبي سعيد الخدري.



﴿اَفَحَسِبَ الذِينَ كَفَرُواْ أَنْ يَّتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيَ أَوْلِيَآءَ﴾ أكفروا بي فحسب الذين كفروا بي، وحسبوا بمعنى ظنُّوا، وقيل: العطف على مذكور وهو ﴿كَانَتَ اعْيُنُهُمْ...﴾ أو كانوا، ولا ينافيه لأنَّه لا تقريع على تعاميهم وتَصَامِّهم لأنَّهما نزِّلا منزلة الضروريِّ، لأنَّا نقول: الاختيار والتشبيه مع ذلك مراعان، والاستفهام توبيخ واستقباح.

و«عِبَادِي» نحو عيسى والملائكة وعزير، والإضافة للتشريف، وعلى تشريف الله سبحانه لهم بنوا عبادتهم، وقال قتادة: الملائكة، والعموم أولى، وعن ابن عَبَّاس: الشياطين، وهو ضعيف لا يصحُّ عنه، وعن مقاتل: الأصنام، وهو ضعيف لأنَّه لا دليل على تخصيصها، ولأنَّ الأصل أن لا يطلق العبد على غير العاقل، وقال بعضهم: المراد العقلاء وغيرهم كالأصنام، وفيه ما ذكرت وأنَّ الأصل عدم التغليب.

[نحو] والإضافة في هذه الوجوه بمعنى الملك لا للتشريف، و«أَوْلِيَاءَ» بمعنى معبودين أو أنصارا من بأسي، وليست «أَنْ» مخفَّفة لنصب المضارع بحذف النون، و«أَنْ يَّتَّخِذُوا» في تأويل مصدر مفعول أوَّل لـ«حَسِبَ»، والثاني محذوف، أي أفحسب الذين كفروا اتِّخَاذهم... إلخ نافعا، أو دافعا للعذاب، أو نحو ذلك؟ وإنَّما لم يكف عن مفعولين لأنَّه ليس فيه ما أصله المبتدأ والخبر، كما في المخفَّفة ولا فيه ما يعلِّقه عن طلب مفردين نحو: علمت هل قام زيد.

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ﴾ هيَّأنا، وهو دليل على أنَّها مخلوقة قبل يوم القيامة، ويحتمل أنَّ المراد قضاؤها في الأزل، أو إثباتها في اللوح المحفوظ ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ أظهر مكان الإضمار ليذكر علَّة استحقاق جهنَّم وهي الكفر، ويقبِّحهم بذكره، وتعليق الحكم بمعنى المشتقِّ يؤذن بعلِّية معنى ما منه الاشتقاق ﴿نُزُلاً﴾ شبَّهها بما يعدُّ للضيف من طعام وشراب عكسا، تحقيرا لهم وتلويحا بأنَّ ما حسبوه ذخرا لهم من عبادة غير الله استحال عليهم خسارة

وخزيا، وبأنَّها من حيث إنَّها دار لهم خسيسة، ولو بضرب من الملائكة ونحوه كالشـــيء القليل للضيف المعجَّل له بـــه قبل ما يحتفل له به بالنســـبة إلى ما يكون فيها بعد من الأنـــكال والأغلال وأنواع العذاب، وقـــال الزجَّاج: النزل موضع النزول، وكذا روي عن ابن عَبَّاس، وقيل: جمع نازل، وعليه فهو حال.

﴿**قُلْ**﴾ يـــا محمَّد للكافرين مـــن قريش وغيرهم وأهـــل الكتاب وغيرهم ﴿**هَلْ نُنَبِّئُكُم**﴾ النون له ﷺ مع المؤمنين، وفـــي كونها له مع الله أو معه ومع المؤمنين ما مرَّ. والاســـتفهام توبيخ لهم، وإن جعل للاستئذان تنزيلا له منزلة الاستفهام الحقيقيِّ كان تهكُّما بهم ﴿**بِالَاخْسَـــرِينَ أَعْمَالاً**﴾ جمع التمييز مع أنَّه مصـــدر يصلح لكثيـــر بلا جمـــع للدلالة على أنـــواع بأنَّها كلَّها شـــملها الخسران، كما يجمع في غير التمييز أيضا تنبيها على الأنواع مثل قولنا: كتاب البيوع، تنبيها على أنواع كالبيع المشهور والسلم والمحاولة والتولية.

[نحو] [قلت:] ولا نسلِّم أنَّ محلَّ إفراد التمييز ما إذا لم يكن وصفا وأنَّه إذا كان وصفا أو بمعنى الوصف جمع أو ثنِّي أو أفرد بحسب ما هو فيه، ولا أنَّه هنا جمع «عامل» أو «عمِل» (بكسر الميم) بمعنى ذي عمل، كلُّ ذلك لا يجوز، ونحو: شـــاهد وأشهاد غير قياســـي، فلا يحمل عليه القرآن، ومجيء التمييز وصفا قليل فلا يحمل عليه ما له مندوحة عنه، وفارســـا في [قولنا:] «لله درُّه فارسا»، خارج عن الوصفيَّة.

﴿**الذِينَ ضَلَّ**﴾ في الآخرة ﴿**سَـــعْيُهُمْ**﴾ أي عملهم ﴿**فِـــي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ متعلِّق بـ«سَعْيُهُمْ» لأنَّ زمان الســـعي الدنيا، وزمان خيبة الثواب عليه الآخرة. و«الذِينَ» نعت أو بيان أو بدل أو منصوب المحلِّ على الذمِّ.

ولم يذكر الله ﷻ أنَّهم قالوا: أنبأنـــا ولا أنَّه أنبأهم، ولا يقال أنبأهم بقوله: ﴿الذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ﴾ أي الأخســـرون أعمالا هم الذين ضلَّ سعيهم لأنَّهم لا يعلمون من هم الذين ضلَّ ســـعيهم، إلَّا أن يقال: لوَّح لهم بِأَنَّهُم الأخســـرون

أعمالا، وأنَّهم ضلَّ سعيهم فهموا ذلك أم لم يفهموا، والأولى إن كان قد أنبأهم أن يكون أنبأهم بقوله: ﴿أُولَئِكَ الذِينَ كَفَرُواْ بِئَايَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِ﴾ لأنَّهم يعرفون أنَّهم كفروا بالآيات والبعث.

﴿**وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا**﴾ الواو للحال، وصاحب الحال «سَعْيُهُمْ»، أو الهاء من «أَنَّهُمْ»، والأوَّل أدخل في بيان خطئهم. والإحسان: الإتيان بالعمل على الوجه اللائق، وهو حسنه الوصفي المستلزم لحسنه الذاتي.

﴿**اولَئِكَ**﴾ الأخسرون أعمالا الضَّالُّ سعيُهم الحاسبون أنَّهم يحسنون صنعا، مبتدأ خبره هو قوله: ﴿**الذِينَ كَفَرُواْ بِئَايَاتِ رَبِّهِمْ**﴾ بدلائله الموصلة الجاهل إلى التوحيد من الأرض والسماء وسائر مخلوقاته والقرآن، وقيل: القرآن، ووجهه أنَّه هو الذي كفروا به إذ لم يكفروا بنحو السماء وقد أقرُّوا أنَّه الخالق، ومن اختار العموم فكأنَّه راعى جحودهم لدلالتها على وجوب التوحيد، فكفرهم بها من حيث الدلالة. وذكر «رَبِّ» تلويحا بتقبيح كفرهم بمن هو ربٌّ، أي خالق ورازق ومنعم.

﴿**وَلِقَآئِه**﴾ كناية عن البعث والحساب، أو استعارة تمثيلية بأن شبَّه عدم الحساب والعقاب بالغيبة عن الموقف في الدنيا منهم، وحضورهم أحياء للحساب والعقاب بلقاء الشيء، أو ذلك من تقدير مضاف هكذا: ولقاء عذابه.

﴿**فَحَبِطَتَ اَعْمَالُهُمْ**﴾ لكفرهم كما تدلُّ عليه الفاء، والمراد: أعمالهم التي يرجون أنَّها تنفعهم مِمَّا هو في نفسه طاعة كالصدقة أو معصية كعبادة غير الله ﷻ. ﴿**فَلَا نُقِيمُ**﴾ لأجل ذلك ﴿**لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا**﴾ كناية عن إلغائهم وعدم اعتبارهم في شيء من الخير البتَّة، كما أنَّ الأوساخ والمستقذرات لا تعتبر بالوزن، أو لا نقيم وزنا لأعمالهم لإحباطها حتَّى لم يبق منها شيء وصارت كهباء منثور، والوزن عبارة عَمَّا يستحقُّ لشيء، وقال: «لَا نُقِيمُ» لأنَّ وزن الله مُقامٌ لا شيء منه ناقص، وإذا كان منه شيء ما لم يكن إلَّا على إقامة.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من خزيهم ﴿جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي الشأن ذلك، أو احذروا ذلك أو ذلك جزاؤهم عليه، أو به جهنَّم، فحذف الرابط المضمر المجرور ولو لم يذكر مثله لعلمه من المقام، كما ذكر في قوله:

فالذي تدعي به أنت مفلح[1] ....

أي مفلح به، ولا يتكرَّر هذا الضمير مع قوله: ﴿بِمَا كَفَرُواْ﴾ وذلك كما تقول: هذا العقاب جزاء عمرو بكفره، لوقوع الكفر منه.

[نحو] فالباء الثانية بمعنى التعليل أو السببيَّة، والأولى للتعدية هذا إذا جعلنا «بِمَا كَفَرُوا» خبرا ثانيا، وإلَّا فلا إشكال، ويجوز أن يكون «جَزَاءُ» بدلا وهو المراعى في الإخبار بجهنَّم، أو «جَزَاؤُهُمْ» خبر «ذَلِكَ» و«جَهَنَّمُ» بدل «جَزَاؤُهُمْ»، والإشارة على هذا إلى جهنَّم الحاضرة في الذهن، أو خبره قوله: ﴿بِمَا كَفَرُواْ﴾ و﴿جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ معترضة.

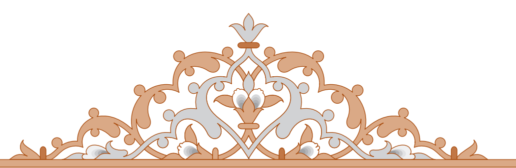
أو «جَزَاءُ» بدل من «ذَلِكَ» أو بيان، و«جَهَنَّمُ» بدل أو بيان من «جَزَاءُ» أو «بِمَا...» متعلِّق بـ«جَزَاءُ» إلَّا أنَّه مفصول بـ«جَهَنَّمُ»، وجاز لأنَّه مقصود بتأويل الفعل، و«مَا» مَصدَرِيَّة، أي بكفرهم واتِّخاذهم آيات الله ورسله هزؤا، كما قال عطفا عليه:

﴿وَاتَّخَذُواْ ءَايَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ نفس الهزؤ مبالغة، أو مهزوءا بها، أو هم بتغليب العقلاء. لم يقتصروا على الكفر بها بل زادوا الهزؤ. والآيات: كتبُ الله والمعجزات.

وعقَّب الله سبحانه الكفر وجزاءه بالإيمان وجزائه في قوله:

---

(1) لم نقف على قائله، وقد أورده بعض المفسرين واللغويِّين ولم ينسبوه. ينظر: **الآلوسي**: روح المعاني، ج 16، ص 49.



﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ﴿107﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ﴿108﴾ قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ﴿109﴾ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴿110﴾﴾

جزاء المؤمنين والدعوة إلى الإيمان وإخلاص العمل لله

﴿**انَّ الذِينَ ءَامَنُواْ**﴾ بالله ورسوله وآياته على العموم، لأنَّه كما قيل نزلت في طائفة مخصوصة، ولا سيما أنَّها نزلت في مقابلة عَامَّة الكفرة ﴿**وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ**﴾ الفرائض والسنن والنفل، ومنها ترك المعاصي لله ﷻ فإنَّه عمل.

[أصول الدين] ﴿**كَانَتْ لَهُمْ**﴾ بوعد الله في الأزل، أو في اللوح، أو صارت لتحقُّقها بعد كأنَّها مضت، وفي ذلك تلويح بأنَّها بمقتضى الرحمة الأَزَلِيَّة، بخلاف النار فبمجرَّد قضائه واختيارهم السوء، كما قال في حديث قدسيٍّ: «**سبقت رحمتي غضبي**»[1]. لم يقل: أعتدنا، لأنَّ ما اعتيد قد تمَّ وادُّخر، وخير الجنَّة لا يزال يزداد قبل الموت وبعده، وبعد الدخول فيها، كما ورد أنَّه: من فعل كذا لم تزل الملائكة تغرس له، ولأنَّ ما اعتيد قد لا يصل من ادُّخر له في الجملة، وما ثبت لأحد في القضاء واللوح لا يخطئه.

﴿**جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ**﴾ الجامع للعنب وغيره من الثمار كلِّها الملتفِّ الشجر، قال رسول الله ﷺ: «**إذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس فإنَّه وسط الجنَّة**

(1) تَقَدَّمَ تخريجه، انظر: ج 4، ص 208.

وأعلاها وفوقه عرش الرحمن ومنها تفجَّر أنهار الجنَّة»[1] رواه البخاري ومسلم وابن أبـي حاتم عن أبي هريـرة، وقـال ﷺ: «**الجنَّة مائة درجة مـا بين كلِّ درجتين ما بين السـماء والأرض، والفـردوس أعلى الجنَّة، فإذا سـألتم الله فاسـألوه الفردوس**»[2] رواه أبو عبيدة بن الجرَّاح. وعن كعب الأحبار: «ليس في الجنَّة أعلى مـن جنَّة الفردوس، وفيها الآمـرون بالمعروف والناهون عن المنكر»[3]. وصحَّ أنَّ أهل الفردوس يسمعون أطيط العرش.

وإضافة جنَّات للفردوس للشبه ولكونهنَّ تحت جنَّة الفردوس أو حولها، لكن جنَّة الفردوس أعلى منهنَّ، فليسـت الآية فيمن يدخل جنَّة الفردوس بل في عَامَّة المؤمنين والجنَّات، أمَّـا خاصَّتهم وَخَاصَّةً جنَّة الفردوس فمن خارج الآيـة، أو الجنَّات كلُّها فـردوس، فالإضافة للبيان، والفـردوس المخصوص معيَّن لأهله منهنَّ.

وأمَّا قوله ﷺ: «**إذا صلَّيتم عليَّ فاسـألوا الله لي الوسـيلة أعلى درجة في الجنَّة، لا ينالها إلَّا رجل واحد، أرجـو أن أكون أنا هو**»[4] رواه أحمد عن أبي هريرة، فمعناه أنَّ الوسيلة في أعلى الفردوس الذي هو أعلى الجنَّات.

﴿**نُزُلاً**﴾ هنَّ مع عظمهنَّ مثل ما يعجَّل للضيف قبل الاحتفال له، لأنَّهنَّ لا يزلن يزددن خيرا، وقيل: النزل المنزل.

---

(1) رواه **البخاري** في كتاب الجهاد والسـير (4) باب درجات المجاهدين في سـبيل الله... رقم 2637. ورواه **الترمـذي** فـي كتـاب صفة الجَنَّـة، باب ما جاء فـي صفة درجـات الجَنَّة، رقم 2532، مع تقديم وتأخير. من حديث أبي هريرة.

(2) أورده **السيوطي** في الدر، ج 4، ص 279. وقال: أخرجه النجاد في جزء التراجم عن عبيدة بن الجراح.

(3) أورده **السـيوطي** في الدر: ج 4، ص 279. وقـال: أخرجه ابن جرير وابـن مردويه عن أنس بنفس المعنى وزيادة.

(4) رواه **أحمد** في مسنده، كتاب مسند المكثرين، رقم 7281. وروى **الترمذي** ما يقاربه لفظا في كتاب الفضائل، باب فضل النبيء ﷺ، رقم 3612. من حديث أبي هريرة.

[نحو] و«نُزُلاً» خبر ثان والأوَّل «لَهُمْ»، أو يعلَّق «لَهُمْ» بـ«كَانَتْ»، أو حال من «نُزُلاً» و«نُزُلاً» خبر، أو «لَهُمْ» خبر و«نُزُلاً» حال من «جَنَّاتُ».

﴿**خَالِدِينَ فِيهَا**﴾ في تلك الجنَّات، حال مقدَّرة من الهاء في «لَهُمْ»، ولا يصحُّ أن تكون مقارنة لأنَّهم لَمَّا يدخلوها، والحكم بها لهم قبل كونهم فيها فلا تغفل، وقوله: ﴿**لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً**﴾ حال ثانية، أو حال من المستتر في «خَالِدِينَ». و«حِوَلاً» مصدر «حَالَ» بمعنى تحوَّل، لا يطلبون تحوُّلا عنها إذ لا يسأمونها لأنَّها غاية الطيب، ولا يخطر في قلوبهم سواها، ولأنَّها تزداد خيرا، وأدناهم إذا لاقى أكبرهم ادَّعت نفسه أنَّه أكبر، إلَّا رسل الله فلا يُدَّعى الفضل عليهم، ولا يصيبه تغيُّر لذلك.

﴿**قُل**﴾ للمؤمنين وغيرهم إن استبعدت عقولهم شيئا من أمر الجنَّة: إنَّ قدرة الله ﷻ تامَّة لا يعجز عن شيء، ومن ذلك كمال علمه.

روى الترمذي عن ابن عَبَّاس أنَّ حيي بن أخطب اليهودي قال: في كتابكم ﴿وَمَنْ يُّوتَ الْحِكْمَةَ...﴾ [سورة البقرة: 269] وفيه: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [سورة الإسراء: 85] والحكمة العلم، فتناقضت الآيتان، الجواب ظاهر: هو أنَّ الخير الكثير قليل بالنسبة إلى الكلِّ. وقال بعض اليهود أيضا: تدَّعي العلم وعجزت عن علم الروح ما هو؟! فنزل: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم...﴾ مع أنَّ علم الروح مِمَّا لا يحتاج إليه في الدين.

﴿**لَوْ كَانَ الْبَحْرُ**﴾ «ال» للاستغراق، فشمل البحر المحيط والبحور الخارجة منه، وما لم يخرج منه ﴿**مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ**﴾ معلومات ﴿**رَبِّي**﴾ وكلُّ نبتة قلما ﴿**لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا**﴾ عونا وزيادة، لأنَّ معلوماته لا تنتهي، وذلك تمثيل لنا بما هو أقرب لأفهامنا، فإنَّه لا يفي بها سبعة أبحر ولا آلاف ألف وأكثر بلا نهاية عدد.

وذكر السبعة لأنَّ الناس يذكرونها في الكثرة، والمراد: لو جئنا بمثله فكيف لو لم نجئ بذلك؟ أو يقدَّر: لو لم نجئ ولو جئنا، والمراد: لنفد البحر

وهي باقية إذ لا تنفد البتَّة كائنا ما كان. و«مَدَدًا» تمييز، ووجهه أنَّ في الأبحر مددا أيضا إذ كلُّ جزء من ماء زيادة على ما قبله.

[بلاغة] وأظهر الكلمات والبحر لزيادة التقرير، وفي إضافة «رَبِّ» للياء والإظهار مع التكرير زيادة تفخيم للمضاف، وتشريف للمضاف إليه.

﴿**قُلِ اِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ**﴾ لا أدري إلَّا ما علَّمني ربِّي، ويكون الشيء الكثير قليلا بالنسبة إلى غيره، كما أنَّ القليل كثير بالنسبة إلى ما دونه فلا تناقض بين الآيتين اللتين ذكرتم.

[بلاغة] ﴿**يُوحَىٰٓ إِلَيَّ**﴾ من تلك الكلمات التي لا تنتهي ﴿**أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ**﴾ والحصر الأوَّل حصر موصوف هو رسول الله ﷺ على صفة هي كونه بشرا مماثلا لهم، قصر قلب تنزيلا لاقتراحهم منه ما لا يكون من بشر مثلهم منزلة من يدَّعي أنَّه غير بشر، أو إنَّه بشر غير مماثل لهم، أو قصر تعيين تنزيلا لهم لذلك منزلة من لا يدري أنَّه بشر مثلهم، والحصر الثاني حصر موصوف هو الله ﷻ على الصفة هي الأُلوهِيَّة، قصر قلب تنزيلا لعدم إذعانهم إلى القرآن منزلة من يدَّعي عدم الأُلوهِيَّة، وقصر إفراد تنزيلا لذلك منزلة مدَّعي تعدُّد الإله، ولا بطلان لهذا لأنَّ المعنى الردُّ على من يقول تنزيلا إنَّ الله إله وهذه آلهة أيضا، لا إنَّ الواحد إلهان فلا تهم.

﴿**فَمَن كَانَ يَرْجُواْ**﴾ يطمع في حصول ما فيه مسرَّة في المستقبل ﴿**لِقَآءَ رَبِّهِ**﴾ لقاء ثواب ربِّه، أو حسن لقائه، أي حسن البعث، أو لقاء ربِّه بخير منه ﷻ، أو الرجاء: الخوف، أي فمن خاف لقاء ربِّه بشَّر منه ﷻ كقوله:

إذا لسعته النحل لم يَرْجُ لَسْعَهَا وحَالَفَهَا في بيتِ نُوبٍ عواملِ[1]

---

(1) البيت في لسان العرب، ج 1، ص 774، مَادَّة: «نوب». النُّوب: النحل التي تنوب، أي تذهب وتجيء. والبيت لأبي ذؤيب الهذلي يصف عسَّالا. ويروى بـ «خالفها» بالخاء المعجمة.

﴿فَلْيَعْمَلْ﴾ لذلك الطمع لينال مطموعه، أو لذلك الخوف لينجو من مخوفه ﴿عَمَلاً صَالِحًا﴾ ومن العمل ترك المعاصي لله تعالى فإنَّه عمل، وهكذا في غير هذه الآية حيث لم يذكر التقوى أو نحوها مع الإيمان ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ كما تشرك عبدة الأصنام إيَّاهَا مع الله، وكما تشرك النصارى المسيح وأمَّه مع الله، وكما تشرك معه الشمسَ والقمرَ والنجومَ عَبَدَتُها.

[أصول الدين] ويلتحق بذلك معنى لا حكما من قال: صفات الله غيره، قال ابن العربي: «ليس بين من يقول: صفات الله غيره ومن يقول: ﴿إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ﴾ إلَّا تزيين اللفظ». ومن ذلك ترك العمل الصالح خوف أن ينسب إلى الرياء، ومن ذلك الرياء وهو الشرك الأصغر، وقد قيل: الآية في الشرك الجليِّ كشرك قريش واليهود والنصارى وعبدة الأوثان أو غيرها كالملائكة والجنِّ.

وعن ابن عَبَّاس: نزلت في المشركين الذين عبدوا مع الله غيره، فقيل: لو كان كذلك لقدَّم النهي عن عبادة غير الله عن الأمر بالعمل الصالح، وأجيب بأنَّه قدَّم العمل الصالح تفريعا على كونه إلها وأخَّر الشرك تفريعا على كون الإله واحدا، وقيل: التفريع على مجموع ما تقدَّم ولا يدفع الإشكال بهذا، إذ يقال: لم يقدِّم في هذا التفريع النهي عن الشرك.

[قلت:] والأَوْلى تفسيرها بالإشراك عموما: الجليِّ والخفيِّ، ولو كان أكثر شيوعا في الجليِّ، وهذا أعمُّ فائدة ووعظا، ولا مانع منه، ولا يحسن تفسير ذلك بالرياء خاصَّة كما صنع سعيد بن جبير والحسن البصري، ويدلُّ لذلك تقديم العمل الصالح لكن لا مانع من التعميم مع ذلك التقديم، غايته تقديم ما هو الواجب على الموحِّد والمشرك، فإنَّه مخاطب بالفروع كالأصول على الصحيح.

[سبب النزول] وقال جندب بن زهير لرسول الله ﷺ: «إنِّي أعمل العمل لله تعالى فإذا اطُّلع عليه سرَّني» فقال: «**إنَّ الله تعالى لا يقبل ما شورك**

فيه»[1] فنزلـت الآية تصديقا له ﷺ، فنقول: نزلت جوابا له وزجرا للمشـركين، وإنَّما أجابه بذلك لعلمه أنَّ جندبا راءى فجعل فعله إشـراكا وصدَّقته الآية، وزادت بالعموم، قال ﷺ عن ربِّه: «**أنا أغنى الشركاء، من عمل عملا أشرك فيه غيري فأنا بريء منه، وهو للذي أشرك**»[2] رواه أحمد ومسلم عن أبي هريرة.

وفي إحياء الغزالي: «من عقد عمله لله أوَّلاً على الإخلاص وحدث الرياء بعد تمامه لم يبطل عمله، أو قبل تمامه بطل»، قلت: ينافيه أحاديث دلَّت على أنَّه يبطل ولو حدث بعد عمله، كحديث جندب. وعنه ﷺ أنَّه قال لمن قال: يعجبني الاطِّلَاع على عملي: «**لك أجران أجر السرِّ وأجر العلانية**»[3] وهذا محمول على أنَّ الرجل أعجبه الظهور من حيث إنَّه يقتدى به في العمل لا رئاء.

والله الموفِّق وهو المستعان

وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم

[تمَّ بحمد الله وحسن عونه الجزء الثامن من تيسير التفسير، وبه تمام النصف الأول من القرآن الكريم، ويليه بحول الله الجزء التاسع، وأوَّله تفسير سورة مريم].

(1) لم نقف على تخريجه. وقد تناقله المفسرون ولم يخرِّجوه. ينظر مثلا: الثعلبي النيسابوري: الكشف والبيان، ج 6، ص 303.

(2) تَقَدَّمَ تخريجه، انظر: ج 6، ص 368.

(3) رواه **الترمذي** في كتاب الزهد، باب عمل السر، رقم: 2384. من حديث أبي هريرة.

الفهـارس

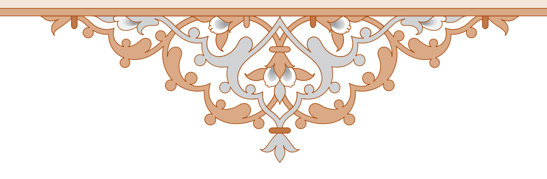
1 ـ الفهرس التفصيلي للمسائل الأصولية

2 ـ الفهرس التفصيلي للمســائل الفقهيَّة

3 ـ فهرس لبعــض مختــارات الشــيخ

4 ـ فهارس عامَّــة للموضوعات الفرعية

5 ـ فهرس الآيات والعناوين الرئيســية





الفهرس التفصيلي للمسائل الأصولية

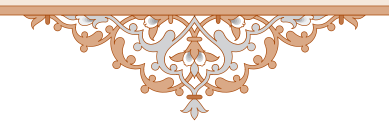
الفهرس التفصيلي للمسائل الفقهية

فهرس لبعض مختارات الشيخ

فهارس عامة للموضوعات الفرعية

فهرس الآيات والعناوين الرئيسية

التعريف بالمفسِّر(*)



- في سنة 1237هـ/1818م بمدينة غرداية العريقة شمال صحراء الجزائر، وُلد الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش.

- في سنة 1243هـ/1827م حفظ القرآن الكريم في بني يسجن ـ بلده الأصلي ـ، واشتغل بحفظ المتون الدينية واللغوية على يد شقيقه الأكبر إبراهيم اطفيش، وعلى غيره من مشايخ المنطقة، ونبغ في فروع الثقافة الإسلامية نبوغًا كبيرًا.

- في سنة 1253هـ/1837م جلس للتدريس والتعليم في داره ببني يسجن، ثمَّ في مدينة بنورة لفترة من الزمن، ثمَّ عاد إلى بني يسجن وواصل نشاطه الدؤوب في معهده، وتولَّى مهمَّة الوعظ والإرشاد والفتوى في المسجد.

- منذ سنة 1300هـ/1882م قاوم الاستعمار الفرنسي عند دخوله إلى وادي ميزاب، وتولَّى إحباط خططه وتصرفاته، وله زيارات ميدانية للدعوة والإرشاد والتعليم إلى جميع قرى وادي ميزاب.

(*) انظر تفاصيل ترجمته في مقدِّمة الجزء الأوَّل من هذا التفسير.



- في سنة 1304هـ/1886م زار البقاع المقدَّســة للمرَّة الثانية، وفي طريقه زار جامع الزيتونة بتونس، وجامع الأزهر بالقاهرة، واســتمع لعلمائها، وألقى دروسًا في الحرم المدني، تشريفًا وتقديرًا له من علمائه.

- له مراسلات هامَّة إلى علماء عصره جاب بها الشــرق والغرب، وترك في كلِّ فنٍّ تأليفًا أو أكثر يشهد له بالتفوق والإتقان.

- تخرَّج من معهده عــدد كبير من الدعــاة والقضاة والعلمــاء، وإليه يرجع الفضل الكبير في بثِّ الوعي الديني، ونشــر الروح العلمية في هذه الربوع وفي غيرها بأبحاثه وتآليفه القيِّمة، وبتفانيه في التدريس والتعليم.

- في سنة 1332هـ/1914م اختاره الله إلى جواره في مركز نشاطه ببني يسجن، رحمه الله وأرضاه وجعل الجنَّة مثواه.